اليكس هالي

ملكوم إكس

سيرة ذاتية



Malcolm X

بيسان

يلى أبو زيد

ملكوم إكس
سيرة ذاتية
Malcolm X

اليكس هالي

ملكوم إكس

سيرة ذاتية

Malcolm X

ترجمة: ليلى أبو زيد

بيسان

* **مالكوم إكس** (سيرة ذاتية).
* تأليف: **أليكس هالي.**
* ترجمة: **ليلى أبو زيد.**
* الطبعة الأولى 1996.

* الناشر: **بيسان للنشر والتوزيع والإعلام.**
□ ص.ب 5261-13 بيروت ـ لبنان
□ هاتف: 351269.

مقدمة

عرفت ملكوم إكس من خلال اسمه المرتبط بالنضال الأسود في أمريكا والذي طبّق الآفاق في الستينات. وعندما كنت أكتب كتابي عن أمريكا (أزهار الدفلى) الصادر في ١٩٨٣ شد انتباهي إلى ملكوم إكس وأنا أجمع مادة الفصل المتعلق بالسود، ما قاله لمارتن لوثر كينغ متزعم حركة الحقوق المدنية المعروف بمناداته باللاعنف. قال له: «لقد فعلت ما لم يفعله أحد. أنهيت الفصل بين السود والبيض في المراحض والحافلات، ولكن ذلك لم يكلف هذه البلاد شيئاً. أما إنهاء فصل الزنوج الإقتصادي فهو يكلف مئات الملايين من الدولارات، وأنا لا أرى كيف ستحققه بمجرد استنهاض الهمم.» ثم علمت بوجود كتاب يتضمن سيرته الذاتية، كان شباب الأحياء الزنجية قد أقبل على قراءته فقلت: «لعلني أترجمه يوماً.»

والتحقت بجامعة تكساس في ١٩٨٨ وتسجلت من بين ما تسجلت فيه من دروس أدبية، في درس حول الكاتبات الآفرو ـ أمريكيات ـ فبين لي مكانة كتاب ملكوم إكس هذا في الكتابة الأفرو ـ أمريكية التي أصبح يعد من كلاسيكياتها، وأدهشني أنه لم يكن هناك من ناقد أو دارس يكتب عنها ولا يستشهد به.

وبحثت عنه فعثرت على نسخة منه في المكتبة المركزية لجامعة تكساس، وبدأت بقراءة الفصل السابع عشر الذي يتكلم فيه عن زيارته لمكة وأدائه لفريضة الحج. وبقيت في تلك المكتبة أقرأ ذلك الفصل والذي يليه، دون أن أشعر بالوقت أو بأي شيء حولي. واستعرت الكتاب ورجعت به إلى البيت وتركت ما كان ما بين يدي من مقررات ثلاثة دروس مشحونة، وانكببت من توي على قراءته. وعندما انتهيت من ذلك، كنت قد عقدت العزم على أن أترجمه بعون الله تعالى إلى العربية على الرغم من معرفتي بمتاعب الترجمة ورغماً من أنني غير شغوفة بها.

ولم تكن قراءتي لذلك الكتاب الضخم في ذلك الوقت الحاسم الذي كنت فيه، في حاجة إلى استعمال كل دقيقة لقراءة المقررات مضيعة للوقت، بل إنه ساعدني بشكل فعّال على فهم درس الكاتبات الآفرو ـ أمريكيات الذي كان قد بدأ يُلقَّن في بعض الجامعات الأمريكية في نطاق إقرار الدراسات السوداء والذي كانت المحاضرة السوداء فيه، ما تزال في طور البحث واستخلاص الخصوصيات والملامح والأحكام. وهكذا مكنتني قراءتي للسيرة الذاتية لملكوم إكس من إستشفاف ذلك فأدركت التراث والعقلية الزنجية وشعرت بمدى عمق الجرح العنصري في النفس الزنجية الأمريكية أكثر مما فعلت وأنا أقرأ الروايات النسوية الآفرو ـ أمريكية والدراسات المكتوبة عنها مؤخراً هنا وهناك.

وما إن انتهت الدورة الدراسية، حتى رجعت إلى سيرة ملكوم إكس وشرعت أترجمها وأطبع ما أترجمه يوماً بيوم، واستغرق ذلك سنة من العمل المتواتر، أربعة أشهر منها في أوستين والباقي في الرباط. وكان الأمريكيون حتى البيض منهم يقولون لي: «إنه الكتاب الذي شعرت بالإنبهار وأنا أقرأه»، «قرأته!»، «كتاب مذهل!».

كانت الصعوبة الأساسية التي صادفتها أنه محكي، رواه صاحبه لكاتب زنجي أمريكي معروف هو أليكس هاليي صاحب قصة جذور فجاء بعامية أمريكية زنجية، واتسم بالتكرار والإسهاب اللذين يطبعان التعبير الشفوي عادة. ولأنه محكي، نجد الراوي يخاطب الكاتب لا القارىء كما يفعل المُستجوَب مع المُستجوِب في الإذاعة.

وهكذا أوقفتني اللغة والإسهاب، ودفع بي العنصر الثاني إلى تحاشي كل تكرار لا يؤدي في العربية المهمةَ التي يؤديها في اللغة الأصلية الأمر الذي جعل الترجمة تأتي في صفحات أقل. ولا يعني ذلك عيباً في قلم أليكس هاليي، الكاتب المحترف والمقتدر، ولكنه يعني أنه اختار أن يحتفظ بالطابع الشفوي للنص فأبقى على كلام ملكوم إكس بإسهابه وعاميته وكليشيهاته المحمّلة بالإيحاءات التراثية، سيما وأن ذلك بالذات هو ما يكسب الكتابة الزنجية تلك الخصوصية التي يُبحث عنها في إطار «الثقافة» بمفهومها الأمريكي الذي يعني التراث أو الحضارة.

وإذا كنت قد تصرفت في اللغة المحكية، إلا أنني أبقيت المصطلحات المسيحية المستعملة للدلالة على مفاهيم إسلامية لأظهر عمق الإغتراب الذي كان المسلمون الأمريكيون السود يعانونه حيال الإسلام الذي اكتشفوه من ذات أنفسهم ومارسوه في

وسط مغلق دون معرفة بلغته أو توافر المادة الكافية عنه في لغتهم. وهكذا استعملتُ على سبيل المثال «رجل دين» عوض «إمام» و«معبد» عوض «مسجد». كما أنني أبقيت، للغرض نفسه، والتزاماً بأمانة الترجمة، المفاهيم الخاطئة والمزاعم المنسوبة إلى الإسلام كحكاية يعقوب حول خلق الجنس الأبيض ورمي نبيي الله لوط وداوود بالزنى، والنبي نوح بالسكر، وزعم أن ذلك وارد في القرآن، وكتحريم التدخين والرياضة وتلقيب الإيجا محمد بـ«رسول الله» وزعم أنه موفد من الله إلى الأمريكيين السود. . . إلخ.

وكانت ثاني صعوبة صادفتها، هي حتمية ترجمة المقاطع الإباحية. وقد عمدت إلى تقديمها في الإطار المراد منها وهو أنها لم ترد مجاناً أو للإثارة، وإنما لأداء مهمة أساسية وهي إظهار التحول الذي طرأ على زنجي أمريكي هو ملكوم إكس بعد إسلامه، وتوضيح مدى العمق الذي امتدت إليه فيه يد الإسلام، كما يقول، لتنتشله وتنظفه وترفعه إلى الكرامة الإنسانية.

وقد تبين لي أن ترجمة هذا الكتاب ستلقي لنا الضوء على حركة المسلمين السود في أمريكا الذين استمدوا من الإسلام القوة للمطالبة بحقوق إنسانية سُلِبوها منذ أربعة قرون، ولكن جهلهم بالإسلام وكونه كان بالنسبة لهم وسيلة لا غاية، حادَ بهم عنه ودمرهم فأساؤوا له ولأنفسهم. وهذا ينطبق على ما يحدث اليوم في العالم الإسلامي من استعمال للإسلام لغايات سياسية وما ينتج عن ذلك، بقصد أو بغير قصد، من تجرؤ عليه وتأويلٍ له دعماً لمواقف وتبريراً لأعمال، وما ينتج عن ذلك من بلبلة حول الإسلام في أذهان سواد المسلمين.

الفصل الأول

الكابوس

قالت لي أمي، ذات ليلة وهي حامل بي: جاءت إلى بيتنا في أوماها، نبراسكا، على ظهور الخيل، جماعة الكوكلوكس كلان بقلنسواتها وطوقت البيت وهي تهدد ببنادقها وتأمر أبي بالخروج. وقالت إنها فتحت الباب ووقفت بحيث يروا بطنها ثم قالت لهم إنها وحدها في البيت مع أطفال صغار وإن أبي قد ذهب إلى ملووكي ليلقي وعظه. وقالت إنهم حذروها من مغبة ما ينتظرنا إن نحن لم نغادر البلدة لأن «البيض الطيبين» قد نفد صبرهم على الفتنة التي يزرعها أبي بترويجه أفكار ماركوس كارفي بين زنوج أوماها.

كان أبي، القس أورلي ليتل من أتباع ماركوس كارفي الذي أنشأ في هارليم بنيويورك الجمعية العامة لتحسين ظروف الزنوج، وشرع ينادي في إطارها بصفاء الجنس الأسود وضرورة عودته إلى أرض أجداده إفريقيا، الأمر الذي تسبب له في متاعب كثيرة.

ودار أعضاء الكوكلوكس كلان بالبيت وهم يهددون ويكسرون زجاج النوافذ بأعقاب بنادقهم، ثم لكزوا خيلهم وانطلقوا فغابوا في ظلمة الليل بالسرعة نفسها التي ظهروا بها.

وعندما رجع أبي غضب غضباً شديداً وقرر، مع أنه لم يكن رعديداً كأغلب زنوج هذا الزمان، أن نرحل بمجرد ما تضع أمي حملها الوشيك.

كان أبي رجلاً طويلاً عريضاً، شديد السواد، فقدَ إحدى عينيه في ظروف لا أعرفها. وكان من بلدة راينولدس، جورجيا حيث التحق بالمدرسة الإبتدائية وتركها قبل الأوان. وكان مقتنعاً، على غرار كارفي، بأن الحرية والاستقلال والكرامة، مبادىء يستحيل على الزنوج في أمريكا أن يحققوها، وأن عليهم من ثمة أن يعودوا إلى أفريقيا ويتركوا أمريكا للبيض.

خاطر بحياته واتبع كارفي لأنه كان قد رأى البيض يقتلون ثلاثة من إخوته الستة ويعدمون واحداً من دون محاكمة. ومن غريب المفارقات، أن واحداً فقط من مجموع الإخوة مات على فراش المرض، إذ أن عمي أوسكار هو الآخر قتل برصاص البوليس في الشمال، واغتيل أبي على يد البيض.

ولقد كان عندي دائماً شعور غريب بأنني أنا أيضاً سأموت مقتولاً فاستعددت لذلك ما وسعني الإستعداد.

كنت سابع أبناء أبي، إذ كان له من امرأة أخرى ولد وبنتان يعيشون في بوسطن، وهم أورلي وإيلا وماري. تزوج أمي في فيلادلفيا حيث ولد أخي الأكبر ويلفريد، ثم انتقلا إلى أوماها حيث وضعتني أمي بعد هيلدا وفيلبرت، وهي لا تتعدى الثامنة والعشرين من عمرها، في مستشفى أوماها في اليوم التاسع عشر من شهر مايو عام ١٩٢٥. ورحلنا إلى ملووكي حيث ولد ريجينالد الذي أصيب في طفولته بمرض في الأمعاء لازمه طوال حياته.

أمي من جزر الهند الغربية، ولذلك لم تكن لها لهجة الزنوج. كانت سمراء ذات شعر سبط بسبب أبيها الأبيض الذي خلف لها العار وخلف لي، دون باقي إخوتي، لوني الفاتح وشعري الأحمر وهما الوصمتان اللتان حسبتهما، لجهلي، من أيام كنت فيها واحداً من معتوهي زنوج بوسطن ونيويورك. على أنني الآن لا أحمل إلا الحقد لكل قطرة تجري في عروقي من دم ذلك المغتصب الأبيض.

ولم يطل بنا المقام في ملووكي، إذ ما لبث أبي أن وجد المكان المناسب لزرع أرضه وإنشاء تجارته طبقاً لتعاليم ماركوس كارفي الداعية إلى الإستقلال عن الرجل الأبيض. وهكذا ذهبنا إلى لانسينغ، ميشيغان حيث اشترى أبي بيتاً وبدأ يؤجر وعظه للكنائس المعمدانية أيام الأحد ويسرح في الضواحي بقية أيام الأسبوع ناشراً أفكار كارفي. وكان قد بدأ يدخر بعض المال لمشروعه التجاري عندما وشى به بعض أنذال الزنوج من فصيلة العم طوم، فشرعت جمعية عنصرية محلية تسمي نفسها اللفيف الأسود وترتدي اللباس الأسود، تهدده وترسل له من يتحرش به ويشتمه، وتبرر ذلك بتفكيره في إنشاء تجارته وعدم سكناه في الحي الأسود وزرعه للفتنة في صفوف الزنوج «الطيبين».

ومرة أخرى كانت أمي حاملاً بأختي الصغرى إيفون التي ما إن ولدت حتى بدأ الكابوس. حدث ذلك في ليلة كالحة من ليالي ١٩٢٩ ما زلت أذكرها. صحوت مفزوعاً على صوت طلقات نارية وضجيج لأجد بيتنا يحترق وإخوتي يتدافعون ويختنقون. وسقط البيت مباشرة بعدما خرجت أمي وهي تحمل الطفلة فتطاير الشرر وبقينا في العراء في ملابسنا الداخلية نبكي ونصيح. وجاء رجال الشرطة والمطافىء ووقفوا ينظرون إلى أن احترق البيت ولم يبق منه شيء.

وأعطانا بعض الأصدقاء ما نلبسه وآوونا مؤقتاً، ثم رحل بنا أبي إلى بيت آخر في مشارف شرق لانسينغ. وكان ممنوعاً حينذاك على الزنوج منعاً كلياً دخول شرق لانسينغ بعد غروب الشمس، أي المكان الذي تقع عليه الآن جامعة ميشيغان الرسمية. لقد حكيت هذا كله لطلاب هذه الجامعة عندما زرتها في ١٩٦٣ ورأيت أخي روبيرت بعد فراق طويل، والذي كان يتابع هناك دراسته العليا في علم النفس. قلت لهم إن شرق لانسينغ قد آذتنا إلى الحد الذي اضطررنا معه إلى الإبتعاد عن المدينة.

لجأنا إلى قاع صفصف بنى لنا فيه أبي بيديه بيتاً من أربع غرف. وفي ذلك البيت بدأت أكبر وأميز الأشياء من حولي.

كان أبي هو الذي أطلق العيارات النارية التي أيقظتني ليلة الحريق. وأذكر أن الشرطة بدأت تستدعيه وتحقق معه في ذلك وتأتي إلى البيت لتفتش عن السلاح فتقلّب كل ما فيه. وكان المسدس، الذي تبحث عنه ولا تجده وترفض تسليمنا إذناً بحمله، يوجد في مخدة، بينما البندقيتان في حوزة من كانوا يستعيرونهما لقنص الطيور والأرانب وما إلى ذلك.

وأذكر أن العلاقة بين أبي وأمي ساءت في هذه الأثناء وأنه بدأ يضربها. كانت متعلمة وكان شبه أمي فكانت تميل إلى تقويمه بكلامها الناعم الذي كان يغيظه ويفقده السيطرة على نفسه. وكان ذلك شأنه معنا نحن الأطفال فيما عداي، يزجر الصغار ويضرب الكبار بعنف عندما يخلّون بقوانينه التي لا تعد ولا تحصى. أما أمي فكانت على العكس لا تتوانى عن تأديبي كلما سنحت لها الفرصة. وأعتقد أن أبي كان يفضلني لأنني كنت أميلَ إخوتي إلى البياض، إذ كانت عقدة البياض مترسخة، لا شعورياً، في أعماق نفسه الزنجية على الرغم من أنه ثائر على البيض. وكان تفضيل الأولاد الأقل

سواداً شائعاً بين الزنوج، يعود أصلاً إلى أيام العبودية وما كانت تتمتع به السلالة المختلطة من امتيازات.

كان أبي واعظاً متجولاً، أذكر ذلك جيداً، كما أذكر خطبته التي كان يشير فيها إلى «ذلك القطار الأسود الآتي» و«تصفية الأمور استعداداً للرحيل» وهما ولا شك فكرتان تدخلان في نطاق حركة العودة وتتفقان مع «قطار» ماركوس كارفي «الأسود المتجه إلى أرض الوطن».

وكانت الكنيسة تأخذ بمجامع قلب أخي فيلبرت ولا تثير لدي سوى الدهشة والحيرة. كنت أنظر إلى أبي وهو يهتز ويصدح وإلى المصلين الذين يفعلون فعله وهم غائبون في ملكوت الصلاة والغناء. وما كنت، حتى وأنا في تلك السن المبكرة لأقتنع بألوهية المسيح أو أنظر بجدية إلى القسيسين، ولا كان بقدرة أحد أن يشدني إلى الدين، حتى تعديت العشرين ودخلت السجن.

كان زنوج لانسينغ في حالة مزرية وما زالوا، نوعاً ما. ذلك أنني لا أعرف مدينة أمريكية تضم قدر ما تضمه لانسينغ مما يدعى بـ«الطبقة الزنجية المتوسطة» أو بعبارة أخرى المستسلمة والضالة واللاهثة وراء الإندماج. لقد كنت في الأيام الأخيرة أكلم زوجين إفريقيين في مبنى الأمم المتحدة، عندما اقترب مني زنجي أمريكي وقال: «ألا تذكرني؟» فشعرت بالحرج لأنني حسبت أنه شخص يجب أن أذكره، ثم اكتشفت أنه أحد وصوليي زنوج لانسينغ الذين لم يكونوا ليُرَوْا على مقربة من إفريقي حتى أصبحت معرفة الأفارقة عندهم تميزاً طبقياً.

كان الزنجي الناجح في لانسينغ هو النادل أو ماسح الأحذية أو بواب المتاجر. وكانت النخبة هي نادلو نادي لانسينغ القروي وماسحو الأحذية في مبنى الولاية. وكان من لهم أي مال يذكر هم أولئك الذين كانوا يديرون دور القمار أو يستغلون فقراء الزنوج. ولم يشرع مصنعا ريو وأولدزموبيل في تشغيل بعض الزنوج حتى بدأت الحرب. وكانت الأغلبية العظمى إما تعيش من المساعدة الإجتماعية أو تموت جوعاً. وقد جاء اليوم الذي أصبحنا فيه من النوع الثاني مع أننا كنا نزرع أكثر طعامنا في تلك البرية التي كنا نسكن فيها، على عكس زنوج المدينة الذين كنت أراهم في وعوظ أبي يتصايحون طمعاً في حياة أفضل في الدار الأخرى بينما البيض يتمتعون بها هنا، في هذه الدار.

كنا نعيش مما يجمعه أبي من المصلين في الكنائس ومما كان يقوم به من أعمال أخرى. وكنت، على الرغم من صغر سني، فخوراً بنشاطه السياسي الذي كان يجعله مهماً في عيني أهميةً كرسها ما كنت أسمعه من أقوال الناس، مثل تلك المرأة التي قالت له مرة وهي تضحك: «إن كلامك يزرع الرعب في قلوبهم».

ومما يجعلني أعتقد أن أبي كان يفضلني أنه كان يأخذني معه إلى اجتماعات جمعية التقدم الزنجي التي كانت تعقد في البيوت ويحضرها حوالي عشرين شخصاً تكتظ بهم غرف الإستقبال ويبدون لي في منتهى الرصانة والذكاء والواقعية حتى يغمرني الشعور أنا أيضاً بذلك، وكأنهم ليسوا هم الذين رأيتهم يهتزون في اهتياج في الكنيسة.

ومما كان يقال في تلك الإجتماعات: «طرد آدم من الجنة فهبط إلى كهوف أوروبا»، «إفريقيا للأفارقة»،. «إنهضوا يا أحباش»، «ساعة التحرر الإفريقي آتية. لا نعرف متى ولكنها آتية. وفي يوم من الأيام كالعاصفة ستكون بيننا». وكان أبي يقول إن إفريقيا سيحكمها الأفارقة الذين كان يسميهم «الرجال السود». وكانت صور كارفي الكبيرة، اللامعة، التي يحملها أبي إلى هذه الإجتماعات في ظرف سميك، تنتقل من يد إلى يد وتظهر كارفي في استعراض على متن سيارته الجميلة ومن ورائه ما يخيل لك أنه ملايين الزنوج. كان يبدو في هذه الصور ضخماً، شديد السواد، يلبس بدلة رسمية رائعة تزينها شرائط مذهبة، وقبعة مثبتة فيها ريشات طويلة. وكان يقال إن له أتباعاً في كل أنحاء الدنيا وليس في الولايات المتحدة وحسب. وكان أبي يختم الإجتماع بنشيد يردده معه الجميع، يقول فيه: «إلى الأمام يا أيها الجنس الجبار. بوسعك أن تحقق المعجزات».

والغريب أنني على الرغم من كل ما سمعته في هذه الإجتماعات، لم أكن أتصور إفريقيا إلا أدغالاً تفور، يسكنها أكلة لحوم البشر والقردة والنمر.

وكنا نذهب ليلاً أنا وأبي في سيارته العتيقة إلى هذه الإجتماعات. مرة واحدة عقد الإجتماع في النهار وكان ذلك في أووسو التي يمنع فيها على الزنوج كما في لانسينغ الخروج بعد غروب الشمس، والتي كانت تفخر بانتماء توماس دووي إليها وتعرف في أوساط الزنوج بـ «المدينة البيضاء».

والواقع أن حظر الخروج ليلاً على الزنوج كان معمولاً به في العديد من مدن

ميشيغان، والتي لم يكن فيها مع ذلك، إلا عدد قليل منهم، كما هو الشأن بالنسبة لمايسون التي كانت فيها أسرة زنجية واحدة هي أسرة لاينز، ربها بطل سابق في فرقة المدرسة الثانوية للكرة المستطيلة الأمر الذي جعل بيوت المدينة تفتح له أبوابها ليشتغل فيها.

كانت أمي تعمل من دون توقف. تطبخ وتغسل وتكوي وتنظف وتنهرنا نحن الأطفال الثمانية. وكانت هي وأبي إما في عراك وإما في عداوة. وكان ذلك يرجع في الغالب إلى لحم الخنزير والأرنب الذي كان يحبه بوصفه زنجياً جورجياً أصيلاً والذي كانت ترفض طبخه لأنه يدخل في زمرة ما نسميه الآن في هارليم بالطعام الروحي.

قلت سابقاً إن أمي كانت تضربني، والحقيقة أنني لم أكن أسهّل عليها ذلك. كانت كلما رفعت يدها رفعت صوتي بالصراخ حتى يظن من يكون ماراً في الطريق أنها تقتلني، فإذا كان هناك فعلاً من يمر أحجمت واكتفت بضربات خفيفة. ولقد ساءلت نفسي عن سبب قسوة أمي عليَّ وتوصلت إلى أن لوني الذي كان ينزلني عند أبي منزلة خاصة هوالسبب، ذلك أنها كانت تفضل عليَّ إخوتي السود ولا سيما ويلفريد وتقول لي:

«أخرج إلى الشمس ودعها تمسح عنك هذا الشحوب». كانت قد آلت على نفسها ألا تدعني أصاب بمركب البياض. وأنا الآن على يقين أن ذلك راجع إلى الظروف التي جعلتها هي نفسها تميل إلى البياض.

لقد تعلمت باكراً أن الحق لا يعطى لمن يسكت عنه وأن على المرء أن يحدث بعض الضجيج إن أراد أن يحصل على شيء. كان إخوتي الكبار يسكتون إذا رجعوا من لمدرسة وطلبوا من أمي خبزاً وزبدة أو أي شيء ولم تعطه لهم، أما أنا فكنت أصرخ وأجعل عاليها سافلها حتى تعطيني ما أريد. وأذكر أنها سألتني ذات يوم لمَ لا أكون مثل ويلفريد؟ ولكنني قلت في نفسي إن ويلفريد لكثرة ما يسكت يموت من الجوع معظم الوقت.

لم يكن لنا حديقة كبيرة وحسب، ولكننا كنا نربي الدجاج أيضاً. كان أبي يشتري كتاكيت تقوم أمي بتربيتها، كنا كلنا نحب الدجاج ولم يكن لحمه يسبب أية مشاكل بين الوالدين. وأذكر أنني كنت ممتناً لأمي بأنها أعطتني قطعة أرض صغيرة أحببتها واعتنيت

بها وزرعتها فاصولياء بالخصوص، كنت أشعر بالإعتزاز وأنا أراها على مائدتنا. كنت أنتزع النباتات الطفيلية بيدي بمجرد ما تظهر وأفتش وأنا أحبو عن الحشرات فإن وجدتها قتلتها ودفنتها. وعندما يكون كل شيء جاهزاً ولا يبقى إلا الزرع، كنت أستلقي على ظهري في أحواض الأرض الممهدة وأمضي أنظر إلى السحاب المتحرك في السماء الزرقاء وأفكر في أشياء كثيرة.

وعندما بلغت الخامسة من عمري، بدأت أنا الآخر أذهب إلى المدرسة مع كل من ويلفريد وهيلدا وفيلبرت. كانت مدرسة من الروض حتى السنة الثالثة من الثانوي وكانت تبعد عن المدينة بثمانية أميال. ولم نجد صعوبة في الإلتحاق بها لأننا كنا الزنوج الوحيدين في المنطقة وكان الشمال يقبل الزنوج إذا كانوا قليلي العدد. ولم يصدر من الأطفال البيض ما يستحق الذكر اللهم إلا استبدالهم أسماءنا بـ«الزنجي» و«الأسود» و«الصدء» حتى حسبنا أنها أسماؤنا الحقيقية، على أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك بسوء نية.

وذات يوم رجعنا من المدرسة فوجدنا أبوينا يتعاركان. كان توترهما قد بلغ أشده بسبب تهديدات اللفيف الأسود. وكان أبي قد جاء بأحد الأرانب التي كنا نربيها لنبيعها للبيض، ولوى عنقه ورمى به مضرجاً عند قدمي أمي التي كانت تبكي. بليّة واحدة من يديه السوداوين، الضخمتين أجهز على الأرنب. كان من القوة بحيث لم يحتج لاستعمال السكين. وبدأت أمي تسلخ الأرنب استعداداً لطبخه بينما خرج أبي غاضباً فصفق الباب واتجه نحو طريق البلدة. عند ذلك تجلت لأمي إحدى رؤاها فهرولت في أثره وهي تحمل في يدها الفوطة التي تلبسها في المطبخ وتصيح: «أورلي!، أورلي!».

كان قد أصبح في أعلى الطريق فالتفت ولوّح ولم يتوقف. فيما بعد، قالت لي أمي إنها رأت موته. كانت ترى الغيب وشابهها أولادها. أنا أيضاً كذلك. لا أعرف حدثا وقع لي وأخذني على حين غرة إلا حدثاً واحداً، عندما اكتشفت، بعد ذلك بسنوات، زيف رجل كنت أحسبه ولياً من أولياء الله الصالحين.

وانتهت أمي من طبخ الأرنب ووضعته في الفرن لئلا يبرد. كانت طيلة بقية النهار حزينة وباكية. ولم يعد أبي في الليل فحضنتنا على غير عادتها وتسرب إلينا من ذلك شعور بالخوف. وأذكر أنني استيقظت على صراخها لأجد الشرطة في غرفة الجلوس تحاول تهدئتها، وأجدها هي ترتدي ثيابها على عجل وتذهب معهم.

أخذت الشرطة أمي إلى المستشفى وطلبت منها التعرف إلى جثة أبي ولكنها أجفلت وأبت أن تنظر إليها، وخيراً فعلت. ذلك أن رأس أبي كان مهشماً في نهة ما كان زنوج لانسينغ يتهامسون بذلك وبأن اللفيف الأسود، وهو أبيض بالطبع، و الذي قتله وأنه ضرب ثم وضع في طريق حافلة كهربائية دهمته، وأنه لم يسلم الروح إلا بعد ساعتين ونصف الساعة.

كان زنوج الأمس ولا سيما منهم زنوج جورجيا أقوى منهم اليوم، لم يكن أمامهم إلا ذلك لمصارعة الموت. وسمعنا نحن الأطفال خبر موت أبينا في صباح كنت في السادسة من عمري ورأيت بيتنا يختنق بالزوار واللغط والنحيب وأمي تصاب بالصرع، مرة في البيت والنسوة يحطن بفراشها ويضعن على مناخيرها أملاح، ومرة إبان الجنازة.

والغريب أن كل ما علق بذهني من الجنازة أنها تمت في محل حانوتي و ليس في الكنيسة. أدهشني أن أبي، رجل الدين الذي كان يشرف في الكنائس على جنائز غيره تجري مراسيم جنازته هو في محل حانوتي.

وأذكر أن ذبابة كبيرة سوداء حطت على وجه أبي وأن ويلفريد قفز من مكانه ليطردها ثم عاد وهو يتلمس طريقه ودموعه تنهمر على خديه. وعندما اقتربنا من التابوت بدا لي وجه أبي القوي وكأنهم قد نثروا عليه الطحين وتمنيت لو أنهم لم ينثروا منه كل ذلك القدر.

وظل بيتنا لأكثر من أسبوع لا يفرغ من الزوار. جاء آل لاينز من مايسون الواقعة على بعد إثني عشر ميلاً وآل وولكر وماك غاير وراندولف وتورنر وجاء آخرون ممن كنت أراهم في اجتماعات أبي من لانسينغ ومدن أخرى.

وتعودنا نحن الأطفال على الحدث بسرعة بعكس أمنا إذ كنا غير قادرين على رؤية ما ينتظرنا من أهوال. وما إن فترت حركة المعزين حتى بدأت أمي تتردد على شركتي التأمين اللتين كان أبي يفتخر بانتمائه إليهما ويقول: «إن على المرء أن يؤمن أولاده من مداهمة الموت لا قدر الله».

ودفع لنا المكتب الأصغر بسهولة مبلغ خمس مائة أو ألف دولار، لا أذكر، صرفت منها أمي على تكاليف الجنازة وبدأت تتردد على المكتب الثاني وتعود حانقة.

ماطلَ أول الأمر ثم امتنع عن الدفع نهائياً زاعماً أن أبي انتحر. ومرة أخرى بدأ بيتنا يمتلىء بالزوار الذين كانوا يقولون مستنكرين: «يا لهؤلاء البيض! كأن الرجل كان بإمكانه أن يهشم رأسه ثم يذهب إلى السكة ويتمدد فيها لتدهمه الحافلة!».

وهكذا أصبحنا ثمانية أطفال وأرملة في الرابعة والثلاثين من عمرها، من دون سند، ولكننا واصلنا الحياة بحكم العادة حتى نفد مبلغ مكتب التأمين الأول، فترك ويلفريد المدرسة وبدأ يعمل أي عمل يجده. كان أكبر من سنه، فرأى ما لم يكن بإمكاننا أن نراه. وكان يعود في المساء خائر القوى فيعطي أمي كل ما كسبه ذلك اليوم. وكانت هيلدا هي الأخرى تساعد أمي في العناية بالأطفال الصغار، أما أنا وفيلبرت فلم نكن نساعد بشيء وإنما كنا نتعارك كل الوقت ونتعاون على معاركة أولاد البيض خارج البيت لأسباب عنصرية أو لأيما سبب.

كنت قد أخذت ريجينالد تحت جناحي بعدما كان قد خرج من طور الطفولة، وأصبحت على ما يبدو أنظر إليه نظرة الأخ الأكبر لأخيه الأصغر. وبدأت أمي تشتري بالقرض كل ما نحتاجه. والقرض، كما كان يقول أبي هو «الخطوة الأولى نحو الدَّين، فالعودة إلى العبودية». ثم بدأت تعمل في بيوت الناس أو تخيط للبيض. وسهل عليها ذلك أن سوادها لم يكن بادياً للعيان، إذ لم يكن كل البيض يقبلون تشغيل السود فكانت تبقى في بيت من البيوت حتى يكتشف أمرها وتُطرد فتعود وهي تحاول إخفاء دموعها عنا. لا أذكر من منا ذهب إليها في عملها ذات مرة لسبب طارىء، ففضحت وطردت ورجعت تبكي ولا تحاول إخفاء دموعها.

وبدأنا نعود من المدرسة فنجد موظفي المساعدة الإجتماعية يطرحون على أمنا آلاف الأسئلة. وكنت أشعر من تصرفاتهم معها ومن نظرتهم إليها وإلينا وإلى البيت أنهم لا ينظرون إلينا نظرتهم إلى بشر. وبدأت أمي تتوصل بحوالتين، واحدة عن العوز وواحدة عن الترمل، ولكن ما لبثت إحداهما أن توقفت وبقيت الأخرى لا تكفي لتسديد قروض البقالة.

وبدأت أحوالنا تتردى بسرعة، مادياً ومعنوياً. كانت أمي امرأة مكابرة، فحطمها أن تعيش على الصدقة وانتقلت مشاعرها إلينا بالعدوى. بعد ذلك عيل صبرها وأصبحت تنفجر في البقال بحدة وتتهمه بتضخيم الفاتورة وتفعل الشيء نفسه مع موظفي المساعدة الإجتماعية وتقول لهم بصراحة إنها راشدة وقادرة على تربية أولادها،

وإنه لا داعي لأن يحشروا أنفسهم في حياتنا بهذا الشكل. كانوا يتصرفون كما لـ كانوا يملكوننا، ولم يكن هناك من سبيل لمنعهم وقد اكتسبوا الحق من الحوالة الشهريـ .

وعندما بدأوا يختلون بنا في المدخل أو في أي مكان ويسألوننا بعض الأ ـلة أو يحرضوننا على أمنا وعلى بعضنا البعض، كنا نفهم أن تثور أمنا، ولكننا لم نفهـ بالمرة لماذا كانت تتضايق مما تقدمه لنا الولاية من صناديق اللحم وأكياس البطاطس و فواكه وكل أنواع المعلبات. لم نفهم أنها كانت تحاول محاولة يائسة أن تحافظ على ـرامتها وكرامتنا والتي كانت كل ما تبقى لنا.

وفي سنة ١٩٣٤ بدأنا نعرف معنى الفقر الحقيقي. كانت أسوأ سنوات الأزمة الإقتصادية، فعم العوز كل من كنا نعرفهم، ولكنهم كانوا مع ذلك يحملون إليـ بعض الطعام الذي كانت أمي تقبله مع أنه صدقة خاصة، وأن عملها وعمل ويلفريد لـ يكونا كافيين. وكانت مخبزة بلانسينغ تبيع بخمسة وعشرين سنتاً الكيس الكبير مـ الخبز والحلوى القديمين، فكان اثنان منا يذهبان لشرائه ويعودان به على الأقدام مسا ميلين إلى بيتنا الواقع خارج المدينة. وكانت أمي تتفنن في صنع أعداد من الطبخا ، منه: شيئاً يشبه الخبز الفرنسي مقلياً بالبيض (إذا كان هناك بيض)، حلوى الخبز الزبيب أحياناً، اللحم المفري بالخبز إذا حدث وعثرنا على اللحم، مع أنه كان يـ ـل إلى المائدة خبزاً أكثر منه لحماً. أما الحلوى فقد كنا نلتقمها من الكيس مباشرة.

وعندما كنا لا نجد الخمسة وعشرين سنتاً كنا نجوع حتى نشعر بالدوار. حينذاك كانت أمي تطبخ لنا قدراً من الهندباء الفجة فنأكله. وأذكر أن واحداً من ذوي العقول الصغيرة اكتشف ذلك وأذاعه وأن الأطفال بدأوا يستهزئون منا ويقولون إ ا نأكل «الحشيش المقلي». كنا، عندما يحالفنا الحظ نأكل عصيدة القمح والذرة ثلا ، مرات في اليوم أو العصيدة في الصباح وخبز الذرة في المساء.

وكبرنا أنا وفيلبرت على العراك فبدأنا نأخذ بندقية أبي ونأخذ ريجينالد الصغير معنا أحياناً ونذهب لقنص الأرانب التي كنا نبيعها لأشخاص في أسفل الط ق وفي أعلاه. وأنا الآن على يقين أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك لمساعدتنا لأنهم كا ا كباقي خلق الله يقنصون أرانبهم بأنفسهم.

كنا ننصب الكمين لفأر المسك في نهر صغير يقع خلف بيتنا، ونكمن لضفادع

حتى تخرج فنضربها برماح صغيرة ونبيع سيقانها بخمسة وعشرين سنتاً للبيض الذين يأكلون كل شيء على ما يبدو. ثم بلغ بنا الفقر حداً فقدنا معه كل شعور بالكرامة، فبدأنا نذهب إلى المخزن الذي يوزع فيه الطعام على الفقراء، وبدأت الأصابع تشير إلينا وأسماؤنا ينادى عليها بصوت عالٍ كلما جاء ذكر المعوزين في المدرسة. ولم يكن هناك من طعام في بيتنا إلا وعليه دمغة «ليس للبيع» التي توضع على الطعام الخيري لمنع المستفيدين منه من بيعه. ومن غريب الصدف أننا لم نحسبها إحدى الماركات التجارية.

وبدأت أخرج من المدرسة وأصعد إلى لانسينغ عوض الذهاب إلى البيت، ثم أقصد محلات البقالة وأتوقف عند التفاح وبقية الفواكه المعروضة في الخارج متحيناً الفرصة لأسرق. كما أنني بدأت أزور بعض البيوت التي نعرف أصحابها وقت العشاء. كنت أعرف أنهم يعرفون القصد من زيارتي وأقبل دعوتهم وآكل حتى أكتفي. وكنت أذهب بصفة خاصة إلى بيت آل كوهانا، وأصحابه عجوزان من أطيب خلق الله، يعيش معهما ولد من عائلتهما يدعوانه «بيغ بوي» وعجوز اسمها مسز أدكوك كانت هي الأخرى تكثر من التردد على الكنيسة وفعل الخير، وقد قالت لي كلاماً ما زلت أذكره. قالت: «يعجبني فيك يا ملكوم عدم الرياء. أنت لا تصلح لشيء ولكنك لا تحاول أن تخفي ذلك».

ومع التسكع والتطفل والسرقة تردّت أخلاقي وأصبحت قليل الصبر وعدوانياً. كنت قد كبرت وبدأت أشعر أن معاملة البيض لي مطبوعة بما يعرفونه عن ظروف موت أبي. كان الأطفال في المدرسة ينطقون بما يسمعونه من آبائهم ويقولون سراً وعلانية إن أبي قتله اللفيف الأسود أو الكلان وإن شركة التأمين هضمت حقنا.

ثم بدأت أُمسَك وأنا أسرق، وبدأ موظفو المساعدة الإجتماعية يركزون عليَّ كلما جاؤوا إلى البيت ويتكلمون على اعتقالي الأمر الذي أثار غضب أمي من جديد. وقد كانت تضربني كلما سرقت ولا تعبأ بصراخي. وأنا معتز بكوني لم أرفع يدي عليها أبداً.

كنا نحن الأولاد نتسلل في ليالي الصيف إلى المزارع لسرقة البطيخ الأحمر، وهي عادة يصم بها البيض الزنوج ويلقبونهم من بين ما يلقبونهم به بـ«لصوص البطيخ الأحمر» ويقولون عندما يسرقه أولادهم إنهم يفعلون ذلك بتأثير من أولاد الزنوج.

وهكـذا البيـض دائمـاً إمـا أن يتستـروا علـى عيـوبهـم وإمـا أن يتملصـوا منهـا يلحقـوا مسؤوليتها بالزنوج.

وذات ليلة هالووين خرجنا جماعة فيما كنا نسميه بعملية قلب ا راحض القروية، فسقطنا في فخ نصبه لنا مزارع مسن كان قد تعرض لها مرات ، ـة ذلك اليوم. كنا نأتي المرحاض من الخلف وندفعه كرجل واحد فينقلب. وكان الـ ـارع قد حول المرحاض بحيث أصبح ظهره أمام الثقب. المهم أننا جئنا نتسلل وفي مقدمتنا ولدان أبيضان. كان البيض قد تعودوا على أخذ القيادة كتحصيل حاصل، ولـ نها تلك الليلة أسقطتهم في المطب.

وبدأت أقوم بأعمال متنوعة، كقطف توت الأرض وحصلت في آخر ول يوم على دولار كامل. كنت أتضور جوعاً فأخذت الدولار وتوجهت نحو المدينا لا ألوي على شيء عندما طلع عليَّ ذلك النحس المدعو رتشارد دكسون وهو ولد أ ض أكبر مني، وسألني إن كنت أريد أن ألعب لعبة «وجه أو ظهر». وصرف لي الدو ر وبدأنا نلعب، وما إن مضت نصف ساعة حتى كانت النقود في جيبه، الورقة والصر . وبدلاً من أن أذهب إلى المدينة وأشتري ما آكله، ذهبت إلى البيت. ثم اكتشفت أنـ غش في اللعب عندما عرفت أن هناك طريقة تمسك بها قطعة النقود لجعلها تنزل ء ى الوجه المراد. وكان ذلك أول درس لي في القمار، تعلمت منه أن أشك فيمر يربحون باستمرار، كما هو شأن الرجل الأبيض في أمريكا، رابح دائماً لأنه يمسك ا وراق في يده ويوزع علينا من القاع.

وبدأت أمي تقرأ كتيبات ومطبوعات يأتيها بها أعضاء فرقة دينية سـَ وا أسفل الطريق كانوا يؤمنون بقرب قيام الساعة ويحرّمون من الطعام ما حرمه موسى كما كان ويلفريد الذي رجع إلى المدرسة بعدما بدأنا نحصل على الطعام الخيري أيـ اً لا يُرى إلا وفي يده كتاب. ولعل أمي انجذبت إلى أعضاء هذه الفرقة لكثرة ما كا ت تحرّمه من لحوم، مثل لحم الخنزير والأرنب وما لا يأكل الحشيش وما ليست له حوافر مشقوقة. وكانوا يعقدون اجتماعات تأخذنا أمي إليها، يقدمون فيها أنـ ع الطعام ويحضرها عدد قليل من الزنوج الذين يأتون من المدن المجاورة. كانوا أ يب بيض رأتهم عيني، ولكننا لاحظنا أنهم لا يشبهوننا، وناقشنا ذلك في البيت. وجـ ا مثلاً أن لهم رائحة خاصة وأن طعامهم ليست فيه توابل.

كان موظفو الولاية ما يزالون رغم معارضة أمي، يمارسون حقهم في دخول بيتنا وزرع الشقاق بيننا بسؤالهم مثلاً من الأذكى من الآخر؟ أو أليس غريباً أن أكون مختلفاً عن إخوتي؟ ثم قرروا أن نوضع في بيوت المحسنين بحجة إنحرافي الذي يدل على إهمال أمي.

نعم كنت أكثر إخوتي شغباً وعراكاً مع ويلفريد، ولكن لم يكن من بينهم من لم يمارس الشغب في وقت من الأوقات، ويساهم من حيث لا يدري في الدفع بأمنا إلى الحد الذي أصبح موظفو الولاية يصفونها فيه بالجنون. لا أذكر متى أصبحت التهمة رسمية، لكنني أذكر أنهم قالوا عنها «مجنونة» لأول مرة عندما أعطاها مزارع زنجي يسكن أسفل الطريق لحم خنزير ورفضته، ولعله كان خنزيراً كاملاً ولعلهما كانا اثنين بالمرة. «من يرفض النعمة؟ «المجنونة» رفضتها». ولم يبالوا حين قالت لهم إنها لا تأكل الخنزير لأسباب دينية. الأنذال! قالوا لنا: «أمكم مجنونة، ترفض الطعام»، وكان ذلك بداية نهاية أسرتنا التي كانت تعيش مأساة تحمّلت أنا جزءاً وافراً من المسؤولية فيها. كان بالإمكان أن نقاوم، ألا نفترق، فلقد كنت أحب أمي رغم شغبي ورغم ما سببته لها من مشاكل. وأبلغتنا الولاية بقرار انتقالي إلى بيت كوهان ولكنها أمام رفض أمي، تراجعت إلى حين.

في هذه الأثناء كان رجل أعزب من لانسينغ لا داعي لذكر اسمه قد بدأ يزورنا. لا أعرف كيف تعرفت إليه أمي ولا ماذا كانت وظيفته، وإن لم يكن لزنوج لانسينغ في ١٩٣٥ ما يمكن أن يسمى وظيفة. كان لشدة سواده وضخامته يشبه أبي، ولعل أمي وجدت فيه الملاذ والعون علينا وعلى موظفي الولاية. وعرفنا القصد من زياراته وتقبلناه بشيء من السخرية، إذ كنا نقول فيما بيننا إن أمنا تتزين وتبدو منشرحة لمجيئه. وكانت لا تزال في السادسة والثلاثين من عمرها وعلى شيء من جمال. وبعد حوالي السنة انقطعت زيارات الرجل فجأة وبدأت أسمع ما يقوله الناس في ذلك، إنه أدرك فداحة غلطته وأن عددنا أخافه فنجا بنفسه قبل فوات الأوان، وما زلت إلى اليوم أدرك أثر ذلك على أمي وأفهم موقف الرجل.

وأجهزت الصدمة على أمي فبدأت تكلم نفسها وتعيش في عالم آخر، وسهل ذلك على الولاية الشروع في ترتيب انتقالي إلى بيت كوهانا، فبدأ موظفوها يزينون لي العيش هناك ويرددون عليَّ ما قاله الزوجان وبيغ بوي ومسز أدكوك من أنهم يحبونني.

أنا أيضاً كنت أحبهم، ولكنني لم أكن أرغب في فراق ويلفريد، أخي الأكبر الذ ، كان مثلي الأعلى، وهيلدا التي كانت بمثابة أمي الثانية، وفيلبرت الذي كنت أشه رغم عراكي معه أنه أخي، وريجينالد، ريجينالد بالخصوص، الضعيف بسبب مرضه ،الذي كان يعتمد عليَّ، والصغار إيفون وويسلي وروبيرت.

ومع مغالاة أمي في كلامها مع نفسها، بدأت هيلدا تطبخ وتحاول مع يلفريد العناية بنا، ولكن الحمل كان ثقيلاً فعمّنا الإهمال وبدأت سفينتنا تغرق. لذلك نفست الصعداء عندما جاء رجل ليأخذني إلى بيت كوهانا. وأذكر أن أمي قالت له وهو يذهب بي: «قل لهم ألا يعطوه لحم الخنزير».

أصبحت حياتي في بيت كوهانا أفضل بكثير. قاسمت بيغ بوي غرفته و ـاهمت معه، ولكنني ظللت أفتقد إخوتي. وكان الزوجان متدينين جداً، فكانا يصا حبانني معهما إلى كنيسة من نوع جديد يفوق الإنفعال فيها ما كنت أراه في الـ ـنائس المعمدانية. كانت تهتز بالغناء والبكاء والنواح وقرع الطبول في جو رهيب ـ ـعر فيه بحضور الأرواح والأشباح. كما أنني كنت أذهب معهم لصيد السمك أيام الس ـ، إلا أن فكرة الجلوس والانتظار لم ترق لي. كنت أقول لنفسي لا بد أن تكون هناا طريقة أذكى لصيد السمك ولكنني لم أعرف ما هي.

وكان السيد جوهانا يخرج لقنص الأرنب مع جماعة من العجائز ويأخذ معه أنا وبيغ بوي. وكانوا يعرفون أن الأرنب عندما يهاجمه الكلب يدور في حلقة فكانوا يركزون على نقطة الإنطلاق، حتى إذا عاد إليها ضربوه بالرصاص. وكانت مع ، بندقية أبي فخطرت لي فكرة. قلت في نفسي إنني لو اعترضت سبيل الأرنب لأصبته قبل أن يصل إليهم. ونجحت خطتي وبدأت أصيب ثلاثة أو أربعة أرانب قبل أن يه ـبوا هم واحداً. كنت في الثانية عشرة من عمري، وكان كل ما في الأمر أنني أخذت خطتهم وطورتها. والغريب أن أحداً منهم لم يفطن إلى ذلك، وإنما حسبوا أنني هد ـ ماهر وجعلوا يركزون على تحسين رمايتهم. وتعلمت من ذلك أنه إذا كان هناك ـن يقوم بعمل يشبه عملك ويتفوق عليك فهو لا محالة يفعل شيئاً لا تفعله.

كنت أتردد كثيراً على بيتنا بصحبة بيغ بوي أحياناً أو أحد الزوجين، و ـان ذلك يخفف عليَّ مشقة الزيارة إذ كانت أحوال أمي تزداد سوءاً، الأمر الذي جعـ الولاية تشرع في الإستعداد لأخذ بقية إخوتي وتبعث لي بمن يطرح عليَّ العديد من ـلأسئلة.

ثم وضعت أمي بقرار قضائي في مستشفى كلامازو للأمراض العقلية، الواقع على بعد ما يزيد على سبعين ميلاً، فأصبحنا أطفال الدولة، ووكل علينا قاضي يدعى ماك كليلان. وبذلك أصبح رجل أبيض يتصرف، بمقتضى القانون، في أولاد رجل أسود في شكل جديد من أشكال الرق مهما تكن سلامة النوايا.

وقضت أمي في ذلك المستشفى ستة وعشرين عاماً ولم تتركه إلا في ١٩٦٣ عندما أخذها فيلبرت وزوجته لتعيش معهما. كنت وأنا في ميشيغن أزورها وأتألم دون أن يكون بيدي ما أفعله، فلو أن ما بها كان مرضاً عضوياً لعرفناه ووجدنا له دواء. ثم أصبحت لا أتحمل هذه الزيارات فأوقفتها في ١٩٥٢. كنت في السابعة والعشرين من عمري، وكان فيلبرت قد قال لي إنها تعرفت إليه فذهبت لزيارتها مستبشراً ولكنها لم تعرفني. حدقت فيَّ ولم تعرفني وقلت لها: «أمي هل تعرفين في أي يوم من أيام الأسبوع نحن؟» فقالت: «لقد رحلوا ولم يبق منهم أحد». وغمرني شعور مدمر فمضيت أنظر إليها وأدرك تمام عجزي. المرأة التي حملتني في بطنها وأرضعتني وربتني وضربتني وأحبتني، لا تعرفني.

لقد قضت علينا الإدارة، سلطت علينا المساعدة الإجتماعية والمحكمة وطبيب المحكمة فدمرونا، ولم نكن ضحيتهم الأولى أو الأخيرة. هل كانت أمي ستنتهي إلى هذه النهاية لولا نفاق المجتمع الأبيض الذي يسحق ضحاياه ثم يعاقبهم لأنهم لم يصمدوا؟ لذلك توقفت عن زيارتها وتحاشيت الكلام عليها لأنني كنت أشعر أن ذلك من شأنه أن يدفع بي إلى ارتكاب جريمة.

عندما انتقلت أمي إلى المستشفى في ١٩٣٧ وزعت الولاية إخوتي على البيوت، فذهب فيلبرت إلى بيت عجوز تُسمّى مسز هاكيت، وريجينالد وويسلي إلى بيت مسز وليامز التي كانت صديقة أمي، وإيفون وروبيرت إلى بيت ماك غاير الذي يرجع أصله إلى جزر الهند الغربية وظل كل من ويلفريد وهيلدا في البيت. وأصبحنا نلتقي في المدرسة وخارجها وظلت علاقتنا قوية.

الفصل الثاني

طالع السعد

في ٢٧ يونيو ١٩٣٧ أحرز الملاكم الأسود جو لويس لقب بطل العـ م في الوزن الثقيل فاحتفل زنوج أميركا بالحدث عن بكرة أبيهم، وأصبح كل طفل زنجـ ـ يتطلع إلى اليوم الذي يصبح فيه بطلاً في الملاكمة. وكان أخي فيلبرت ملاكماً ناجحاً في المدرسة وكنت أنا، نظراً لطول قامتي ونحافتي ألعب كرة السلة لعباً لا بأس به وقد كانت الرياضة والغناء إلى حد ما، هما المجالان المفتوحان أمام الزنوج.

في ذلك العام نظمت مباريات في الملاكمة بلانسينغ شارك فيها أ ي فيلبرت. وكنت أذهب لمشاهدته وهو يتمرن وأسمع ثناء الناس عليه وأتأثر، ، كنني بدأت أخشى أن يحول تطلع ريجينالد الصغير إليه. وتوهمت أنني أملك مواهبه قصدت مقر اللجنة وزعمت أنني في السادسة عشرة من عمري ووضعوني في ترتيب ا زن الخفيف مع ولد أبيض مبتدىء مثلي يدعى بيل بترسون لن أنساه ما حييت.

وجاء إخوتي وأخواتي وكل من أعرفهم في لانسينغ لمشاهدة أخ البـ ل. ودخلت الحلبة وقدمونا للجمهور ثم جمعنا الحكم وقرأ علينا زبوره: النزاه والاستقامة و... إلخ. ثم رجعنا إلى زوايانا ودق الجرس فتقدمنا. كنت خائفاً وَ ن بيل أيضاً خائفاً كما اعترف لي فيما بعد. خاف مني إلى درجة أنه أوقعني خمسيـ مرة وقضى على سمعتي بين الزنوج، حتى لم أعد أجرؤ على الخروج في لانسينغ الزنجي ولا سيما في ذلك الوقت لا يرفع رأسه وقد جلده رجل أبيض لا سيما وقد كانت الحلبة المكان الوحيد الذي يستطيع هو فيه أن يجلد الرجل الأبيض دون أن يقطع رأسه.

ولم يكن بإمكاني أن أبقى مختفياً إلى الأبد، فخرجت وتعرضت لإ انات الزنوج القاسية، ولكنها لم تؤثر فيَّ قدر ما أثر فيَّ تحاشي أخي الصغير ريجيـ د النظر إليَّ فقررت أن أفعل شيئاً. رجعت إلى الملعب وأهلكت نفسي في التـ ين. لكمت

الأكياس وقفزت بالحبال وتنفست بعمق وعرقت ثم طلبت أن أنازل بيل بترسون مرة أخرى. وجرت المباراة في بلدته لحسن الحظ هذه المرة، فلم يحضرها أحد ممن أعرفهم. ودخلنا الحلبة ودق الجرس فرأيت قبضة يد ورأيت السقف يهوي وسمعت الحكم يقول: «عشرة» فوق رأسي وانتهت المباراة. لقد سمعت العد من أوله، إن أردتم الحقيقة، ولكنني لم أجرؤ على النهوض. كان بيل ذاك بداية الحلبة في حياتي ونهايتها. ولقد فكرت في ذلك بعدما أسلمت ووجدت أن الله سبحانه وتعالى كان قد اختار لي طريقاً آخر غير الملاكمة.

في ذلك العام عنَّ لي ذات يوم أن أتحدى الأستاذ فدخلت الصف بالقبعة وأمرني أن ألف الصف بها حتى يسمح لي بالتوقف، ثم أضاف: «وبذلك سيراك الجميع، في حين سيتعلم من جاؤوا من أجل التعلم». وقام إلى السبورة ليكتب عليها وأنا ما أزال أدور فأخذت من الجدار وأنا أمرّ خلف مقعده مسماراً من ذلك النوع الذي يضغط بالإبهام ووضعته على مقعده بحيث أصبح رأسه الحاد إلى أعلى، وواصلت طوافي وكأن شيئاً لم يكن. وجلس على المقعد فقفز وصرخ وفتحت أنا الباب وهربت. وكانت النتيجة أنني فصلت من المدرسة بسبب سوء السلوك.

كنت أحسب أن الفصل يقتصر على البقاء في بيت كوهانا والتجول في البلدة والحصول على مصروف الجيب عن طريق القيام ببعض الأعمال، ولكن موظفاً لم يسبق لي أن رأيته جاء من مقر الولاية لدهشتي وأخذني إلى المحكمة حيث أبلغت بقرار التحاقي بسجن الأحداث الواقع على بعد إثني عشر ميلاً، وهو حسب ما قيل لي مكان يذهب إليه الأطفال «السيئون» قبل المدرسة الإصلاحية.

ورجعنا إلى البيت أنا والموظف، وجمعت ملابسي القليلة في صندوق من ورق وذهبت معه في سيارته في رباطة جأش، والزوجان ومسز أدكوك وبيغ بوي يبكون.

كان اسمه ماينارد آلن وكان أطيب موظف رأيته في حياتي. طيب خاطرهم وقال لي ونحن في الطريق: إن درجاتي تدل على أن بإمكاني أن أكون ناجحاً إن أنا حسنت سلوكي وأن السجن التربوي ليس له أي معنى سلبي، وشرح لي كلمة «إصلاح» فقال إنها تعني التغيير إلى الأفضل، وقال إن هذا المكان يساعد أمثالي من الأطفال على إدراك أخطائهم وبدء صفحة جديدة، وبشّرني بطيبوبة مديرة السجن مسز سويرلينغ وزوجها.

كانت مسز سويرلينغ سمينة وقوية ومنشرحة وكان زوجها نحيفاً، سود الشعر والشارب، أحمر الوجه، وديعاً ومهذباً حتى معي. وكانا كما قال المو لف طيبين بالفعل. وأخذتني مسز سويرلينغ إلى غرفتي، الغرفة الخاصة بي الأولى في حياتي. ثم اكتشفت بدهشة أنه مسموح لي بالأكل معهما. وكانت أيضاً المرة الأولى ال ي آكل فيها مع البيض أو على الأقل الكبار منهم منذ اجتماعات الجماعة الدينية ا ي تكلمت عليها. ولم تكن تلك خطوة خاصة بي، إذ كانت مسز سويرلينغ وزوجها جلسان إلى رأس مائدة طويلة تضم كل ذوي الجنح البسيطة ممن فروا من بيوتهم أو علوا أشياء من هذا القبيل. أما الأطفال الخطرون فكانت تقفل عليهم الغرف.

وكانت هناك طباخة بيضاء تدعى لوسيل لاثروب (عجباً كيف تحضر ي كل هذه الأسماء وقد مضى عليها عشرون عاماً) عاملتني هي الأخرى معاملة حسنة وكان لها زوج اسمه دوان يعمل في جهة ما ولا يأتي إلا في نهاية الأسبوع.

ومرة أخرى لاحظت أن للبيض رائحة مختلفة وأنهم لا يستعملون التوابل في أكلهم مثلنا. وبدأت أكنس وأمسح البلاط والغبار في بيت سويرلينغ كما كذ ، أفعل مع بيغ بوي. وكانا قد أحباني من أول وهلة وبدلا اسمي بـ«طالع السعد» إلا أنهما كانا مثل لوسيل يخوضان في كل شيء وأنا حاضر أسمع وأرى، وكأنني غير موجود أو كأنني لا أفهم أو كأنني طائر كناري، بل إنهما كانا يتكلمان عليّ أيضاً وعلى «الزنوج».

وأذكر أن مستر سويرلينغ على الرغم من طيبوبته رجع من لانسينغ ذا ، يوم فقال لزوجته وأنا أسمع: «لا أفهم كيف يشعر هؤلاء الزنوج بتلك السعادة وهم ميشون في ذلك الفقر المدقع»، وتكلم على السيارات الجديدة المركونة أمام الخرائب ، فقالت: «إنها طبيعة زنجية» وبقي قولها هذا عالقاً بذهني.

كان يزورهما العديد من البيض ولا سيما السياسيون والقاضي الذي كل علينا، فكانوا يخوضون في أحاديث من هذا النوع. وكان القاضي يسأل ني وكانوا يحضرونني إليه فيتطلع فيَّ ويهز رأسه وكأنني مهر فريد أو سلوقي من سا لة أصيلة، فأدرك أنهم كلموه على حسن سلوكي وإخلاصي في العمل.

إن ما أريد قوله هنا إنه لم يكن ليخطر لهم على بال بأنني إنسان له شد ور وتفكير وإدراك، وهي الصفات التي كانوا سيعترفون بها تلقائياً لأي طفل أبيض في مثل ظروفي. وهكذا البيض على مر التاريخ، قد نكون معهم، ولكننا لا ولن نه بح منهم.

قد يفتحون الباب في الظاهر ولكنه يظل في الواقع مغلقاً بإحكام. لقد كان وجودي في ذلك البيت وعدمه سيان. هذه هي حقيقة التنازل الأبيض وحقيقة ما يدعى بـ«التحرريين» و«البيض الطيبين» التي أحاول أن أوضحها لأنصار الإندماج من الزنوج. إن حسن المعاملة لا يعني لي شيئاً ما دام الرجل الأبيض لن ينظر إليَّ أبداً كما ينظر إلى نفسه. قد يشاركني الحلو ولكنه لن يشاركني المر، وعندما تتوغل في أعماق نفسه تجد أنه ما زال مقتنعاً بأنه أفضل مني.

لم أكن بالطبع أدرك هذا بوضوح حينذاك. كنت أقوم بأعمالي اليومية وكانوا يسمحون لي بالذهاب إلى لانسينغ وقضاء اليوم أو الليلة فيها. لم أكن كبيراً ولكنني كنت طويلاً فلم يحاسبني أحد على تأخري في الحي الزنجي. ولقد بقيت أنمو حتى أصبحت أطول من ويلفريد وفيلبرت اللذين كانا قد بدءا يتعرفان إلى البنات في حفلات المدرسة ويقدمانهن لي.

أما أنا فلم تكن تعجبني من أعجبها والعكس، زيادة على أنني لم أكن أحسن الرقص أو أملك من النقود ما أود إنفاقه على البنات، ولذلك كنت أقضي ليالي السبت بكل بلادة متسكعاً بين البارات والمطاعم الزنجية، حيث صناديق الموسيقي تصدح بـ«توكسيدو جانكشن» و«فلات فوت فلودجي» لإرسكين هاوكينز وسليم أند سلام وما إلى ذلك من أغاني ذلك الزمان.

وكانت تقام حفلات راقصة كبرى تحييها فرق تأتي من نيويورك وتحضرها لانسينغ برمتها، وقد تعرفت خلال هذه الحفلات إلى لاكي تومسون وميلت جاكسن اللذين توطدت علاقتي بهما فيما بعد في هارليم .

وجاء موعد التحاقي بالمدرسة الإصلاحية ولم أترك فعرفت أن ذلك من تدبير مسز سويرلينغ وحمدت لها ذلك. ثم سجلتني مسز سويرلينغ في الثانوية حيث كنت أول من سمح له بالتردد إليها، وهو ما يزال نزيلاً على سجن الأحداث. ولم يكن في تلك المدرسة من الزنوج إلا بعض أبناء لاينز الذي كان مثل زوجته يتمتع بسمعة طيبة. وقد كنت أسمع أمي تقول عن السيدة لاينز إنها واحدة من زنوج مشيغان الأربعة الذين يعود أصلهم إلى جزر الهند الغربية.

كانوا في المدرسة يسمونني «الزنجي» بمن فيهم التلاميذ والأساتذة، أيضاً من غير قصد، مع أن بعضهم كان أطيب من تلاميذ لانسينغ، ومع أنني كنت أتمتع بشعبية كبيرة

بينهم لأنني زنجي الصف الوحيد من جهة، ولأنني بتوصية من امرأة لها نـ ـذ كبير في البلدة من جهة أخرى. وهكذا كانت تنهال عليَّ الطلبات للمشاركة في الأنـ ـطة الثقافية والرياضية فكنت أقبلها إرضاء للجميع.

ولم تمض أيام حتى لاحظت مسز سويرلينغ حاجتي إلى النقود، وجد ـت لي عملاً بأحد المطاعم حيث بدأت أغسل الصحون بعد دوام المدرسة. ورغم ز ـد الأجرة، سعدت بالعمل لأن ابن صاحبه الذي كان يسكن فوق المطعم كان صد ـي، ولأنها المرة الأولى التي أكسب فيها مالا يذكر. ووفرت ثم اشتريت بدلة خضـ ـراء وحذاء وطعاماً لتلاميذ صفي الذين كانوا قد فعلوا معي ذلك من قبل.

كنت أحب التاريخ واللغة الإنجليزية. وأذكر أن أستاذ اللغة الإنجـ ـية المستر ستراوسكي كان لا ينفك يقدم لنا النصائح عن كيفية النجاح في الحياة، وأن أستاذ التاريخ المستر وليامز كان يضايقني بنكته عن «الزنوج». وأذكر أنني اتخذ ـ منه موقفاً منذ أول أسبوع. كنت قد دخلت الصف متأخراً فأخذ يغني للتلاميذ على سـ ـبل النكتة: «هناك، أسفل الوادي، في حقول القطن يقول بعضهم إن الزنجي لن يسر ـ». نكتة! . وبقدر ما أحببت التاريخ كرهت أستاذه منذ ذلك اليوم. ثم وصلنا إلى ـ ـمة الزنوج وكانت فقرة واحدة لا غير مر الأستاذ عليها مرور الكرام ثم ختم بتعليق من ـنديته وهو يقهقه، مفاده أن للزنوج أقداماً ضخمة بحيث أنهم يتركون فجوات في الأر ـ إذا مشوا عليها. وكنت للأسف أكره الرياضيات، وقد تساءلت فيما بعد عن سبب ذ ـ، ووجدت أن الرياضيات تغلق باب المناقشة. الغلط فيها غلط وانتهى.

كنت عضواً في فرقة كرة السلة التي كانت تشارك في مباريات تجـ ـي بالمدن القريبة مثل هوبيل وشارلوت. وكان الجمهور ينهال عليَّ كلما دخـ ـ الملعب بنداءات: يا «زنجي!»، يا «سارق البطيخ الأحمر!»، يا «صدء!». وما كان ـلك يضايق الفرقة أو المدرب أو يضايقني إلا قليلاً وفقاً لعقلية الزنجي الذي ما زال إلى اليوم يكتم آلامه ليثبت للرجل الأبيض مدى ما حققه من تقدم، ثم إن هذه الأوصاف ـ تعد تؤثر فيه لكثرة ما سمعها.

كانت المباراة تختتم بحفل راقص كنت أنعزل فيه وأشعر بالحرج أحاول ألا يلاحظ ذلك أحد. فلقد كان الحاجز الذي كنت أحس به في المدرسة يتبلور هنا بوضوح. كنت أدرك تلقائياً أنه ممنوع عليَّ مراقصة بنات البيض على الرغـ ـ من التفتح

والابتسام، ولم يكن المانع يأتي منهن وحسب، ولكنه كان يأتي مني أيضاً. أنا أتعجب كيف واتتني الجرأة على البوح بكل هذه الأشياء. كنت أبقى في تلك الحفلات متصلباً، أتكلم وآكل السندويتشات وأبتسم حتى تحين الفرصة فأتسلل خارجاً والحفلة ما تزال في بدايتها.

كانت حفلات من ذلك النوع المعروف في المدن الصغرى، تُستأجر لها فرقة موسيقية صغيرة بيضاء من لانسينغ، أو يكتفى فيها بإدارة أسطوانات مخدوشة في فونوغراف يُرفع صوته إلى أقصى حد فيجلجل بأغنيتي فرقتي غلين ميلر وإنك سبوت: «مون لايت سيرينايد» و«إف آي دِدِنت كار» اللتين كانتا أغنيتي الموسم الناجحتين.

في تلك الأثناء حيرني أمر غريب. كان أصدقائي من التلاميذ البيض في مايسون كما في لانسينغ يحرضونني على معاكسة بنات جنسهم ومن بينهن أخواتهم ويقولون لي إنهم على علاقة بهن، حتى إذا ما نجحت الخطة استعملوها كمساومة مع البنات. كانوا ولا شك يحسبون أنني أفهم أكثر منهم في هذه الأشياء لأنني زنجي. وفطنت إلى الحيلة فلم أقل لأحد عندما تعرفت بالفعل إلى بنتين من البيض، إلا أن علاقتي بهما لم تدم، نظراً لأنني وجدت الحاجز أقوى من أن أرفعه، فانصرفت إلى التفكير في زنجيتين كنت قد رأيتهما مع ويلفرد وفيلبرت دون أن أجد عندي الشجاعة الكافية لمفاتحتهما في الموضوع.

كان الاختلاط موجوداً في لانسينغ وكنت أراه في ليالي السبت التي كنت أقضيها في الحي الزنجي حيث كان هناك مكان معروف يأتي إليه البيض بسياراتهم لالتقاط النساء. كما كان نساء الحي البولوني وغيره يعبرن الجسر إلى الحي الزنجي لالتقاط الرجال.

وفي منتصف السنة الدراسية انتخبت لدهشتي قيماً على الصف الأول ثانوي بسبب درجاتي العالية من جهة، ولوني الذي جعلني بمثابة الثور الأبلق من جهة أخرى، ففرحت بذلك فرحاً شديداً. لن أزعم الآن أنني لم أفرح، خصوصاً وأنني لم يكن لي حينذاك أي موقف من البيض، بل كنت على العكس أعمل جاهداً لأصبح منهم. ولذلك فإنني أتكلم على تجربة عندما أقول للإنسان الأمريكي الأسود، المؤمن بالإندماج إنه يضيع وقته. لقد حاولت قبله، علم الله، وفشلت.

ووصل خبر انتخابي مسز سويرلينغ فقالت لي: «نحن فخورون بك يا ملكوم!»

كما عمَّ المطعم وسمع به موظف المساعدة الإجتماعية فقال لي: «لقد أ. طيت مثالاً حياً على معنى كلمة إصلاح». كان رجلاً ذا مروءة لولا أنه كان يوعز لي ن أمي لم تقم بواجبها معنا.

كنت قد دخلت عامي الرابع عشر وكنت أزور آل لاينز وجوهانا وإخ تي فكانوا يفرحون بزياراتي. وكانت هيلدا تعتني بالبيت جيداً بعد ما خلا من الأط ل وخفت أعباؤه. وكان ويلفرد يعمل ويقرأ بينما كان الجميع يتكهن لفيلبرت بمستقبل زاهر في الملاكمة. وكنت أزور ريجينالد الذي كان قد نسي فضيحتي في الملاكمة ويسلي في بيت مسز وليامز وأعطي كل واحد منهما دولاراً يضعه في جيبه، كما كنت أزور روبيرت وإيفون في بيت مسز ماك كاير فأطمئن إليهما إذ أجدهما على حسن حال وأعطي كلا منهما ربع دولار.

لم نكن نتكلم على أبينا بالمرة، في حين لم نكن نتكلم على أمنا إلا قليلاً أو نحب أن يذكرها أحد بسوء، وكنا نزورها أحياناً على انفراد. مرة وا دة زرناها جماعة، وكان ذلك عندما جاءت أختنا من أبينا إيلا من بوسطن والتي كان زيارتها أثر سحري عليَّ إذ وضعتني وجها لوجه مع امرأة سوداء شامخة الكبرياء، تنظ إلى لونها باعتزاز شديد. كانت تراسل ويلفرد وهيلدا وكنت قد كتبت لها رسالة اقتراح من هيلدا. ورجعت من المدرسة ذات يوم فوجدتها. كانت أضخم من مسز سويرلينغ، شديدة السواد مثل أبي وفي مستوى كل ما سمعته عنها. احتوتني بين ذراعيها ثم تراجعت لتتأملني وكل ما فيها ينم عن شخصيتها القوية.

ونظرت إليها وقلت في نفسي: «هذه إذن هي إيلا التي كان أبي يفخر بها ويقول إنها ساعدت العدد العديد من أفراد أسرتنا على الرحيل من جورجيا إلى بوسطن، وإنها تملك عقارات وتعرف شخصيات». ذهبت إلى الشمال معدمة وتحسنت أحوالها وتزوجت طبيباً فساعدت أختها على الإلتحاق بها ثم أخاها فابن عمها فابن عمتها.

كان ويلفرد وهيلدا قد أخبراها بانتخابي قيماً على صفي، فسألتني عن درجاتي، وانطلقتُ كالسهم وأحضرتُ لها ورقة النتائج فسرت بها. وسألتها أنا عن أبيها أورلي وأختها ماري فقالت إن أورلي يغني تحت اسم مستعار وإن ماري بخير، ونقلت إليَّ أخبار أقربائها الآخرين من جهة أمها الذين لم أكن أعرفهم والذين كانت قد مهدت لهم أيضاً طريق الخروج من جورجيا ففعلوا الشيء نفسه مع غيرهم. وقالت إن أفراد عائلتنا

في بوسطن، ميسورو الحال وإن منهم الملاّك و التجار وأضافت: «إن علينا نحن أبناء ليتل أن نتضامن» فهزني قولها ونبرة صوتها وقد ذكرتني بأصلي الذي كنت قد نسيته بعدما تبعثرت أسرتنا وأصبح اسمي «طالع السعد». وأخذتنا لزيارة أمنا فشعرنا بالامتنان لها واقتنعنا بأنها قادرة على إخراجها من المستشفى.

وجيء بأمنا وهي تبتسم ثم ظهرت عليها الدهشة عندما رأت إيلا. وتعانقتا فبدتا على طرفي نقيض. وأذكر أن الزيارة انطبعت بكلام كثير وبشخصية إيلا وتفاؤلنا وشعوري لأول مرة بأن الأمر يتعلق بمرض عضوي طال أمده. وأنهت إيلا زياراتها لكل البيوت التي نقيم فيها، ثم رحلت بعدما أوصتنا بمراسلتها وأكدت على أن أزورها في العطلة الصيفية فمضيت أترقب الصيف.

وما إن حل حتى لبست بدلتي الخضراء وحملت حقيبة من ورق واتجهت نحو محطة غرايهاوند للحافلات. ولو أن أحداً علق على رقبتي علامة «من القرية» لأجاد في وصفي وأجاز. كنا في عام ١٩٤٠ ولم تكن هناك كل هذه الطرق السيارة الموجودة الآن فكانت الحافلة تتوقف عند كل منعطف ومرعى وأنا من مقعدي في المؤخرة. نعم في المؤخرة، أحملق لمدة يوم ونصف، بدا لي وكأنه شهر ونصف، في أمريكا الرجل الأبيض وهي تتدحرج إلى الوراء.

استقبلتني إيلا في المحطة وأخذتني إلى بيتها في شارع وومباك، الواقع في منطقة شوغر هيل بحي روكسبري الذي يعد هارليم بوسطن. وهناك تعرفت إلى زوجها الثاني فرانك. الجندي في الجيش، وعلى أخيها المغني وأختها ماري التي تختلف عنها إلى حد كبير. إن من الغريب أن أعتبر ماري أخت إيلا وليس أختي مثل إيلا، ولعل ذلك راجع إلى أن إيلا تشبهني بحزمها وعزمها، في حين أن ماري رخوة ووديعة وخجولة.

وأخذتني إيلا إلى العديد من أندية ما يسمى بـ«المجتمع الأسود» التي كانت تترأسها، حيث اكتشفت بذهول زنوجاً يحاكون لهجة المدن الكبرى وأسلوب حياة البيض، وسمعت لأول مرة بزنوج دترويت ونيويورك وشيكاغو. كنت أخرج في الليل، وخصوصاً في ليالي السبت وأجد مركز روكسبري يغص بالزنوج وأضواء النيون وأندية ليلية وقاعات بيار وبارات وسيارات يقودونها، وأتعجب. لم أكن أعرف أن العالم فيه كل هذا العدد من الزنوج. كنت أجد رجالاً سوداً يتأبطون أذرع نساء بيضاوات، والشوارع عابقة بروائح الطعام الزنجي وضاجة بأغاني إرسكين هاوكينز وديوك إلينغتون وكوتي

وليامز وغيرهم ممن جمعتني بهم الظروف فيما بعد. وكانت فرق ـرى من مستوى هذه الفرق تأتي إلى مرقص روزلاند في شارع ماساشوسيت لتعزف يلة للسود وليلة للبيض.

وذهبت مع إيلا وماري إلى الكنيسة فوجدت أن زنوج بوسطن ' يتعبدون بهدوء كما يفعل البيض في مايسون، بل يرتمون على العبادة روحاً وجسداً.

وكتبت للجميع عن طريق فيلبرت فقلت لهم إن ما رأيته لا يمـ ن أن يوصف في رسالة أو رسالتين أو ثلاث، وإنني سأحكي لهم كل شيء بالتفصيل ع ـما أعود ولكنني لم أفعل. كنت قد تركت نفسي، بعدما رجعت، في بوسطن. فشعـ ت بالوحشة ولم أعد أطيق البيض. ولاحظ الجميع ما طرأ عليَّ من تغيير، التلام ، وآل سويرلينغ وأصحاب المطعم وقالوا لي: «أنت على غير عادتك يا ملكوم. ماذا ـ ـدث؟».

وبقيت على الرغم من ذلك أتنافس على الرتبة الأولى في الصف مع بنت إسمها أودري سلو وولد اسمه جيمي كوتن. ثم وقع شيء غيّر مجرى حيا . كنا في بداية السنة الثالثة ثانوي وكنت في الصف مع المستر ستراوسكي، أستاد اللغة الإنجليزية الذي كان رجلاً طويلاً، محمر البياض، ذا شارب كثيف، والذي كنـ قد حصلت منه على بعض أجود درجاتي، واستشعرت أنه يحبني، والذي كان كما ـبق القول يغالي في إسداء النصح إلينا حول ما يجب علينا أن نقرأه أو نفعله أو نـ ـنده، والذي كنا نسخر منه فيما بيننا ونقول: «لو كانت نصائحه تنفع لنفع بها نفسه ـلما قضى دهره مدرساً في مايسون».

المهم أنه قدم لي نصيحته ذلك اليوم، التي لم يقصد بها إحـ جي أو إهانتي، والتي إنما نبعت من موقفه كرجل أبيض في أمريكا. كنت من أجود ـميذه، بل كنت من أجود تلاميذ المدرسة كلها، ولكنه تنبأ لي بذلك المستقبل الذ ، يتنبأ به معظم البيض للسود مبتدئين بـ«لو كنت مكانك لـ. . .». قال لي: «هل فكر في مستقبلك؟» ولم أكن قد فكرت فيه ولكنني قلت له، لا أدري لماذا: «نعم يا أستـ وأريد أن أكون محامياً». لم يكن في لانسينغ أي محامٍ أو طبيب زنجي فكيف خطرت محاماة ببالي؟. كنت أعرف ذلك جيداً، ولكنني كنت أعرف أيضاً أن المحامي لا نسل الصحون. وظهرت الدهشة على وجه الأستاذ واعتدل في جلسته وقال وهو ـبك يديه خلف رأسه ويهم بالإبتسام: «إن علينا أن نكون واقعيين في الحياة. لا تسيء ـهمي فنحن كما

تعلم نحبك، ولكنك تحلم بالمستحيل. يجب أن تفهم أنك زنجي وأن المحاماة مهنة غير واقعية بالنسبة لك. أنت ممتاز في دروس النجارة والجميع يعرف ذلك، فلمَ لا تفكر في أن تصبح نجاراً. إن لك شخصية محبوبة ولن تجد صعوبة في التعامل مع الزبناء». لم أنس كلامه هذا أبداً، وظل كلما ذكرته يحز في نفسي، لا سيما وأنه شجع كل التلاميذ البيض على ما أرادوه. وكان معظمهم يريد أن يكون مزارعاً ليتسلم أراضي آبائه أو أن يمارس مهنة حرة ليتخلص من نفوذهم في حين أراد ولد أن يكون موظفاً في إدارة قروية، وآخر أن يكون بيطرياً، بينما أرادت البنات أن يكن معلمات باستثناء واحدة أرادت أن تكون ممرضة، ولم يخيّب لأحد رجاء. ومع أنني كنت متفوقاً عليهم، لم أكن مؤهلاً في نظرهم لأن أكون ما أريد.

وأصبح درس هذا الأستاذ ثقيلاً على نفسي وأصبح لقب «الزنجي» يوقفني، ولم أعد أرد عليه أو على من يسألني عما بي. واحتاروا في أمري وناقشوه فيما بينهم، ثم ما لبثت أن أصبحت تلك هي حالي في المطعم وفي بيت آل سويرلينغ.

وذات يوم استدعتني مسز سويرلينغ، وذهبت إليها في غرفة الجلوس فوجدت الموظف الحكومي المستر ماينارد آلن معها، ومنظرهما يوحي بالخطورة، وقالت إن أحداً لا يعرف لماذا أنا حزين على الرغم من تفوّقي في الدراسة وحسن سلوكي وما يكنه لي الجميع من مودة وأنه قد تقرر تبعاً لذلك أن أنتقل إلى بيت لاينز حتى تنتهي السنة الدراسية ثم وقفت ومدت لي يدها قائلة: «لقد سألتك مائة مرة يا ملكوم وسأسألك مرة أخرى، ما بك؟ ألا تريد أن تقول لي؟» فشددت على يدها وقلت لها: «لا شيء يا مسز سويرلينغ». وذهبت إلى غرفتي وجمعت أشيائي وعندما نزلت وجدتها تجفف دمعها فشكرتها ومضيت على أسوأ حال.

وبقيت أزور إخوتي أيام السبت وأكتب لإيلا تقريباً يوماً بيوم إلى أن قلت لها ذات يوم إنني أريد أن أنتقل إلى بوسطن، فقامت بكل الإجراءات الضرورية لنقل كفالتي من ولاية ميشيغن إلى ولاية مساشوسيت.

وما إن انتهت السنة الدراسية حتى ركبت حافلة غرايهاوند مرة أخرى في طريقي إلى بوسطن. طريق أخذتني في مجرى جديد لم يكن لي على بال. ولو بقيت في مشيغن لتزوجت إحدى الزنجيتين اللتين كنت معجباً بهما ولكنت الآن ماسح أحذية في بناية المجلس البلدي أو نادلاً في نادي لانسينغ القروي أو خادماً بأحد البيوت أو نجاراً

على أفضل تقدير. ولو كان المستر ستراوسكي قد شجعني على المحاماة لكنت الآن برجوازياً أسود يرتشف الكوكتيلات ويلتقط الفتات ويستجدي الاندماج ويزعم أنه يدافع عن حقوق الجماهير السوداء. لله الحمد على أن هيأ لي الذهاب إلى بوسطن. لولا ذلك لكنت ما أزال مسيحياً راضياً بحالي في خنوع.

الفصل الثالث

ابن البلد

كان كل ما فيَّ ينطق بلانسينغ، ميشيغان عندما وصلت إلى بوسطن، شعري الأجعد الثائر الذي لم أكن حتى أسكِّنه بدهن، وأكمام سترتي، القصيرة وسروالي الذي لا يغطي الجوارب، ومعطفي القصير بياقته الضيقة ولونه الأخضر أيضاً بدرجة أخف من البدلة. كان منظري مروعاً حتى بالنسبة لإيلا التي قالت لي فيما بعد إن هناك من جاؤوها في أحوال أسوأ بكثير.

كانت قد هيأت لي الغرفة العلوية وأعدت عشاء فاخراً. وقد كانت من هذه الناحية زنجية جورجية أصيلة، تملأ صحون ضيوفها باللحم والفاصولياء والبازلاء والسمك المقلي والكرمب والبطاطس الحلوة وعصيدة القمح والمرق وخبز الذرة، ولا تشعر بالسعادة حتى يفرغوها ويستزيدوا. ولقد نزلت على مائدتها وكأن الساعة تقوم غداً. ولم تتغير نظرتي إليها بل ظللت أراها على القدر نفسه من السواد والضخامة والهيبة. وكانت تبدو مسيطرة على الوضع بعد طلاقها منذ أسبوعين من زوجها الثاني الذي لم يصمد أمام نزعتها المسيطرة التي عانيت أنا نفسي منها.

وفي اليوم التالي قدمت لي النصيحة التي تقدمها لمن تأتي بهم من الجنوب عادة، فقالت إن عليَّ ألا أتسرع في الحصول على عمل وأن أبدأ بالتعرف إلى المدينة وركوب الحافلات والمترو، لأنني لن أجد الوقت لذلك فيما بعد وأنها ستجد لي عملاً عندما يؤون الأوان.

وسمعت كلامها فانطلقت أتجوّل بادئاً بروكسبري هيل وشارع وومباك وهامبولت الشبيه بشوغر هيل هارليم حيث أقمت فيما بعد. ولاحظت غطرسة زنوج روكسبري الذين يسمون أنفسهم «ذي فور هاندرد» ويترفعون على زنوج الحي الفقير المعروف بـ«المدينة» حيث كانت تقيم أختي الأخرى لأبي.

خدعتني بيوتهم الهادئة والحشيش المقصوص في مداخلها ومشيتهم الد ئدة وهم في الطريق إلى العمل أو السوق أو الكنيسة، فتصورت أنهم طبقة مهمة بلاً ذات شهادات جامعية ومناصب، والحقيقة أنهم لم يكونوا إلا من قبيل ماسح أحذية لانسينغ وبوابيها مع فرق واحد، وهو أنهم يعيشون في الأوهام فيقلدو ، البيض ويحتقرون إخوانهم سكان «المدينة» الذين يقيمون على رمية حجر.

كان كل من امتلك بيتاً وسكن المرتفع يعتبر نفسه أفضل، حتى إن دفعته الحاجة إلى تأجير بعض غرفه. وكان الذين ولدوا هناك ينظرون باستعلاء إلى لجنوبيين النازحين والكادحين من أمثال إيلا، في حين كان الزنوج الأمريكيون من فيهم الشماليون والجنوبيون يحتقرون زنوج الهند الغربية ويسمونهم «اليهود الس د» الذين كانوا على غرار الجنوبيين يملكون أكثر من بيت، في حين لم يكن الشماليو ، يملكون في العادة إلا بيتاً واحداً. وكان أصحاب المهن كالمعلمين والواعظين و ممرضات يعتبرون أنفسهم «خاصةَ ألخواص» بينما كان سعاة البريد والبوابون والنادلو ، يتهادون في مشيتهم وكأنهم سفراء في اللباس الداكن المذيل. وكانت الأغلبية الا احقة من زنوج المرتفع تقوم بأعمال حقيرة تطلق عليها أسماء طنانة مثل قولهم إنا يعمل في «البنك» أو في «الأمن» وكأن الأمر يتعلق بروكفلر زمانه وليس ببواب عج ز مغلوب على أمره. وكانت العبارة الشائعة لتجميل عمل الخادمات والطباخات هي «أعمل مع أسرة عريقة»، وبالنسبة للسعاة المسنين الذين ينزلون المرتفع في بدلات دا نة وياقات بيضاء: «أعمل في القطاع «المالي» أو في قطاع «العدل» ». وأنا إلى الآن لا أفهم كيف يستطيع الإنسان أن يتمادى في خداع نفسه إلى هذا الحد.

وواصلت جولتي فوجدت بنايات تاريخية ولوحات إعلانية وتماثيل وأنصاب رجال وأحداث من بينها، لدهشتي، تمثال زنجي يدعى كريسبوس أتاكس الذي يعد أول قتيل في مذبحة ما وقعت ببوسطن. وزرت جامعة بوسطن ثم أخذت الد نرو ونزلت حين رأيت معظم الركاب ينزلون فوجدت نفسي في كامبريدج وجامعة هـ فارد، ولم يخطر لي ببال أنني سأرجع إليها بعد عشرين عاماً لأخطب في كلية الحقو ،. وذهبت إلى مركز المدينة ولم أفهم لماذا تحتاج بوسطن إلى محطتي قطار رئيسيتي ،. وذهبت إلى محطة الحافلات التي استقبلتني فيها إيلا فإلى الميناء حيث وجدت واخر أثرية معروضة. وكتبت عن ذلك كله لإخوتي واصفاً أزقة بوسطن الضيقة، الملت بة والمبلطة

بالحجارة والبيوت المتراكمة والمتداخلة وقلت لهم إنني رأيت ببوسطن أكبر متاجر البيض وأفخم مطاعمهم وفنادقهم.

كنت قد عقدت العزم على مشاهدة جميع الأفلام التي تعرض في القاعات المكيفة، الجميلة، ولكنني غيرت رأيي بعدما اكتشفت مرقص روزلاند وعرفت أن فرقاً سوداء وبيضاء معروفة على الصعيد الوطني تأتي لتعزف فيه. وقد شاهدت هناك بالفعل فرقة غلين ميلر التي كنا نستعمل أسطواناتها في حفلات مدرسة مايسون الثانوية وتساءلت عما عسى أن يقوله زملائي هناك لو عرفوا ذلك.

وبقيت أشرد عن المرتفع حتى بعدما أنهيت جولتي الإستطلاعية فتسرب القلق إلى إيلا وبدأت تلمح إلى ذلك وتقول إن عليَّ أن أرافق أقراني الذين يتجمعون عند صيدلية تاونزاند وفي أماكن أخرى. لم تكن تعرف أنني أنظر إلى أقراني كما لو كانوا في الصف الأدنى أو في سن أخي ريجينالد، وأن أقراني في المدرسة كانوا يعتبرونني أكبر منهم وأنني كنت أبدو أكبر من أخويَّ ويلفريد وفيلبرت عندما كنت أتجول إلى جانبهما في شوارع الحي الزنجي بلانسينغ.

وهكذا بقيت أتردد على «المدينة» رغم نصائح إيلا. كان هنا شيء يجذبني إليها، عدم تصنع الناس فيها وشعوري بالإنتماء إليهم على الرغم من أنني أسكن المرتفع.

ومضى عليَّ شهر وأنا ما أزال منبهراً بالشباب المتأنق والعاطل على ما يبدو، والذي يتجمع في المنعطفات وقاعات البيار والبارات والمطاعم. وكان أكثر ما يبهرني فيه شعره الذي يبدو لشدة تليينه وتلميعه وكأنه شعر البيض في تسريحات عجيبة قالت لي إيلا إنها تسمى «كونك».

وأدهشني أن أجد في «المدينة» أطفالاً لا يتعدون الثانية عشرة من أعمارهم يقامرون بالنرد والورق ويتعاركون ويستجدون من الكبار سنتاً أو خمسة سنتات ليلعبوا بها، ويفعلون أشياء أخرى من هذا القبيل، أنا الذي لم أكن قد ذقت الخمر أو دخنت سيجارة واحدة في حياتي. سمعت هؤلاء الأطفال ينطقون بكلمات داعرة وسوقية لم أسمعها من قبل، كانت تعلق بذهني وكنت أستعيدها قبل أن أنام. وكنت أدهش عندما أرى امرأة بيضاء تتأبط ذراع رجل أسود أو تجلس معه تحت أضواء النيون الكاشفة، لأن ذلك كان يتم في السر في لانسينغ.

كنت أريد أن أجد عملاً بمفردي لأدهش إيلا. وأطللت من نافذة كنت ت تعودت أن أطل منها على قاعة بيار منجذباً بمنظر الشباب المنحني على الموائد الخضراء التي تتدحرج عليها الكرات الملونة في طريقها نحو الثقب. وخطر ببالي أن دخل لا لألعب، إذ لم أكن أعرف كيف تمسك العصا، ولكن لأسأل عن العمل شاباً قصيراً ذا تسريحة «كونك» يصفف الكرات للاعبين، كنت قد سمعت أحداً يناديه شو ي، لأنه مر بي يوماً وأنا أطل من النافذة وقال لي: «أهلاً يا أحمر!» فاستأنست به.

ودخلت متسللاً واقتربت من شورتي الذي كان يملأ علبة أليمنيوم مسحوق يمسح به اللاعبون أيديهم فرفع إليَّ رأسه. فيما بعد أخذ يمازحني ويقول إن من تلك النظرة عرف تاريخ حياتي وأنه قال في نفسه: «يا للرجل! رائحة القرية ما ال تفوح منه. وهذا البنطلون الذي لا يكاد يغطي ركبتيه! وهذه السدرة التي على رأسه». لكنني ذلك اليوم لم أتبين مدى سوء وقع منظري عليه. قلت له عندما رفع إليَّ أسه إنني سأكون شاكراً لو دلني على الكيفية التي يحصل بها الناس على عمل مثل ع له فقال: «إذا كنت تقصد تصفيف كرات البيار فأنا لا أعرف أي مكان يحتاج الآن لع ل جديد في المنطقة. أو تراك تقصد أي عبد متوفر؟». قصد بعبد عمل. وسألني ع ن أعمالي السابقة وقلت له إنه سبق لي أن غسلت الأواني في مطعم بلانسينغ، مشيغين فاضطرب حتى كادت العلبة أن تقع من يده وقال في انفعال: «يا ابن بلدي!. يا لصدفة! . اضرب هنا» وبسط لي كفه «. . . أنا أيضاً من لانسينغ».

كان أكبر مني بعشر سنوات، ولكنه لم يفطن ولم أقل له في البد ة وعندما اكتشف ذلك كانت صداقتنا قد توطدت فلم يبال.

ترك مدرسة لانسينغ وهو في السنة الأولى ثانوي وذهب ليعيش م عمه في دترويت ثم انتقل إلى بوسطن التي كان له فيها أحد أبناء عمه. وذكرت له أسماء أشخاص وأماكن في لانسينغ فعرفها كلها، ثم لم نلبث أن أصبحنا نتكلم وك نا أصدقاء العمر. كانت فرحته نابعة من القلب، وكنت أنا مدركاً لمدى حظي السعيد ذ وجدت في مثل هذه المدينة الكبيرة صديقاً له مثل خبرته. وقال: «ستعجبك بوسطن إذا عرفت كيف تكتشفها وسأساعدك لأنك ابن بلدي». ولم أعرف ماذا أقول فمضيت أبتسم في بلاهة. وقال: «لا تتحرك من هنا. انتظرني حتى أنتهي من العمل».

أعجبتني فيه صراحته لأنه قال لي من الوهلة الأولى إن أحداً لا يحب حي الذي

أسكن فيه وتدارك: «ولكن أختا تأوي أخاها من دون مقابل ثم لا تضغط عليه ليجد عبداً، لا يمكن أن تكون سيئة». وقال إنه يقيم الأود بعبده هذا في انتظار أن يتعلم العزف على السكسوفون الذي اشتراه بعدما ربح في الرهان على الخيل والذي ينتظر الآن هناك، في تلك الخزانة حيث سيأخذه بعد العمل ويذهب ليتمرن مع أصدقاء ينوي أن يُنشىء معهم فرقة صغيرة يحيي بها حفلات روكسبري، وأضاف: «إنني لا أريد أن ألتحق بفرقة مشهورة وأقضي عمري متنقلاً في أقاصي البلاد لمجرد أن يقال إنه يعزف مع كاونت أو ديوك أو فلان أو علان» . وبدت لي الفكرة رائعة وتمنيت لو أنني كنت قد تعلمت العزف على السكسوفون.

كان شورتي يصفف الكرات ويجد الفرصة ليقول لي من زاوية واحدة من فمه إن هذا اللاعب أو ذاك، الواقف على مقربة منا أو الذي يلعب في هذه المائدة أو تلك، يبيع المخدرات أو أنه لم يخرج من السجن إلا منذ أيام أو أنه من أحذق اللصوص. قال لي إنه يخصص دولاراً كل يوم للمقامرة على الخيل وأنه سيؤسس فرقته بمجرد ما يربح، وشعرت بالخجل لأنني لم يسبق لي أن قامرت فقال ليجد لي عذراً: «وهل كان لديك ما تقامر به؟ المستقبل أمامك. ستجد عبداً وستقامر، فإن ربحت رفعت الرهان». وأشار إلى بعض اللاعبين وقال إنهم من تجار الدعارة وإن لديهم بيضاوات وأضاف: «لن أكذب عليك إنني من زبائنهم. بدولارين. وهذه الحركة تنشط هنا في الليل. سترى» وقلت له: «لقد رأيت» فسألني إن كنت قد تعاملت معهم وأحرجني ثم عاد يقول مهوناً: «لا تخجل! اللعنة! . أنا أيضاً كنت مثلك. إنهن في لانسينغ بولونيات، زائرات الجسر. أما هنا فإنهن في الغالب إيطاليات وإرلانديات». وبعد ذلك قدمني للاعبين قائلاً: «ابن بلدي. إنه يبحث عن «عبد» في حالة ما إذا سمعتم بشيء».

وانتهى عمله في السابعة مساء فأعطاني كل ما كسبه خلال اليوم، حوالي سبعة دولارات على شكل بقشيش من فئة خمسة وعشرة سنتات وقال: «هل هذا يكفيك يا ابن بلدي؟» ولكنني رفضتها وقلت إن معي دولارين ثم قبلت بعد أخذ ورد ثلاثة دولارات مدها إليَّ وقال: «أدفيء بها جيبك». وفتح الصندوق ليريني سكسوفونه العالي الصوت فوجدته يلمع في القطيفة الخضراء. وذهب، يحمله ويقول: «لا تقلق يا ابن بلدي، سيجد لك الإخوان عبداً».

وعندما رجعت إلى البيت قالت لي إيلا إن شخصاً اسمه شورتي قد طلبني

بالتلفون وقال إن فريدي ماسح الأحذية في قاعة روزلاند سيترك عمله الليلة، أنه قد أوصاه بأن يحتفظ لي به. وأضافت بنبرة وشت بعدم رضاها عن هذا النوع من العمل: «ولكنك ليست لك خبرة في مسح الأحذية» ولم أهتم بقولها لأنني كنت قد بدأت أتخيل نفسي على مقربة من أشهر الفرق الموسيقية في العالم فانقلبت على عقابي وقصدت قاعة روزلاند في التو.

وجدت القاعة تتلألأ بالأضواء والبواب يستقبل فرقة بيني غودمان، فقلت له إنني أريد أن أرى ماسح الأحذية فريدي وقال: «وهل ستعمل بديلاً منه؟» وقلت إنني أعتقد ذلك فضحك وقال: «عسى أن يكون حظك كحظه فتربح مثله في الرهان وتشتري أنت الآخر سيارة كادياك» ثم قال تجده في قاعة الإستراحة بالطابق الثاني. وفي الطريق أطللت على القاعة وأدهشتني حلبتها المشمعة واتساعها. كان أعضاء الفرقة يذهبون ويجيئون في ضوء وردي خافت ويتكلمون ويضحكون ويخرجون السكسفونات ويعدون المنصة. وفي قاعة الإستراحة وجدت شاباً رفيع العود، أسمر، شعره مصفف على طريقة «الكونك» قال لي بمجرد ما رآني: «هل أنت هو ابن بلد شورتي؟» فقلت: «نعم» وقال إنه فريدي ثم عاد إلى الكلام على شورتي قائلاً: «ابن حلال! طلبني وأوصاني بك بمجرد ما سمع أنني ربحت في الرهان». وسألته عن حكاية الكادلاك التي أشار إليها البواب فضحك وقال: «هؤلاء البيض! يقتلهم الحسد عندما يسمعون أنك كسبت شيئاً جديداً. لقد قلت لهم ذلك بالقصد لأغيظهم». ثم قال إن علي أن أراقبه جيداً وهو يشتغل دون أن أعطله وأنه سيعلمني في ليلتين، وبدأ يعد أدواته ثم قال: «يجب أن تحضر باكراً... ضع الخرق والفرشات دائماً في هذه الناحية من الصندوق... زجاجات الدهن وعلب المعجون وفرشاة الجلد المخملي هنا.. كل شيء في مكانه المخصص له، حتى إذا كثر عليك العمل فلن تضيع حركاتك في البحث... وعندما يخرج الزبائن من المراحض اهرع إليهم بفوطة صغيرة. إنك تحرجهم وتضطرهم إلى غسل أيديهم لأنهم لا يفكرون في ذلك في أغلب الأحيان الفوطة هنا كمين. عليك بها. سيكلفك غسلها سنتاً واحداً وهم في العادة يدفعون على الأقل خمسة أو عشرة. البيض بالخصوص يحبون هذه الحركة ومنهم من تحمله على العودة مرتين أو ثلاث مرات في الليلة الواحدة». وبدأ الجوق يعزف، ولعلني انفعلت بشكل واضح لأنه قال لي: «ألم يسبق لك أن شاهدت فرقة كبرى؟. إذهب وتفرج قليلاً». وذهبت فوجدتهم قد بدأوا يرقصون ووجدت شقراوات لم أر مثلهن في حياتي

ومسنات وشباباً أبيض يدفع ثمن التذاكر ويدس بقية الأوراق المالية في جيوبه ويأخذ معاطف النساء إلى المكان المخصص لها ثم يتأبط أذرع صاحباته ويدخل.

وجدت فريدي قد شرع في العمل عندما رجعت، وبدا لي وهو يهرع بالفوطة قبل أن يصل الرجال إلى الأحواض وكأنه يقوم بأربعة أعمال في آن واحد. وبعد مدة قال: «يمكنك الآن أن تأخذ مكاني. مُرَّ بالفرشاة على الحذاء بقوة مرة أو مرتين». وخف العمل قليلاً فقال لي: «هذا الذي رأيته في الحلبة ليس شيئاً. انتظر حتى يرقصوا رقصة السبوكس» وواصل تعليماته: «خيوط الأحذية هنا وفي هذا الدُرْج هنا. أنت مبتدىء ولذلك سأتبرع لك بهذه الخيوط. اشتر الزوج بخمسة سنتات وقل لهم إنهم في حاجة إلى خيوط جديدة وبعهم الزوج بعشرة».

لم تترك الفرقة أغنية لبيني غودمان أعرفها إلا غنتها تلك الليلة. وبدأت فنانة جديدة اسمها «بيغي لي» تغني فسمح لي فريدي بأن أذهب لأتفرج مرة أخرى. كانت من داكوتا الشمالية وكانت زوجة غودمان هي التي اكتشفتها حسب ما قاله لنا بعض الزبائن، وكانت جميلة وغناؤها جيّد فصفق لها الجمهور طويلاً.

وعندما رجعت قال لي فريدي: «أنا أيضاً كنت مبهوراً عندما جئت إلى هنا، ولكن قل لي هل سبق لك أن مسحت الأحذية؟» فقلت له: «حذائي فقط» وضحك وقال: «سأعلمك. أنا أيضاً لم يسبق لي ذلك قبل أن آتي إلى هنا». واقتعد الكرسي وشرع يعلمني على حذائه من الألف إلى الياء: الفرشاة، السائل، الدهن، المعجون، الخرقة، الورنيش... «بسرعة. لا تضيع وقتك» وأراني المقصود بالسرعة على حذائي. ولم يكن هناك زبائن فأراني أيضاً كيف أفرقع الخرقة. فعل ذلك بالسرعة البطيئة وقال: «هل تريد أن تجرب كل ذلك الآن؟» فنزلت من الكرسي وصعده هو وبدأت أشتغل على حذائه فقال إنني أدركت المبدأ وأن عليَّ أن أطور السرعة. «السرعة مهمة. تدفع بهم إلى تزويد الأجر لأنهم يعتقدون أنك تقصم ظهرك». ومرنت يدي على حذائه حتى أصبح يلمع كالمرآة وسمح لي بالاستزادة من ذلك على أحذية ثلاثة أو أربعة سكارى استدرجهم في آخر الليل.

وانتهت السهرة فساعدنا في تنظيف القاعة من الأوراق وأعقاب السجائر والزجاجات، ثم أوصلني إلى البيت بسيارته البْويك الثانية التي قال إنه سيدفعها للشركة ويأخذ مكانها سيارة كادياك. وفي الطريق قال لي: «أظن أنه يمكنني الآن أن أقول لك

شيئاً آخر. احمل معك دائماً دزينة من الأكياس المطاطية. هل رأيت أول الذين جاؤوني في نهاية الحفلة؟. ذلك ما كانوا يريدونه. ثمن الواحد عشـ أطلب منهم دولاراً وسيزيدون عليه البقشيش». ونظر إليَّ وقال: «وهناك أمو زلت طارئاً عليها. سيطلبون منك الخمر والماريخوانا ولكن لا تشرع في تتبين هوية الطالب، أهو من البوليس أم لا. ستكسب عشرات الدولارات الواحدة إن أنت طبقت نصائحي» ثم أضاف وأنا أهم بالنزول: «والخلاصة هذه الحياة بلية كبرى وهذا أهم شيء يجب إن تذكره الآن».

وبعد أيام وجدت فريدي في سيارته الكاديلاك في مركز المدينة ينتظر أن يبرد المحرك فقلت له: «لقد علمتني يا صاحبي!» وفهم قصدي فضحك مسح الأحذية ومد الفوطة كانا ستاراً للعمل الحقيقي وهو بيع المشروبا والماريخوانا والسعي بين الزبائن ومروجي البغاء الأسود والأبيض. لم يسمح لأي شيء أسود بأن يخطر في حفلات البيض ولكنهم كانوا يتعامل البغاء الأسود بوساطة ماسح الأحذية.

كانت حفلات البيض أكثر من حفلات السود، وكانت تحييها فرق حين كانت تحيي حفلات سوداء فرق سوداء. مرة واحدة خرقت القاعدة و شارلي بارنيت في حفلة سوداء. على أن الفرق البيضاء لم تكن على كل غليل السود، وإن كانت فرقة شارلي بارنيت تلك قد طيرت صواب الز «شيروكي» و «رد سكين رومبا».

كانت البنات في الحفلات الزنجية يخطرن في آخر تقليعات الموضة وأ والساتان وأحدث التسريحات، والشباب بالبدلات الفضفاضة وتسريحات المجنونة والكل يبتسم ويلمع بالدهون. ولم يكن يبقى زنجي لا يقوم للرقص.

كان أفراد الجوق يأتون إليَّ قبل السهرة لتلميع أحذيتهم. ومن أشهر ا لمعت أحذيتها ديوك إلينغتون وكاونت باسي وليونيل هامبتون وكوتي ولي لانسفرد فكنت أضرب الخرقة حتى تنطلق كالمفرقعات الصينية. وما هودجر، عازف السكسوفون في فرقة ديوك إلينغتون، الذي كان شورتي شد به، ما يزال إلى يومنا هذا مديناً لي بثمن تلميعة. كان مندمجاً في نقاش الطبل في الفرقة سوني غريبار وأنا أمسح حذاءه. وانتهيت وضربت على

وأدخل يده في جيبه ثم أخرجها فارغة ولوح بها وهو يواصل نقاشه ثم انصرف بكل بساطة ولم يدفع لي. ولم أكن من الوقاحة حتى أطالب بخمسة عشر سنتاً رجلاً يفعل الأعاجيب بأغنية «داي دريم».

أذكر أيضاً أنني دخلت في دردشة من النوع الذي يتم على كرسي مسح الأحذية عادة مع جيمي راشينغ مغني البلوز في فرقة كاونت باسي الذي اشتهر بأغنية «آي سانت فور يو ياسترداي آند هيار يو كام توداي». وأذكر أنه كانت له أقدام غريبة، مدورة مثل جسده وممتلئة، وأنه قدمني إلى أعضاء الفرقة بمن فيهم ليستر يونغ وهاري إديسون وبادي تايت ودون بياس وديكي ويلز وباك كلايتون فبدأوا يأتون إليّ ويحيونني بـ«أهلاً يا أحمر!» ويقتعدون الكرسي فتنطلق خرقتي على صدى أغنياتهم الذي يتردد في داخل رأسي. لم يكن يوجد على وجه الأرض ماسح أحذية يحمل لهم من الإعجاب مثل ما كنت أحمله أنا لهم ولذلك كنت أكلم إخوتي عنهم في رسائلي.

حصلت على أعلى بقشيش من السود الذين كانوا ينزعون نحو الكرم عندما تنتصف السهرة وينتشون. وقد كنا في نهاية حفلات البيض نجمع حوالي إثنتي عشرة زجاجة فارغة، في حين كنا نجمع الصناديق من زجاجات أغلى أنواع الخمور في نهاية سهرات الزنوج.

وكنت أذهب للتفرج كلما سنحت الفرصة فأجد البيض يرقصون رقصاً ميكانيكياً، نمطياً كأنهم تعلموه في المدارس: يسار، واحد، اثنان. يمين، ثلاثة، أربعة، الخطوات والحركات نفسها إلى ما لا نهاية كأنهم مقيدون. أما الزنوج فلم يكونوا في حاجة إلى من يعلمهم الرقص. كانوا يسلمون قيادهم للسليقة ويرتجلون ويجرون أي شخص يجدونه في طريقهم وخاصة الشقراوات اللاتي كن يحضرن حفلاتهم. كانوا، وسأقولها بصراحة ولو أغضب ذلك بعض الزنوج، يتعثرون في بنات جنسهم وهم في الطريق نحو هؤلاء الشقراوات، حتى يخيل إليك أنهن ملائكة نزلن من السماء. ولو حدث ذلك اليوم لأدى إلى اشتباك بالأيدي بين الزنجيات والشقراوات.

كان الزنوج يطلقون لأنفسهم العنان ويندمجون في الرقص، والحق أن الجو كان يهزني أنا أيضاً فأستسلم لإيقاعه مع أنني لم يسبق لي أن رقصت. وعندما كان يتوقد كان الراقصون ينسحبون فتدخل الحلبة بنتان بأحذية التنيس وولدان ويقول البعض: «بدأت الفرجة!» ويتحلق الجمهور في جلبة وتصفيق ويتصاعد العزف ويتبدل لون

الضوء على الراقصين وهم ينطلقون كالمجانين في الهواء فتهتز القاعة كسفينة يموج بها البحر. ويقول البعض: «اعزف! اعزف!» ويعزف الجوق حتى تخور قوى الراقصين فينسحبون على التوالي وهم يترنحون ويلهثون ويتصببون عرقاً. كنت أنسى نفسي وأنا أرقص في الباب والفرشاة في جيب سترتي حتى يأتي المدير ويعنفني قائلاً إن هناك زبائن ينتظرونني.

لا أذكر متى بدأت أشرب الخمر وأدخن السجائر وأتعاطى الماريخوانا، ولكنني أعرف أنني فعلت ذلك عندما بدأت أقامر، أي عندما بدأت أسهر مع شورتي وأصحابه، أيام كان شورتي ينكت حتى يوقعنا من الضحك على الحالة التي جئت عليها من لانسينغ دون أن يضايقني، مع أن مظهري كان ما يزال قروياً. وكانوا يقولون لي إن علي أن أدع شعري يطول حتى يسرحه لي شورتي على طريقة الكونك. وكنت من جهتي أفكر في شراء بدلة فضفاضة وأدخر لذلك ولكن شورتي قال لي: «ولماذا الإدخار؟ ألم تسمع بشيء اسمه القرض؟» وقال إنه سيوصي بي تاجراً يهودياً يعرفه وإن بإمكاني أن أذهب إليه من الغد. وبالفعل ذهبت إليه في صباح اليوم التالي فبادرني بقوله: «هل أنت هو صاحب شورتي؟» فقلت: «نعم» وأنا أتعجب من علاقات شورتي في هذه المدينة. وأخرج ورقة كتب عليها اسمي وروزلاند مقر عملي وعنوان إيلا مقر سكني واسم شورتي الشخص الذي أوصى بي معلقاً بقوله: «إنه من أفضل زبائني». وأخذ مقاسي ثم تناول من المشجب بدلة فضفاضة سماوية تخطف العقل، مقاس بنطلونها ثلاثون بوصة، يتسع حتى الركبة ثم تضيق. والسترة تصل حتى الركبة، تضيق عند الخصر ثم تتسع. وأعطاني حزاماً عليه حرف اللام، الحرف الأول من اسمي العائلي، وقال إنه هدية من المحل، ثم قال إنه لا بد لي أيضاً من قبعة فاشتريت قبعة في لون البدلة بريشة، ثم باعني سلسلة مذهبة ثقيلة تتدلى تحت السترة، وبذلك كنت قد أصبحت غارقاً في الدين.

لبست البدلة وخطرت أمام إيلا فحملقت في وقالت: «كنت أعرف أن هذا سيحدث». وذهبت وأخذت ثلاث صور من ذلك النوع البني بخمسة سنتات، وقفت فيها وقفة درامية، فباعدتُ بين قدمي وأشرت إلى الأرض بكلتا يدي وهو ما جعل المنظر يتكامل مع السترة الطويلة والسلسلة المتدلية وسراويل البنجاب. وانتظرت حتى طبعت الصور فأخذتها ووقعت عليها وبعثت واحدة بالبريد الجوي إلى إخوتي ليروا بأعينهم دليل نجاحي، وأعطيت الثانية لإيلا والثالثة لشورتي الذي تأثر وظهر ذلك في

صوته عندما قال: «شكراً يا ابن بلدي» مع أنه كان يحرص مثلنا جميعاً على ألا يظهر عواطفه.

وذات يوم قرر شورتي أن شعري قد طال بما فيه الكفاية، فقال إنه يريد أن يعلمني كيف ألينه بنفسي حتى لا أنفق ثلاثة أو أربعة دولارات عند الحلاق. وأعطاني لائحة الأشياء التي نحتاجها فذهبت إلى محل بقالة واشتريت ماء الرماد وبيضتين وبطاطتين متوسطتين، ثم ذهبت إلى الصيدلية القريبة من قاعة البيار وطلبت علبة كبيرة من الفازلين وقالباً من الصابون ومشطاً واسع الأسنان وآخر دقيقاً وخرطوماً بمرشة ومئزراً جلدياً وقفازاً، فقال لي الصيدلي: «هل نويت بدء تسريحة الكونك؟» فقلت «نعم» وأنا أبتسم.

وذهبت إلى غرفة شورتي المهترئة التي يسكنها مع ابن عمه فقال: «كأن الغرفة لي وحدي. إنه يقضي معظم وقته مع صديقته. ركز معي». وقشر البطاطتين وقطعهما قطعاً صغيرة ووضعها في زجاجة وبدأ يحرك بمغرفة وهو يصب نصف كمية ماء الرماد ببطء ويقول: «لو استعملت الملعقة لاسودت». وتحول الخليط إلى معجون يشبه النشا فكسر فيه البيضتين وبدأ يحرك بسرعة شديدة وهو ينحني حتى تحاذي تسريحته الكونك الزجاجة. وأصبح لون الخليط أصفر حائلاً فقال: «إلمس» ووضعت يدي على الزجاجة ورفعتها بسرعة فقال: «أنت الآن تعرف أنها حارة. إنه ماء الرماد. سيحرقك الخليط عندما أسرح به شعرك. سيحرقك بشدة. عليك بالصبر إذا أردت أن يصبح شعرك كالحرير». ثم أجلسني وشد المئزر حولي وبدأ يسرح فروة رأسي. وبعد ذلك اغترف غرفة من علبة الفازلين ودلك بها شعري وجلدة رأسي ورقبتي وجبيني. وغسل يديه ولبس القفاز ومئزره ونبهني قائلاً: «دلني على أي مكان تشعر فيه بلسع عندما أبدأ في غسل رأسك. إن الخليط إذا بقي منه شيء يسبب التهاباً».

وجدت الخليط دافئاً في البداية ثم اشتعلت النار في رأسي عندما بدأ المشط يسحل جلدته فضغطت على أسناني وشددت بيديَّ على حرف المائدة كأنني أريد أن أقسمها. وبدأت عيناي تدمعان وأنفي يسيل ولم أعد أطيق فاندفعت إلى الحوض. وفتح شورتي الحنفية وبدأ يرش الماء على رأسي ويرغيه وأنا أسبه وألعنه. فعل ذلك مرات عدة، ربما عشر أو اثنتي عشرة مرة وهو يخفض حرارة الماء في كل مرة، إلى أن بدأ ينزل برداً وسلاماً على رأسي ثم قال: «هل تشعر بأي لسع في أي مكان؟» فقلت له: «لا» وركبتاي تصطكان وقال: «اجلس إذن واسترح. أظن أن العملية قد نجحت».

وعاد الألم عندما بدأ يجفف رأسي بمنشفة غليظة ويفرك بشدة وأنا أقول: «باللي يا رجل! باللين!» فقال: «المرة الأولى صعبة دائماً. ستتعود. لقد صبرت يا ابن بلد ونلت تسريحة كونك جيدة». وسمح لي بالوقوف والنظر في المرآة فوجدت شعر المبتل متهدلاً.

كان الألم في جلدة رأسي قد خف وأصبح محتملاً عندما وضع الفوطة فو كتفي على المئزر وبدأ يدهن شعري ويمشطه إلى الخلف بالمشط الواسع ثم بالمش الدقيق. وبعد ذلك حلق بعناية مؤخرة رأسي وصدغي ثم نظرت في المرآة فنسيد العذاب. كنت قد رأيت بعض روائع تسريحات الكونك، إلا أنها تزعزع الكيان عند تصبح على رأس الإنسان لأول مرة. وعكست المرآة وجه شورتي إلى جانب وجه ونحن نبتسم ونتصبب عرقاً وعلى قمة رأسي كتلة كثيفة من شعر أحمر، لين كأنه شع رجل أبيض.

مهزلة! بلغ بي الغباء درجة الوقوف موقف المعجب بشعره وقد أصبح مثل شع رجل أبيض والصبر على كل ذلك العذاب وإحراق لحمي وطبخ شعري الذي خلقن الله به. ذلك اليوم كنت قد خطوت خطوة نحو الإنحطاط وانضممت إلى مئات الزنو الأمريكيين الذين أصبحوا، نتيجة تعرضهم لعملية غسل الدماغ، مؤمنين بأنهم فعلاً أق شأناً فشرعوا يغيرون خلق الله ليصبحوا جميلين بمقاييس البيض.

إن هذه التسريحة التي يحملها الرجل الأسود على رأسه في كل مكان في أمري من المدن الصغرى حتى المدن الكبرى ومن المطاعم الشعبية حتى فنادق وولدورف آسطوريا، وتلك الباروكات الشقراء الملونة بين الأخضر والوردي والبنفسجي والأحم والفضي على رؤوس نسائه السوداوات، لتبعث على الشك في أن يكون الزنجي ما زا يعرف أنه زنجي. ويؤلمني أن بعض الفنانين قد ساروا في هذا المسار ولذلك فأنا أملك إلا أن أعجب بالذين احتفظوا منهم بشعرهم كما هو ووصلوا إلى القمة من أمثا ليونيل هامبتون وسيدني بواتيي وبكل زنجي لم يلين قط شعره أو على الأقل تحرر م ذلك مثلي. وأنا لا أعرف أياً من هذه التسريحات أكثر عاراً. أتلك التي نجدها عل رؤوس ما يسمى بالطبقة «الوسطى» و«العالية» المفروض أنها واعية؟ أو تلك الت نجدها على رؤوس أولئك المساكين الفقراء غير الواعين الذين يوجد من بينهم م يعصب رأسه على طريقة العمة جيمينة حتى لا تفسد تسريحته وحتى يعلن بها ف

المناسبات عن أناقته وتقدمه؟ والمصيبة أنني لا أعرف امرأة واحدة تعجب برجل لأنه يستعمل هذه التسريحة وأن المرأة البيضاء على كل حال عندما تذهب مع رجل أسود لا تفعل ذلك من أجل تسريحته. كما لا أعرف كيف ترضى امرأة سوداء معتزة بأصلها أن تُرى في الشارع إلى جانب رجل يحمل فوق رأسه شعار خجله من سواده. إنني أوجه هذا الكلام إلى نفسي قبل كل شيء، إذ لا يمكن أن يكون هناك زنجي واظب على تليين شعره مثلي. وللذين ما زالوا يفعلون ذلك أقول: لو كان السود، رجالاً ونساء ينفقون من الوقت على تنمية عقولهم ما ينفقونه على تليين شعورهم، لأصبحت أحوالهم أفضل آلاف المرات مما هي عليه.

الفصل الرابع

لورا

كان شورتي يأخذني إلى حفلات صاخبة، مليئة بالحركة والحيوية والا سواء والموسيقى، تعرفت فيها إلى صديقات لطيفات وأصدقاء مطلعين يستعملون لغة وقية لم ألبث أن تعلمتها.

وعلى غرار آلاف زنوج القرية النازحين، اكتسبت جميع التقاليد المعمول ا في الأحياء الزنجية بالشمال مثل البدلة الفضفاضة وتسريحة الكونك والإقبال على المشروبات الروحية والتدخين والماريخوانا وكل ما من شأنه أن يخلصني من عقدة خلفيتي، ولكنني بقيت أعاني في سري من نقص عدم الرقص.

ثم بدأت أتعلم الرقص في هذه الحفلات وساعدت الخمر والمخدر والم سيقى الصاخبة الصادرة من المسجلات على تفجير غريزتي الإفريقية. كان الجميع قص إلأي، وجاءت فتاة وجذبتني لأن من غير المعقول أن يأتي المرء إلى هذه الحفلا ت ثم لا يرقص فانطلقت، هكذا، من دون مقدمات كأن أحداً ضغط على زر.

كنت أحسب نتيجة لما كنت أراه في حفلات البيض في لانسينغ أن ا قص مقنن، ولكنني وأنا بين أبناء قومي الأقل وسوسة، وجدت الأمر لا يعدو أن يترك المرء لجسده حرية التصرف على إيقاع الموسيقى.

ومنذ ذلك اليوم عوضت ما ضاع. بدأت أحضر كل الحفلات وأقوم للرقص دون أن يدعوني أحد وأرقص حتى ينقطع نفسي. وتعلمت بسرعة كما هي عادتي. كنت أشتغل وأتمرن على إيقاع أكبر الأجواق وأفرقع خرقة التلميع وأدق الأرض بقدمي حتى أدوس على أقدام الزبائن البيض فيضحكون و«الزنجي» على كل حال «رقاص با طرة» كما يقولون حتى يندمج فيصبح كاللعبة المعمرة كما حدث لي.

وعندما سمعت أن ليونيل هامبتون سيحيي حفلة السود، أشعرت المدير قدماً بأن يبحث له عن ماسح أحذية جديد. وسرّت إيلا بالخبر وانفجرت بالضحك عندما

قلت لها إنه لم يكن بوسعي أن أمسح الأحذية وأرقص. وأخبرت شورتي فقال إنه كان يعرف أنني سأترك ذلك العمل إن عاجلاً أو آجلاً.

كان شورتي يرقص، إلى حد ما، ولكنه لم يكن يحب الحفلات والأجواق الكبرى، وكان يعتقد أن معظم العازفين مقلّدون. كان كل همّه في سكسوفونه وفي جوني هودجز وفي اليوم الذي تصبح له فيه فرقته الخاصة.

وفي اليوم التالي لتركي العمل، مشيت جذلانَ إلى متجر الملابس الرجالية، وراجع التاجر سجله فوجد أنني لم أدفع قسط الأسبوع الماضي، وقلت له إنني تركت عملي بالأمس فقط، فقال إنه يمكنني التأخر في الدفع أسبوعين آخرين إذا دعا الأمر لأنه يثق بي.

وجربت كل ما لديه في مقاسي ثم اخترت بدلتي الفضفاضة الثانية، وكانت رمادية بسترة واسعة وطويلة وبنطلون يتسع ثم يضيق إلى درجة أنه كان عليَّ أن أخلع الحذاء لأقيسه. وبإلحاح من التاجر اشتريت قميصاً وقبعة وحذاء آخر موضة، برتقالياً داكناً بنعل رقيق ورأس مدور، وبلغ مجموع الثمن سبعين أو ثمانين دولاراً. كان يوماً ميموناً ذهبت فيه أيضاً إلى الحلاق ولينت شعري ولم أتعذب كالمرة الأولى كما قال شورتي.

كنت أعد نفسي لأكون نجم السهرة التي كانت كل روكسبوري ستحتشد فيها تلك الليلة. وفي بهو قاعة روزلاند رأيت بعض متأنقي الحي يتطلعون في بدلتي وبعض الفتيات يلاحقنني بنظراتهن. وصعدت إلى بيت الراحة وأنا أختال لأشرب من الزجاجة التي أحتفظ بها في جيب سترتي الداخلي، فوجدت ماسح الأحذية الجديد، ولد أسمر، مغبر وخجول ذو وجه ضيق، يبدو عليه أنه لا يأكل قدر كفايته. ونظر إليَّ مبهوراً عندما عرفني، فقلت له أن يتمالك نفسه وأنه لن يلبث هو الآخر أن يلحق بالركب.

ورجعت إلى القاعة فوجدت كل شيء على ما يرام. الجوق يعزف والحلبة تكتظ بالراقصين وهم يتطايرون كالمجانين، ووجدت فتاة لا أعرفها فبدأنا نقفز ونبتسم في سعادة. كنت قد تمرنت في غرف ضيقة والآن كل هذا المجال لي.

واكتمل توقدي ومرونتي فبدأت أنزل على البنات وأجذبهن كالمجنون وأَلِفُّ بهن

بسرعة حتى تصطفق أثوابهن. كن من كل نوع، سود وسمر وصفر بل و تى بنتان شقراوان كانتا هناك. كنت أقذف بهن في الهواء من فوق خصري وكتفي و ف وأدق الأرض بقدمي وأنبطح قبل أن يصلن إلى الأرض. كنت قوياً، ممتد القامة هزيلها، فكنت أبدو في الواحدة والعشرين مع أنني لم أكن أتعدى السادسة عشرة. لم تشهد قاعة روزلاند حفلاً من هذا النوع بعد تلك الليلة إلا كنت أول الحاضرين فيه

كانت أجودهن رقصاً فتاة سوداء اسمها لورا تعرفت إليها في عملي الج .يد. ذلك أن إيلا من فرحتها بتركي مسح الأحذية، بادرت إلى إيجاد عمل جديد لي ي صيدلية تاونزاند القريبة من بيتها يقضي بسقي الزبائن من آلة المرطبات بعدما قرر ال مل القديم مواصلة دراسته الجامعية.

ضايقني الخبر لأنني لم أكن أطيق تلك الأنماط من سكان المرتفع، ولكنني لم أقل شيئاً ثم ما لبثت أن وجدتني في سترة بيضاء وأنا أسقي أولئك المتأنق ن. وبدأت إيلا تقول لي عندما أعود في الثامنة مساء: «أرجو أن تتعرف إلى أقرانك من هؤلاء الشباب». ولكن سكان المرتفع الذين كانوا يعانون ويلات الفقر ويأتون إ ے المشرب وهم يتعجرفون وكأنهم يملكون مال قارون، أقراني منهم وغير أق ني، كانوا يضايقونني. كانت هناك مثلاً تلك العجوز التي تخدم في بيوت البيض وتأتي إلينا بلهجتهم وحركاتهم وسكناتهم وتطلب حلوى للجميع على حسابها من م ل يهودي. وتلك العاملة في كافتيريا أحد المستشفيات التي كانت تأتي يوم عطلتها وهي تطوق رقبتها بفرو قط وتتبجح بأنها لا تأكل اللحم، وذلك الشاب الذي كانت إيا تدوخني به والذي كان يقلد البيض إلى درجة أنك لو سمعته ولم تره لما خطر ببالل أنه أسود، كرّهني في المشرب إلى درجة أنني بدأت أنتظر الثامنة بفارغ الصبر. وحير كانت تصل أخيراً كنت أنطلق إلى البيت وأتعشى وألبس بدلتي الفضفاضة وأقصد أصح ي في الحي الفقير لأرقص وأتخدر وأفعل أية مصيبة تنسيني المرتفع وأنماطه.

وذات ليلة لعبت بعشرة سنتات في رهان جرى بالصيدلية وربحت ستين دولاراً فاشتريت كرة بدأت ألعب بها مع شورتي، ولو أنني ربحت في رهان الخ ے الذي كنت ألعبه بالقرض وأصرف عليه دولاراً كل يوم، لتركت هذا العمل ولاش يت سيارة، ولكن ما علينا، المهم أن لورا كانت تسكن قرب الصيدلية وتأتي إلى ال ىرب بعد ما تخرج من المدرسة فتطلب آيس كريم على الموز، وإنني بدأت أشرع فِ إعداد طلبها

كلما رأيتها قادمة من بعيد. وبعد حوالي شهر تأكدت أنها مختلفة عن الآخرين. طبيعية ومهذبة. كانت تبقى نصف ساعة، تراجع دروس اللاتينية والجبر في كتب سميكة وتأكل الآيس كريم.

لم تكن تتعدى عبارات التحية مع الآخرين وعبارات الشكر معي وكان صوتها جميلاً في هدوء ورقة. وأعجبني فيها أنها لم تكن تستعرض تحضرها. وفتحت معها باب الحديث ذات يوم فوجدت أنها تلميذة متفوقة في المرحلة الثانية من الثانوي، تحب المدرسة وتفضل الجبر والمواد العلمية، وأن أبويها انفصلا وهي طفلة فربتها جدتها، عجوز صارمة وتقليدية ومتدينة تعيش من المعاش، وأن لها صديقة واحدة لا غير في كامبريدج تكلّمها هاتفياً يومياً، وأن جدتها لا تسمح لها بالذهاب إلى السينما فضلاً عن الخروج مع الشباب وأنها تنوي مواصلة دراستها الجامعية في كلية العلوم.

وقدرت سنها من متن كلامها، فوجدت أنها تكبرني بسنة، ولكن ذلك لم يخطر لها بالطبع على بال. كانت تنظر إلي وكأنني أكثر منها خبرة، ولكنني شعرت بالإحباط بعد ذهابها لأنني أدركت إهمالي للكتب التي كنت أحبها وأنني لم أقرأ شيئاً منذ تركت مايسون ولا حتى صفحة في جريدة.

بعد ذلك بدأت أترقب مجيئها وأدفع عنها وأكثر لها من الآيس كريم وبدأت هي تترك كتبها جانباً وتكلمني، ثم بدأت تستدرجني للحديث عن نفسي إلى أن قلت لها إن أمنيتي كانت أن أصبح محامياً فأمسكت بتلابيبي وبدأت تقول وتعيد: «يجب أن تواصل دراستك وتصبح محامياً. كانت على يقين أن إيلا ستساعدني. ولو أن إيلا عرفت أنها تستطيع أن تساعد فرداً من العائلة ليصبح أستاذاً أو طبيباً أو شيئاً من هذا القبيل، لما ردتها قوة في الأرض عن ذلك.

كنت أعرف أنها مستقيمة، لا تشرب الخمر ولا تتخدر، فكنت أعرف أنها لن تنسجم مع شورتي وأصحابه، ولذلك لم أقدمها لهم، ولكنها فاجأتني يوماً عندما قالت لي إنها تحب رقصة الليندي هوبينغ التي اكتشفتها كما قالت في حفلة أقامها صديق زنجي بمناسبة قبوله في هارفارد، فقلت لها ونحن نغادر المشرب: إن فرقة كاونت باسي آتية إلى قاعة روزلاند وأن بإمكانها أن تأتي إذا أرادت، فقالت في إنفعال شديد إنها لم تدخل قاعة روزلاند أبداً وأنها سمعت بهذه الفرقة كثيراً وتريد مشاهدتها، ولكن جدتها لن تسمح لها بذلك. وافترقنا على ذلك الأساس، ولكنها جاءت يوم الحفلة

وقالت لي إنها ستأتي إن كان بإمكاني أن أرجعها باكراً إلى البيت، وأنها قالت جدتها إنها ذاهبة إلى نشاط مدرسي. وقلت لها إن علي أن أذهب إلى البيت لأغير ملابسي فترددت قليلاً ثم قبلت أن تأتي معي. كنت قد أخبرت إيلا بالتلفون والتي لم تصدق أن تراني مع فتاة متعلمة من بنات المرتفع. وأذكر أنني ارتديت بدلتي السماوية لأنها أكثر شيء محافظ أملكه، وأنني عندما نزلت وجدت إيلا قد أعدت الشاي ودخلت مع لورا في حديث ودي وكأنها تعرفها من زمان بعيد.

وألقت علي إيلا نظرة متفحصة ولعلها ارتاحت لأن تراني بالبدلة السماوية. وأدركت أنها قد استدرجت لورا إلى أن تبوح لها بكل تفاصيل حياتها وأنها قد بدأت تفكر في تزويجي. كنت أبتسم في سيارة الأجرة وأقول لنفسي لقد برهنت لها على أنني أستطيع مرافقة بنات المرتفع عندما أريد، في حين كانت لورا ما تزال تحت أثر الدهشة، ولكنها كانت مطمئنة لأن أحداً من معارف جدتها لا يذهب إلى المرقص. وقالت إن صديقتها أيضاً لا تصدق، ثم لم نلبث أن وجدنا أنفسنا في بهو القاعة ووجدتني محاطاً بالترحيب والتهليل.

إن رقصة الليندي لا تستوجب أن يعرف الراقص بالضرورة طريقة رفيعة في الرقص. ما عليك إلا أن تدخل الحلبة والبقية تأتي من نفسها. الذين جربوا هذه الرقصة يعرفون قصدي. ما عليك إلا أن تلف وتدق الأرض بقدمك وتوجه الراقصة برفق بذراع منحنية قليلاً في دفع وجذب فإذا هي، إذا كانت جيدة، تقبل وتدبر وتلف في الإتجاه المرسوم لها من دون جهد. وحتى عندما ترمي بها في الهواء فإنها تلحق بك وتواصل الرقص معك في انسجام. أما الراقصة السيئة فهي على العكس ثقيلة الحركة وذات رد فعل بطيء. وكانت لورا من النوع الأول في خفة راقصة الباليه ورشاقتها. أنا الآن أغمض عيني وأرى حركات قدميها. كانت ممتازة لولا أنها لم تكن تكمل الرقصة.

فيما بعد قال لي صديق في هارليم اسمه سامي كان يلتقط النساء لدور الدعارة: إن حقيقة المرأة تظهر على وجهها عندما تندمج في الرقص، فتمنيت لو أنني عرفت ذلك يومها. أنا لا أقول إنني كنت سأعرف حقيقة لورا أو أن فسادها الذي نزل على جدتها كالصاعقة كان متأصلاً فيها، فلقد قست عليها الحياة وبدأت بذلك عندما وضعتني في طريقها.

كان لا يبقى في الحلبة إلا كبار الراقصين وكانت كبريات الراقصات ينتعلن حينذاك أحذية التنيس، وكان من بينهن من لا تجد رفيقاً في المستوى حتى آخر لحظة. ويبدأ العزف ويختار الجمهور مواقع الفرجة ويستعد لتشجيع نجومه. كنت من النجوم فكنت في قلب الحلبة ومن بين الهاتفين من يقول: «هيا يا أحمر! اقض عليهم يا أحمر!».

وجاءتني إحدى المجنونات بالرقص، نادلة في مطعم تسمى مامي بيفيلز فاحترت بينها وبين لورا إلا أن لورا أخذت تقهقر وهي تنظر إليَّ.

كانت الموسيقى تتنامى فأخذت مامي وانخرطنا في الرقص. كانت ضخمة وقوية، ترقص كالحصان الجامح. وكانت قد دخلت «منتخب» رقاصي روزلاند في ليلة مشهودة كنت حاضراً فيها. كان الجوق يصطخب فرمت بحذائها وأطلقت صيحة وانتفضت وكأنها تهم بدخول إحدى حلقات الرقص الشعائري في أدغال إفريقيا. دخلت حافية القدمين وبدأت ترقص وتصيح حتى اضطر الشاب الذي جاء بها إلى أن يهدئها بالقوة ولكنها أعجبت الجمهور فأصبحت مشهورة.

وهكذا بدأت مامي ترقص معي بأسلوبها الحي ذاك، وبدأتُ أجرّها كما يجر الفرس وعندما خرجنا ونحن نتصبب عرقاً هتف لنا الجمهور وربت البعض على ظهرينا. وأذكر أنني أوصلت لورا إلى بيت جدتها ورجعت، وأنها بدأت تأتي إلى المشرب ولا تكلمني. كنت قد بدأت أعرف النساء فأدركت أنه لا فائدة من الضغط عليهن ليفصحن عما يضايقهن لأنهن سيفعلن ذلك من أنفسهن عندما يؤون الأوان. وكانت إيلا تحاصرني بـ: «متى ستخرج مع لورا؟» و«هل ستأتي بها إلى البيت مرة أخرى؟» و «يا لها من فتاة رائعة!». كانت قد طوقت رقبتي بالزواج وانتهى الأمر.

كان كل همي أن أخرج من العمل وألبس بدلتي الفضفاضة وأنطلق إلى شورتي وأصدقائه وصديقاتهم في الحي الفقير. لم أكن أفكر لا في لورا ولا في الزواج. وجاءتني ذات يوم وقالت إنها تريدني أن أرافقها إلى الحفلة الزنجية التي سيحييها جوق ديوك إلينغتون فقبلت وأنا لا أدري بما يرسمه القدر. وقالت لي أن آتيها إلى البيت هذه المرة لأنها قررت أن تجابه جدتها بالحقيقة. لم أكن متحمساً لمقابلة الجدة ولكنني ذهبت وفتحت لي، عجوز سوداء من الطراز القديم، ذات وجه عاشت فيه الغضون وشعر قليل أشيب. وأفرجت الباب قليلاً وتركتني بالكاد أدلف دون أن تقول ولا حتى:

«أدخل أيها الكلب». لقد واجهت في حياتي بعد ذلك رجال بوليس ومجرمين خـ رين ولم يكونوا في جفاء تلك العجوز.

كانت غرفة الإستقبال عاجة بصور المسيح وبصلوات محبوكة في زرابي ـ غيرة وتماثيل المسيح وهو مصلوب وتحف دينية أخرى على حرف المدفأة وعلى الـ رائد وعلى الجدران وفي كل مكان. وحيث إنها لم تكلمني فإنني لم أكلمها ولكنني الآن أفهمها. كيف كنت أريدها أن تستقبلني وأنا بتلك التسريحة وذلك الحذاء البرتقـ لي؟ الحقيقة أنها تحملت كثيراً عندما لم تطلب البوليس ولو أن أحداً على ذلك الشكل طرق عليَّ بابي اليوم وطلب رؤية إحدى بناتي لما تمالكت نفسي ولهجمت عليه.

ورقصنا معاً ومع الغير ثم جاء وقت الفرجة. ولم تكن لورا في مستوى راقـ ـات الفرجة ولكنها أرادت أن تدلي بدلوها فانطلقت لتلبس حذاء التنيس. وجاءتني راقـ ـتان حركت لهما رأسي معتذراً وبدأ الجمهور يعاون بالتصفيق وبدأ الهتاف: «هيا يا أ ـمر! هيا!» وبدأنا نرقص فسلطت علينا دائرة الضوء ولم تتركنا. لم يسبق لهم وهم العـ ـفون أن رأوا رقصة الليندي تؤدى بهذه المرونة أو رأوا لهذا الأسلوب الرشيق، الرقيق ـ يلاً. وبذلت جهدي حتى أضحت لورا تبدو طائرة في الهواء. كانت ترتفع وتنخفض تقبل وتدبر وكنت أرفعها من جنبي الأيمن والأيسر وألف بها وأسير بها إلى الخلف ثـ مرة أخرى ترتفع وتنخفض في حركة لولبية برقة وهدوء بينما باقي الراقصات في عتو وهيجان.

وخرجت أسندها وسط الهتاف وهي تلهث وشعرها ثائر ووجهها مبتل بـ عرق كالملاكم المنتصر الذي أفرغ طاقته في الحلبة وخرج منها واقفاً على قدميه. وصـ ـن لنا بعض أعضاء الجوق ووقف ديوك إلنغتون نفسه وانحنى لنا. عندما يعجب بك الـ مهور وقت الفرجة فإنه يهتز لك بالتحية ساعة الخروج فيخبط ويشد ويربت كما يفعل بالأبطال الرياضيين تماماً. وهكذا كان. ربتوا على كتفي وأحاطوا بلورا وحملوه على أكتافهم. ورفعت رأسي فوجدت شقراء ترمقني لم يسبق لها أن جاءت إلى الـ ـلات الزنجية. وشقراء من هذا المستوى، غير داعرة معناها في الوسط الزنجي حظوة ـ رى. كانت بشعر قصير وقوام متناسق وملابس كلفت شخصاً ما مبلغاً طائلاً. أعرف ـن ما سأقوله الآن شيىء مخجل. لقد نسيت في تلك اللحظة لورا التي ما إن تخلصـ ـ من الجمهور حتى وقفت مذعورة وقد وجدتني أعود إلى الحلبة لأرقص مع الشقراء.

لم تكن (سأسميها صوفيا) راقصة جيدة، ليس بالمقياس الزنجي على كل حال، ولكن ذلك لم يكن مهماً. المهم أن عيون الزنوج كانت مشدودة إلينا. وقلت لها إنها تجيد الرقص وسألتها أين تعلمته ولماذا جاءت إلى هنا خصوصاً وأنها لم تكن من النوع الذي تعودنا أن نراه، فكانت تجيب أجوبة غير محددة، ثم قلت لها إنني سأوصل لورا وأعود. وفي نهاية الحفلة أخذتني في جولة في سيارتها فأدركت كم أنا محظوظ وساقت إلى خارج بوسطن وانعطفت في طريق وأوقفت السيارة وأسكتت كل شيء ولم تبق إلا صوت الراديو.

بدأت تأتي مرتين في الأسبوع فنتجول بسيارتها وأذهب بها إلى مراقص روكسبوري وحاناتها لأستعرضها على الزنوج ولا تعود بي إلى بيت إيلا إلا بعد مطلع النهار. ولم أعرف أبداً الدافع وراء سلوكها الجريء معي تلك الليلة. قدرت أن لها سوابق من هذا النوع ولم أسأل. ما جدوى السؤال؟ إن المرأة في هذه الحالة إما أن تكذب فتظل أنت على جهلك بالحقيقة وإما أن تقول الحقيقة فتندم على السؤال.

كان يبدو عليها أنها معجبة بي للغاية وكانت تقول إنها تخرج أيضاً مع بعض الرجال البيض للتمويه. وأخذت علاقتي بها كل وقتي فلم أعد أرى شورتي الذي كان من جهته قد تعرف إلى إحدى جميلات المرتفع والذي كان يتباهى بعلاقتي بصوفيا لأن الجميع يعرف أنه صاحب الفضل في تعليمي. كان يناديني ابن بلده ويقول مناغشاً إنني نفضت عني غبار القرية. وكانت صوفيا عندما قدمتها له قد عانقته فكاد أن يقضى عليه، خصوصاً وأنه لم يعرف من البيضاوات إلا العاهرات وبعض أنماط تشتغل في مصنع الدقيق.

وبدأ الزنوج يعاملونني باحترام وكأنني لم أكن في نظرهم إلى حين واحداً من ذوي الشعور الملينة والبدلات الفضفاضة، بعدما بدأت أظهر بينهم وهذه الشقراء التي لم تر العين مثلها إلى جانبي، وليس هذا وحسب وإنما شقراء حسناء بسيارة فاخرة تعطيني فوق ذلك كله النقود التي أنفقها. كان حتى كبار البلطجية من أصحاب الأندية وأخطر المقامرين وغيرهم يربتون على ظهري ويجلسونني في أفضل الموائد وينادونني «يا أحمر» بمودة، ولكنني كنت أعرف دوافعهم كما أعرف اسمي. كانوا يطمعون في المرأة الشقراء التي ترافقني طبقاً لطبيعة الإنسان، أسود وأبيض، القاضية بالرغبة في التميز بشيء يحسد عليه.

ولم تعد لورا تأتي إلى المشرب وأنا فيه، وعندما رأيتها آخر مرة ك ت قد أصبحت امرأة ساقطة في روكسبوري ونزيلة سجون. انحرفت وهي في المدرسة لثانوية حيث بدأت تشرب الخمر ثم تدرجت إلى الدعارة ومنها إلى الشذوذ. ولقد عا ت من الشعور بأنني أتحمل مسؤولية ذلك وزادني حسرة أنني فعلت بها ما فعلته ہ ، أجل امرأة بيضاء وليس لي من عذر إلا القول بأنني كنت واحداً من الصم العمي.

وعرفت إيلا بالأمر وراقبتني حتى رأتني أنزل من سيارة صوفيا ذات صباح فحولت حياتي إلى جحيم إلى درجة أنني تركت بيتها وسكنت مع شورتي الذي ان ابن عمه قد أصبح يعيش مع صديقته وبدأت صوفيا تدفع قسطي من الإيجار لأنني نت قد تركت العمل أيضاً. ثم لم ألبث أن وجدت عملاً آخر في مطعم باركر حيث لبست سترة بيضاء منشاة وبدأت أحمل إلى المطبخ أطباقاً كبيرة من الألمنيوم يضـ عليها النادلون الصحون والشوك والملاعق والسكاكين الفضية. ووصلت ذات يوم متأخراً أترقب الطرد ولكن عمال المطبخ كانوا منشغلين عني بالحديث عن قنبلة فجرها اليابانيون في مكان يدعى بيرل هاربر.

الفصل الخامس

الهارليمي

«سندوتشات خنزيير وجبن جيدة! قهوة! ملبس! كعك! آيس كرييم!» كنت أطلق صوتي وأمد في النداء متنقلاً من قاطرة إلى قاطرة خلال الساعات الأربع التي يقطع فيها القطار المسافة بين بوسطن ونيويورك.

وكان رجل من معارف إيلا عضواً في كنيستها، قد نصحها بإدخالي السكة الحديدية قائلاً إن الحرب تخطف العمال وأن بإمكانه أن يساعدني إذا زعمت أن عمري إحدى وعشرين سنة.

وكانت إيلا تريد أن تبعدني عن صوفيا، ولولا سني لأدخلتني الجيش ولكنت الآن أعود مع العائدين الذين يملأون في العطل شوارع روكسبوري بالبدلات الكاكي والأحذية الثقيلة.

ووافقت أنا على هذا العمل لأنني كنت أريد أن أرى نيويورك التي طالما سمعت الفنانين والبحارة والباعة والسائقين ومختلف أنواع البلطجية في روكسبوري يتكلمون عليها ويسمونها «التفاحة الكبيرة» والتي انطبعت عندي ولا سيما هارليم بالجمال منذ كنت طفلاً في لانسينغ أسمع أبي يصفها باعتزاز وهو يرينا صور الإستعراضات التي كان ينظمها أتباع ماركوس كارفي. كما أن الجرائد السوداء مثل «ذي شيكاغو ديفاندر» و«ذي بيستبورغ كورير» و«ذي آفرو أمريكان» كانت تنشر على صحفاتها الأولى صور سيول من الجماهير الزنجية وهي تهتف وتلوح لـ«قاذفة القنابل الأسمر» الملاكم جو لويس وهو يرد التحية من شرفة فندق تريزا بهارليم كلما هزم خصماً أبيض.

كان كل ما سمعته عن نيويورك يثيرني، الأضواء الساطعة ومرقص السافوا ومسرح أبولو في هارليم الذي تعزف فيه أعظم الفرق والذي انطلقت منه أشهر الأغاني والرقصات والأسماء السوداء. ولكن زيارة نيويورك سواء من لانسينغ أو من بوسطن

ليست بالأمر السهل بالنسبة لمن لم يكن يملك نقوداً مثلي. ولذلك لم آخذ الـ وضوع مأخذ الجد حتى ظهرت فرصة السفر إليها بالمجان.

ولم يحل عملي دون مقابلتي صوفيا عكس ما تصورت إيلا وبقيت أرا ا كلما تيسرت لي العودة إلى بوسطن كل يومين، وقد قبلت هي ذهابي لأنها كانت تـ قد أن السكة الحديدية أفضل من الجيش على كل حال بينما أعتقد شورتي الذي كا وقتها مرهوباً من اقتراب موعد تجنيده، أنها فرصة لا تعوض. كان كغيره من شباب لأحياء الزنجية يتناول شيئاً يعتقد أنه يوهم الأطباء بوجود خلل في القلب لأنه كان يؤ ، مثلنا جميعاً أن الحرب حرب الرجل الأبيض الذي يملك كل شيء وأن عليه أن يـ وضها بنفسه لا أن يبعث بنا لنموت من أجله.

وذهبت إلى مصلحة الموظفين في مكتب السكة الحديدية بشارع دوفر وطرح عليَّ موظف أبيض عجوز، يتظاهر بالإعياء، العديد من الأسئلة إلى أن قال: «مـ عمرك يا ليتل؟» فقلت: «واحد وعشرون» ولم يرفع رأسه فعرفت أنني قد حصلـ على العمل.

وعدوني بعمل «طباخ رابع» في قطار بوسطن نيويورك عند أول فرصة، و لفوني بشحن الطعام في القطارات موقتاً. كنت أعرف أن الإسم مجرد تفخيم لغسل الا ـاني، ولكن ذلك لم يكن مهماً طالما أنه يسمح لي بالسفر مجاناً إلى حيث أريد. ثم ها لم تكن المرة الأولى التي أغسل فيها الصحون. بعد ذلك وضعوني في خط ; سطن واشنطن. وكان كبير الطباخين وأصله من جزر الهند الغربية واسمه ديوك ڤون، يعمل بفاعلية منقطعة النظير والنادلون يلغطون بالطلبات على طقطقة القطار، والطـ اخون يعملون كالآلات، والقدور والصحون والشوك والملاعق والسكاكين الفضية ترتـ م من حولي.

وتوقفنا ليلة في واشنطن فذهبت أتجول وصعقني ما وجدت في الحي ا ـنجي بعاصمة البلاد، على بعد خطوات من البيت الأبيض ومبنى الكونغريس، من فقر مدقع يفوق كل ما رأيته في روكسبوري، أكواخ حقيرة في أزقة قذرة تحمل أسماء مثل زقاق الخنزير وزقاق التيس. ووجدت من الصعاليك والمومسات والمقامرين بالنرد ـباعة المخدرات ما لم أجده في أي حي زنجي آخر. وجدت أطفالاً حفاة، شبه عراة يـ ـرون في منتصف الليل في تلك الأزقة ويستجدون. كان عمال مطبخ القطار قد أو ـوني

بالحذر الشديد وقالوا إن الإعتداء بالسكاكين هناك من أجل السرقة شيء مألوف.

ووجدت زنوجاً أفضل حالاً يعيشون في بيوت مبنية باللبنات الحمراء عرفت أنهم من تلك الطبقة التي قال لي عمال القطار عنها إنها تحمل شهادات جامعة هووارد وتشكل فئة العمال والسعاة والبوابين والحراس وسواق التاكسيات وهلم جراً.

وبعد حين قالت لي المصلحة إنه يمكنني الإلتحاق بخط بوسطن نيويورك فذهبت في بدلتي الفضفاضة قبل أن يحين موعد القطار. وعندما وصلنا ركبت سيارة أجرة مع الطباخين ومضيت أحملق في نيويورك البيضاء وهي تمر أمامي كشريط سينمائي. وعبرنا المتنزه المركزي ودخلنا النهج ١١٠ فبدأ لون الناس يتغير. كان الشارع السابع غاصاً بالبشر ورأيت فيه «سمولز برادايس» البار الذي كلمني عمال القطار عليه وأوصوني بزيارته، والذي كنت سأنبهر به أكثر من أي مكان زنجي آخر. كان به عندما زرته بار مدور، فخم، ومن حوله ما يناهز الأربعين زنجياً بينهم بضع نساء يشربون ويتحدثون. ولعل أول ما أثار انتباهي فيهم بدلاتهم التقليدية وخلقهم. كان هناك، وعلى الرغم من إزدحام المكان همهمة خافتة، وقد كنت كلما دخلت مكاناً زنجياً يضم حوالي عشرة أفراد وجدته يضج. أما هؤلاء الهارليميون فقد كانوا يدخلون ويخرجون وعمال البار يسقونهم شرابهم المعهود ويضعون زجاجات كاملة أمام الجماعات دون حاجة إلى الكلام.

كانوا يضعون الأوراق المالية على البار بهدوء وبلا تكلف وهم يشربون ويومئون للعامل أن يصب الشراب لأصدقائهم، وهو يفعل ذلك ويضع الصرف أمامهم في هدوء ودعة. ولم أكن قد رأيت زنجياً لا يستعرض ما لديه من نقود، فتأثرت بذلك أيضاً تأثراً بالغاً حتى أنني رميت عني في لحظة، ببوسطن وروكسبوري إلى الأبد، إلا أنني سرعان ما اكتشفت تلك الليلة أن ذلك البار استثناء ورواده نخبة، وأن لهارليم أيضاً مثلها مثل غيرها من أحياء الزنوج طبقتها الصاخبة.

كان الوقت وقت العشاء والناس ما تزال في بيوتها وكانت رهانات النهار قد انتهت ومقامرات الليل وتجمعاته لم تبدأ بعد. أخذت سيارة أجرة وذهبت إلى مسرح أبولو حيث كان جوق ماك شانز سيحيي حفلة تلك الليلة. أذكر ذلك جيداً لأن مغني الجوق وولتر براون أصبح فيما بعد صديقاً حميماً لي. ومن هناك لمحت فندق تيريزا في الشارع السابع شامخاً، بلونه الرمادي. كان أرقى مكان لنزول الزنوج إذ لم تكن

فنادق مركز المدينة قد بدأت تقبل الزنوج بعد واشتهر بإقامة فيديل كاسترو فيه عـ .ما زار الأمم المتحدة، تلك الإقامة التي زعزعت وزارة الخارجية التي لم تكن تتصور أنه سيفك عنه حصار منهاتن ويخلف كل ذلك الأثر الكبير في زنوج هارليم.

كان فندق برادوك في النهج ١٢٦ على بعد خطوات بجوار الباب الخلفي لمسـ ـح أبولو، وكنت قد سمعت أن نجوم هارليم يلتقون في باره، فدخلته ووجدت فيه بالـ ـل ديزي جيلسباي وبيلي إكستاين وبيلي هوليداي وإيلا فتجيرالد ودينا واشنطن. وعـ .ما كانت هذه الأخيرة، خارجة سمعت من يقول إنها ذاهبة إلى قاعة السافوا حيث ستـ ـجي مع ليونيل هامبتون حفلة تلك الليلة، فتركت البار وتوجهت إلى قاعة السافوا. كـ ـت أفضل من قاعة روزلاند بكثير ورقصة الليندي هوبينغ فيها أكثر تطوراً. كان هناك ـ ـدد لا بأس به من البيض الذين جاء معظمهم للفرجة وأقلهم للرقص مع بعضهم البعـ ـ، وكان هناك كما في بوسطن بضع شقراوات مع الزنوج.

ورقصت مرة أو مرتين ثم شاهدت هامبتون وهو يؤدي أغنية «فلايينغ هوم» بطـ ـب من الجمهور فصدقت القصة التي رويت لي عن هذه الأغنية في بوسطن، والقائلة إن أحد المخدرين سمعها ذات ليلة فحسب أن بمستطاعه أن يطير بالفعل فألقى بنفسه ـن الشرفة وكسرت ساقه. وقد خلد أورل هاينز الحادثة بكلمات الأغنية الناجحة «ا ـزة الشرفة الثانية».

بعد ذلك قدمت أغنيتان بطيئتان هدأتا الجو، ثم جاء دور دينا واشنطن فأطلـ ـت عنان الجمهور من جديد بأغنية «سولتي بابا بلوز». مسكينة دينا! لقد شيع جنازتها ـي شيكاغو منذ أيام جمهور قدرته الصحف بـ ٢٠٠٠٠ ولم يتسن لي للأسف أن أكون ـن بينهم رغم أن دينا كانت من أصدقائي.

كنا في ليلة الخميس، عطلة الخادمات، فكان عدد النساء يفوق عدد الرجال لا سيما وأن زوجات الجنود كن هناك أيضاً في سحنة تغلب عليها الوحشة والو- ـدة والتفرس في الرجال. وعندما خرجت سمعت مومسة تسب وتشتكي من مزا- ـمة الهاويات اللائي لم يتركن للمحترفات مجالاً لكسب عيشهن.

كانت المنطقة التي تشمل شوارع لينوكس والسابع والثامن، زاهية كسوق شر ـي حافل بالألوان الطبيعية وكان مئات الشباب الزنجي الغرير يملؤها في لباس الجـ ـد

والبحارة. ولم يكن هناك جندي أو بحار أبيض واحد بسبب ما كانوا يتعرضون له من هجوم وسرقة وقتل. وكانت الشرطة تحاول إقناع المدنيين البيض أيضاً بالإبتعاد عن هارليم ولكن البعض منهم كان ما يزال رغم ذلك يرتادها. وكان الرجال الذين ليس معهم نساء عرضة لمعاكسات المومسات بتحريض من مشغليهن الذين كانوا يقفون على مقربة منهن ويهمسون من جهتهم: «هل تريد شقراء؟» في حين كانت أصوات الباعة المتجولين تتعالى بالصياح: «خاتم بمائة دولار. ماس حقيقي والساعة بتسعين. اسمع! هل تأخذهما معاً بخمسة وعشرين؟». بعد سنتين أصبحت واحداً من هؤلاء الباعة وأتقنت كل خدعهم، ولكنني تلك الليلة بقيت أحملق فيهم كالمعتوه، ثم قررت بيني وبين نفسي أنه لا بد لي من أن أصبح هارليمياً، أي بعبارة أخرى منحرفاً ونصاباً وعالة على المجتمع العامل. إن الثمانية ملايين الذين يسكنون نيويورك نصفهم يعمل ونصفهم الآخر يعيش عالة عليهم.

كنت ما أزال مبهوراً عندما علقت مائدة السندوتشات في رقبتي وإبريق الأليمنيوم ذاك الذي يسع خمسة غالونات من القهوة، وأخذت أذرع القاطرات في طريق العودة إلى بوسطن. كنت أرجو لو أنني لم أكن متخاصماً مع إيلا لأحكي لها كل ذلك، ولكنني حكيته لشورتي محاولاً تشويقه بالتركيز على الحركة الفنية في «التفاحة الكبيرة» على أنني حكيت لإيلا أيضاً فقالت بحق إنه ليس هناك إلا نيويورك لإشباع تطلعاتي، نيويورك التي استلبتني في ليلة واحدة وضيعت على سلفي في بيع السندوتشات أمل العودة إلى ذلك القطار إلى الأبد. فلقد تمسكت بهذا القطار وأخذت أبيع السندوتشات والقهوة والملبس والكعك والآيس كريم بسرعة خارقة بعدما تعلمت في ظرف أسبوع أن البيض يشترون أي شيء ويزيدون البقشيش إذا قدمت لهم البضاعة أو الخدمة مصحوبة بحركات بهلوانية من قبيل فرقعة خرقة تمليع الأحذية. وكان النادلون والحمالون يعرفون ذلك فكانوا يبالغون في تصرفاتهم العم طومية. كانوا يعرفون أن هوس البيض بأهميتهم يذهب إلى حد الدفع غالياً لمن يكرس لديهم هذا الوهم.

واستأجرت حجرة في جمعية الشباب المسيحي لقربها من «سمولز براديس» ثم لم ألبث أن وجدت حجرة أرخص في بيت مسز فيشر القريب الذي كان ينزل فيه معظم عمال السكة الحديدية، وبدأت أكتشف المزيد من خبايا هارليم. مشطت الشوارع الرئيسية والمناطق السكنية على السواء جيدها ورديئها، من قمة شوغر هيل قرب ملاعب البولو حيث يسكن عدد من مشاهير الزنوج حتى منطقة «مصيدة الفأر القديمة»

التي يرتع فيها كل ما هو غير أخلاقي وغير قانوني. كانت مخربة، قذرة، تعج بالعلب المرمية وبالسكارىء والمخدرين والمتسوّلين والبارات الحقيرة وبكنائس في دكاكين يُقرأ فيها الإنجيل بصخب وبمتاجر البضائع القديمة ودكاكين تبيع لحم الخنزير وبيوت الدعارة ومطاعم زنجية تفوح منها رائحة الشحم ومحلات حلاقة نسوية يملؤها دخان الشعر الزنجي المحروق ومحلات حلاقة رجالية تعلن عن خبرتها في تسريحة الكونك وسيارات كادياك جديدة ومستعملة، بارزة للعيان وسط أنواع من سيارات أخرى. كان الهوان يتجسد ويفوق كل ما رأيته من قبل في غرب لانسينغ وجنوب روكسبوري.

وجدت علامة «للإيجار» على قباء صغيرة وأشخاصاً يوزعون بطاقات تعلن عن تنظيم حفلات الحد من الزيادة في أسعار الإيجار، فذهبت إلى واحدة منها ووجدت فيها ما يتراوح بين ثلاثين وأربعين زنجياً يتصببون عرقاً ويأكلون ويشربون ويرقصون ويقامرون في شقة مكتظة، صاخبة، المسجل فيها مفتوح على مداه، وثمن الصحن من الدجاج المقلي ومعدة الخنزير وسلطة البطاطس والكرمب، بدولار وعلب الجعة والمشروب الروحي المركز بخمسين سنتاً.

كان ملتمسو أصوات الناخبين يقفون لصق الحيطان، يتكلمون بسرعة ويحاولون حمل الزائر على شراء نسخة من «الدايلي ووركر» قائلين إنها جريدة تحاول الحد من الزيادة في أسعار الإيجار وإرغام أصحاب الملك الجشعين على القضاء على الفيران في الشقق، وأنها تنطق باسم الحزب السياسي الوحيد الذي رشح رجلاً أسود لمنصب نائب رئيس الولايات المتحدة. «اقرأها! إنها لن تأخذ من وقتك الكثير. هل تعرف من كافح لتحرير أبناء سكتسبورو؟». كنت أعرف مما سمعته من البحارة أن لهذه الجريدة علاقة بالروس، ولكن ذلك لم يكن يعني لي شيئاً، خصوصاً وأن وسائل الإعلام كانت تلغط وقتها بفكرة الشعب الروسي الحليف، الشعب القوي، المفتول العضلات، شعب الفلاحين الذي يساعدنا في محاربة هتلر وموسوليني.

كانت نيويورك بالنسبة لي جنة وهارليم أعلى درجاتها. ولقد بقيت أتردد على سمولز وعلى بار برادوك حتى بدأ العمال هناك يشرعون في إعداد شرابي عندما يرونني داخلاً، وبدأ الزبائن من فئة الباعة ومروجي البغاء ينادونني بلقبي الذي أكسبتني إياه تسريحتي الكونك الحمراء التي كنت قد بدأت أعملها في صالون «أبوت أند فودجي»، أرقى صالون حلاقة على الساحل الشرقي على حد قول كبار الفنانين الذين دلوني إليه.

في هذه الأثناء تعرفت إلى مجموعة من الموسيقيين من أمثال صوني غريار الطبال في جوق ديوك إلينغتون وعازف الكمان العظيم راي نانس المشهور بأسلوب الـ«سكات» الذي يؤدى هكذا: «بليب ـ بليب ـ دي بلوب ـ دي بلام ـ بلام ـ» وكوتي وليامز وإدي فانسان الملقب كلين هيد الذي كان يكلمني ممازحاً عن تسريحته الكونك وهو أصلع. كانت أغنيته «هاي بريتي ماما، شانك مي إن يور براس بيد» تضرب الرقم القياسي في الرواج. وتعرفت أيضاً إلى سي أوليفر صاحب أغنية «ياس إنديدا» الذي كان يعيش مع زوجته في شوغر هيل ويعمل مع تومي دورسيه.

كان بائع السندوتشات سلفي قد رجع فوضعوه في قطار آخر غير مبالين باحتجاجه بأقدميته نظراً لارتفاع رقم مبيعاتي وكان النادلون والطباخون قد بدأوا يسمونني «الأحمر صاحب السندوتشات» ويراهنون على أنني لن أبقى في ذلك القطار طويلاً رغم ارتفاع مبيعاتي، لأنني كنت قد أصبحت سريع الغضب، جلفاً، إباحي العبارة، كثير الشتم حتى مع الزبائن ولا سيما الجنود الذين لم أكن أطيقهم. وكانت الإدارة قد وجهت إلي إنذاراً لأن أحد المسافرين قدم فيَّ شكوى فبدأت أحترس. وفي ذلك الوقت بالذات اعترض طريقي جندي أبيض من البراري أحمر الوجه سمين، يترنح من السكر كالثور ويقول لي بصوت سمعه كل من في العربة: «أريد أن أتعارك معك أيها الزنجي». شعرت بالتوتر أول الأمر ثم ضحكت وقلت له: «أهلاً وسهلاً ولكن عليك أن تخفف من ملابسك أولاً» وخلع معطفه العسكري ولكنني قلت له وأنا ما أزال أضحك إنه ما يزال مثقلاً فمضى يخلع والركاب يضحكون وأنا أقول له الشيء عينه حتى لم يبق إلا السروال، وعندها جاء بعض الجنود وأخذوه ولم أنس أبداً أنني فعلت به بفكري ما كنت سأفعله بالهراوة.

لعل الطباخين والنادلين في خط نيو هايفن يذكرون پاپاكازونز العجوز الذي كان رئيس النادلين في القطار. وكان بالطبع أبيض من ماين ولم يكن في ذلك الخط حينذاك أي رئيس نادلين زنجي، على الرغم من أن الزنوج بدأوا يعملون في القطار منذ ثلاثين أو أربعين عاماً. وكان پاپا كازونز يحب الوسكي وكل الناس بمن فيهم أنا، فكان يتغاضى عن الشكاوى التي كانت تأتيه ضدي ويكلف بعض الزنوج العاملين في القطار بنصحي فكانوا يحاولون ثم لا يلبثون أن يرتدوا قائلين: «يا له من رجل! لا أحد يستطيع أن يكلمه».

كانوا يرونني أتبختر مع صوفيا في روكسبوري في بدلتي الفضفاضة وأتحول في

القطار إلى كائن ضار، مخمور ومخدر، يبيع السندوتشات. وكنت أشق حشود آخر النهار في محطة القطار الرئيسية بنيويورك وأثير إليّ انتباه بعض البيض ببدلتي الفضفاضة وقامتي الفارعة وشعري المشتعل وأظن نفسي أنيقاً وأنا كالبهلوان. كان الحذاء البرتقالي ذو الرأس المدور بمثابة سيارة الكادباك في الأحياء الزنجية، وكانوا قد صنعوه لنا فاشتريناه لجهلنا لأن الإسم يرتبط بالغنى.

كنت أصرف أجرتي التي كانت تقدر بـ ٢٠ أو ٢٥ دولاراً بين سمولز برادايس وبار فندق برادوك وأماكن أخرى حيث كنت أتناول المشروبات الروحية، وأتخدر وأسهر مع عدد متزايد من الأصدقاء ولا أنام حتى آخر ساعات الليل ثم أواصل الرحلة إلى بوسطن في القطار. وكان من شأن ذلك أن يؤدي بي إلى الطرد لا محالة، وهذا ما حدث بالفعل عندما جاءت شكوى من أحد الركاب بلغ بها السيل الزبى وزاد عليها السائق عدد الشكاوى الأخرى التي توصلوا بها شفاهياً والإنذارات التي وجهوها إلي فطردت. ولكنني لم أبال لأننا كنا في أيام الحرب وأصحاب الشغل من النوع الذي أقوم به عادة في حاجة ماسة لليد العاملة فقررت أن أستعمل امتيازات السفر المجاني التي توافرت لي من عملي في القطار لزيارة إخوتي قبل أن أفكر في أي عمل.

وجدتهم هناك جميعاً عندما وصلت باستثناء أخي الأكبر والفريد الذي كان يتعلم مهنة في جامعة ولبرفورس في أوهايو. وكان فيلبرت وهيلدا يشتغلان في لانسينغ وريجينالد (الصغير الذي كنت مثله الأعلى) والذي بدا أكبر من سنه يستعد لدخول الأسطول التجاري بينما إيفون وويسلي وروبيرت ما يزالون في المدرسة.

ورأوني فلم يصدقوا أعينهم. كنت أبدو لهم كهابط من المريخ بشعري وبدلتي اللذين سببا حادثة سير في المدينة عندما توقف سائق لينظر إليّ فصدمته السيارة التي كانت وراءه، كنت أبسط كفي لكبار الأولاد الذين كنت أغبطهم في طفولتي قائلاً: «اضرب هنا!» وأحكي حكاياتي عن نيويورك. كنت أتحول تحت تأثير المخدر إلى منشط للسهرات. ولم أعد إلى الواقع حتى زرت أمي في المستشفى.

وبحثت عن أم شورتي العجوز لأنني كنت أعرف أن ذلك سيسره، وقلت لها إنه على أحسن حال وإنه ينوي تشكيل فرقة موسيقية خاصة به فسرت وحملتني رسالة شفوية إليه مفادها أن يكتب لها ويبعث شيئاً.

ثم ذهبت إلى مايسون لزيارة السيدة سويرلينغ مديرة سجن الأحداث الذي قضيت

فيه سنتين من حياتي. وفتحت الباب وفغرت فاها. كان منظري أكثر مما تتحمل. البدلة والحذاء والقبعة والتسريحة الحمراء. وعندما رجعت إلى نفسها دعتني للدخول ولكنها تضايقت من مظهري وطريقة كلامي إلى حد أننا تنفسنا الصعداء عندما انتهت الزيارة.

وقبل عودتي إلى بوسطن ذهبت إلى حفل راقص في مدرسة لينكولن. فيما بعد سمعت من يقول: «إذا احتجت للزنجي فابحث عنه في مدرسة لينكولن» ذلك أنه لكم يكن هناك حي زنجي لم تكن فيه مدرسة لينكولن.

كنت قد تركت لانسينغ وأنا عاجز عن الرقص ورجعت إليها وأنا أتقن خطوات وحركات دفعت بالجوق إلى السهو عن العزف من شدة انبهاره وبالراقصين إلى التوقف والنظر إليّ. كنت قد أحدثت في تلك القاعة من الأثر ما جعلني أوقع أوتوغرافات بلقب: «أحمر هارليم»

ورجعت إلى نيويورك فرجعت إلى الواقع. كنت عاطلاً لا أعرف من القطاعات إلا السكة الحديدية. فذهبت إلى مكتب التشغيل في شركة «سي بورد» وشغلوني في اليوم نفسه بمجرد ما عرفوا أنني أمتلك الخبرة الكافية ووضعوني في القطار المتوجه إلى سانت بيترسبورغ. كان المطلوب مني تأجير المخدات وتنظيف العربات والحرص على راحة البيض فنجحت في ذلك نجاحي في بيع السندوتشات ولكنني لم ألبث أن اصطدمت مع مساعد السائق ففقدت هذا العمل أيضاً.

وفي اليوم نفسه أخذني أحد عمال البار في سمولز برادايس جانباً، وكان يعرف حبي لنيويورك وأخبرني بوجود فرصة عمل هناك لأن أحد النادلين سيغادر للإلتحاق بالجيش.

كان صاحب البار إيد سمول لا يُرى إلا بصحبة أخيه شارلي. وكانا من أكثر شخصيات هارليم شعبية ووجاهة. وكانا يعرفان أنني سبق لي العمل في السكة الحديدية وهو شيء في صالحي. واستقبلني شارلي ولكنني كنت أخشى أن يتريث حتى يسأل عني بعض أصدقائه هناك، لأن من غير المعقول أن يشغلني إذا عرف ضراوتي ولكنه كان قد رآني أجلس في باره في هدوء وأتطلع في جماعة الباعة المتجولين في فزع فاطمأن إلى انطباعه. وقلت له رداً على سؤال إنه لم يكن لي أية مشاكل مع البوليس وهي الحقيقة حتى ذلك الوقت. وذكر لي قوانين الشغل: عدم التأخر. عدم

التهاون. عدم السرقة. عدم المشاجرة مع الزبائن وخاصة الجنود، ثم منحني العمل. كنا في عام ١٩٤٢ وكان عمري سبع عشرة سنة.

لم يكن شارلي سمول في حاجة إلى تذكيري بالحضور باكراً فقد كنت من فرحتي بالعمل في باره أصل قبل الوقت بساعة وهو شيء راق لنادل الفترة الصباحية الذي كان يعتقد أن فترتي أكثر فترات النهار ركوداً وأقلها بقشيشاً، فحرص على تعليمي حتى لا أطرد ودلني على كيفية كسب مودة الطباخين وعمال البار لأن لهم تأثيراً حاسماً في عمل النادلين. وكنت قد قررت أن أصبح عنصراً لا غنى عنه في سمولز فجعلت علاقتي مع الجماعتين على أحسن ما يكون.

وكانت مفاجأة سارة للزبائن عندما رأوني في سترة النادل بعدما كنت إلى حين زبوناً مثلهم وعاملوني معاملة حسنة، فرددت لهم معاملتهم بحسن الرعاية. كنت أقول مثلاً: «مشروب آخر يا سيدي؟... حالاً يا سيدي. هل تريد عشاء؟. إنه ممتاز. لائحة الطعام يا سيدي؟.. سندوتش إذن».

واتضح لي أن عمال البار والطباخين لم يكونوا وحدهم من يعرف كل شيء، عن كل شيء ولكن الزبائن أيضاً فبدأت أحدثهم بجانب البار، كلما سنحت لي الفرصة وأتعلم منهم. وكان البعض يكلمني وهو يأكل وكان الحديث يطول بي أحياناً مع رواد هارليم الأوائل. وعرفت بدهشة أن هارليم لم تكن زنجية دائماً، إنها كانت هولاندية في البداية قبل أن تغمرها أوروبا بسيول جائعيها وعراتها وهم يحملون على ظهورهم كل ما يملكون. وأن الألمان جاؤوا فهرب الهولانديون منهم وأصبحت هارليم ألمانية ثم جاء الإرلنديون فراراً من مجاعة البطاطس فهرب الألمان منهم وأصبحت هارليم إرلندية وجاء الإيطاليون فهرب الإرلنديون ثم جاء اليهود فهرب الإيطاليون منهم. والآن تهرب كل هذه الأجناس من الزنوج الذين كانوا هناك عندما وصلت وأفرغوا البواخر التي أقلتها. وتعجبت عندما عرفت أن الزنوج كانوا في نيويورك منذ ١٦٨٣ وقبل أن تبدأ لعبة تداول هارليم تلك وأنهم سكنوا أحقر الأحياء في كل أرجائها. كانوا أولاً في ناحية وول ستريت ودفع بهم إلى غرينتش فلاج ثم إلى ناحية محطة بنسيلفانيا فالشارع الثاني والخمسين الذي ما زال يعرف حتى اليوم بشارع النشاط قبل أن يستقر بهم المقام في هارليم. ونجح تاجر عقار زنجي في ١٩١٠ في إسكان أسرتين زنجيتين أو ثلاث في عمارة يهودية، فبدأ اليهود يهربون من العمارة ثم من المنطقة ثم من المناطق القريبة

لأن الزنوج كانوا يدخلونها إلى أن أصبحت هارليم زنجية كما نعرفها.

وفي العشرينات ظهرت فيها الصناعة الموسيقية والغنائية بتشجيع من البيض الذين كانوا يأتونها للفرجة. وبدأ ذلك عندما جاء من نيو أورليانز عازف آلة نفخ يدعى لويس ساتشمو. وفي ١٩٢٦ فتحت قاعة السافوا للرقص في شارع لينوكس ببنيانها الشامخ وحلبتها التي تسع مائتي راقص وراقصة وتشمل منصتين ومسرحاً متحركاً.

وذاعت شهرة هارليم حتى بدأ الزوار يأتونها من كل أنحاء الدنيا. ثم فتح مطعم نادي القطن للبيض، وتلته مطاعم مماثلة لم يكن يعني أصحابها إلا نقود البيض وأشهرها كونيز إن، لينوكس، بازونز، ذو نيست، جيمينز، شيكن شاك ومينتانز. ثم بدأت مراقص السافوا وذو غولدن غايت وذو رونيسانس تتنافس على جذب الجمهور فاستعمل السافوا مغريات مطبخ ليلة الخميس ومباريات اختيار ملكة الجمال والرهان على سيارة كل ليلة سبت. كانت المراقص ومسارح لافاييت تأتي بالأجواق من كل أنحاء أمريكا. وكان بعض رؤساء هذه الأجواق يخطر في ملابس غريبة مثل فيس وليامز الذي كانت أزرار سترته من الماس وقبعته عالية وكاب كاوواي الذي كانت بدلته الفضفاضة تفوق كل بدلة فضفاضة أخرى وقبعته البيضاء واسعة الحاشية وربطة عنقه عبارة عن شريط. كان يشعل هارليم بأغانيه «تايغر راغ» و«هاي دي هاي دي هو» و«سانت جايمس إنفرمري» و«ميني ذو موتشر».

كانت هارليم تضيق بالبيض وتجار الدعارة والمومسات وباعة الخمر بطريقة غير قانونية والباعة المتجولين والعناصر النشيطة والبوليس السري والعلني.

كان الزنوج يرقصون كما لم يرقص أحد قبلهم ولن يرقص بعدهم. وقد أقسم لي حوالي خمسة وعشرون من رواد هارليم الأوائل في سمولز أنهم كانوا أول من رقص «الليندي هوب» في السافوا، تلك الرقصة التي ولدت هناك في ١٩٢٩ وسميت على ليندبورغ الذي كان أول من قطع المسافة إلى باريس بالطائرة.

حتى الأقبية الصغيرة التي لم تكن تسع إلا البيانو كان لها نجومها الكبار مثل جايمس جونسون وجيلي رول مورتن والمغني إيثيل ووترز. وفي الرابعة صباحاً عندما كانت الأندية الرسمية تغلق أبوابها كان الموسيقيون السود والبيض يأتون إلى مكان معين ويعزفون فيه حتى اليوم التالي.

وعندما انتهى كل ذلك بسبب أزمة ١٩٢٩ كانت هارليم قد اكتسبت سمعتها

العالمية. وكان سمولز جزءاً من تلك الحركة، سمولز الذي أخذت فيه هذه المعلومات وسمعت زبائن يبوحون بدافع الرغبة في الكلام أو بدافع السكر بما اقترفوه من أعمال غير قانونية لكسب قوتهم ويعطونني من حيث لا يدرون دروساً عالية المستوى في التجارات المحظورة والرهان وتجارة الدعارة والغش في أنواع اللعب وإعداد المخدرات وكل أنواع السرقات بما فيها السرقة بقوه السلاح.

الفصل السادس

أحمر دترويت

كنت أنفق بقشيش اليوم الذي يبلغ عشرين وأحياناً خمسة وعشرين دولاراً في الرهان وأحلم بما سأفعله عندما أربح. وكنت قد رأيت أشخاصاً في حالة إنفاق شديد بعدما ربحوا مبالغ طائلة. لم يكونوا من الباعة المتجولين الذين كانوا يملكون شيئاً من المال دائماً، ولكنهم كانوا من العاملين الذين لم نكن نراهم في البارات والذين توقفوا عن العمل عند البيض بمجرد ما ربحوا مبلغاً كبيراً في الرهان واشترى معظمهم سيارة كادياك وتبرع لأصدقائه بشرائح اللحم والشراب مدة ثلاثة أو أربعة أيام والذين كنت أضم لهم حينذاك مائدتين في سمولز فيرشقونني بثلاث دولارات كلما جئتهم بالطعام والشراب.

كان مئات الآلاف من زنوج نيويورك يراهنون كل يوم على الأرقام المكونة من ثلاثة عناصر كل قدر استطاعته، من السنت الواحد حتى المبالغ الطائلة. وكانت الجائزة الكبرى تعادل العناصر الثلاثة الأخيرة من رقم صادرات الولايات المتحدة الذي تنشره سوق القيم. كانت الوحدة تربح ٦٠٠ وحدة أي أن السنت يربح ٦ دولارات والدولار ٦٠٠ دولار والـ ١٥ دولاراً ٩٠٠٠ دولار وهكذا. كانت الجوائز الكبرى قد أدت إلى تحويل ملكية أسهم العديد من البارات والمطاعم وأحياناً ملكيتها الكاملة إلى الأيدي الزنجية، وكانت نسبة الربح واحداً في الألف. وكان العديد من اللاعبين يلجأون إلى ما كان يسمى بالتشكيل، فيراهنون بست سنتات على ست تشكيلات. مثلاً رقم ٨٤٠ يمكن تشكيله كما يلي: ٨٤٠، ٨٠٤، ٤٠٨، و٤٨٠. ولم يكن هناك زنجي لا يراهن يومياً في هارليم الرازحة تحت الفقر. كانوا يرون أشخاصاً يعرفونهم يربحون فكان ذلك يذكي حماسهم، ولم يكونوا على كل حال يلعبون إلا بخمس سنتات وعشرة وربع دولار ودولار يقسمونه على التشكيلات.

كانت حركة دائبة. وكان السعاة ينسخون أرقام اللاعبين في الشقق والبارات

ودكاكين الحلاقة والبقالة وعلى النواصي والبوليس يتفرج. ذلك أنهم كانوا يَرْشُونَهُ ببطاقات يدفعون ثمنها من جيوبهم في حين كان الصيرفيون يرشون مصلحة الشرطة مباشرة بمبالغ طائلة.

كان السعاة يشكلون جيشاً صغيراً يحصل على ١٠٪ من مبيعاته اليومية التي يدفعها للمراقبين مصحوبة بلائحة الأرقام وعلى ١٠٪ من قيمة الأرقام الفائزة. وكان المراقب يشرف على حوالي خمسين ساعياً ويحصل على ٥٪ من مجموع المبيعات اليومية وكان يبقى مع الصيرفي بعد كل ذلك ما يغنيه.

كان البعض يلعب بالرقم عينه طيلة العام والبعض الآخر يحتفظ بلائحة الأرقام التي لعب بها على مر السنين. وكان البعض يلعب برقم بيته أو رقم سيارة عابرة أو أي رقم يجده على الرسائل والبرقيات وبطاقات تنظيف الملابس وأي شيء. كانت هناك كتب لتفسير المنام تباع بدولار وتدل على الأرقام التي يرمز إليها الحلم وكان المبشرون بالإنجيل الذين يدعون للمسيح أيام الأحد وبعض الصالحين يقدمون دعواتهم بالفوز مقابل مبلغ مالي. وأذكر أن أحداً لعب بالعناصر الثلاثة من رقم قاطعات هارليم فربح مبلغاً كاد أن يؤدي بأحد الصيرفيين إلى الإفلاس. انتظر حتى يصل هذا الكتاب إلى الأحياء الزنجية وستجد هؤلاء الحمقى يراهنون مثلاً على رقم هذه الصفحة أو على عدد صفحات الكتاب. أراهنك على ذلك لصالح أية مؤسسة خيرية تختارها مع أنني أقلعت عن الرهان منذ زمن بعيد.

كان كل يوم في بار سمولز يضيف إلى معلوماتي ويزيدني معرفة بهارليم. وذات يوم جاءني إلى هناك زبون يبدو عليه أنه من جزر الهند الغربية وقال: «قف يا أحمر ولا تتحرك» ثم شرع يأخذ مقاسي بشريط أصفر ويكتب في مذكرته. وفي اليوم التالي مد لي عامل البار وأنا أدخل طرداً وجدت فيه بدلة كلاسيكية داكنة وغالية الثمن قال إنها من لدن ذلك الرجل الذي وصفه بأنه رئيس عصابة الأربعين المعروفة ببيع البدلات بثلث سعرها وتسليم الطلبات في اليوم نفسه. وكنت قد سمعت عن هذه العصابة وعن عملياتها الواسعة النطاق. كان يقال إنها تبعث في آخر النهار إلى محل تجاري بأحد أعضائها في أحسن هيئة وأنه كان يختفي حتى يغلق المحل فيجمع البدلات في أكياس ثم يعطل جهاز الإنذار ويتصل تلفونياً في موعد مرور دورية الشرطة من هناك، بعصابته التي تكون على متن شاحنة خارج المحل وبسرعة تُشحن الأكياس ويُذهب بها.

فيما بعد تعرفت إلى بعض أعضاء هذه العصابة وبدأت، شأني في ذلك شأن الباعة المتجولين، أشعر بوجود البوليس بكل أنواعه. وكانت المصالح العسكرية قد بثت عيونها في أواخر ١٩٤٣ وسلطتها على الباعة المتجولين غير المسجلين في التجنيد والهاربين منه والذين يروجون أفكاراً ضده بين الجنود.

كان عمال الشحن في الميناء أو عملاؤهم يبيعون في البارات السلاح وآلات التصوير الفوتوغرافي والعطور وما إلى ذلك من المسروقات التي لا تعد شيئاً لو قيست بمسروقات عمال الشحن البيض. وكان البحارة الأجانب يأتون من جهتهم إلى البارات بأفضل أنواع سجائر الماريخوانا المهربة من إفريقيا وإيران وبالبضائع الأجنبية ويبيعونها بأثمان زهيدة. كانوا من زوار النهار غير الموثوق فيهم بخلاف زوار الليل الذين لم يكن يعنيهم إلا السهر في أندية ليلية لم يكن يعنيها من جهتها إلا نقودهم. وكان الزوار الجنود مراقبين وكانوا يأتون هارليم ويحصلون على حاجتهم فيها ويُرد عليهم إذا تكلموا وكان هذا هو كل ما في الأمر.

كنت أتعلم البند الأول من قانون الباعة المتجولين وهو عدم الثقة في أي كان من خارج الدائرة المقربة وأن الثقة حتى في المقربين لا تتم إلا بعد التأكد الشديد:

كان عمال البار يدلونني إلى مَنْ مِنَ الزبائن مستقيم ومن منهم مخبر أو له اهتمام بالسياسة ومن يوجد تحت تصرفه بعض المال أو يعيش على رزق يومه ومن المقامر الحق ومن صادفه الحظ فقط ومن لا يجب التورط معه بحال. وأمثال هذا الأخير كانوا معروفين ومرهوبين في هارليم وكان شائعاً عنهم أنهم قادرون على تكسير رؤوس من يقف في طريقهم. كانوا من الكبار ولم يكن هناك مجال لمقارنتهم بالباعة الشباب المتهورين الذين كانوا يسعون لبناء سمعتهم بحمل سكين أو مسدس. الكبار الذين أقصدهم كانوا من نوع «بلاك سامي» وكانوا يحملون السلاح ويحرسون داتش شولتز أيام كان يصول في صناعة الرهان بهارليم ويجول، حين لم تكن العصابات البيضاء قد اكتشفت بعد الثروات الكامنة وراء ما كانت تسميه احتقاراً «الملاليم الزنجية» و«الرهان الزنجي». وتعود تلك الأيام الزاهرة إلى ما قبل تحقيقات «سي بوري» التي مهدت لإبعاد شولتز من صناعة الرهان في ١٩٣١ وانتهت باغتياله في ١٩٣٤. وقد سمعت أن حراسه ضربوا حينذاك بأنابيب الرصاص والإسمنت المبلول وهراوات البايسبول وركلوا ولكموا بالأيدي المجردة وبالقفاز المعدني وأنهم قضوا مدة في السجن ثم عادوا واشتغلوا مع كبار الصيرفيين.

كانوا وهم زنوج يتحاشون الإصطدام مع البوليس الأسود الصارم لأنهم كانوا يدركون أن نتيجة ذلك وخيمة. وكان في شوغر هيل رباعي شرطة أسود صارم يقوم بدوريته على ظهور الجياد، أضخمه وأسوده وشره پريسبان الغرب هندي الذي كانت الناس في هارليم تغير اتجاهها إذا لمحته قادماً في الطريق. وقد سمعت أنه قتل برصاص غلام موهوب نازح من الجنوب لم يكن يعرف خطورته.

وكان أخطر تجار الدعارة «كادياك» درايك، رجل أصلع له جسد كالكرة المستطيلة وبطن ضخم يسميه مرتع الفساد. كان يدير نساء سوداوات وبيضاوات غاية في الهزال. وكان زبائن سمولز يمازحونه قائلين: كيف تستطيع نساء كنسائه أن يكسبن قوتهن فضلاً عن قوته فكان يقهقه ويقول إن القبيحات أقدر على العمل.

وكان هناك صديقي سامي الكنتاكي الذي كان على عكس كادياك ليناً وهادئاً ومتمكناً من حرفته والذي كا يجد نساءه كما سبق القول في المراقص. كانت له على غرار كادياك سوداوات وبيضاوات جميلات بمقياس المهنة وكن يأتينه إلى سمولز لتسليمه النقود فكان يدعوهن للشراب. وكانت من بينهن واحدة تدعى «ألباما پيتش» شقراء، ذات لهجة طريفة كان الجميع يستلطفها بمن فيهم باعة أوراق الرهان. وكان نطقها لكلمة زنجي أكثر ما يثير الضحك في البار وكانت لها عبارة تكررها وهي «أحب نوج وحق المسيح». بكأسين من الشراب كانت تحكي لك قصة حياتها. كيف من ألباما وكيف تغير موقفها من الزنوج بعد ما سمعته من زميلاتها عن فحولتهم أغرت زنجياً كان يعمل في بيت أبيها وتسببت في فراره وكيف استمرت علاقتها نوج وهي في المدرسة وكيف جاءت إلى نيويورك وقصدت هارليم. وقد قال لي سامي إنه عثر عليها وهي تتفرج في مرقص السافوا ولا يعلم الآن إلا الله مصيرها.

وكان هناك تاجر دعارة ثالث يلقب «دولار بيل» يستعرض باستمرار لفة مالية تضم حوالي خمسين ورقة من ذات الدولار يضع على وجهها ورقة من ذات المائة وعلى ظهرها ورقة من ذات الخمسين. وكنا نتساءل عما عساه يفعل لو أن أحداً سرق منه الورقة الخارجية، ذات المائة دولار.

وإذا كان هناك لص بقدرته أن يسرق لفة دولار بيل بأكملها وهو معصوب العينين فهو «فيو كلوذز» العجوز الذي كان من أمهر النشالين في هارليم عندما كانت تكتظ بالبيض في ليالي العشرينات ولكنه أصيب بتورم شديد في مفاصل يديه خلال الأزمة

الإقتصادية. كان مهما يكن من أمر يأتي إلى سمولز في تمام السادسة من مساء كل يوم ويحكي وهو ثمل عن أيام زمان فكان الزبائن يدفعون ثمن أكله وشرابه. ليتك رأيته وهو يقتعد الكرسي في كبرياء ويفرش المنديل ويقرأ لائحة الطعام ثم يقدم لي طلباته. وكنت أقول للطباخين إن الطلب طلب فيو كلوذز فيضعون في صحنه أحسن ما عندهم وأعود به إليه وأضعه أمامه وكأنه مليونير. وقد فكرت في ذلك ووجدت أننا كنا به نعبر عن تآزرنا لأننا كنا نشعر في قرارة أنفسنا بأننا جميعاً المجرمين منا وغير المجرمين ضحايا هذا النظام الإجتماعي الأمريكي الأبيض وأن فيوكلوذز ذئب بين ذئاب، نعم هرم وفقد أنيابه ولكنه ذئب على كل حال.

وكان هناك سارق البيوت «جامپ ستيدي». أفكر فيه وأدرك مسؤولية الرجل الأبيض الذي بنى لنا أحياء حقيرة اقتنعنا فيها أنه لا مستقبل لنا وأن علينا أن نفعل أي شيء لمصارعة الموت. ولذلك كان هناك فرق بين اللص الأبيض واللص الأسود. الأول يخفي حقيقته لأنها تبعث على الإحتقار والثاني يعلنها بفخر ويستقبل بحفاوة.

كنا نقلق على جامپ ستيدي إذا انقطعت عنا زياراته. ويقال إن هذا اللقب أطلق عليه لأنه كان يقفز في ثبات من سطوح مركز نيويورك ويمشي على حروف النوافذ ويسرق البيوت وهي آهلة. وقد علمت أنه كان يفعل ذلك وهو مخدر وتعلمت منه حيلاً أفادتني عندما دفعتني الحاجة أنا الآخر إلى سرقة البيوت.

لا ينبغي أن يفهم من سياق هذا الكلام أن سمولز كانت وكر جريمة. لقد كانت على العكس أحد الأماكن الثلاثة التي كان البوليس يؤكد على أمنها وينصح بارتيادها وإذا كنت أركز على المجرمين من مرتاديها فذلك لمجرد أنهم شدوا انتباهي.

عندما تركت السكة الحديدية استأجرت غرفة في شارع سانت نيكولاس بالبناية رقم ٨٠٠ التي كان يباع في غرفها كل شيء من الفرو الرفيع وأجود آلات التصوير الفوتوغرافي وأحسن أنواع العطور والمسدسات إلى النساء والسيارات والثلج.

كنا في أيام الحرب، أيام كُنْتَ لا تسمع في الإذاعات إلا غواد الكنال وإفريقيا الشمالية. وكان معظم الساكنات مومسات والباقي إما سارقات وإما بائعات أوراق رهان ومخدرات. ولم يكن هناك على ما يبدو ساكنة واحدة لا تستعمل نوعاً ما من المخدرات. ولا يجب أن يُفهم مرة أخرى أن تلك البناية كانت تنفرد بذلك النوع من

النشاط لأن هارليم بأكملها تقريباً تعيش من مصادر غير قانونية لمصارعة المو ت ثم تتخدر لتنسى.

وعلى يد هؤلاء الساكنات تعلمت كل ما يمكن أن يتعلمه رجل وع ـفت متزوجات يعطين عشاقهن من أموال أزواجهن ففقدت الثقة في الجنس النسوي بيضه وأسوده الذي كان قد سوى بينه إرسال الرجال إلى الحرب كما أطلعت على قذارة الرجل الأبيض عن طريق نسائه تلك القذارة التي ازددت تأكداً منها بعدما أصبحـ أدله الى أماكنها.

كنت صغيراً، أعمل في البار، ولا أهتم بساكنات البناية. ولعلني حركت فيهن شعور الأخوات الكبيرات حيال أخيهن الصغير فكان بعضهن يأتي إلى غرفتي بعد لفترة الصباحية فنتكلم ونحن ندخن الماريخوانا. ولكن دعني أحدثك عن تلك الفترة. كانت تبدأ فيما بين السادسة والسابعة صباحاً فيكتظ المدخل والسلم بالداخلين ثم يكتظا بعد ذلك بالخارجين فإذا أعلنت الساعة التاسعة لم يبق في البناية رجل سواي.

كانت وجوه الزائرين تتغير وكان من بينهم أزواج بيض جاؤوا من مركز المد؛ ة في ذلك الوقت المبكر على متن سيارات أجرة نتيجة ما يتعرضون له في بيوتهم من قمع.

وأطلعت وأنا في تلك البناية ثم وأنا أعمل في تلك المهنة على أخبار وط ائف كالحكاية التي كانت تروى عن الإيطالي الملقب «تن دولارز أمينيت مان» والذي كان يملك مطعماً صغيراً في قبو قريب من ملاعب البولو. وتقول الحكاية إنه كان يبقى دقيقتين ويترك عشرين دولاراً.

كانت النازلات يعتقدن أن المرأة بصفة عامة قادرة على التحكم في الرجل وأن زوار البناية يشتكون من زوجاتهم وأن الرجل لا يدرك حاجة المرأة للحنان وأن ا مرأة ضعيفة بطبعها ورهيفة الشعور ولذلك تفضل الرجل الذي تتوسم فيه القوة.

كانت صوفيا تزورني بين الحين والآخر فكان وجودها يشعرني بالزهو حتى وأنا بين زنوج هارليم الذين لم يكن هناك في الواقع فرق بينهم وبين باقي الزنوج ف ، ما يتعلق بهذا الموضوع وإلا لما راجت الدعارة البيضاء بينهم إلى ذلك الحد. وسواء كانوا من لانسينغ أو بوسطن أو نيويورك فإنهم يتصرفون طبقاً لمقاييس الرجل العنـ ـري الأبيض. ما عليك إلا أن تضع امرأة بيضاء على مقربة من زنجي وسيستجيب. والـ جل

الأبيض من جهته يميل للمرأة السوداء ولكنه من الدهاء بحيث أنه يخفي ذلك.

كانت صوفيا تأتي في قطار آخر النهار وتلحق بي في سمولز فأمضي أقدمها من حولي حتى تنتهي فترتي. وكان يقلقها أنني أعيش وسط المومسات إلى أن تعرفت الى بعضهن وطمأنها. وكنت آخذها إلى بار برادوك حيث كان الموسيقيون يستقبلونني بحرارة قائلين: «أهلاً بالأحمر. من هذه؟». ويحتفون بها إلى درجة أنني كنت أنسى طلب الشراب. كانوا يُجنون على الشقراوات لا سيما وأن الفنانين بمن فيهم الفنانون البيض لا يهتمون بالسلوكات السائدة في مجتمعاتهم. وكنا نذهب في الهزيع الأخير من الليل إلى المراقص الصغرى التي كان جوها الزنجي يسحر البيض ويجلبهم.

في تلك الأيام كان صديقي سامي مهتماً بفتاة بيضاء كانت تحضر بانتظام إلى مرقص السافوا ولا ترقص إلا مع الزنوج. وكانت تسمح لأحدهم في نهاية الحفلة بمرافقتها إلى مدخل المترو ولكنها لم تكن تبوح لمخلوق باسمها فضلاً عن عنوانها.

وهناك حادثة عن حقيقة الرجل الأبيض المتحرر بطلها هيبي أبيض زنجي السلوك أكثر منا، يتسرع في الكلام ويلبس البدلة الفضفاضة ويستعمل دهناً ثقيلاً يعطي شعره صفة الكونك وينتعل الحذاء ذا الرأس المدور والسلسة المتدلية وكل شيء ولا يرى إلا بصحبة امرأة سوداء ويعيش مع اثنتين ويتعارك مع من يتهمه بالعنصرية. كان يعيش في منطقة البرادوك ويقول لي كلما رآني: «هيا يا بابا نشد دماغنا». كان سامي لا يطيقه وكنا حيثما ذهبنا وجدناه. وذات يوم دخلت مع صوفيا أحد المراقص الصغيرة بعد الفجر فوقعنا عليه. وقدمتها له ثم ذهبت لأكلم شخصاً أعرفه وعندما رجعت وجدتها متغيرة ولكنها لم تقل لي السبب حتى خرجنا. لقد سألها كيف تسمح لنفسها بالإرتماء في أحضان زنجي.

وهناك آخر اسمه بيل الكريول من نيو أورلينز كما يدل على ذلك اسمه. كان يملك أحد محلات آخر الليل الصغيرة وكنت آتيه بزبائن سمولز بعد إغلاقه أيام كنت قد بدأت أسعى بين الزبائن والمومسات. وكان محله في شقة أسقط أحد جدرانها ليوسعها. كانت عابقة بالروح الزنجية وحافلة بطبخات الملوخية والأرز الكريولية الحارة وبالشراب والموسيقى. وكانت تساعده صديقته الزنجية الجميلة التي كان يدعوها «براون شوغر». كان المكان يكتظ فيخرج قدوره وتأتيه براون شوغر بالصحون ويصب للجميع ثم يقبب لنفسه صحناً وينضم إلينا فكان منظره وهو يأكل يوحي لي بالوليمة.

كان يحب طعامه كثيراً وكان أرزه كأنما طبخه صيني، كل حبة فيه مستقلة بذاتها وإن كنت لا أعرف صينياً يفعل بالسمك والفاصوليا ما يفعله بيل الكريولي. وقد أنشأ في هارليم من مداخل شقته تلك مطعماً كريوليا شهيراً كسا جدرانه بصور نجوم البايسبول وبعض السياسيين والفنانين الذين كانوا يترددون عليه. لقد انقطعت عني أخباره منذ باع شقته.وعلي أن أسأل عنه بعض مرتادي الشارع السابع.

وزرت صوفيا في بوسطن ذات مرة فقالت لي إنها لن تأتي إلى نيويورك حتى نهاية الأسبوع التالي لأنها كانت قد تزوجت ضابطاً في الجيش كان وقتها في الثكنة. لم يكن زواجها ليغير شيئاً بيننا وتقبلته بهدوء لأنني كنت قد ناقشت مع صديقي سامي عواقب الزواج المختلط.

كان سامي قد قال لي وهو الخبير بالنساء إن المرأة البيضاء جد عملية في تصرفها، إنها تعرف ما يعانيه الزنجي من طامات القمع والعجز وإنها وإن كانت تريد متعتها إلا أنها تريد أيضاً أن تعيش في حظوة ورخاء بين أبناء جنسها ولذلك فهي قد تتزوج الرجل الأبيض ولكنها تبقي، بدافع الشبق لا الحب، على علاقتها بالزنجي وإلا وجب أن يكون هذا الحب شديداً. ذلك أن من الطبيعي أن يكسب الرجل الأبيض من ١٠ إلى ٢٠ أو ٣٠ أو ٤٠ ألف دولار في السنة ولكن ليس من الطبيعي أن يكسب الزنجي ٥ آلاف دولار في السنة.

كنت قد أقمت في هارليم مدة كافية تؤهلني للحصول على لقب يميزني عن أحمَرَيْن آخرين يستعملان أيضاً تسريحة الكونك «أحمر سانت لويس» الذي كان لصاً محترفاً مسلحاً تعرفت إليه في السجن حيث كان يمضي مدة بتهمة محاولة سرقة أحد النادلين بمطعم القطار الرابط بين نيويورك وفيلادلفيا والذي عاد إلى السجن الآن بعد محاولته سرقة متجر مجوهرات.

والاحمر الآخر هو «أحمر شيكاغو» الذي توطدت علاقتي به في أحد محلات آخر الليل حيث اشتغلت لبعض الوقت. كان أظرف غاسل صحون عرفته في حياتي وهو الآن كوميدي مشهور على الصعيد الوطني. كان، وعسى ألا يضيره ذكري لذلك، يلقب أيضاً بـ«الثعلب الأحمر».

لا أذكر بالتحديد متى أطلق علي لقبي الجديد ولكنني أذكر أنني كنت أقول لمن يسألني من أين أنا: «ميشيغن» فيقولون: «من أين في ميشيغن؟» فأقول: «دترويت»

لمجرد أنهم لن يعرفوا لانسينغ فأصبحت لذلك أُعرف بـ«أحمر دترويت» فالتصق بي ذلك اللقب.

وذات مساء من مطلع ١٩٤٣ جاء جندي أسود وجلس في إحدى الموائد التي أخدمها قبل أن تشتد حركة الساعة السادسة مساء وأخذ يشرب وحيداً في صمت يرثى له مدة ساعة أو أكثر فبدا وكأنه قد وصل لتوه من أقصى الجنوب. وقدمت له الكأس الرابعة أو الخامسة ثم انحنيت عليه وسألته في همس وأنا أمسح المائدة إن كان في حاجة إلى امرأة.

كنت أعرف أن القانون يمنع على البارات منعاً كلياً إفساد الجنود والدخول في أي عمل غير قانوني معهم وأن ذلك قد أدى في بعض الأحوال إلى منع الجنود من ارتيادها وإلى سحب رخصة العمل منها.

كان ذلك الجندي مخبراً فرد بالإيجاب على اقتراحي بكل أدب وبلهجة جنوبية قوية فأعطيته رقم تلفون أفضل صديقاتي في البناية التي أسكنها ولكنني لم ألبث أن شعرت بالقلق فانتظرت نصف ساعة وهي مسافة الطريق وتلفنت لصديقتي فقالت وأكدت مخاوفي إن أحداً لم يأت فوضعت السماعة وذهبت إلى مكتب شارلي سمول وأطلعته على الأمر فقال: «ليتك لم تفعل يا أحمر».

وعندما جاء جو بايكر الشرطي السري الغرب هندي وجدني في انتظاره فذهبت معه في صمت. كانت حظيرة مركز الشرطة في الشارع ١٣٥ غاصة بالبوليس والبوليس العسكري وبالجنود. وعرفني ضباط آخرون كانوا مثل جو بايكر من مرتادي سمولز.

كان هناك أمران في صالحي وهما سلامة سجلي العدلي وأنني رفضت البقشيش الذي قدمه لي ذلك الجندي المخبر ولعل رأيهم استقر على أن يكتفي بايكر بإنذاري. ولما كنت حديث العهد بمراكز الشرطة حسبت أنهم أدخلوني في سجلاتهم. وبعد ذلك أخذني جو بايكر إلى غرفة صغيرة في الداخل فسمعت ضرباً بالسوط وسمعت من يستعطف قائلاً: «بالله ليس على وجهي إنه مصدر عيشي» فعرفت أنه تاجر دعارة لا محالة. فيما بعد سمعت أن جو بايكر أقيل من عمله وأحيل على محكمة نيو جرزي بتهمة أخذ الرشوة.

وكانت نتيجة تصرفي الأحمق أنني طردت من سمولز ومنعت من دخوله وآلمني

ذلك ولكنني تفهمته إذ أنني زيادة على شراستي كنت قد أصبحت تحت رقابة البوليس وكان على مشغليَّ أن يحميا تجارتهما.

وبرهن لي سامي في وقت الشدة عن صدق صداقته. استدعاني تلفونياً إلى بيته فذهبت ووجدته قصراً صغيراً مفروشاً بأحدث الأثاث بفضل رواج تجارته. وقلبنا وجوه الأعمال غير المشروعة التي يمكنني أن أمارسها ونحن ندخن أحد أجود أنواع الماريخوانا.

كان العديد من مراقبي تجارة الرهان الذين كانوا يترددون على سمولز قد عرضوا علي العمل معهم ولكن ذلك كان يعني أن أكتفي بأجر زهيد إلى أن أكون زبائن ولم يكن في مهنة سامي مكان شاغر ولا كانت عندي على كل حال القدرة على ولوجها فاتفقنا على أن أفضل عمل يناسبني هو بيع سجائر الماريخوانا فالعملية فردية تكسب الكثير ولا تحتاج للخبرة ويكفي معها أن يكون المرء على قدر من الفطنة والدهاء. وكنا أنا وسامي نعرف بعض تجار الماريخوانا الخام البحارة وغيرهم وكان عندي في الوسط الفني من العلاقات ما يشكل سوقاً رائجة لا سيما وأن هؤلاء الفنانين كانوا من أكبر مستهلكي المخدرات القوية في حالة ما إذا أردت الإرتقاء بتجارتي في المستقبل وهو أمر أشد خطورة ولكنه أكثر ربحاً. ذلك أن بيع الكوكايين والهيرويين يكسب مائة دولار في اليوم وإن كان يحتاج إلى مهارة خاصة مع البوليس. وكنت قد أمضيت من الوقت في تلك المنطقة ما يكفي للتعرف إلى بوليسها ما عدا وحدة المخدرات وكانت لي علاقات وطيدة مع قدماء مخالفي القانون الذين كانوا يترددون على سمولز والذين كانوا على صلة بالبوليس ذلك أنني كنت في حاجة لمصادر الدعم في البوليس والبوليس السري ولكنني لم أكن قد وصلت بعد إلى تلك المرحلة. وهكذا أقرضني سامي مبلغاً من المال وأظنه عشرين دولاراً لم ألبث أن أرجعتها له في الليلة نفسها قائلاً إن بإمكاني قرضه إن أراد. وكنت قد اشتريت قدراً يسيراً من الماريخوانا من بائع دلني عليه وجئت بورق اللف ومضيت أبرمها في حجم عود الكبريت حتى أعددت كمية كبيرة بعتها لموسيقيين أعرفهم في فندق برادوك ثم أديت ديني لسامي وبقي معي رأسمال جديد فلقد كنت صديق الفنانين وواحداً من المعجبين بهم وسهل ذلك عليَّ الأمر.

كان نصف عدد العازفين في كل جوق على الأقل يدخن سجائر الماريخوانا

ولست بذاكر أسماءهم كما لم يكن مغنٍ شعبي واحد لا يفعل ذلك ومن بينهم واحد كان يدخنها في عظم فخذ الدجاج. وكان قد داوم على ذلك إلى الحد الذي أصبح معه يشعل عود الكبريت ويقربه من العظم الفارغ ويأخذ منه نفساً فتقوم الحرارة لديه على حد قوله مقام المخدر.

وهكذا أخذت أبيع سجائر المخدرات بجنون وأدير أرباحي وأزود بضاعتي حتى لم يعد لدي وقت للنوم. كنت مع الأجواق حيثما كانت وكان جيبي ممتلئاً بالمال. كنت أربح خمسين أو ستين دولاراً في اليوم وهي ثروة بالنسبة لزنجي في السابعة عشرة من عمره. وأحسست لأول مرة بمعنى أن يكون المرء حراً بعدما أصبحت وبدون مراحل في مستوى باقي الباعة الذين كنت معجباً بهم.

في تلك الأيام اكتشفت السينما وبدأت أشاهد ما لا يقل عن خمسة أفلام في اليوم في هارليم وفي مركز نيويورك. كنت مبهوراً بالممثلين الأشداء وبالحركة وبهامفري بوغارت في فيلم «كاسابلانكا» وكل ذلك الرقص والتسيب في أفلام أخرى من نوع «ستورمي ويذر» و«كابين إن ذو سكاي». وكنت أخرج من السينما وأذهب إلى المزودين وأبرم السجائر وعندما يهبط الليل أبدأ جولتي. كنت أتبرع بسيجارتين على من يشتري عشر سيجارات أي ما قيمته خمسة دولارات كاملة. لم أكن من ذلك النوع الذي يبيع ويختفي لأن زملائي كانوا أصدقائي وكنت أدخن معهم وأبقى منتشياً بعدما تبلغ نشوتهم ذروتها.

وذات يوم ذهبت إلى بوسطن ورأيت إيلا بالطبع وأعطيتها بعض المال قائلاً إنه اعتراف بالجميل ولكنها لم تكن كأول العهد بها. لم تكن قد غفرت لي تصرفي مع لورا وإن لم تذكرها إلا أن معاملتها على أي حال كانت أفضل مما كانت عندما غادرت بوسطن إلى نيويورك. واستعرضنا أخبار العائلة. كان ويلفريد قد تفوق في عمله إلى حد أنهم عينوه أستاذاً وكان ريجينالد قد التحق بالأسطول التجاري.

وزرت شورتي وتلفنت لصوفيا من شقته فالتحقت بي هناك في الوقت الذي كان فيه يغادر إلى عمله. ولم نخرج إلى الشارع لأن البوليس كما قال لي شورتي كان يبعث بالزنوج الذين يخالطون البيضاوات إلى الحرب ولأن صوفيا كانت متزوجة.

وعندما رجعت صوفيا إلى بيتها في سيارة أجرة ذهبت لمشاهدة جوق شورتي.

نعم كان له جوق لا بأس به يحتل مرتبة جيدة بين أجواق المدينة وكان يعزف في أندية ويدبر أمره جيداً في بوسطن. وفي شقته سهرنا الليلة نتكلم حتى الصباح. قال لي «لقد تغيرت يا ابن بلدي» وأطلعته على بعض أفعالي في هارليم وحكيت له قصة سامي.

وكان سامي قد تورط في بلدته بكانتاكي في حمل إحدى البنات فهرب إلى نيويورك خوفاً من أهلها حيث عمل نادلاً. وكان كلما رأى امرأة وحيدة وتأكد أنها ليست متزوجة ولا تعيش مع أحد دبر الأمر بحيث تستدعيه إلى بيتها. وهناك كان يلح على أن يخرج لشراء الطعام فيصنع نسخة من المفتاح. وبعد ذلك كان يعود إلى البيت ويسرق ما فيه مما خف حمله وغلا ثمنه ثم يقدم لضحيته المساعدة فتصبح مدينة له مادياً ومعنوياً فكان يستغل شعورها ذاك لإخضاعها له.

وما أسرع ما اكتشفت وحدة المخدرات أمري فبدأت ترسل إلي من يتعقبني. وكان العديد من الباعة قد ألقي عليهم القبض وهم متلبسون بالتهمة ولكنني تجنبت ذلك لا سيما وأن التهمة لا تثبت إلا إذا وجدت البضاعة مع المتهم. وكان كعب الحذاء وحاشية القبعة مخبئين معروفين لدى البوليس فبدأت أتأبط خمسين سيجارة مبرومة داخل معطفي وأضغط بذراعي عليها ثم أفتح عيني جيداً فإذا رأيت ما يريب عبرت الطريق ودخلت باباً أو انعطفت في شارع ثم أفرجت ذراعي لتسقط البضاعة. وكنت أتركها هناك وأذهب لإيجاد المشتري وفي الليل كنت أعود لأخذها ولم يكن بإمكان أي كان أن يعرف حيلتي وإن كنت أحياناً لا أجدها عندما أعود إليها وكنت أختفي كلما شعرت أنني تسببت لرجال الشرطة في الإحباط. وذات صباح رجعت إلى غرفتي فوجدت ما يدل على أنها فتشت. وكنت أعرف أنهم يعمدون أحياناً إلى تلفيق التهمة بوضع المخدر في بيت البائع فجمعت متاعي القليل ورحلت.

في ذلك الوقت كنت قد بدأت أحمل مسدساً حصلت عليه ثمناً للمخدر من زبون سرقه، وكنت أحمله أسفل ظهري وأشد عليه الحزام لأن أحداً قال لي إن البوليس لا يفتش ذلك المكان. وكنت أبتعد عن الأماكن المزدحمة لأن بوليس المخدرات كان معروفاً بزرع التهمة على المتهم أثناء التفتيش ولذلك قدرت أنني سأكون في أمن إن بقيت أتحرك ولزمت الأماكن الخالية. أنا الآن لا أعرف ما الذي دفعني لحمل السلاح ولعلني فعلت ذلك من باب الإحتياط.

أخذت مبيعاتي في الهبوط لأن الحذر كان يستغرق معظم وقتي وبدأت لا أنام

ليلتين متتاليتين في مكان واحد ولا أطلع على مكان نومي إلا صديقي سامي. ثم أصبحت في لائحة بوليس المخدرات وأصبحوا بين الفينة والأخرى يخرجون لي شاراتهم ويعمدون إلى تفتيشي ولكنني كنت أقول لهم على الفور وبصوت يسمعه كل من يكون على مقربة إنني لا أحمل شيئاً ولا أريدهم أن يلبسوني التهمة فكان ذلك يثنيهم لأن هارليم كانت تزدري القانون ولأن الفتنة كانت راقدة فكانوا حريصين على عدم إيقاظها.

كانت أياماً شديدة عليَّ. كنت أخفي بضاعتي على مقربة من المكان الذي أبيع فيه. كنت أضع خمس سيجارات مبرومة في علبة سجائر وأرميها عند عمود مصباح أو بالقرب من صندوق قمامة أو أي صندوق وأبيعها وأحصل على ثمنها ثم أدل الزبون على مكانها ولكن هذه الخطة لم تنفعني مع الزبائن الرسميين إذ لم يكن من المعقول أن يذهب فنان للبحث وراء صندوق قمامة ولذلك بدأت أبحث عن الزبائن في الشارع وأتعرف إليهم من علامات التخدير على وجوههم ثم بدأت أجمع صناديق تحمل علامة الصليب الأحمر وأترك فيها البضاعة ونجحت هذه الخطة ولكن البوليس المختص ضيق علي الحصار فغادرت المنطقة. نزلت إلى المنطقة الأشد فقراً في أسفل هارليم حيث الناس في حالة تخدير دائم ينسيهم ويلات حياتهم ولكنهم كانوا لا يدفعون إلا ثمناً قليلاً فلم أعمر هناك طويلاً لأنني بدأت أفقد جل بضاعتي. لقد كانت للناس هناك غريزة الحيوان فكانوا يتلصصون علي ويكتشفون خطتي ويخرجون من مخابئهم بمجرد ما أرمي البضاعة مقبلين عليها إقبال الدجاج على الحب. وعندما يدخل الإنسان عالم الحيوان والنسور يصير حيواناً ونسراً مثلهم ويصبح البقاء للأقوى. ثم ما أسرع ما بدأت أستدين من سامي ومن الموسيقيين لشراء البضاعة وشراء ما أدخنه وما آكله. ثم أشار علي سامي بشيء. قال: «هل ما تزال معك بطاقة القطار يا أحمر؟» ولم يكونوا قد أخذوها مني فأخبرته بذلك فقال: «لم لا تستعملها للسفر إلى أسواق أخرى؟» وكان على صواب. وجدت أن موظف السكة الحديدية حتى وإن كان داهية يسمح لك بالركوب إذا جئته بكرامة ولم تتمسكن وأن المراقب عندما يقوم بدورته يثقب الورقة التي تأخذك إلى حيث يذهب القطار.

وخطر ببالي أن أتعقب أصدقائي الموسيقيين خلال جولاتهم الفنية على طول الساحل الشرقي. كانت معي بطاقة تعريف شركة «نيو هايفن» فاشتغلت أسبوعين مع شركة أخرى للحصول على بطاقة تعريفها وأصبحت مستعداً.

بدأت أبرم كميات هائلة من سجائر الماريخوانا في نيويورك وأضعها في

زجاجات مختومة وأستقل القطار. وكان مستخدموه يصدقون أنني زميل في طريـ ـي إلى بلدتي لأسباب طارئة لا سيما وأن البيض يعتقدون عادة أن الزنجي من البلادة بـ ـث لا يستطيع أن يخدعهم أو يتجاسر عليهم بما فيه الكفاية.

كنت أظهر في المدن التي يعزف فيها أصدقائي وكنت «الأحمر» ابـ البلد الصديق، بائع سجائر الماريخوانا بفندق البرادوك الذي يتوفر لديه مخدرات نيويو ـكية.

وكنت أعرف برامج الأجواق الأخرى من الموسيقيين فألحق بها. كنت أ ـد إلى نيويورك فأتزود بالبضاعة ثم أشد الرحال إليها وأجد لدى وصولي قاعات الـ ـفلات والملاعب الرياضية مضاءة وحافلة الجوق مركونة في الخارج والراقصون والر ـصات يتدفقون على مكان الحفل في أحسن زينة فأقول للبوابين إنني أخ أحد أعضاء لجوق ولكنهم كانوا في الغالب يحسبون أنني عازف. وكنت أدخل الحلبة وأعرض مها ـني في ـقص الليندي هوبينغ ثم أقضي الليلة في البلدة أو أركب الحافلة مع الجوق إلى محطته الموالية. وكان الناس في المدن الصغرى أيضاً يعتقدون أنني عازف فيطلبو ـ مني أوتوغرافات حتى أوشكوا ذات مرة في بوفالو أن يمزقوا بدلتي.

ورجعت إلى نيويورك ذات مرة فوجدت أخي ريجينالد في انتظاري كانت سفينته قد توقفت بالميناء فذهب يسأل عني في سمولز ظناً منه أنني ما أزال أشـ ـغل بها وأرسله عامل البار إلى سامي. وأسعدتني رؤيته ولم أصدق أنه الطفل الصغير الـ ـي كان معجباً بي. كان طوله قد أصبح حوالي ستة أقدام ولكنني كنت ما أزال أطول مـ . وكان أشد مني سواداً ولكن لون عينيه كان يميل للخضرة بينما كان شعره شديد لحمرة كشعري. وأخذته إلى كل مكان وقدمته لكل من أعرفهم وأنا راض عنه. وكـ ـن أكثر وعياً بذاته مني عندما كنت في سنه.

لم يكن لي مسكن ولكن كان معنا بعض النقود فذهبنا إلى فندق شوغر ـل كان يدعى سانت نيكولاس وقضينا الليل كله نتكلم عن لانسينغ وأيامها وعن أسرتنا حكيت له حكايات عن أبينا وأمنا لم يكن يذكرها وأطلعني هو على أخبار إخوتي ـخواتي فقال إن ويلفريد ما زال يعلم في جامعة ويلبرفورس وهيلدا وفيلبرت الا ـبر منا يستعدان للزواج وأن إيفون وويسلي وروبيرت ما زالوا في المدرسة. وضـ ـكنا من فيلبرت الذي تدين وأصبح يلبس قبعة من القش مدورة.

وقضى معي أسبوعاً في انتظار أن تصلح سفينته بان عليه خلاله أنه معجب

بأسلوب حياتي في حين ضايقتني أنا ملابسه الزاهية الألوان فأخذته إلى أحد زبائني لشراء بدلة ومعطف أكثر جدية ثم قلت له إن على المرء أن يبدو وكأنه يملك شيئاً قبل أن يحاول امتلاك أي شيء. وحرضته على ترك الأسطول التجاري والمجيء إلى هارليم للعمل فيها لأنني كنت ولا شك أتوسم في وجوده إلى جانبي سنداً ثانياً بعد سامي لكنه لم يتحمس وإنما اكتفى بقول: «سأفكر في الموضوع» ولو كنت مكانه لما تركت الفرصة تضيع من يدي.

وما إن ترك ريجينالد حتى بدأت أتبختر في أحسن بدلة فضفاضة. كنا في عام ١٩٤٣ وكان الأمر بالتجنيد قد جاءني إلى عنوان إيلا ولما عرفوا أنني في نيويورك أخطروا مصلحتهم هناك فبعثت به إلى عنوان سامي.

لم تكن تخيفني في تلك الأيام إلا ثلاثة أشياء: السجن والشغل والتجنيد. ولما توصلت بإعلان مصلحة التجنيد وضعت خطة وشرعت في تنفيذها. كانت عيون الجيش السوداء منبثة في هارليم فذهبت إليها وبدأت أشيع أنني سألتحق بالجيش الياباني وأتصرف تصرف المجانين كلما لمحت واحداً منها على مقربة مني. وكان عدد كبير من باعة المخدرات في هارليم قد جن بالفعل كما حدث لي فيما بعد وهو أمر بديهي بالنسبة لمن دأب على بيع أصعب أنواع المخدرات وعركته تلك التجربة. كنت أنتتر وأتكلم بصوت جهوري وأذكر اسمي ومتى سأذهب إلى مصلحة التجنيد. ولعلها كانت أول مرة يسمع فيها اسمي الحقيقي بهارليم.

وأخذت كامل زينتي، البدلة الفضفاضة والحذاء الأصفر ذو الرأس المدور وتسريحة الكونك الحمراء، الشعثاء وذهبت إلى مصلحة التجنيد وكأنني ممثل. ذهبت أنط وأنزلق وألقيت على الجندي الأبيض في مكتب الإستقبال تحية متقطعة وقلت له: «لا تؤخرني، أرجوك فإنني لا أستطيع الصبر على أن أراني بالبدلة العسكرية» فلم يصدق ما سمعه. كانت أخباري كما توقعت قد وصلتهم. وطلبوا مني الإنتظار مع أربعين أو خمسين شخصاً آخرين قابعين في صمت فشرعت أقول بلغة سوقية أنني سأحارب على كل الجبهات وأصبح جنرالاً وأشياء من هذ القبيل. وكان معظمهم بيضاً وأخذ البعض يتهرب مني والبعض الآخر يلقي علي نظرته العنصرية ولم تسر بي إلا قلة رأت فيَّ عينة من مهرجي هارليم ومن بينهم عشرة أو أحد عشر زنجياً أما الباقون فقد كان يبدو عليهم وكأنهم قد وقعوا على تعهد بارتكاب جريمة قتل وأنهم يعدّون العدة للشروع في ذلك.

وجاء دوري فخلعت ملابسي وأسهمت ببعض التعاليق وأنا أقرأ في عيون ا 'طباء علامة «غير صالح للتجنيد». وبقيت مدة طويلة قبل أن يسمحوا لي بالذهاب رفقة أحد الرجال في اللباس الأبيض إلى الطبيب النفساني.

كانت الممرضة هناك زنجية جميلة من الرواد الأوائل في مقتبل العشرين. والزنوج يعرفون قصدي ذلك أننا كنا في أيام الحرب وكان النقص في الموظفين قد حدا الرجلَ الأبيض إلى السماح للزنجي بترك الدلو وخرقة مسح البلاط لإستعمال القلم أو الجلوس في مكتب أو شغل أي وظيفة حقيرة وكانت الجرائد الزنجية حينذاك تعج بصور أمثال هؤلاء.

كان الطبيب النفساني مشغولاً فانتظرت وقتاً كافياً لجعل تلك الممرضة تكرهني من دون سبب. ورن الجرس فدخلت على الطبيب لتقول له رأيها في. وهذه هي مأساة الإنسان الأسود الذي ينتمي إلى ما يدعى بالطبقة الزنجية العليا، ينشغل بالتملق للرجل الأبيض حتى يفقد صلته بالزنوج. وعادت وأشارت إلي بكل عجرفة بالدخول. والحق أن ذلك الطبيب حاول أن يكون موضوعياً ومحترفاً بطريقته. جلس يخطط بقلمه الأزرق وينصت لما أقوله له مدة أربع دقائق دون أن يفتح فمه ثم طرح علي أسئلة الغرض منها معرفة سبب قلقي. ولم أستعجله، كنت ألف وأدور وأحدق فيه عن قرب لأوهمه أنه يستخرج مني ما يريد وأرتعش كمن يخشى أن يكون أحد يتنصت عليه بطريقة تلزمه بالرجوع إلى كتبه لمعرفة خللي. وفجأة هببت واقفاً ونظرت من تحت الباب الذي دخلت منه وباب آخر أغلب الظن أنه خزانة ثم انحنيت عليه وهمست في أذنه: «إننا أنا وأنت هنا في الشمال. إياك أن تقول لأحد. إنني أريد الذهاب إلى الجنوب لإنشاء جيش زنجي. مفهوم؟ وسأسرق بعض السلاح لقتل أولئك الجنوبيين».

وسقط قلمه الأزرق واختلط عليه الأمر فحدق فيّ مفزوعاً وهو يتلمس بيده بحثاً عن قلمه الأحمر فأدركت أنني ضحكت منه، وعندما خرجت من عنده مروراً بالآنسة: «الأولى» كان يقول: «يمكن الذهاب».

وجاءتني بطاقة الإعفاء من الخدمة العسكرية ومن يومها لم أسمع شيئاً عن الجيش أو أهتم بمعرفة سبب إعفائي.

الفصل السابع

أعمال غير قانونية

لا أذكر كل الأعمال غير القانونية التي قمت بها في هارليم خلال السنتين المواليتين لانقطاعي المفاجىء عن ركوب القطارات وبيع المخدرات للأجواق الجوالة.

كان عمال القطار الزنوج يقامرون بالورق ليل نهار وهم ينتظرون قطاراتهم في قاعات تحت أرض المحطة المركزية ويراهنون بمبالغ تصل أحياناً إلى ٥٠٠ دولار. كنت ألعب هناك وذات مرة حاول طباخ عجوز أن يغشني وهو يوزع الورق فأخرجت له مسدسي. نعم كنت قد بدأت أحمل مسدساً أسفل ظهري بعدما دخلت هذا النوع من النشاط ثم علم البوليس بما يجري في تلك القاعات فجاء شرطيان إرلنديان سمينان بوجهين كوجهي عجلين وفتشاني دون أن يعثرا على المسدس وحذراني من مغبة وضع قدمي في تلك المحطة مرة أخرى إلا إذا كنت أحمل بطاقة سفر ثم أخليا سبيلي. وأدركت أن تقريراً بشأني قد ذهب ولا شك إلى مصالح الموظفين التابعة للسكك الحديدية فصرفت النظر نهائياً عن محاولة إيجاد عمل فيها.

وهكذا رجعت إلى شوارع هارليم وانضممت من جديد إلى باعاتها غير القانونيين ولكنني لم أعد إلى المخدرات لأن البوليس الخاص بها كان يعرفني. كنت بارعاً في التجارات غير القانونية، من دون شهادات مدرسية، من دون أية مهنة شريفة، مخاطراً، جريئاً وماكراً فكنت من ثمة قادراً على كسب رزقي بالإحتيال.

وهذا ما يفعله اليوم في المدن الأمريكية الكبرى عشرات الآلاف من الشباب الفقير الذي لم يكمل دراسته وغاص في أكثر أنواع الجريمة خسّةً وتفسخاً دون أن يكون قادراً على إدراك خطئه أو التراجع عنه كما هو الشأن في الغاب لأنه يعرف بالتجربة والسليقة أن سباع الغاب الأخرى ستفترسه إن هو توانى أو فترت همته.

وكونت خلال الستة أو الثمانية أشهر التالية حصيلة مسروقات صغرى كنت قد

قمت بها في مدن قريبة من نيويورك وأنا مخدر. ذلك أنني كنت قد جربت الكوك بين مع سامي وبدأت أتعاطاها قبل بدء عملياتي احتذاء بالمحترفين الكبار. كما أنني كنت قد بدأت بطبيعة الحال أستعمل مسدساً أوتوماتيكياً عيار ٢٥ كزينة خارجية إن صح القول أما في الشغل فقد كنت أستعمل مسدسات عيار ٣٢ و٣٨ و٤٥ وكان ضحاياي ينظرون إلى فوهتها السوداء في ذهول شديد ويسمعون ما أقوله لهم وكأنما من مكان بعيد ثم ينفذون أوامري على الفور.

كما كنت أستعمل المخدرات خارج أوقات العمل للتغلب على القلق ولكن لم يكن مع ذلك ليستقر لي قرار في مسكن واحد في المنطقة الواقعة بين الشارع ١٤ والشارع ١٥٠ القريبة من شوغر هيل.

وذات مرة أوشكت أنا وسامي أن نقع في يد البوليس. كنا نركض ونحن نقوم بعملية معاً وسمعنا صفارة سيارة الشرطة فكففنا عن الركض وبدأنا نمشي. وتوقفت السيارة على مقربة منا وهي تحدث صوتاً حاداً فتوجهنا إليها وتظاهرنا بالسؤال عن مكان ما. ولعلهم كانوا يحسبون أننا نقصدهم لإعطائهم معلومات فسبونا وانطلقوا بسيارتهم بسرعة ولم يخطر ببالهم أن الزنجي قادر على أن يدبّر لهم ملاعيب من هذا النوع.

كان أقصى ما دفعته في أحسن بدلاتي ٣٥ إلى ٥٠ دولاراً وكنت لا أكسب أبداً أكثر مما أحتاج إليه لأنني كبائع غير قانوني كنت أعرف أن الجشع أقرب طريق إلى السجن. وكنت أختزن في ذهني أخطر الأماكن والمواقف ولا أدخل في عملية جديدة إلا بعدما ينخفض رصيدي المالي الذي أحتفظ به في جيبي انخفاضاً ملموساً.

كنت أحياناً أراهن بمبالغ كبيرة وأتعامل مع بائع أوراق الرهان نفسه الذي تعاملت معه أول مرة وأنا في سمولز برادايس. وكنت أفعل ذلك مرات عدة في اليوم وأخصص له مبلغ ٤٠ دولاراً وأختار رقمين اثنين أملاً في جائزة الـ ٦٠٠ دولار ولكنني لم أفز بها. كنت لا أفوز إلا بمبالغ صغيرة فكنت أتلفن وقتها لصوفيا في بوسطن فتأتي وتقضي معي يومين. وكنت قد بدأت أذهب إلى السينما بكثرة وأتعقب أصدقائي الموسيقيين في مسارح المركز ومسارح الشارع ١٥٢.

وعادت سفينة ريجينالد إلى ميناء نيويورك وتوقفت به مدة توطدت فيها علاقتي به

وتكلمنا خلالها على أسرتنا وتأسفنا على أخينا ويلفريد الذي لم يتمكن من دخول إحدى الجامعات الكبرى رغم حبه للعلم وأفضينا لبعضنا بأفكار لم نفض بها لأحد من قبل.

كان بطريقته الهادئة محباً للموسيقى والموسيقيين فأدخلته إلى وسطهما حيث كنت معروفاً في تلك الفترة (١٩٤٤ ـ ١٩٤٥) كبائع مخدرات سابق وقضينا معاً بالكواليس أمتع الأوقات فحداه ذلك إلى ترك البحرية والبقاء في هارليم. كنت قد أخذته إلى مرقص السافوا ومسرح أبولو وفندق البرادوك وإلى الأندية الليلية وإلى كل مكان يعزف فيه جوق زنجي. وكانت السيدة العظيمة بيلي هوليداي تحتضنه وتسميه «الأخ الطفل». وكان كعشرات الآلاف غيره من الزنوج يعتقد أن جوق ليونيل هامبتون هو أحسن الأجواق الكبرى فقدمته لأعضاء هذا الجوق ولهامب نفسه ولزوجته، مديرة أعماله غلايديس هامبتون.

كان هامب رجلاً لطيفاً يشهد له الجميع بمساعدته لكل الناس حتى إن لم تكن تربطه بهم علاقة وطيدة. وكان من شأن ذلك أن يضيع عليه ثروته الواسعة لولا حنكة زوجته التي كانت من أذكى من عرفت من النساء. وفرانك شيفمان صاحب مسرح أبولو يعرف ذلك فقد كان يتفق مع سائر الأجواق على أجر أسبوعي محدد ولكن غلاديس هامبتون استطاعت أن تقنعه بتغيير سياسته وإعطاء جوق زوجها نسبة مئوية من المدخول فأكسب ذلك جوق هامبتون حظوة كبرى ثم عمدت إلى رفع عدد الحفلات اليومي من أربعة إلى ثمانية. كانت هذه السيدة تنصحني وتقول لي: «إهدأ يا أحمر!» لأنها كانت ترى شراستي وتتخوف علي من سوء العاقبة.

سرني أن ريجينالد لم يسألني عن عملي مع أنني وقتها كنت أعمل أكثر من المعتاد. وكنت قد اكتريت شقة من ثلاث غرف بـ ١٠٠ دولار في الشهر حتى يجد ريجينالد مكاناً يستقر فيه، كانت تقع على ما أظن تحت بيت في الشارع ١٤٧، الواقع بين شارع كانفانت وسانت نيكولاس وكانت بجوارها شقة أخرى يسكنها أحد أنجح موزعي المخدرات.

وأخذت ريجينالد إلى مطعم بيل الكريولي وإلى الأماكن الليلية الأخرى في هارليم التي كنا نذهب إليها في حوالي الثانية صباحاً بعدما تغلق الحانات أبوابها فنجد سيارات أجرة وسيارات سوداء من نوع ليموزين تقل البيض إلى هذه الأجواء الزنجية

التي يحبونها. وكانت المحلات الهارليمية الليلية تتفاوت في الأهمية من جيميز شيكن شاك وديكي ويلز إلى الأندية الصغيرة الخاصة مثل هير تونايت غون تمورو نايت حيث الدخول بدولار وحيث الأجواء عاجة بالدخان وأغلب الزبائن بيض يشربون الويسكي من فناجين القهوة في ابتهاج ويأكلون الدجاج المقلي بينما نساؤهم يضرب بعضهن بعضاً في صخب ويصفقن للموسيقى بوجوه تخفيها أقنعة الماكياج وتبرز فيها عيون لامعة. وكان البيض بعدما يسكرون يذهبون إلى الزنوج النادلين منهم وأصحاب المحلات والزبائن ويشدون على أيديهم بقوة ويحاولون احتضانهم قائلين: «أنا وأنت سواء، لا فرق بيننا!». وكان هناك نجوم بيض وسود يترددون على المحلات المشهورة ويتمتعون بصحبة بعضهم البعض.

وكانت ساعة الإكتظاظ في جيميز شيكن شاك وديكي ويلز هي الرابعة والنصف صباحاً وكانت تضاهي ساعة الإكتظاظ في حفلات بيلي هوليداي وهو يغني البلوز مصحوباً بعازف البيان هايزل سكوت وفي جيميز شيكن شاك هذه تعرفت، بعدما عملت نادلاً بها فيما بعد إلى الثعلب الأحمر غاسل الصحون الذي كان يوقع عمال المطبخ من الضحك.

ولم يلبث أخي ريجينالد أن أبدى لي رغبته في ممارسة عمل كعملي ففكرت له جدياً في شيء يكون جيداً وآمناً وقلت في نفسي: «أضعه في الطريق السليم وعليه فيما بعد أن يخاطر إن شاء». وجدت له عملاً بسيطاً في الحقيقة استعملت للوصول إليه سيكولوجية غاب الأحياء الفقيرة. ذهبت إلى مركز نيويورك وحصلت له على رخصة للبيع بالتجوال كلفتني مبلغاً أحسبه دولارين ثم أخذته إلى محل يبيع البضائع المعيبة فاشترى جملة قمصان وملابس داخلية وخواتم رخيصة وساعات وما إلى ذلك من السلع التي يسهل بيعها. وكان قد تعلم مني بسرعة دخول صالونات الحلاقة الرجالية والنسوية والبارات ولكن الحرج كان يغلبه عندما يهم بفتح الحقيبة وعرض بضاعته. كانت بضائع الباعة المتجولين جيدة ورخيصة لأنها كانت مسروقة فكانت الناس تشتري أي شيء يباع على الناصية ظناً منها أنه مسروق فساعد ذلك ريجينالد على بيع سلعته بسرعة وكان إذا أوقفه شرطي أخرج له رخصة البيع والفاتورة ولكنه كان حريصاً على ألا يعرف الناس ذلك.

ودللته إلى مكان بعض البيضاوات ظناً مني أنه كزنجي يتوق إلى ذلك وزدت

وقلت له إن بإمكان أي زنجي يمتلك قدراً من الذكاء أن يسيطر عليهن سيطرة تامة ولكن علي أن أسجل له هنا أنه لم يكن يهتم بالمرأة البيضاء وأنه استقبل صوفيا ببرود أغضبها وضايقني.

وتعرف عوض ذلك إلى امرأة سوداء في حوالي الثلاثين على ما أظن من ذلك النوع الذي كنا نسميه «الرائدات الكبيرات»، نادلة في مطعم نخبوي بمركز نيويورك أغدقت عليه من كل ما تملك واشترت له ملابس وطبخت من أجله وغسلت ثيابه وعاملته كما يعامل الطفل فزاد ذلك في إكباري له ولم تتوقف دهشتي عند ذلك الحد بل زادها ما أظهره من حس تجاري لا يتوافر لمن يفوقونه سناً وخبرة سيما وأنه لم يكن يتعدى السادسة عشرة مع أنه كان يبدو أكبر من سنه نظراً لطول قامته ورزانته.

كانت العنصرية في هارليم أيام الحرب على أشدها والتوتر ضارباً أطنابه وقد قال لي الرواد الأوائل إن هارليم تغيرت بعد شغب ١٩٣٥ الذي أسفر عن خسائر تقدر بملايين الدولارات والذي أثاره رفض التجار البيض في هارليم تشغيل الزنوج مع أنهم كونوا ثرواتهم فيها.

في ذلك الوقت كان محافظ نيويورك لاغوارديا قد أصدر أمره بإغلاق قاعة السافوا. وقيل وقتها إنه إنما فعل ذلك لمنع الزنوج من الرقص مع البيضاوات وإن أحداً على أية حال لم يكرههن على المجيء إلى تلك المراقص. وشنها آدم كلايتون معركة أسفرت عن تشغيل كل من شركتي إديسون وهواتف نيويورك للزنوج قبل أن يساهم في معركة خاسرة ضد الجيش و الأسطول كانت ترمي إلى وضع حد للتمييز الذي يتعرض له الزنوج داخلهما. وبقيت قاعة السافوا مغلقة مدة طويلة فضحت تحرر الشمال المزعوم وأذكت الكراهية الزنجية للرجل الأبيض. ثم شاع أن البوليس أطلق النار على جندي زنجي في فندق برادوك.

كنت أمشي في شارع سانت نيكولاس ورأيت الجماهير السوداء تتدفق شرقاً من النهج ١٢٥ في اهتياج وبينها من يحمل كميات هائلة من البضائع المنهوبة. وأذكر أن شورتي إبن أخ فيتشر هيندرسون الذي قاد المظاهرة هو الذي أخبرني بما يجري. كان الزنوج يهشمون زجاج واجهات المتاجر ويحملون كل ما استطاعوا حمله من مفروشات وطعام وحلي وملابس وويسكي. وفي ظرف ساعة كان بوليس نيويورك كله في هارليم ومحافظها لاغوارديا وسكرتير الجمعية الوطنية لتقدم الملونين يجوبانها على متن سيارة

رجال مطافىء حمراء ويهيبان في مكبرات الصوت بالجماهير أن تدخل بيوتها وتبقى فيها. وقد قابلت شورتي هاندرسون مؤخراً واستحضرنا بعض الأحداث الطريفة لتلك المظاهرة مثل الزنجي الذي خرج منها بلقب «القدم اليسرى» لأنه نهب خمسة أحذية كلها للقدم اليسرى وذلك الصيني الذي لم يُمس مطعمه لأنه ألصق على بابه ورقة كتب عليها بإنجليزية ركيكة: «أنا أيضاً ملون».

وعلى إثر ذلك أصبحت الحياة في هارليم من أصعب ما يكون. وقاسى أصحاب المحلات الليلية والباعة غير القانونيين الأمرين من فقدان زبائنهم البيض وفترت الموارد التي كانت قد تدفقت على هارليم في العشرينات ولم يعد يزورها في نهاية الأسبوع إلا عدد قليل من هواة رقصات التويست والفراكي والواتوسي وما إلى ذلك من الرقصات التي أصبح يحمى وطيسها في سمولز برادايس بعدما حولها مالكها الجديد بطل كرة السلة ويلت ذو ستيلت إلى مرقص اجتذب الجماهير إليه بكل حجم نجوميته الأمريكية.

ويتهيب معظم البيض اليوم بحق من دخول هارليم التي يوشك أن يعفى أثر حياة الليل فيها حتى بالنسبة للسود الذين يعمد من يملك منهم أي مال يذكر إلى إنفاقه فيما يسمى بأماكن الإندماج، تلك الأماكن التي كانت إلى حين تطلب البوليس ليخرج الزنوج الذين سولت لهم أنفسهم دخولها. واليوم لا يكاد أثرياء البيض ينتهون من تشييد فنادقهم المتطاولة نحو السماء حتى يبادر هؤلاء الزنوج المهووسون بالإندماج والذين لا يملكون حتى مجرد كوخ يأويهم إلى حجزها وإقامة حفلاتهم ومناظراتهم فيها. وإذا كان يقبل من البيض إنفاق أموالهم في هارليم لأنهم يملكون منها الكثير فإنه لا يقبل من السود أن يحملوا المليمات القليلة التي يملكونها ويقدموها للبيض.

وفي تلك الأثناء حدث حادث أفسد ما كان بيني وبين سامي من مودة. كانت الأمور في هارليم قد ساءت إلى حد أن الباعة غير القانونيين أكرهوا على العمل وأصبحت المومسات شغالات ومنظفات مكاتب بالليل. وكنا أنا وسامي قد قررنا القيام بعملية صعبة ظناً منا أن تراخي الحراس سيجعلها ممكنة ولكن الحظ خاننا فانطلقت رصاصة أصابت سامي بجرح خفيف وأفلتنا بمشقة ثم ذهبت إليه في شقته قبل الفجر فوجدت صديقته الجديدة وهي امرأة جميلة وعنيدة من السود الإسبان، وجدتها تصرخ في وجهه وتبكي. ورأتني فتحولت إلي وصبت علي جام غضبها. سامي يرى ولا

يتحرك. فاستولى علي غضب شديد ولم أشعر إلا وأنا أنقض عليها وأضربها. وإذا بسامي يستخرج مسدسه ويصوبه نحوي. وصرخت المرأة واعترضت سبيله فانتهزت أنا الفرصة وخرجت أجري وهو يجري في إثري شوطاً من الشارع.

كانت تلك نقطة الضعف الوحيدة التي سجلتها عليه خلال صداقتنا الطويلة والوطيدة وعلى الرغم من أننا تصالحنا إلا أن علاقتنا لم تعد إلى سالف عهدها بالإضافة إلى أننا كنا قد قررنا أن نفترق على إثر تلك الحادثة خوفاً من أن تكون أوصافنا عند البوليس. ولم أستطع أن أنسى فعلته معي ولم أعد بعدها أعتمد أو أثق في أحد اللهم إلا أخي.

واكتشفت أن ريجينالد كسول بعدما ترك عمله ولكن ذلك لم يغير نظرتي إليه لأنه كان ما يزال يعرف كيف يستعمل عقله. وكان قد ترك شقتي وبدأ يعيش كلما حل بنيويورك مع «رائدته الكبيرة» ذلك أنه كان يسير على نهجي في الاستفادة من العمل في السكة الحديدية سيما وأنه كان يحب السفر ويداوم على زيارة إخوتنا وأخواتنا المنتشرين في مختلف المدن. وكان على العكس مني يفضل أختنا ماري على إيلا لأنها هادئة مثله وكان قد اتصل بشورتي في بوسطن فخصص له جزءاً من وقته.

ولأنني كنت معروفاً لم أجد صعوبة في دخول ميدان الرهان وهو ولا شك النشاط الهرليمي الوحيد الذي لم تؤثر فيه الأحداث. وكان مشغلي وزوجته قد حصلا مقابل خدمة قدماها لأحد كبار أعضاء عصابة الرهان البيض على حظوة تزويد ولمدة ستة أشهر منطقة موتهايفن ياردز الواقعة بحي برونكس في منطقة السكة الحديدية بأوراق الرهان. وكان هؤلاء الكبار البيض يوزعون أوراق الرهان كل في منطقة محددة يسمح له بممارسة نشاطه فيها خلال مدة معينة من الزمن، وكانت زوجة مشغلي قد عملت في الثلاثينات سكرتيرة لداتش شولتز عندما كان يصول في تجارة الرهان بهارليم ويجول.

وكان عملي يقتضي مني أن أركب الأوتوبيس بحقيبة أوراق الرهان إلى الضفة الأخرى من جسر واشنطن حيث أسلمها في صمت لشخص أجده هناك ثم أعبر إلى الرصيف المواجه لركوب الأوتوبيس العائد إلى هارليم. ولم أعرف أبداً من يكون ذلك الشخص ولا من ينقل ثمن الأوراق ولا كان من المعقول أن أسأل عن ذلك أحداً.

وكانت زوجة مشغلي ثاني امرأة في هارليم تنتزع احترامي بكفاءتها المهنية بعد

غلايديز هامبتون. كان حديثها مفيداً عندما كانت تجد وقتاً للحديث. وكان يدور حول أيام داتش شولتز وما أبرم أمامها من صفقات وقدم من رشاوى لرجال من أعلى المستويات في قطاعي البوليس والسياسة. وكانت تعتقد أن الجريمة لا يمكن أن تستمر إلا بتواطؤ مع السلطة وبينت لي أن كلا من الجريمة والقانون ورجال السياسة عوامل فعالة في شركة واحدة لا تنفصم عراها.

في هذه الأثناء غيرت بائع أوراق الرهان الذي كنت أشتري منه منذ كنت نادلاً في سمولز بارادايس فتفهم كوني أريد التعامل مع أحد أعضاء مجموعتي وإن كان قد حزن لفقدان زبون مثابر مثلي. وهكذا أصبحت أشتري من آرشي الغرب هندي الذي سبق الكلام عليه والذي كان واحداً من أخطر زنوج هارليم وأحد أذرع داتش شولتز اليمنى السابقين في هارليم.

وكان قد خرج من السجن قبيل مجيئي إلى هارليم فمنحته زوجة مشغلي هذا العمل نظراً لمعرفتها القديمة به من جهة ولقوة ذاكرته التي جعلت منه بائع أوراق رهان لا يشق له غبار من جهة أخرى. لم يكن يكتب الأرقام وحتى في حالة الأرقام المركبة كان يكتفي بهز رأسه علامة الإيجاب. ولأنه كان قادراً على خزنها كلها في رأسه فإنه لم يكن يكتبها إلا بعدما يسلم الرابح نقوده. وجعله ذلك بائعاً مثالياً لا يمكن أن تثبت عليه الحجة بحال من الأحوال. وقد فكرت فيما بعد في آرشي وأمثاله وقلت لنفسي إنهم لو كانوا قد ولدوا في مجتمع آخر لاستعملوا مواهبهم الرياضية تلك في ما ينفع الناس ولكنهم ولدوا سوداً في هذا المجتمع. ولكن ما علينا، المهم أن الشراء من آرشي كان في حد ذاته حظوة لأنه كان لا يتعامل إلا مع أهم المقامرين. كان يتوخى في زبنائه الصدق والأمانة ثم يعطيهم الأوراق ولا يدفعون له إلا في نهاية الأسبوع. وكان يحمل معه على الدوام لفة من ألفي دولار من ماله الخاص يدفع منها للرابحين ثم يتسلم ما دفعه من الموزع فكنت بدوري أؤدي له كل يوم جمعة ما يتراوح بين خمسين ومائة دولار. وفي المرتين اللتين ربحت فيهما دفع لي من لفته.

وعندما انقضت الستة أشهر كانت الأمور بالنسبة لمشغلي وزوجته قد سارت على أحسن ما يرام، فأعطيا الباعة بقشيشات جيدة ثم تخليا عنهم لباقي الموزعين واقتنيا قاعة قمار وبقيت أعمل معهما فيها. ثم لم ألبث، عن طريق صاحبة بيت دعارة كنت قد قدمت لأحد أصدقائها خدمة ما، أن تعرفت إلى وجه آخر من وجوه ليل هارليم

التي استعادت حيويتها بعد الأحداث وهي عالم الإنحرافات الجنسية التي يبحث عنها البيض وراء الأبواب الزنجية المغلقة ويحرصون على ألا يعلم بذلك أحد على عكس البيض الآخرين الذين كانوا يأتون إلى الأندية الليلية على رؤوس الأشهاد والذين أخلت أحداث الشغب هارليم منهم الأمر الذي جعل الفئة الأولى بادية للعيان. وهكذا استعملتني تلك المرأة حماية لتجارتها مرشداً لزبائنها.

كان لي هاتف غير مسجل ولم يكن الحصول على الهاتف أيام الحرب بالأمر الهين. وذات يوم طلبت مني المرأة أن ألازم بيتي وأتصل بها تلفونياً بعدما كانت قد بدأت توجه جملة من زبائنها ممن لا تستطيع تقديم الخدمة لهم في بيتها إلى جهات أخرى. كانت ماهرة في ميدانها. وكان علي أن أتسلم منها الإرشادات حول موعد وصول الزبون وعنوان البيت المطلوب إيصاله إليه. وكان مكان الإلتقاط هو مدخل فندق آستوريا عند الزاوية الشمالية الغربية لملتقى النهج ٤٥ وبرودواي، تلك الزاوية الدائمة الإزدحام. وكنت أعرف سيارات الزبائن قبل أن تخفض من سرعتها بالوجوه البيضاء المطلة في قلق بحثاً عن الزنجي طويل القامة ذي الشعر الأحمر والبشرة السمراء الذي يلبس بدلة داكنة أو معطفاً واقياً من المطر ويزين عروة سترته بزهرة بيضاء. كنت إذا جاؤوا في سياراتهم أجلس وراء المقود وأسوق بهم إلى المكان نفسه المقصود وإذا جاؤوا في سيارات أجرة أركب وأقول للسائق: «مسرح أبولو في هارليم من فضلك» ثم ننزل ونأخذ سيارة أجرة أخرى فأعطي سائقها الأسود العنوان الصحيح. ذلك أن عدداً لا يستهان به من تاكسيات نيويورك كان يسوقه البوليس. وبعدها كنت أتلفن للمرأة فكانت تأمرني بالعودة تواً إلى المكان نفسه في المركز لتسلم زبون جديد. كانت المواعيد مضبوطة دائماً حتى أنني لم أنتظر إلا نادراً أكثر من خمس دقائق وإن كنت أعرف كيف أنتظر دون إثارة شبهات البوليس سواء منه السري أو العلني. كانت البقشيشات عالية فكنت أكسب في بعض الأيام ما يناهز المائة دولار. ولم أكن أعرف زبائني والقلائل الذين عرفتهم أو سمعت أسماءهم بالصدفة يذكرونني الآن بفضيحة بروفومو في انجلترا. ذلك أن الإنجليز لا فرق بينهم وبين أصحاب النفوذ والمال الأمريكيين في باب القذارة الجنسية.

ولم يكن زبائني طلاباً صغاراً ولكنهم كانوا كهولاً فما فوق، آباء لطلاب ولعلهم جدوداً أيضاً. كانوا شخصيات بارزة من بينها رجال سياسة كبار ورجال مال ونفوذ

وأعضاء مجالس بلدية في مدن أخرى وكل أنواع المهنيين ونجوم المسرح ونجو هوليود وبالطبع أصحاب الأعمال غير القانونية.

كانت هارليم بالنسبة لهم وكر معاصي وفجور يأتونها متسللين ثم يغسلو جراثيمهم بمادة مطهرة ويلبسون أقنعة الوجاهة والأهمية ويرجعون إلى عالمه الأبيض. كانوا من ذلك النوع الذي يستطيع إنفاق مبالغ طائلة على ساعتي فاحشة أ ثلاث أو أربع. ولم يكن ليدينهم أحد في هذا العالم الأسود ـ الأبيض المنحط لأنه يدفعون الثمن.

في فضيحة بروفومو الإنجليزية أدلت كريستين كيلر في شهادتها أمام المحكمة أ زبائنها كانوا يطلبون منها ضربهم بالسوط. وقد كان هناك في أحد البيوت التي كنـ آخذ الزبائن إليها زنجية من هذا النوع سوداء كالفحم، قوية كالثور، بعضلات كأنه عضلات عامل مرسى، وكان زبائنها في الستين وأحياناً في السبعين من أعمارهم ول تكن تمر أيام قليلة حتى أعود بهم إليها ليطلبوا الرحمة تحت السوط. ولم يكن ذلك أبشع ما رأيت في تلك البيوت ولكن الحياء يمنعني من ذكر كل ما رأيته. فيما بع فكرت في ذلك وأنا في السجن وتساءلت عن مدى حجم الإضطرابات النفسية الكام وراءه سيما وأن العدد العديد من هؤلاء الرجال كان يحتل مناصب يمارس منها على غيره التوجيه والتأثير والنفوذ كما تساءلت عن نوع الدوافع التي تجعلهم يفضلون اللو الأسود الشديد وهوما جعل تلك المرأة لا تقتني من النساء إلا من كانت شديد السواد. ولم أر طيلة وجودي في هارليم رجلاً أبيض يقترب من نازلات تلك البيوت البيضاوات.

وكان هناك في هارليم امرأة جميلة بيضاء فاحشة العبارة وشاذة مهنتها التقاء الزنوج لثريات منهاتن كنت أراها في البارات مع شقراء أخرى وهي تتكلم مع الزنو دون أن يكون في مظهرها ما يوحي بنوع عملها وقد توطدت علاقتي بها بعدما بدأت أبيعها المخدرات فقالت لي إنها كانت حلاقة في المنطقة الشرقية من منهاتن وإنه تركت صالون الحلاقة الذي كانت تجد زبائنها فيه بعدما اتسع مجال نشاطها وأصبحت تستعمل شقتها وثلاث شقق أخرى وأنها بدأت ترسل السود «الحقيقيين» وليس السم أو الحمر إلى العمارات الفخمة ذات البوابين الذين كانوا يبدون في بدلاتهم الرسمي وكأنهم قادة أساطيل. ولم يكن أحد ليعرف السبب الحقيقي وراء قدوم زنجي إلى تلك

نطقة أو يظن إلا أنه خادم. وهكذا كان البواب يخبر المرأة بالهاتف فتقول: «نعم، م، دعه يدخل يا جايمس» فيدخل بلباسه الأنيق متوجهاً إلى مصعد الخدم لا يلوي ى شيء.

والمهزلة أن ذلك لم يكن ليغير نظرة هؤلاء النساء إلى هؤلاء الزنوج كما لم تغير لاقة الرجل الأبيض الجنسية بالمرأة السوداء منذ عهد العبودية نظرته إليها كما لم تغير لاقة الزنجي بالمرأة البيضاء نظرته إليها كشأني مع صوفيا التي كانت ما تزال تأتي كلما بتها. ولا بد أن الزنجي الغرب هندي صديق كريستين كيلر المدعو لاكي غوردن صدقاءه في فضيحة بروفومو الإنجليزية كان لهم الموقف نفسه بعدما سمعوا من نجليزيات تهكمهن على الزعماء الإنجليز الذين كانوا على علاقة بهن بينما زوجاتهم ى علاقة بغيرهم. وظني أن لاكي غوردن يعرف هوية «الرجل المقنع» وأنه لم يقل ن الحقيقة وأنه لو فعل لكانت فضيحة بروفومو فضيحتين.

وليس المسؤولون الأمريكيون بأفضل من نظرائهم الإنجليز. أقولها وأكررها أنا لذي رأيت فواحشهم بعيني وسمعتها بأذني. ويتكلمون على الإنحلال الخلقي عند زنوج هم الذين يغوصون في أحط أنواعه؟ وما الأخبار التي نشرتها بعض الصحف ؤخراً إلا دليل آخر على ذلك، تلك الأخبار التي تحدثت عن أمهات تلك الضاحية من ضواحي نيويورك اللائي يُطلبن بالتلفون بواسطة وكالة مختصة ومن بينهن من تفعل لك بموافقة زوجها واستعداده للبقاء في البيت في غيابها لرعاية الأطفال.

في تلك الفضيحة قام البوليس بحجز ما لا يقل عن ١٦ سجل محاسبة ولائحة ضم ما لا يقل عن ٢٠٠ من أسماء، أغلب أصحابها شخصيات مهمة في القطاعات لإجتماعية والمالية والسياسية. وهي فضيحة ليست بأهون مما سمعته عن جماعة من شباب تتبادل زوجاتهم سحب مفاتيح بيوتهم بالقرعة وأنا لم أسمع أبداً أن الزنوج علوا شيئاً كهذا حتى في أشد أحيائهم فقرا.

وذات صباح باكر هجم زنجي مسلح له أوصافي ويلبس في رأسه جورباً نسوياً على بار وسرق مداخيله في الوقت الذي كان العامل فيه والمدير يحسبانها. وكان معظم بارات هارليم في ملكية يهودي إذ كانت رخصة بيع الخمر تعطى بالمعرفة. لجأ المدير الأسود إلى عصابة سوداء جاءت تطرق بابي عند الفجر فقلت لهم إنني لا علاقة لي بالجريمة وإنني عملت حتى الرابعة صباحاً ثم رجعت إلى البيت ونمت وكانوا

يشكون في آخرين غيري فتركوني في حالي. وفي ذلك الوقت المبكر ذهبت إلى المر وطلبت منها بعض المال ثم ذهبت إلى سامي وأخبرته بالأمر وقلت له إنني ذاهب ع أخي فيلبرت في ميشيغن وأعطيته عنوانه هناك وطلبت منه أن يخبرني حالما يصف الموضوع. وفي تلك الزيارة وضعت الخليط الملين في شعري ثم اكتشفت أن الم متجمد في حنفية الحمام فلجأت إلى غسله بأن وضعت رأسي داخل كرسي بيت الرا- وجعلت أدفق عليه الماء.

وبعد أسبوع جاءتني برقية من سامي تقول إن زنجياً أحمر الشعر قد اعتر بالجريمة فرجعت إلى هارليم ولكنني لم أعد إلى المهنة نفسها لسبب لا أذكره الآ ولعلني كنت أفضل الإبتعاد عن ذلك النوع من النشاط لبعض الوقت فأخذت أذهب إا الأندية في الليل وأداوم على تعاطي المخدرات مع أصدقائي ولا سيما منها الماريخو والأفيون الذي دخنته أول مرة مع بعض الممثلين البيض من المركز. وكنت وقتها أصبت بنزلة برد مزمنة ضايقتني.

بعد ذلك اشتغلت في المركز مع يهودي اسمه هيمي كنت قد قدمت له خد فأحبني وبادلته شعوره بالمثل. كان يشتري مطاعم وبارات مفلسة ثم يصلحها ويع فتحها في بهرجة تجتذب بقية اليهود الباحثين على صفقات لاستثمار أموالهم فيبيع لهم. كان كثير الكلام وكان يتكلم باحتقار شديد على اليهود الذين بدلوا أسماء بأسماء إنجليزية ومن بينهم شخصيات أمريكية مشهورة لم يخطر ببال أحد أنها يهودي كان يقول: «أنا يهودي يا أحمر مثلما أنك زنجي وهؤلاء المسيحيون يكرهوننا مثل يكرهونكم وإذا كانوا لا يعاملوننا كما يعاملونكم فذلك لأننا أذكى منهم».

كان يدفع لي من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ دولار في الأسبوع نظراً لنوع الخدمة التي ك يطلبها مني. وقد كنت أنقل له خموراً غير قانونية إلى باراته التي باعها لليهود. كن أذهب مع شخص آخر في سيارة إلى لونغ آيلاند فنشتري من مصنع غير قانوني خم غالونات نعبّىء بها الزجاجات التي حصلنا عليها من البارات التي نتعامل معها بشك غير قانوني أيضاً ثم نضعها في الصناديق ونوزعها طبقاً لتعليمات هيمي. وكان التزو من الإتقان بحيث لم يكن أحد ليتبينه حتى كبار المدمنين. وقد قمت أنا نفسي بتوز كميات من الويسكي المزور على بعض بارات هارليم المحترمة وبعض محلات آ- الليل فيها.

وعندما ظهرت فضيحة استغلال النفوذ والرشوة بمكتب الولاية للمشروبات الروحية مست إحدى الشخصيات المتعاملة مع هيمي وقال وقتها إن المخابرة خرجت من داخل الجماعة. وذات يوم ضرب لي موعداً ولم يأت ولم أره بعد ذلك ولكنني سمعت أنه وضع على ظهر سفينة مغادرة لنيويورك.

وهجم زنجي آخر طويل القامة، أحمر الشعر، خفيف السواد يضع رأسه داخل جورب نسوي على بعض البلطجية الإيطاليين في برونكس فحامت الشبهات حولي من جديد إلى أن اعترف شخص ما صدقا أو تحت التعذيب. وذات يوم كنت أتكلم في التلفون العمومي في بار ڤات مان الواقع على ربوة تشرف على ملاعب البولو في الوقت الذي كانت فيه بارات هارليم تشرب نخب انضمام لاعب البيس بول جاكي روبنسون إلى فرقة دودجر للعب في مونتريال في خريف ذلك العام (١٩٤٥). وكان آرشي الغرب هندي قد دفع لي منذ قليل من جيبه ٣٠٠ دولار كنت قد ربحتها ذلك اليوم فكنت أكلم من ذلك المهتف العمومي جميلة هارليم جين باركس التي سبق لها أن غنت مع سارة ڤوغان عندما كانتا في رباعي بونيتس المعروف بمصاحبته لأورل هاينز. وكان بيني وبينها اتفاق على أن يدعو أحدنا الآخر كلما ربح في الرهان وكانت قد فعلت ذلك معي مرتين. وسرها أن يكون دوري قد وصل فاتفقنا على الذهاب إلى حفلة بيلي هوليداي الذي كانت جولته الفدرالية قد حملته إلى إحدى قاعات النهج الـ ٥٢ بنيويورك. وضعت السماعة فوجدت شخصين ينظران إلي نظرة مريبة. ولم يكن معي سلاح. لم يكن معي إلا علبة سجائر فبدأت أضع يدي عليها مموهاً. وفتح أحد الرجلين باب حجرة المهتف. كانا إيطاليين سمراوين وقال أحدهما: «تعالَ إلى الخارج لتدفع حسابك». ولم يكد ينتهي من كلامه حتى رأيت شرطياً يدخل من باب البار فكانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي شعرت فيها بالإرتياح لرؤية شرطي. وذهبت إلى شقة سامي وأنا أرتجف فأخبرني أن آرشي قد جاءه يسأل عني. أفكر في ذلك الآن وأتعجب من أنني ما أزال على قيد الحياة. يقولون إن الله يرعى البلداء والأطفال وقد كان لي طوال كل هذه الأعوام شعور بأنه يرعاني أنا أيضاً وإن كنت في الواقع ميتاً وأنا لا أدري. وعند سامي دخنت بعض الكوكايين تمضية للوقت حتى أزف موعدي مع جين باركس.

عندما قال سامي إن آرشي يبحث عني لم يكن يعرف ما وراءه.

الفصل الثامن

الحصار

طرق الباب وقال سامي وهو مضطجع في البيجاما وبرنس الحمام: «من؟» و
عليه صوت آرشي الغرب هندي فدس المرآة المدورة ذات الوجهين تحت السرير وفـ
بقية من مسحوق أو بالأحرى حبات الكوكايين وفتحت أنا الباب فقال لي آرشي
الفور: «أعد لي نقودي يا أحمر!» ورفع في وجهي مسدسه عيار ٢٠، ٣٢ الذي
أكبر من عيار ٣٢ وأصفر من عيار ٣٨. كنت قد جابهت بعض الزنوج الخطرين ولـ
مجابهة آرشي كان معناها الموت.

وعقلني الخوف والدهشة ثم وجدتني أقول: «ما الحكاية؟» فقال إنني كذبت
عندما أدعيت أنني ربحت. والحالة أن رقمي ليس هو الرقم الرابح فبادرت وقلـ
«هل جننت يا رجل؟» وأنا ألمح سامي يدس يده تحت المخدة ويخرج مسدسه
٤٥ ويقول: «وهل يعقل أن يدفع عن رقم خاسر من تتحدث بنباهته الركبان؟» فا
آرشي نحوه وهو يحرك مسدسه في الهواء ويقول: «سأفرغ هذا المسدس في أذ
وأرهبه ثم التفت إليّ وقال: «هل صرفت المبلغ؟» ولعلني هززت رأسي فقال: «أمه
حتى ظهر غد لترجعه». ووضع يده خلف ظهره وجذب الباب ثم خرج وصفقه.

لم تكن الورطة بذات بال في ذلك العالم غير القانوني وقد كنت ما أزال أم
من المبلغ مائتي دولار وحتى لو كنت قد أنفقتها لأمّنها لي سامي من نسائه إن
الأمر أو لاستدنت من آرشي نفسه بفائدة ١٠٪ هو الذي سبق له أن علم بضائقة
كنت فيها فجاءني ببعض المال قائلاً: «ضع هذا في جيبك». لم يكن المال
المشكلة وإنما ماء الوجه والشرف اللذان كانا كل ما يملكه البائع منا في غابة الرص
تلك التي كنا نعيش فيها. وكان آرشي يعرف أن بعض الشباب يسعى إلى إثبات ذاته
السوق بإثبات قدرته على خداع أحد الكبار فتوهم أن ذلك ما رميت إليه. وأدركت
جهتي أنه سيسعى لا محالة إلى إفساد سمعتي بإشاعة إرهابه لي وأن مروجي الأ

في انتظار تطور الأحداث، كما كنت أعرف شباباً خرجوا من هارليم تحت الإرهاب وما لا يقل عن اثنتي عشرة مجابهة انتهت بانتقال أحد الطرفين إلى مستودع الجثث، وبالآخر إلى حبل المشنقة ولكنني اخترت البقاء عملاً بمبدإ الصمود في عالمنا الغابوي ذاك.

كان مسدسي في شقتي فاستعرت مسدس سامي عيار ٣٢ ووضعته في جيبي وإصبعي على الزناد وخرجت. كان علي أن أظهر في الأماكن التي تعودت الظهور فيها. وحمدت الله على أن ريجينالد لا يوجد في هارليم وإلا لدخل طرفاً في المعركة.

وتوقفت في الطريق وأنا أعاني من بلبلة فكرية فظيعة من ذلك النوع الذي يعرفه المخدَّرون. تبادر إلى ذهني أن آرشي ألف هذه الحيلة ليبتز مالي شأن بعض الكبار ثم قلت إنه ليس من ذلك النوع وإنه لا يمكن أن يفعل ذلك من أجل ٣٠٠ دولار، ثم عدت وقلت من يعرف بالتأكيد ما يستطيع أن يفعله امرؤ في الغاب؟ أو ليس هناك أشقاء خانوا أشقاءهم وباعة كبار سلبوا مخدَّرين أوراقهم الرابحة؟ ثم عدت وقلت ماذا لو كان آرشي على صواب وكنت قد أخطأت فعلاً في تركيب الرقم؟ كنت قد أصبحت غير متأكد إلا من شيئين اثنين وهما الرقمان اللذان لعبتهما وأنني طلبت من آرشي أن يركب لي أحدهما فقط ولكنني لم أستطع أن أتذكر أيهما؟ هل سبق لك أن كنت متأكداً من شيء مائة في المائة ثم أثير أمامك من جديد فنزل تأكدك إلى خمسين في المائة؟ هذا ما حدث لي ذلك اليوم.

ووصل موعدي مع جين بارك وأنا في دوامة، فخطر لي أن أعتذر لها ثم قلت إن الهرب الآن لن يكون إلا بمثابة إخفاء الرأس في الرمال فذهبت وأخذتها وركبنا سيارة أجرة إلى نادي أونيكس في النهج ٥٢.

وجدنا صور بيلي هاليداي تتلألأ في الواجهة تحت الأضواء وفي الداخل طاولات يكتظ المكان بها ولا تتسع إلا لكأسين وأربعة مرافق. وغنت بيلي أغنيتها الأولى فلمحتنا. كانت تلمع في ردائها الأبيض داخل دائرة الضوء بوجهها النحاسي الذي يبدو كوجه هندية وشعرها المشدود على شكل ذيل الحصان. ثم غنت أغنيتها المفضلة عندي: «لن تعرف الحب حتى تعرف السهاد... وتسلو كل شيء». وانتهت وصلتها فاتجهت نحونا وعانقت جين بارك وجلست معنا ولم تلبث أن أدركت ما يعتريني من انزعاج، فسألتني عما بي بلهجتها البذيئة وأجبت على لهجتها بالمثل على عادتي حينذاك فتركتني في حالي وفي الأخير أخذ لنا مصور المحل صورة جلسنا فيها متقاربين

وكان ذلك آخر عهدي بها فقد ماتت بسكتة قلبية من فعل الغم والمخدرات. هكذا، على حين غرة، توقف ذلك القلب الكبير والصوت العظيم والأسلوب الذي لم يعرف أحد كيف يقلده والذي عكس الروح الزنجية بما ترزح تحته من آثار عهود القسر والأسى. إن من المؤسف أن امرأة على هذه الدرجة من الرقة والنخوة لم توجد في مكان يستطيع أن يتبين عظمة الجنس الأسود عندما يراها ويعرف كيف يقدرها.

تلك الليلة ذهبت إلى بيت الراحة واستنشقت الكوكايين التي أعطانيها سامي ثم اقترحت جين بارك في طريق العودة أن نعرج على بار لامار شيري في ملتقى النهج ١٤٧ وشارع سانت نيكولاس. كان معي مسدسي والجرأة التي أمدني بها المخدر فوافقت على اقتراحها، وما إن شربنا أول كأس حتى طلبت منها أن تذهب إلى بيتها وكان ذلك أيضاً آخر العهد بها.

بقيت في ذلك البار كالمعتوه وظهري إلى الباب وآرشي الغرب هندي لا يبرح بالي. ولم يكن من عادتي أن أجلس في البارات وظهري إلى الباب ولعل القدرة الإلهية هي التي جعلتني أفعل ذلك تلك الليلة ولولا ذلك لكنت أبصرت آرشي وهو يدخل وأطلقت عليه النار ولكنني وأنا في وضعي ذاك لم أشعر إلا وهو ينتصب أمامي ويوجه إلي مسدسه ويسبني وينعتني بأقذر النعوت محاولاً إثبات سيطرته على الموقف. وتجمد كل من في البار وتوقفت الكؤوس في منتصف الطريق وفي الجو أغنية تتدفق من صندوق الموسيقى. لم يكن قد سبق لي أن رأيته سكران، ولكنني كنت متأكداً أن ما به ليس سكراً لا سيما أن أمثاله يستعينون بالمخدرات لا بالخمر للقيام بذلك النوع من الأعمال التي يقومون بها.

وعنَّ لي أن أقتله... قلت انتظر حتى يستدير ثم أضربه بالرصاص واستشعرت مسدسي على أضلعي تحت الحزام. ولعله قرأ أفكاري فقال وهو ما يزال يلعن: «تحسب أنك ستقتلني قبل أن أقتلك؟ ولكن اسمع ما سأقوله لك جيداً. إن قتلك لا يعني بالنسبة لي شيئاً لأنني عجوز في الستين ولأنني معتاد على السجون أما قتلي فيعني نهايتك لأنك شاب في مقتبل عمرك».

وقلت في نفسي إنه يتحايل عليَّ ليحملني على الهرب وينقذ بذلك سمعته وحياته وأن ذلك هو ما دفعه إلى استعمال المخدرات. ترى كيف كانت ستتطور الأمور؟ لو خرج لتبعته ولتبادلنا إطلاق النار في الشارع ولكن بعض أصدقائه الذين كانوا هناك أدركوه ودفعوه إلى الداخل وهم يمرون بي ويرمقونني شزراً. وبكل تُؤدة نزلت من على

الكرسي ووضعت ورقة مالية على البار وخرجت ولم ألتفت. وفي الخارج وقفت أرصد الباب مدة لعلها خمس دقائق ولكنه لم يظهر فانصرفت.

عدت إلى شقتي في سيارة أجرة ودخنت الأفيون وأنا أشعر أنني قادر على استعمال مسدسي ثم كلمتني المرأة الشقراء الشاذة في التلفون وطلبت مني أن أحمل لها ما قيمته خمسون دولاراً من الماريخوانا. كان أثر الأفيون قد سرى فيَّ وعمني بالخمول ولكنني لم أكتف بذلك بل ذهبت إلى الحمام وابتلعت قُرْصَيْ بنزيدرين وشعرت برأسي يتصدع. وبعد ذلك ذهبت إلى جاري موزع الماريخوانا وأخذت منه الكمية المطلوبة دَيناً ثم ساعدني على برمها في مائة قضيب بعدما لاحظ ما كنت عليه من تخدر. جلسنا نبرم وندخن وبذلك زدت الماريخوانا على البنزيدرين على الأفيون.

ومررت بسامي وأنا في طريقي إلى المرأة ففتحت لي صديقته الزنجية الإسبانية التي كان قد ضعف أمامها إلى الحد الذي جعله يخل بعادته ويحتفظ بها كل تلك المدة بل ويسمح لها بفتح بابه. بدا عليه أنه لم يعرفني وكان قد أصبح مدمناً ثم أدخل يده تحت السرير وأخرج مرآة الحلاقة التي يضع فيها المخدر لسبب لا يعلمه إلا هو ومدها لي فأخذتها. وعندما خرجت من عنده كانت كل ثلمة في رأسي تمتلىء بإحساس يصعب شرحه ولا أجد ما أصفه به إلا أنه شعور باللاَّزمن، شعور يصبح اليوم معه خمس دقائق ونصف الساعة أسبوعاً.

لا أعرف كيف كان منظري عندما وصلت إلى الفندق الذي تقيم فيه تلك المرأة ولكنني أذكر أنها تعاونت مع صديقتها على حملي إلى سرير سقطت على عرضه ودخلت في غيبوبة. وعندما أيقظتاني كان الوقت ليلاً والموعد الذي حدده لي آرشي قد مر عليه نصف يوم.

ورجعت إلى هارليم فوجدت خبري شائعاً والناس تتحاشاني خوفاً من أن تصيبها رصاصة طائشة ولكن شيئاً لم يحدث لا في ذلك اليوم ولا في اليوم التالي. كل ما هناك أنني بقيت على نفس الدرجة من التخدر. واشتبكت في أحد البارات مع بائع مبتدىء وضربته فذهب وعاد وهو يحمل مدية. وكنت من جهتي قادراً في تلك اللحظة على أن أزهق روحاً ولكن شخصاً جاء وأخذه إلى الخارج وهو يسب ويقول إنه كان على وشك أن يرتكب جريمة.

ولمحت شرطياً يحوم فتفاهمت مع بائع بالإشارة ودسست له مسدسي. وما

كدت أنتهي من ذلك حتى وجدت الشرطي يتوجه نحوي في خطى متئدة ويقول: «أخرج يدك من جيبك يا أحمر بكل حذر». كان ككل الناس يعلم بأمري مع آرشي ويعلم أنني مسلح وكنت أعرف أنني لو أتيت حركة واحدة لنسفني فأخرجت يدي من جيبي بكل حذر ولما وجدها فارغة هدأ قليلاً وهدأت أنا لهدوئه، ثم أشار إليّ بالخروج أمامه فخرجت. كان زميله ينتظر وجهاز الراديو يضج داخل سيارة الشرطة. وفتشاني على الرصيف والناس تتوقف وتتفرج ولكنهما لم يجدا شيئاً فقلت لهما: «عمَّ تبحثان؟» وقال أحدهما: «بلغنا أنك مسلح يا أحمر» وقلت: «كان معي مسدس ولكنني ألقيت به في النهر» فقال الذي كان في البار: «لو كنت مكانك يا أحمر لغادرت هذه المدينة في التو».

ورجعت إلى البار. ولولا أنني قلت لهما إنني رميت المسدس لفتشا الشقة ولوجدا ما هو أدهى من عشرة مسدسات ولرميا بي في السجن وحصلا على الترقية. كانت الأزمة تشتد من حولي وتحاصرني من أربع جهات: آرشي الغرب هندي والإيطاليون الذين كانوا يعتقدون أنني سرقت حثالتهم، والبائع المبتدىء المرعوب الذي ضربته والبوليس... كان زمن الحظ بالنسبة لي قد ولّى، بعد أربع سنوات أفلتُّ خلالها من السجن وعميت عني الشرطة وزمن المتاعب قد أقبل.

في ذلك الوقت قدم لي سامي خدمة لن أنساها. كنت أمشي في شارع سانت نيكولاس وسمعت صوت منبه خيل لي أنه طلقة نارية إذ من كان سيجازف ويناديني بالمنبه؟ وأخرجت المسدس بسرعة وأنا أدور حول نفسي وإذا بالصوت يعقبه نداء: «يا ابن بلدي!» وإذا هو شورتي. أرعبته فصرخ وتحول خوفي إلى فرح.

وفي السيارة شرح لي أن سامي اتصل به وأخبره بالأزمة التي أمر بها ونصحه بالمجيء وأخذي بعيداً عن نيويورك وأنه عدل برنامج جوقه واستعار سيارة عازف البيان وجاء يسوق بسرعة جنونية.

ذهبت معه إلى شقتي فبقي هو يرقب تحت ودخلت أنا وجمعت من متاعي القليل مما أحرص عليه ورجعت وانطلقنا ثم ما لبثنا أن دخلنا الطريق السيَّار وزودنا السرعة. كان شورتي هو الذي يسوق ولم يكن قد نام ليلته السابقة. فيما بعد قال لي إنني كنت أتكلم من دون انقطاع طيلة مسافة الطريق كمن أصابه مس.

الفصل التاسع

الوقوع

أذهل إيلا ما صرت عليه من إلحاد وفظاظة. وكنت قد أصبحت أعتقد أن للمرء أن يفعل ما يشاء إن كانت له القدرة على ذلك وأن المرأة جزء من متاع الرجل وأصبح كلامي ينم عن الكفر والبدَع ويدور في حدود مائتي مفردة حتى أن شورتي نفسه الذي أسكنني عنده لم يتحمل أسلوبي الهمجي وطريقة تفكيري وكنت كثيراً ما أضبطه وهو يرمقني من طرف خفي.

في البداية وصلتُ الليل بالنهار نائماً، وكنت من قبل لا أنام في الغالب إلا في النهار وأتخدر عندما أصحو. وذهل شورتي الذي علمني تدخين الماريخوانا من مقدار ما أصبحت أستهلكه منها. في البداية كنت أكره الكلام فكنت أقضي وقتي في الإستماع إلى الأسطوانات تحت فعل المخدر الذي كان يشعرني بأنني أطفو وأحلم وأنني أرى أصدقائي موسيقيي هارليم فأكلمهم.

وبمجرد ما خرجت إلى شوارع روكسبوري عرفت أين تباع الكوكايين «الثلجية» التي ما إن دخنتها حتى رجعت لي الرغبة في الكلام. وهذا النوع من الكوكايين الأبيض يخلف وهماً بالراحة ويعطي مستهلكه ثقة تامة في طاقاته المادية والمعنوية حتى يخيل إليه أنه قادر على أن يهزم أبطال الملاكمة في الوزن الثقيل وأن ذكاءه فوق مستوى البشر زيادة على الشعور باللازمن والقدرة على استحضار الماضي بوضوح مدهش.

كان شورتي يعمل خارج بوسطن ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع وكانت صوفيا تأتي بعدما يخرج فأكلمها على مشاريعي ثم تذهب إلى زوجها ويعود شورتي فأنقلب إليه وأكلمه عن كل شيء وأي شيء حتى مطلع الفجر.

كان زوج صوفيا قد ترك الجيش وأصبح بائعاً كثير التردد على الساحل الغربي. وكانت تقول إن أموره المالية ليست على ما يرام رغم أنني لم أكن لأهتم بذلك، وأن

الرجل من جهته لم يعلم بأنني موجود. إن المرأة البيضاء قادرة على إصابة زوجها في كرامته وتوجيه أحط أنواع السباب إليه ولعن أمه وأم أمه ولكنها لا تستطيع أن تقول له إنها تخونه مع رجل أسود ولو فعلت لذبحته بالسكين.

كانت صوفيا تعطيني المال حتى وأنا لا أحتاجه فما بالك وقد أصبحت بدون مورد. في هارليم كانت تعطيني كل ما معها ولا تبقي إلا ثمن التذكرة. كانت من ذلك النوع من النساء اللاتي يجدن متعة في استغلال الرجل لهن واللاتي يعمدن إلى استغلاله إن لم يفعل هو ذلك. وكنت أعرف أنها تعطيني من مال زوجها إذ لم تكن تشتغل ولكن بعدما رجعت إلى بوسطن وكثرت طلباتي لم أعد أعرف من أين بدأت تأتي بالمال. على أنني كنت أسيء معاملتها وأضربها لأنني كنت أعرف أن المرأة في حاجة لذلك بين الفينة والأخرى حتى لا تخرج عن انضباطها ولكنني كنت أبالغ أحياناً فكانت تبكي وتقسم ألا تعود ولكنني كنت أعرف أنه مجرد كلام.

وكانت بالنسبة لشورتي أحسن ما في رجوعي إلى بوسطن فقد كان كما سبق القول يحب البيضاوات حباً لم تبصر له عيني مثيلاً في كل من عرفت من الزنوج. وكان قد تعرف إلى بعضهن ولكن أياً منهن لم تعمر معه لأنه كان طيباً معهن أكثر من اللازم، ولأن المرأة سواء كانت سوداء أو بيضاء سرعان ما تمل هذا النوع من الرجال. وجاءت صوفيا ذات مرة بأختها الصغرى التي تشبهها وتبلغ السابعة عشرة من عمرها فوقع عليها شورتي ووقعت عليه. كانت بالنسبة له بيضاء، جميلة وصغيرة وكان بالنسبة لها زنجياً وموسيقياً. وكنت أحياناً آخذ الأختين ونذهب إلى المكان الذي يعزف فيه فكان الزنوج يأتون ويقفون على مقربة من مائدتنا وهم يتلمظون ولم يكن حال شورتي بأفضل من حالهم. كان يعزف ويرنو إلى الفتاة وهي تنتظره وتلوح له وتغمز. وما إن ينتهي من وصلته حتى يندفع إلى مائدتنا وهو يتعثر في الناس.

كنت حينذاك قد أقلعت عن الرقص ولبس البدلة الفضفاضة وأصبحت أبدو في أليق مظهر. وذات يوم التقيت لورا فسر كلانا برؤية الثاني وتكلمنا كلاماً كثيراً وضحكنا. كانت تبدو أكبر من سنها وكانت قد تخلت عن حلم متابعة دراستها الجامعية وتركت بيت جدتها وتعاطت البغاء. وبدأت كلما ألتقيتها أجدها مخدرة ثم لم نلبث أن بدأنا نتخدر معاً.

ومر علي شهر في بوسطن فقررت أن أشرع في ممارسة عمل غير قانوني. وكان

القمار هو ما يستفتح به البائع المفلس فأخذت المال الذي أعطته لي صوفيا وذهبت إلى نادي جون يوه ولعبت البوكر. كان هذا الأخير في أول عهدي ببوسطن مقامراً لا يشق له غبار فكان يأنف من مكالمة أمثالي أما حينذاك وأخبار منجزاتي بهارليم أيام الحرب تعم روكسبوري وكلمة نيويورك تلفني بسحرها فقد رأى في معرفة من هو مثلي حظوة كبرى شأن مخالفي القانون في كل مكان. وكان قد جمع أيام الحرب من أنشطته غير القانونية ثروة فتح بها ذلك النادي.

المهم أنني ذهبت ولعبت البوكر مع شلة من المقامرين ومن بينهم جون يوه. وضعت الورقة الأولى على الطاولة ثم الثانية. كانت أعلى ورقة في يدي آس فأزحتها وإذا بالتي تحتها أيضاً آس وكانتا ظهرا لظهر فافتضح أمري. وجاء دوري لألعب فأخذت الوقت اللازم للدرس والتمحيص ثم قرعت الطاولة لأعلن لمن يليني أنني أمرر فاستنتجوا أن ليس في يدي شيء يذكر. ووقع اللاعب الذي يليني في الفخ فرفع الرهان ليفزعني وفعل الذي يليه فعله ووصل الدور إلى جون يوه فكشف عن ورقة الملكة ثم رفع بدوره الرهان وقد أوعز إلينا بما في يده. كان لاعباً ماهراً في مستوى أكبر اللاعبين الذين عرفتهم في نيويورك. وجاء دوري من جديد. كانت مراهنتي على مزايداتهم تعني خراب بيتي وكان بديهياً أن بعضهم يحمل أوراقاً جيدة وكل منهم يتوهم أنه صاحب الورقة الأفضل. ولم أتعجل بل أمعنت في التفكير والتقدير وتظاهرت بالحيرة ثم وضعت على المائدة ما يعادل مجموع رهاناتهم واستمر اللعب على هذا المنوال حتى آخر ورقة.

وبدأت الجولة الثانية فوقعت في يدي ثلاث آسات ووقعت في يد جون يوه ملكة أخرى. وراهن بلفة من الأوراق المالية فبدأ كل لاعب يأخذ وقتاً أطول ثم انسحبوا الواحد تلو الآخر حتى لم يبق سواي وجون يوه. ولم يعد أمامي إلا أن أضع على الطاولة كل ما تبقى لي من مال. ولو كانت معي خمسمائة دولار أو أكثر لوضعتها وأرغمته على أن يضع ضعفها.

وكشفت أوراقي الثلاث الباقية وكلها آسات وكشف هو ثلاث ملكات وبذلك خسرت أول أعلى رهان لي في بوسطن أي ما لا يقل عن خمسمائة دولار. وغادر جون يوه المائدة متوجهاً نحو مدير ناديه وقال له: «متى ما جاء الأحمر أعطه كل ما يريد. إنني لم أر شاباً يلعب البوكر مثله».

سماني شاباً وهو في الخمسين على ما أظن، اعتقاداً منه على غرار غيره أنني في حوالي الثلاثين وإن لم يكن من السهل معرفة سن الزنجي، ولم يكن هناك في روكسبوري فيما عدا أختاي إيلا وماري من يعرف سني الحقيقي.

سرى نبأ مبارزتي تلك في روكسبوري بسرعة فزاد سمعتي تألقاً في أوساط المقامرين والخارجين على القانون، ثم شاعت عني حادثة أخرى وقعت لي في ذلك النادي وأصبحت أعرف بعدها بحامل المسدسات.

كان على أي لاعب أن يتجرد من السلاح قبل دخول النادي فكان من عادتي أن أتجرد من مسدسين اثنين في وقت واحد. وحدث أن حاول أحد اللاعبين أن يستعرض علي شطارته فأخرجت مسدساً ثالثاً كنت أحتفظ به معلقاً في كتفي فأصبحت أُعرف بـ«المتهور» و«المخبول». وأعتقد الآن أن «المعتوه» هو أقل ما كان يمكن أن أوصف به. كنت أستهلك المخدرات كما يُستهلك الطعام وأحمل السلاح كما أضع اليوم ربطة العنق، أؤمن أن على المرء أن يعيش حياته بالطول والعرض وليكن موته عنيفاً بعد ذلك. وقد كنت أترقب وقتها كما أترقب اليوم أن أموت في أية لحظة وإن كنت وقتها أستفز الموت بطرق مجنونة شتى. وهذه الحكاية تثبت ذلك. جاءني بحار بلغه خبر جنوني، جاء يحمل شيئاً ملفوفاً وأشار إلي أن أتبعه إلى بيت راحة في الطابق الأسفل، وهناك فتح اللفة وإذا هو مدفع رشاش مسروق يريد أن يبيعه فقلت له: «ومن أين لي أن أعرف أنه شغال؟» فعبأه بمشط التعمير ومده لي قائلاً: «ما عليك إلا أن تضغط على الزناد». وتناولت المدفع منه وتصفحته ثم وضعت فوهته في بطنه قائلاً: «سأفرغه فيك» فلم يملك، وهو الذي سمع بجنوني، إلا أن يهرب صاعداً السلم في تقهقر بطريقة بوجا نغلز روبنسون في الرقص. أجل، كنت مجنوناً إلى حد أنني لم أفكر في أنه قد ينتقم مني. وذهبت بالمدفع إلى بيت شورتي واحتفظت به هناك إلى أن احتجت إلى المال فبعته.

وجاء ريجينالد إلى بوسطن مذهولاً مما سمعه عني في هارليم فقضيت بعض الوقت بصحبته. كنت ما أزال أرى فيه طفل الأسرة وأشعر بآصرة الأخوة بيني وبينه على عكس إيلا التي كانت قد أصبحت تأنف من التغيير الذي طرأ علي فلم أعد أزورها إلا لماماً. وكانت تقول لي كلما زرتها إن لديها شعوراً راسخاً بأنني أسير نحو الهاوية ولكنني كنت أشعر أنها في قرارة نفسها معجبة بتمردي هي التي كانت لها رباطة جأش الرجال.

ولو أنني كنت لا أحمل إلا هم نفسي لاحترفت القمار سيما ونادي جون يوه يعج بالبلداء العاملين الذين كان بمستطاع المرء أن يعيش منهم ويرابط لهم يوم قبض الرواتب، ثم إن جون يوه كان قد عرض علي العمل كموزع في الموائد ورفضت. كنت أحمل هم شورتي الذي لم يكن له من وضعه الموسيقي إلا البريق والذي كان مدخوله لا يكاد يكفي لإيجار الشقة والطعام وباقي المتطلبات الروتينية الأخرى والذي ترتّب عليه دين لا يستطيع أداءه. كنت أفهمه وقد عاشرت «نجوم» الموسيقى الذين كان البعض يكسب من ورائهم الثروات الطائلة وهم لا يملكون شيئاً. زيادة على أنني كنت في الوضع عينه على الرغم مما مر من يدي من آلاف الدولارات. كانت الكوكايين وحدها تكلفني يومياً ما لا يقل عن عشرين دولاراً زيادة على ثمن الماريخوانا وأربع علب من السجائر أي خمس دولارات. ولو سئلت اليوم لقلت إن السجائر بكل أنواعها صنف من المخدرات.

عندما أثرت مع شورتي موضوع العمل غير القانوني عمدت إلى استعمال مثاله الخاص فقلت له إنه يجب أن يكون المرء بليداً إذا اعتقد أنه بـ«عبده» القانوني وحده يستطيع أن يصل إلى نتيجة في هذه الحياة ثم طرحت فكرة سرقة العقارات فوجدته لدهشتي مستعداً رغم ما جبل عليه من طبع محافظ ورغم جهله التام بهذا النوع من النشاط ثم بدأت أشرح له تقنيات هذه السرقة فقال إنه يود إشراك صديق له كان قد عرفني عليه يدعى رودي وهو شاب أسمر، قصير القامة وجميل ولد في بوسطن من أم إيطالية وأب زنجي، كان له عمل قار مع وكالة ترسله ليخدم على الموائد في المأدبات الخاصة وعمل غير قار من قبيل ما كنت أقوم به في هارليم مع تلك المرأة صاحبة بيت الدعارة. وكنت وإياه قد حكينا بمحضر شورتي عن بعض ما رأيناه في ذَيْنِكَ العملين، فقال إن هذا النوع من النشاط في بوسطن غير منظم على عكس نيويورك، وأنه يتم بين بيض من طبقة عالية وسود منتحلين صفة السائق والخادم وما إلى ذلك. واتضح من سياق حديثه أن أغلب هؤلاء البيض في بوسطن أيضاً أثرياء وعجائز.

كنت أعرف أن سرقة البيوت تحتاج إلى دليل يحدد المكان ومخطط يرسم المنافذ وسبل الفرار وأن رودي يصلح للمهمتين بسبب عمله الذي يسهل عليه دخول بيوت الأغنياء، فذهبنا إليه أنا وشورتي وعرضنا عليه الموضوع فما كان منه إلا قال متحمساً شيئاً من قبيل: «متى نبدأ؟» ولكنني لم أكن متعجلاً سيما وأنا أعرف ميزات

الإحتياط والتخطيط وأن سرقة البيوت رغم ما فيها من مجازفة تؤدي إلى نتائج حسنة إذا تمت بتُؤدة وأنه يجب أن يؤخذ فيها بعين الإعتبار مثلاً تحاشي الناس لأن ذلك يلغي القتل وشهود العيان وأنها يحسن فيها التخصص إذ هناك سرقة الشقق وسرقة الدور وسرقة المتاجر وسرقة المخازن ولأن نوع المسروق نفسه يختلف، الأمرالذي يجعل بعض اللصوص زيادة في التخصص لا يعملون إلا على الخزنات والصناديق المحصنة. وهناك سرقة الليل وسرقة النهار وسرقة وقت العشاء وسرقة وقت المسرح والشرطة تعرف ذلك. ولنأخذ جامب ستيدي. كان يتخصص في سرقة الشقق ليلاً ولم تكن هناك قوة تستطيع إقناعه بالسرقة نهاراً حتى وإن كانت الشقة مشرعة وأصحابها غائبين.

وكنت من جهتي أفضل السرقة الليلية لسبب وجيه وهو وصفي الذي كان يجعلني كالثور الأبلق (زنجي طويل، أسمر، مشرب بحمرة).

وقد فكرت في إشراك نساء بيضاوات في عصابتنا لسببين أولهما أن عمل رودي في البيوت محدود واعتمادنا عليه سيحد حركتنا وثانيهما أننا إلى أن نجد البيت الملائم سيكون هناك من الزنوج من وجده وزاحمنا، عليه ولكنني لم أكن أحبذ إشراك الأجانب. مع وجود صوفيا وأختها ووجود علاقات خاصة بيني وبينها من جهة وبين أختها وبين شورتي من جهة أخرى، وما أبان عنه رودي من حماس وتعقل كنا أسرة واحدة ولم تكن بنا حاجة للأجانب. وقد كنت متأكداً من نفوذي على صوفيا ومن نفوذها على أختها وانتظرت حتى سافر زوجها فأطلعتهما على الأمر.

كنت أعرف أن معظم اللصوص يقعون في أيدي الشرطة وهم يحاولون تصريف البضاعة وليس إبان العملية وقد ساعدنا الحظ فوقعنا على مشتري مسروقات يمارس تجارة ظاهرة للتمويه ويملك في جهات متفرقة من بوسطن العديد من المرافىء والمخازن الصغيرة فاتفقنا معه على خطة تقضي بألا يتعامل إلا معي بواسطة سجين سابق يعمل ممثلاً له وأن أخبر ممثله ذاك قبل القيام بأية عملية وأصف له البضائع ليعين لي المرافىء أو المخزن المطلوب تسليم البضاعة فيه حيث يقوم ممثله هذا بفحصها وإزالة العلامات المميزة منها وعندها فقط يأتي هو ليثمنها ثم يقابلني في اليوم التالي في مكان يحدده ليدفع لي الثمن نقداً. كان يفعل معناً شيئاً ذكياً فلا يدفع لنا، لغرض ما، إلا أوراقاً مالية خضراء، جديدة ومهما كان غرضه من ذلك فقد كان لتلك الأوراق تأثير نفسي كبير علينا إذ كانت تشعرنا بالأهمية ونحن نتجول بها في جيوبنا في شوارع روكسبوري.

كنا في حاجة إلى مقر خارج الحي الزنجي ولم يكن بوسعنا ونحن زنوج أن نحصل على ما نريد فكلفنا صوفيا وأختها بذلك. ووجدنا شقة في هارفارد سكوير في طابق سفلي يسهل علينا فيه الدخول والخروج ليلاً دون لفت الإنتباه.

وحيث إنه لا بد لكل تنظيم من رئيس حتى وإن كان لا يضم إلا شخصاً واحداً فقد أصبحت أنا ذلك الرئيس. وعقدنا أول اجتماع في الشقة حددنا في خطة مفادها أن تدخل الأختان البيوت بوصفهما بائعتين أو ممثلتين لإحدى شركات استطلاع الرأي أو طالبتين تقومان ببحث أو أي شيء من هذا القبيل. وفي الداخل تكونان فكرة عن البيت ومحتوياته وموضعها دون لفت الإنتباه. واتفقنا على ألا تشاركا في العمليات إلا إذا كانت لمشاركتهما مزية خاصة وأن يدخل اثنان منا نحن الرجال للسرقة ويبقى الثالث في السيارة دون أن يسكت محركها.

كنت قد تعمدت الجلوس بعيداً عنهم وأنا أشرح لهم هذه الخطة، وفجأة أخرجت المسدس وفتحته ثم نفضت ما به من رصاص وأرجعت إليه رصاصة واحدة وأدرت الأسطوانة ثم وضعت فوهة المسدس في صدغي وأنا أقول: «سأختبر الآن ثباتكم». وفتحوا أفواههم من الدهشة وضغطت على الزناد فسمعنا طَقَّته وقلت: «سأعيد الكرة» فتوسلوا إليَّ ألا أفعل ولكنني استبنت في عيون شورتي ورودي نظرة تشجيع فضغطت على الزناد وسمعناه يَطِقُّ على أسطوانة فارغة أخرى. كانت المرأتان في هستيريا وشورتي ورودي يقولان جدياً: «يا رجل!... يا أحمر! كفى!» ولكنني ضغطت على الزناد مرة ثالثة ثم قلت: «إنني أفعل هذا لأريكم أنني لا أخاف الموت وأن من الأفضل لكم ألا تحاولوا خداعي والآن هيا إلى العمل». ومن يومها وهم في منتهى الإستقامة ولكن سلوكهم تغير. صوفيا أصبحت تَرْهَبُنِي وأختها بدأت لا تناديني إلا بـ«السيد الأحمر» وشورتي ورودي اقتنعا بأنني مجنون وصارا يخافان مني.

وقمنا بأول عملياتنا في بيت عجوز ثري يعرفه رودي فأنجزناها بدقة جعلت مشتري المسروقات يثني علينا ويعبر لنا عن رضاه بأوراقه المالية الجديدة. وقد علم رودي فيما بعد من صاحب البيت أن جيشاً من رجال الشرطة جاء إلى المكان عينه وعثر على البرهان بأن العملية قامت بها عصابة تعمل في بوسطن منذ سنة.

ثم سرعان ما تطورت منهجيتنا فبدأت الأختان تجدان المكان وأنا وشورتي ندخل البيوت ورودي ينتظر في سيارة يدور محركها والعملية لا تستغرق أكثر من عشر دقائق.

كنا إذا كان البيت خالياً نعالج الأقفال العادية والمتطورة بمفاتيح خاصة وأن ندخل من النوافذ ومنافذ الحريق والسطوح. وكان بعض المغفلات يغرهن ثناء الأختين على بيوتهن فيعمدن إلى تجويلهما فيها فكانتا تعودان برسوم بيانية نأخذها ونذهب قاصدين المكان عينه على ضوء بطاريات صغيرة.

وكنا نسرق البيوت وأصحابها ينامون فيها ولا نجد صعوبة في ذلك. كنا ننتظر في سكون حتى نتبين تنفس النائمين الذين كنا نفضل منهم الذين يغطون لأنهم كانوا يسهلون علينا المهمة ويمكنوننا من دخول غرف النوم حيث الملابس والساعات والمحفظات والحقائب النسوية وصناديق الحلى.

وكانت البيوت في أعياد رأس السنة عبارة من مغارات كنز، الهدايا الثمينة مبعثرة والمحفظات مكتظة بالأموال التي سحبها أصحابها بكثرة من البنوك على غير العادة. كنا حين ذاك نبدأ باكراً ونسرق حتى البيوت التي لم ندرسها. كنا إذا وجدنا بيتاً ستائره مسدولة وأضواؤه مطفأة وجرسه لا يرد عليه أحد غامرنا ودخلناه. وأنا أنصح من يريدون حماية بيوتهم من اللصوص بترك مصباح واحد مضاء والأفضل أن يكون مصباح المرحاض لأنه المكان الذي يمكن للإنسان أن يكون فيه في أي وقت من أوقات الليل ولمدة غير محددة، والذي يمكن أن تسمع منه أية حركة. إنها وسيلة ناجعة وغير مكلفة إذا قيست تكلفة مصباح كهربائي بقيمة المتاع لا سيما إذا كان نفيساً.

وبسرعة تطورنا وأصبحنا متخصصين في سرقة السجاد الشرقي الذي كان المشتري يدلنا على البيوت التي يوجد فيها، الأمر الذي جعلني أشك في أنه يبيع السجاد ثم يرسلنا لنسرقه. كانت تلك الفترة أجود فتراتنا وإن لم نكن نعرف قيمة ما نسرقه. مرة أعطانا المشتري في سجاد واحد ألف دولار فقدرنا أنه سيبيعه بأضعاف أضعاف ذلك. إن مشتري المسروق أنذل من السارق لأنه يسرق مرتين.

وذات ليلة أوشكنا أن نقع في أيدي رجال الأمن. كان ثلاثتنا في المقعدين الأماميين من السيارة لأن المقاعد الخلفية كانت مكتظة بالبضاعة. وفجأة رأينا سيارة شرطة قادمة من الإتجاه المعاكس ولكنها اقتربت منا ومرت بسلام. ونظرنا في المرآة فوجدناها تلف عائدة لتوقفنا بعدما رأى الشرطيان أننا زنوج إذ كان وجود الزنوج في ذلك الحي وذلك الوقت من الليل مريباً. كان الموقف صعباً خصوصاً وقد كثرت السرقات حينذاك في ذاك الحي على يد عصابات أخرى. وكنت أعرف أن الرجل

الأبيض لا يظن الزنجي قادراً على التلاعب به فقلت لرودي أن يوقف السيارة قبل أن يصدر لنا الشرطيان الأمر بذلك. ونزلت وفعلت شيئاً كنت قد فعلته من قبل. لوحت للشرطيين كأنني أريد أن أوقفهما واتجهت نحو سيارتهما فوصلت إليها وهي تتوقف وسألتهما عن الطريق إلى روكسبوري وأنا أتعثر في الكلام شأن الزنجي عندما يرتبك فدلاني وذهب كل منا إلى حال سبيله.

ثم سارت بنا الأمور على أحسن ما يكون. كنا نكسب مبالغ محترمة ونهدأ بعض الوقت حتى نبذرها فيواصل شورتي ترديده على حفلاته ورودي على مآدبه الخاصة وفواحشه وتبقى الأختان في البيت. وكنت ما أزال آخذهما أحياناً إلى الأماكن التي يعزف فيها شورتي وأماكن أخرى وآخذ في تبذير المال كأن موضته على وشك أن تنتهي. كانت الأختان تظهران فيما انتقتاه من مسروقاتنا من حلي وفرو فكانت الناس تحار في نوع النشاط الذي يدرُّ علينا كل تلك الأموال.

وكنا نلتقي في بيت شورتي أو في شقة هارفارد سكوير لتدخين الماريخوانا والإستماع للموسيقى. إنني أكره النميمة ولكن شورتي كان مهووساً بتلك الفتاة البيضاء إلى درجة أنه عندما كنا نطفىء الضوء للتدخين والإستماع للموسيقى كان يرفع ستارة النافذة ليرى وجهها الأبيض على ضوء مصباح الشارع.

كنت في فترات السكون أذهب إلى نادٍ ليلي في شارع مساشوسيت يدعى السافوا حيث كانت صوفيا تتصل بي هاتفياً. ومن ذلك النادي كنت أخرج إلى العمليات رأساً وأعود منها إليه مباشرة حتى يشهد رواده عند الحاجة أنني كنت هناك وقت السرقة سيما وأن الزنوج لا يستطيعون تحديد الزمن بدقة.

وكان أيامها في بوسطن شرطيان زنجيان لم يكن أحدهما، واسمه تورنر، يطيقني ولم أكن بأقل كرهاً له. كان يشيع أنه لن يعدم الفرصة للتنكيل بي فعمدت من جهتي إلى إرسال ردي له مع بعض المولعين بالقيل والقال وتأكدت من أنه وصله. وكان يعرف أنني مسلح وأن كونه رجل أمن لن يمنعني من استعمال السلاح معه.

وذات مساء دق جرس المهتف العمومي في نادي السافوا كالعادة، دق ورجل الأمن ذاك يدخل فحمل السماعة وأخذ يقول: «ألو، ألو، ألو» وينظر إلي. عرفت أنها صوفيا وسألته إن كانت المكالمة لي فرد بالإيجاب وقلت: «لماذا لم تقل لي إذن؟» فأجاب بوقاحة يستفزني. كان كلانا متحفزاً لدخول معركة ضارية ولكننا ملكنا زمام

لسانينا؛ هو حتى لا يقال إنه يستفزني وأنا حتى لا يقال إنني تهجمت على رجل أمن. وأنا أذكر على كل حال ما قلته له وتعمدت أن يكون مسموعاً، قلت له: «إنك تحاول أن تدخل التاريخ يا تورنر، إياك أن تتلاعب معي لأنني سأجعلك تدخله من باب لا يشرفك، سأرغمك على تلطيخ يدك بدمي». ولعله لم يكن مستعداً لدخول التاريخ فنظر إلي وتسلل خارجاً من النادي.

إن المجرم يعرف أنه سيقع حتماً في يد العدالة وهو يناور لإرجاء ذلك المصير. ولقد كنت أحاول إبعاد القلق بالمخدرات حتى أصبحت مدمناً. كنت كلما طفا القلق أبعدته حتى اليوم التالي وفي اليوم التالي أبعده حتى اليوم التالي وهكذا. ثم بدأت المخدرات تترك علي أثرها. ذات أسبوع وكنت في فترة سكون، دخلت باراً فاستبنت نبرة الخطر في صوت النادل وهو يقول لي: «أهلاً يا أحمر!» ولكنني لم أسأله. لم يكن من عادتي أن أتعجل الناس ليقولوا لي ما في جعبتهم بيد أنني لم أترك له الوقت إذ أبصرت صوفيا وأختها في مائدة بجانب حلبة الرقص وبصحبتهما رجل أبيض فتوجهت نحوهم وأنا لا أدري ما أفعله تحت تأثير الكوكايين وخاطبت الأختين بـ«عزيزتيَّ!» فتحول لونهما إلى بياض الموت ولون الرجل إلى حمرة الشمندر. كان صديقاً حميماً لزوج صوفيا من أيام الحرب وكان قد دعاها وأختها للعشاء في غياب زوجها ثم اقترح عليهما دخول الحي الزنجي. كان من ذلك النوع من فقراء الشمال البيض الذين يجدون متعتهم في التفرج على أحياء السود. وحاولتا رفض دعوته تلك ولكنه صمم فتبعتاه مكرهتين إلى ذلك البار الذي كانتا معروفتين فيه وهما تتظاهران بدخوله لأول مرة. وفهم عمال البار الموقف فتجاهلوهما وهكذا كانتا تجلسان في توتر عندما طلعت لهما من الباب.

في تلك الليلة أصابني مرض في شقة هارفارد سكوير، لم يكن شيئاً عضوياً ولكنه كان النتيجة الحتمية لتراكمات السنوات الخمس الماضية. وغفوت قليلاً فأيقظني طرق على الباب ولما لم يكن من عادتنا طرق الباب لأن كلا منا كان يحمل مفتاحا فقد شعرت بالخطر وسقطت من على السرير ثم تدحرجت تحته. كنت كالمترنح فلم أفكر في أخذ المسدس وبعد حين سمعت المفتاح في القفل ورأيت من مكاني حذاء وحاشية بنطلون تذرع الغرفة وكلما توقفت أدركت الشيء الذي ينظر إليه صاحبها. كنت أعرف أنه سينظر تحت السرير وعندما فعل بدا لي وجهه عن قرب كأنما أخرج لتوه من قسم

التجميد في الثلاجة. كان وجه صديق زوج صوفيا وقلت وأنا أقهقه: «فعلتها بك أليس كذلك؟» ولكن قولي لم تكن فيه أية طرافة وخرجت من تحت السرير وأنا ما أزال أتصنع الضحك. وأنا الآن أقولها كلمة حق في حقه: إنه لم يفر. نظر إليّ وهو يتراجع مفزوعاً كأنه رأى ثعباناً ولكنه لم يفر. ولم أحاول أن أنكر عليه الحقيقة وقد رأى بعض ملابس الأختين في الدولاب وفي أماكن أخرى. وتكلمنا قليلاً ثم خرج. صعقني أنني لم أفكر بالمسدس قبل الدخول تحت السرير وأكد لي ذلك ما أصبحت عليه من تردّ فكري.

كنت قد تركت ساعة مسروقة عند جوهري يهودي ليصلحها وعندما ذهبت لأتسلمها منه بعد يومين وقعت في الفخ. كنت أتأبط مسدسي كالعادة وكان صاحب الساعة قد أخطر الشرطة وذكر لها أن بلورتها مكسرة فأعلمت بدورها جميع جوهريي بوسطن. كانت ساعة ثمينة جداً ولذلك احتفظت بها لنفسي.

وانتظر الجوهري حتى دفعت له ثمن التصليح فوضع الساعة على المنضدة الفاصلة بيني وبينه وهو يعطي إشارة ظهر على إثرها شرطي سري اتجه نحوي وهو يضع إحدى يديه في جيبه وقال بهدوء: «تقدم إلى الداخل». وفي تلك اللحظة دخل المتجر زنجي ساذج عرفت فيما بعد أنه كان قد ترك الجيش في اليوم عينه فحسبه معي وانشغل به وهكذا وجدتني واقفاً والمسدس تحت إبطي والشرطي يوليني ظهره ولكنني لم أفعل شيئاً. وأنا الآن مقتنع بأن الله سبحانه وتعالى كان قد قدر لي أن أبقى على قيد الحياة.

أذكر أنه كان يسمى الشرطي السري سلاك. ورفعت يدي قائلاً: «خذ مسدسي» فعكس وجهه الإنزعاج. أقلقه أن ظهور الزنجي الآخر أنساه أمر مسدسي وأثر فيه سلوكي فأخذ المسدس وأعطى إشارة خرج على إثرها شرطيان آخران من مخبئهما ورموا عليّ غطاء فلم أقاومهم.

ولو أنه لم يلق علي القبض يومها لقتلت على يد زوج صوفيا الذي ذهب إلى الشقة يبحث عني وهو مسلح في الوقت الذي كنت أساق فيه إلى مركز الشرطة. لقد فكرت كثيراً وأنا في السجن في القدرة الإلهية التي حالت بيني وبين الموت مرتين في يوم واحد وانتهيت إلى الإيمان الراسخ بالمكتوب.

ولأنني لم أحاول قتل رجل الشرطة لم يضربوني. وعرفوا عنواني من ورقة

وجدوها معي فقبضوا على الأختين وعلى شورتي، سحبوه من وسط جوقه مساء اليوم عينه واعترفت لهم الأختان برودي. وأنا لا أعرف إلى اليوم كيف علم رودي بالخبر ففر من بوسطن ولم يعثروا له على أثر.

ووجدت الشرطة أدلة قاطعة في الشقة: معاطف فرو وحلي وأشياء صغيرة أخرى إلى جانب أدوات العمل: عَتَلَة، أسلاكاً معدنية لفتح الأقفال، مقاطع زجاج، مفكات براغٍ، بطاريات في حجم الأقلام، مفاتيح وترسانة أسلحتي.

وأطلقوا سراح الأختين موقتاً بكفالة رمزية نظراً للونهما الأبيض، إذ لم تكن السرقة شيئاً يذكر بجانب جريمة تورطهما مع زنوج وحكموا علي وعلى شورتي بكفالة قدرها ١٠٠٠٠ دولار لكل واحد منا وهم يعلمون حق العلم عجزنا عن تدبير مثل ذلك المبلغ.

واشتغل علينا الإختصاصيون الإجتماعيون الذين لم يهمهم من القضية إلا مسألة التحالف بين سود ونساء بيضاواتو خصوصاً والفتاتان من طبقة عليا فكانوا لا يسألون إلا عن كيف وأين متى التقيتهما وهل كانت بيني وبين أي منهما علاقة جنسية ولم يكن من بينهم من يهتم بمعرفة شيء عن السرقة.

كنت أنظر إليهم وهم يرددون: «يا لها من قضية!» وإلى كتاب الضبط والقضاة وهم يرددون: «فتاتان من ألطف ما يكون... اللعنة على الزنوج». ولم يكن المحامون الذين عينتهم المحكمة بأفضل حالاً. لقد قلت لأحدهم قبل دخول القاضي: ـظهر أنهم سيحاكموننا على علاقتنا بالفتاتين فاحمر وجهه وقال: «أية علاقة؟ ليس ك علاقة».

وبعدما عرفت الرجل الأبيض على حقيقته بدأت أقول لنفسي إن حكم السارق الذي ليست له سوابق في المتوسط سنتان ولكنهم لم يكونوا ليحكموا علينا حكماً وسطاً.

دعني أقل لك شيئاً قبل أن أنتهي من هذا الموضوع. إنني لم أفض لأحد قبل اليوم بتفاصيل هذا الماضي الدنيء، وأنا لا أفعل ذلك الآن من باب الإعتزاز ولكن لإسكات التأويلات التي تذهب في كل اتجاه حول الدوافع التي جعلتني أتخذ الموقف الذي أتخذه اليوم، ولأنني أعتقد أن هذه الدوافع يجب البحث عنها في كل صغيرة

وكبيرة في حياتنا منذ يوم ولادتنا لأن تجاربنا هي التي تكون شخصيتنا.

إنني لم أكن لأضيع ساعة واحدة على هذا الكتاب الذي يتنبأ له بإنتشار كبير في هذه الأيام التي أحتاج فيها إلى كل دقيقة من وقتي، لو لم أكن مقتنعاً بأنها الوسيلة الناجعة الوحيدة لإبلاغ ما أريد إبلاغه: أنني كنت أسفل سافلين في قاع المجتمع الأمريكي عندما اهتديت إلى الله وإلى الإسلام فتغير مجرى حياتي.

الفصل العاشر

الشيطان

قرِىء الحكم ولم يفهم شورتي المقصود بعبارة: «في وقت واحد» فأصيب بهزة. كانت أمه العجوز قد جمعت ثمن التذكرة وجاءت إلى بوسطن وأخذت تقول له كلما زارته: «إقرأ سفر الرؤيا (من الإنجيل) يا ولدي وصل لله!». وقرأه بل إنه ركع وصلى مثل قس معمداني. وصدر الحكم في المحكمة الإقليمية لمقاطعة ميدلسكس مسرح جرائمنا الأربع عشرة على ما أظن، فجلست أم شورتي بجانب إيلا وريجينالد وأخذت تنتحب وتتوسل للمسيح. ونودي على ابنها فوقف وبدأ القاضي يقرأ الحكم:

«التهمة الأولى من ثمان إلى عشر سنوات.

«التهمة الثانية من ثمان إلى عشر سنوات.

«التهمة الثالثة. . .»

إلى أن وصل إلى السطر الأخير الذي يقول فيه إن الأحكام المذكورة «تنفذ في وقت واحد». ولعل شورتي أجرى عملية حسابية سريعة في رأسه ولعله وجد أن مجموع مدة الحكم مائة عام فصرخ وتداعى. وأسرع السعاة إليه وأسندوه قبل أن يقع، وفي حدود ثمان أو عشر ثواني كان قد أصبح يضاهيني إلحاداً.

وحكموا علي بعشر سنوات وعلى الأختين بمدة تتراوح بين سنة وخمس سنوات تقضيانها في سجن فرامينغهام للنساء الواقع بولاية ماساشوسيت. كنا في عام ١٩٤٦ ولم أكن قد أكملت الواحدة والعشرين من عمري أو بدأ ينبت لي ذقن بعد.

وأخذونا أنا وشورتي ويدانا في قيد واحد إلى سجن شارلزتاون، مساشوسيت. والغريب أنني لا أستطيع تذكر أي من الأرقام التي أعطيت لي سواء في ذلك السجن أو في غيره وإن كان خروجي من السجن منذ اثنتي عشرة سنة لا يبرر ذلك لأن رقم السجين جزء لا يتجزأ من كيانه يحل محل اسمه ويطبع في دماغه من كثرة ما يراه مطبوعاً على ملابسه وأشيائه.

وأنا أنتهز الفرصة لأقول لكل من يحملون مشاعر إنسانية فكروا طويلاً قبل أن تصوتوا على وضع أشخاص آخرين داخل أقفاص. أنا لا أقول إن السجون يجب أن تغلق. أنا أقول إنها يجب أن تكون بلا قضبان. إن رجلاً يوضع داخل القضبان لا يمكن أن يُصْلَح أو ينسى لأنه لا يمكن أن يتغلب على ذكرى القضبان أبداً مهما حاول أو أن يمحوها من ذاكرته. لقد تكلمت مع رجال كانوا في السجون وأدهشني أنهم نسوا كل وصماتها إلا وصمة القضبان.

في الأيام الأولى كنت متوعكاً وسيىء المزاج بسبب انقطاع المخدرات عني. وكانت زنازن ذلك السجن قذرة ليس فيها لا ماء ولا مراحض، فكان يكتفى فيها بدلاء مغطاة لقضاء الحاجة لأن السجن بني في ١٨٠٥، في عهد نابوليون ليكون صورة طبق الأصل للاباستي، فكانت زنزانتي من الضيق بحيث كنت أمد كلتا يدي وألمس الحائطين وكان أدهى ما فيها رائحتها الكريهة التي لا تحتمل.

وجاؤوني بطبيب السجن النفسي وقسيسه فوجهت لكليهما أحط ما خطر لي من سباب كما كتب لي أخي المتدين فيلبيرت من دترويت يقول إن «قداسة» كنيسته ستنظم قداساً من أجلي فبعثت له برد أخجل الآن من ذكره.

كانت إيلا أول من زارني وأذكر أنها حاولت أن تتغلب على مشاعرها وهي تراني في بدلة السجن الباهتة المطبوع عليها رقمي، وأننا لم نجد ما نقوله حتى تمنيت لو أنها لم تأت. كان في القاعة حراس يراقبون وحوالي خمسين سجيناً وزائراً وكنت قد سمعت من زنزانتي عشرات السجناء يتوعدون هؤلاء الحراس ويتعهدون بقتلهم حالما يخرجون.

وفي ذلك السجن بدأت أتخدر بجوزة الطيب. كان رفيقي في الزنزانة يشتري بالنقود والسجائر من سجين يعمل في المطبخ مقادير مسروقة من جوزة الطيب في علب كبريت شأنه في ذلك شأن مائة سجين آخر على أقل تقدير.

وأمسكت صندوق الكبريت وكأنه رطل من صنف شديد وخلطته في كأس ماء فكان له مفعول ثلاث أو أربع سيجارات ماريخوانا. ثم بعثت لي إيلا ببعض المال فبدأت أشتري الماريخوانا والنوبيطال والبنزيدرين إذ كان الإتجار في المخدرات نشاطاً يعود على الحراس بأضعاف رواتبهم.

لقد قضيت سبع سنوات في السجن، ولكنني عندما أفكر فيه الآن أفكر في المدة التي قضيتها في شارلزتاون وهي تربو على السنة، وتتبادر إلى ذهني صورة جوزة الطيب وأشياء مخدرة أخرى وأتذكر أنني كنت أسب الحراس وأرمي بالأشياء خارج الزنزانة وأعطل الصفوف وأسقط صينية الطعام ولا أرد على رقمي بدعوى أنني نسيته وأشياء أخرى من هذا القبيل.

كنت أفعل ذلك بقصد أن يضعوني في الحبس الإنفرادي الذي كنت أذرعه كنمر في قفص خلال ساعات متتالية وأنا أدعو على نفسي بصوت عالٍ وأسب الإنجيل والرب ولكن مدة الحبس الإنفرادي التي ينص عليها القانون كانت تنقضي فكنت أعود إلى الزنزانة. ونظراً لموقفي من الدين أطلق علي السجناء لقب الشيطان.

وفي شارلزتاون عرفت في ١٩٤٧ سجيناً أثر في تأثيراً إيجابياً. كان زنجياً بنمش يدعى بيمبي وكان مثلي خفيف السواد، مشرباً بحمرة، طويل القامة وكان محكوماً بمدة طويلة قضاها متنقلاً بين السجون. كان يدير في سجن شارلزتاون آلة تطبع الأرقام على صفائح معدنية في ورشة كنت أنا أعمل فيها في حزام متحرك تُصبغ فيه الأرقام.

وكنا كلما أنهينا حصتنا من تلك الصفائح نتحلق حوله ونستمع إليه في شغف شديد وهو يتكلم في مواضيع غريبة كلام متضلع فكان حتى السجناء البيض ينضمون إلينا رغم ترفع البيض عن الإستماع لآراء السود. وليس هذا وحسب بل إن الحراس أيضاً كانوا يتسكعون بالقرب منا ويصيخون السمع، وكان يثبت لنا بالحجة والبرهان أن الذين يوجدون خارج السجن ليسوا أفضل منا وأن الفرق بيننا وبينهم أنهم لم يقعوا في يد العدالة بعد.

كان التاريخ أحب المواضيع إليه وكان يتكلم عن تاريخ سجن كونكورد الذي نقلت إليه فيما بعد وكأنه خبير يتكلم بدعوة من الغرفة التجارية وأذكر أنه أول من سمعته ينطق اسم ثورو. كان يقرأ كثيراً وبهرني فيه أنه بكلامه يفرض على الناس احترامه.

كان منغلقاً مع الأفراد فلم يكلمني إلا نادراً ولكنني كنت أحس أنه يحبني. وبدأت أسعى إلى التقرب إليه بعدما تكلم في الدين فزعزع كفري وشككني في الفلسفة الإلحادية إن صح هذا التعبير. كان قد قارع حجتي بكلام نقي فتوقفت من يومها عن

السب. وذات يوم قال لي بصراحته المعهودة إنني على شيء من ذكاء وإن علي أن أستعمله، فأغضبني خصوصاً وأنني كنت أطلب وده وليس نصحه ولو أن شخصاً آخر هو الذي فعل معي ذلك لسببته ولكننا لم نكن نسب بيمبي. وزاد قائلاً إنّ عليَّ أن أستفيد من دروس المراسلة ومن مكتبة السجن.

كان مستواي الدراسي هو الثالثة من الثانوي وكنت قد نسيت في الشارع كل ما تعلمته في المدرسة حتى أصبحت لا أعرف الفرق بين الفعل والمنزل. وكانت أختي هيلدا قد كتبت لي رسالة اقترحت علي فيها أن آخذ دروساً في الإنجليزية والخط بعدما كانت قد وجدت صعوبة في قراءة بطاقات بريدية بعثت بها إليها وأنا أقوم بجولاتي التي كنت أبيع فيها الماريخوانا للفنانين.

وهكذا بدأت آخذ دروساً بالمراسلة في اللغة الإنجليزية وأستعير الكتب من مكتبة السجن فرجعت إلي تلقائياً الميكانيزمات النحوية ولم يكد يدور الحول حتى أصبحت أكتب رسائل رصينة بخط واضح.

وسمعت بيمبي يتكلم على أصول الكلمات فبدأت آخذ دروساً أخرى في اللاتينية كما بدأت ألعب الدومينو تحت وصايته. وكنت أربح فكانت زنزانتي لا تخلو من سجائر وهي عملة السجن كما كنت أراهن على مباريات المصارعة والبايسبول. ولن أنسى يوم لعب جاكي روبنسون مع فرقة بروكلين دودجر. كنت شديد الإعجاب به حتى أنني كنت ألصق أذني بالراديو عندما يلعب وأعرف بالتحديد عدد المرات التي حمل فيها المضرب.

وذات يوم من أيام ١٩٤٨ وكنت قد انتقلت إلى سجن كونكورد، كتب لي فيلبيرت الذي كان كثير الإنتساب إلى التنظيمات، كتب يقول إنه اهتدى إلى «الدين الطبيعي للرجل الأسود» وإنه التحق بالتنظيم الذي يحتضنه في أمريكا والمعروف بـ «أمة الإسلام» ونصحني أن أدعو الله أن يفرج كربتي ولكنني كتبت له رسالة أشد لهجة وإن كانت بإنجليزية أسلم من التي بعثت بها إليه يوم قال لي إن «قداسة» كنيسته ستعقد لي قداساً، إلا أن رسالة أخرى في الموضوع جاءتني من ريجينالد جعلتني أفكر فيه جدياً وإن لم أربط بينها وبين رسالة فيلبرت، مع أن ريجينالد كان قد أقام مدة معه ومع باقي إخوتي في دترويت. كان في رسالة ريجينالد شيء شدني، جملة قال فيها: «إياك أن تأكل لحم الخنزير أو أن تدخن بعد اليوم يا ملكوم وسأدلك على طريقة تخرجك من

السجن» فتصورت أنه توصل إلى وسيلة قانونية ما لإطلاق سراحي.

واستيقظت في تلك الليلة وأنا أتساءل عن هذه الوسيلة وهل هي من نوع ما فعلته مع مصلحة التجنيد في نيويورك أو هل ترى انقطاعي عن أكل لحم الخنزير والتدخين سيؤدي إلى مرض يتحتم معه إطلاق سراحي. كانت كلمات «تخرجك من السجن» تتراقص أمام عيني ولم تكن نفسي وقتها تهفو لشيء في الحياة مثلما كانت تهفو إلى ذلك.

وفكرت في استشارة بيمبي ثم عدلت عن ذلك. ولم أجد صعوبة في ترك التدخين لأن الحبس الإنفرادي هيأني له وعزمي على ألا أترك فرصة خروجي من السجن تمر شجعني عليه. وأكملت العلبة التي كنت قد فتحتها ثم توقفت فلم أدخن من يومها سيجارة واحدة. وبعد حوالي أربعة أيام قدم لنا الخنزير في الغذاء. وكنا نأكل بطريقة آلية: نجلس، نأكل، نصطف ونخرج. ومُدَّ لي طبق اللحم ومع أنه لم يكن من الممكن معرفة نوعه إلا أن كلمات «إياك أن تأكل لحم الخنزير» ظهرت أمامي فجأة. وكان الطبق في يدي فترددت قليلاً ثم مددته للسجين الذي يليني دون أن أمسه فوضع شريحة في صحنه واستدار فجأة ونظر إلي في استغراب فقلت له إنني لا آكل لحم الخنزير. وبسرعة انتشر الخبر في السجن حيث تعطى أهمية بالغة لأتفه الأحداث وأشعرني باعتزاز غريب، خصوصاً أن الزنجي سواء كان داخل السجن أو خارجه لا يستغني عن لحم الخنزير. وأثلج صدري بصفة خاصة أن السجناء البيض أيضاً كانوا يتكلمون على ذلك بدهشة. وبعدما قرأت عن الإسلام ودرسته عرفت أن ردة فعلي تلك تدل على وجود استعداد فطري عندي لتقبل الإسلام، وأنني كنت أعيش للمرة الأولى تطبيق المبدأ الإسلامي القائل: «إذا تقربت من الله خطوة تقرب الله منك خطوتين».

كان كل إخوتي في دترويت وشيكاغو قد أسلموا وكانوا يسألون الله أن يهديني في سجني إلى الإسلام، ولكن فيلبيرت أخبرهم بردي على رسالته فتشاوروا فيما بينهم واتفقوا على أن يقوم ريجينالد وهو أحدثهم عهداً بالإسلام بالمهمة لأنه أقربهم إلي وأعرفهم بي.

وكانت أختي إيلا من جهتها تقوم بمساعي جدية لنقلي إلى سجن نورفولك التربوي في ولاية مساشوسيت والذي كان النقل إليه يتم بالتدخل والرشوة، والذي كان

يتميز بكون العقوبات فيه مخففة إلى حد لا يتصوره العقل. وكللت مساعي إيلا بالنجاح فنقلت إلى ذلك السجن عام ١٩٤٨.

كان جنة قياساً بغيره، وكان في الريف وكانت فيه كميات هائلة من الهواء النقي ومراحض بماء جارٍ ولم يكن فيه قضبان وإنما حيطان وداخل الحيطان حرية أكبر. وكان يتكون من أربعة وعشرين وحدة سكنية كل منها من ثلاث طبقات وفي كل وحدة خمسون سجيناً إن لم تخني ذاكرتي ومعنى ذلك أن السجن كان يضمّ حوالي ١٢٠٠ سجين خمسة عشر بالمائة منهم زنوج موزعون على الوحدات بنسبة خمسة إلى تسعة في كل وحدة، وكان لكل سجين غرفة خاصة به وهي أكبر نعم هذا السجن على الإطلاق.

كان أكثر السجون استنارة فيه عوض النميمة الخبيثة والعناد وبيع المخدرات والحراس الممتلئين كراهية، كان فيه عوض ذلك «ثقافة» نسبية كما يمكن أن تكون ثقافة السجون. كان فيه أنشطة من قبيل الحوار والمناقشة وكان يشارك فيها معظم النزلاء. وكان أساتذة البرامج التربوية يأتون من جامعتي هارفارد وبوسطن وغيرهما من جامعات المنطقة ونظام الزيارات ألين منه في أي سجن آخر. الزوار يأتون متى شاؤوا ويبقون ساعتين إن شاؤوا وكان للسجين الخيار في أن يجلس أمام زائره أو بجانبه. وكانت مكتبة هذا السجن أبرز ما فيه، إذ كان أحد الأثرياء واسمه باركهورست قد أوصى له بمكتبته ربما لإهتمامه بالبرامج الإصلاحية في السجون. وكان إختصاص هذا الثري التاريخ والأديان فكانت رفوف المكتبة تضيق بحوالي ١٠٠٠٠ مجلد قديم ونادر أحياناً وما لم تسعه الرفوف كان يحتفظ به في صناديق في قاع المكتبة.

كنا ندخل المكتبة بإذن وكان يسمح لنا بالتجول فيها واختيار الكتب. وبدأت أقرأ كيفما اتفق ثم اهتديت إلى القراءة الإنتقائية ذات الهدف.

وبقيت في ذلك السجن مدة طويلة دون أن يتصل بي ريجينالد وأنا ما أزال منقطعاً عن التدخين وأكل لحم الخنزير، فكان ذلك يثير دهشة سجناء نورفولك أيضاً. وأخيراً جاءتني رسالة من ريجينالد يحدد لي فيها موعد زيارته فتعلقت نفسي به وزادت لهفتي لمعرفة الغاية وراء تركي أكل لحم الخنزير وتدخين السجائر.

كان ريجينالد يعرف طريقة تفكيري فعرف كيف يتطرق للموضوع معي. كان أنيقاً بطبعه فجاءني يرفل كالعريس وكنت على نار لمعرفة ما سيقوله ولكنه تكلم على أخبار

العائلة ودترويت وهارليم. ولما لم يكن من عادتي الضغط على أحد كي يفضي لي بما وراءه فقد تركته وشأنه. استبنت من حركاته وطريقة كلامه أن هذا الذي وراءه شيء عظيم وفجأة قال وكأن الأمر يخطر بباله صدفة: «إذا افترضنا أن يكون هناك إنسان يعرف كل شيء فمن تراه يكون يا ملكوم؟». بدأ كعادته بالحوم حول الموضوع وأنا بطبعي يثير أعصابي ألا يقول الإنسان ما يريد قوله دون لف ولا دوران، ولكنني نظرت إليه وقلت: «لا بد أن يكون إلهاً» فقال: «إن هناك إنسانا يعرف كل شيء» وقلت: «ومن يكون؟» فقال: «الإله. إن الإله إنسان اسمه الحقيقي الله» وتذكرت أن هذه الكلمة وردت في رسالة فيلبرت وواصل كلامه قائلاً: «إن لله ٣٦٠ درجة من المعرفة أي مجموع المعرفة».

ولو قلت لك إنني كنت في بلبلة تامة لما وفت الكلمة بمعنى ما كنت فيه سيما وأنا أجر ورائي ذلك الماضي الذي تعرفه. ومضيت أصغي إليه وأنتظر أن يصل إلى بيت القصيد وقال: «إن الشيطان ليس له إلا ٣٣ درجة من المعرفة هي التي تعرف بالماسونية». هذا ما قاله بالحرف وإذا كنت أذكره فذلك لأنني رددته لغيري فيما بعد عشرات المرات. وقال: «إن الشيطان يستعمل الماسونية ليسيطر بها على الإنسان» وأن «هذا الإله الذي كلمتك عنه وصل إلى أمريكا وتجلى لرجل اسمه إلايجا، رجل أسود مثلي ومثلك وأخبره أن زمن الشيطان قد ولى».

ولم أدر ما أقول فواصلت الإصغاء وواصل هو الكلام قائلاً: «إن الشيطان أيضاً إنسان» وقلت: «من تقصد؟» فأشار برأسه إلى سجناء وزوار بيض يجلسون قبالتنا وقال: «الرجل الأبيض» ثم قال: «إن البيض يعرفون أنهم شياطين ولا سيما منهم الماسونيون».

لن أنسى. كان عقلي يدور ويدور وصور البيض الذين عرفتهم تتداعى فيه حتى توقفت عند هيمي اليهودي الذي عاملني معاملة حسنة. وكان ريجينالد قد رافقني مرتين إلى مصنع تعبئة الخمور ذات الأصناف المزورة فقلت له: «بدون استثناء؟» وقال: «بدون استثناء» فقلت: «ماذا عن هيمي؟» فقال: «وماذا لو تركتك تكسب ٥٠٠ دولار إذا كنت أنت تكسبني ١٠٠٠٠؟».

وذهب ريجينالد فسقطت في متاهة من التفكير. كانت صور البيض الذين عرفتهم منذ فجر حياتي تزحف على ذهني: موظفو الولاية الذين اقتحموا علينا بيتنا والبيض

الذين قتلوا أبانا، والبيض الآخرون الذين كانوا يسمون أمنا بـ«المجنونة» حتى جنت فعلاً... والقاضي الأبيض والآخرون الذي شتتوا شملنا... وآل سويرلينغ والآخرون الذين كانوا يسكنون ضواحي مايسون... وأساتذة المدرسة والتلاميذ والأستاذ الذي قال لي في الصف الثالث الثانوي أن أكون «نجاراً» لأن من الغباء أن يفكر زنجي في المحاماة. كان رأسي يصطخب بالصور ويكاد ينفجر. واستحضرت صور أولئك الذين كنت ألمع أحذيتهم في الحفلات المنظمة للبيض فقط في قاعة روزلاند ببوسطن والآخرين في باركر هاوس الذين كنت أحمل صحونهم المتسخة إلى المطبخ... وطاقم السكة الحديدية وركابها... صوفيا... وبيض نيويورك والشرطة والمجرمين الذين تعاملت معهم... والبيض الذين كانوا يأتون إلى محلات آخر الليل في هارليم لتذوق الروح الزنجية... والبيضاوات اللاتي كن يردن الزنوج وأولئك الرجال الذين قدتهم إلى بيوت الدعارة السوداء... وتاجر المسروقات في بوسطن وممثله السجين السابق... وبوليس بوسطن... وصديق زوج صوفيا وزوجها الذي عرفته دون أن أراه... وأختها... وتاجر المجوهرات اليهودي الذي ساهم في إلقاء القبض علي... والإختصاصيين الإجتماعيين... وموظفي محكمة ميدلسكس... والقاضي الذي حكم علي بعشر سنوات، والسجناء وحراس السجون وموظفيها...

كان في سجن نورفولك سجين أبيض معروف من طبقة عليا اسمه جون. كان كهلاً مشلولاً قتل طفله رحمة به لأنه كان مصاباً بمرض لا علاج له. وكان يقول لنا دائماً إنه ماسوني ويذكر ما للماسونية من نفوذ ويقول إنها تحتوي على ٣٣ درجة وأن كل رؤساء الولايات المتحدة ينتمون إليها وأن الماسونيين في مواقع النفوذ يساعدون إخوانهم الماسونيين سرياً عند الحاجة.

وأردت أن أختبر صحة ما قاله لي ريجينالد فذهبت إلى جون في مدرسة السجن التي كان يقوم فيها بعمل بسيط وقلت له: «كم درجة في الدائرة يا جون؟» فقال: «ثلاث مائة وستون» وقلت: «هل ثلاث مائة وستون هو الحد الأقصى لعدد الدرجات في أي شيء؟» وقال: «نعم» فقلت: «لماذا إذن ليس للماسونية إلا ٣٣ درجة؟» فأجابني جواباً غير مقنع ولكنني كنت قد عرفت أن الماسونية ليس لها من الإسلام إلا ٣٣ درجة وأن أتباعها المحرومين منه إلى الأبد يعرفون ذلك.

ورجع ريجينالد بعد أيام فأدرك ما فعله في كلامه. كان في منتهى الرضى وتكلم

خلال ساعتين على «الشيطان الأبيض» وعلى «الزنجي مغسول الدماغ» ثم ذهب فتركني لأول مرة في حياتي نهباً لأفكار كبيرة. فكرت أن الرجل الأبيض بدأ يفقد قدرته على قمع السود واستغلالهم، إنه يسير نحو الإنحطاط وزوال النفوذ وأن السود ينهضون ليقودوا العالم من جديد.

كان ريجينالد قد قال لي: «إنك لا تعرف حتى أصلك. أصلك لا تعرفه. لقد أخفى عنك الشيطان الأبيض أنك من جنس عريق في الحضارة وحافل بالثروة والمُلْكِ. أنت لا تعرف حتى اسمك العائلي، لا تعرف لغتك ولن تعرفها حتى وإن سمعتها. لقد قطع الشيطان الأبيض جذورك وصب عليك شره منذ مارس عليك القتل والإغتصاب واقتلعك من أرض آبائك وأجدادك...».

وبدأت تصلني رسالتان في اليوم من دترويت من أخي الأكبر ويلفريد وزوجته أم ولديه الراحلة ومن فيلبرت وهيلدا، بينما بقي ريجينالد يزورني لأنه كان يقضي فترة في بوسطن قبل أن ينتقل بدوره إلى دترويت التي كان إخوتي قد أسلموا فيها على يد رجل كانوا يسمونه لي في رسائلهم «جناب إلايجا محمد» وأحياناً «رسول الله» وقالوا إنه سيد قصير القامة، أسود اللون مثلنا ولد في أمريكا في مزرعة بولاية جورجيا وانتقل مع أسرته إلى دترويت التي تعرف فيها إلى رجل يدعى ولاس د. فارد كان على حد قوله صورة لله في الأرض فحمَّله رسالة الله إلى الشعب الأسود الذي ضيع إسلامه في قفار أمريكا الشمالية والذي آن له الأوان ليعود إلى أصله. كانوا يحثونني على اعتناق الإسلام وكان ريجينالد يقول لي إن أتباع إلايجا لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ولا يدخنون ولا يستعملون المخدرات تطهيراً لأجسامهم من السموم، وكنت قد بدأت أقرأ عن الإسلام فعرفت أن الخضوع لله والإنسجام التام معه هو مفتاح قلب المسلم.

وضَمَّنَ إخوتي رسائلهم الطويلة معلومات ومطبوعات حول ما سموه بالمعرفة الحقيقية للرجل الأسود التي يملكها أتباع جناب إلايجا محمد والتي تنص على أن الرجل الأبيض احتكر التاريخ ونسبه إلى نفسه في الكتب وأن الرجل الأسود تعرض لعملية غسل الدماغ خلال قرون من الزمن، وأن البشرية بدأت في إفريقيا موطن الإنسان الأول حيث شُيِّدَتْ الإمبراطوريات وازدهرت الحضارات والثقافات في الوقت الذي كان فيه الرجل الأبيض يمشي على أربع ويعيش في الكهوف. إن «الشيطان

الأبيض» نهب وقتل واستغل الأجناس الأخرى منذ فجر التاريخ. إن الإنسانية ارتكبت أفظع جرائمها عندما اتجرت في الإنسان الأسود وسمحت للشيطان الأبيض بقتل ملايين الرجال والنساء والأطفال السود واختطافهم من إفريقيا وحملهم في بواخره إلى أمريكا لتكليفهم بما لا يطاق وتعريضهم للضرب والتعذيب بعدما قطع كل صلة بينهم وبين أهلهم وأوطانهم ولغتهم ودينهم وحضارتهم، وجعلهم الجنس الوحيد على وجه الأرض الذي لا يعرف هويته جنساً، كونه بالإغتصاب في بحر جيل واحد وأنتج منه فصيلة من صنع أمريكي أطلق عليها اسم «الزنج» وجعلها مغسولة الدماغ، حائلة اللون تحمل أسماء أسيادها وتؤمن بأن إفريقيا كما يقول السيد يسكنها متوحشون سود وبكل الخرافات التي أُرِيدَ بها تكريس طاعتها وعبوديتها.

وفي الوقت الذي كانت الديانات الأخرى تحدث فيه أتباعها عن إله قريب منهم لأنه شبيه بهم كان السيد في أمريكا يحقن العبيد بصورة إله مسيحيته ذي الشعر الأشقر والجلد الشاحب والعيون الزرق.

وتعلم الزنجي من المسيحية أن يكره نفسه لأنه تعلم أن يكره كل ما هو أسود ويبجل كل ما هو أبيض وتعلم الجنس المختلط منها أن يترفع عن السود لأن دمه ملوث بالدم الأبيض، وتعلم الزنجي أن يدير خده وهو يبتسم وينحني في خنوع وأن يغني ويصلي ويلتقط الفتات وينتظر الجزاء في الدار الأخرى بينما الرجل الأبيض يتمتع به هنا في هذه الدار.

لقد حاولت مراراً أن أسترجع موقفي من كل هذه الأشياء ووجدت أن نزعة التمرد كانت منعدمة في نفسي وأن حياتي وعدمها كانا سيان.

وأذكر أنني وجدت الإنجيل في مكتبة نورفولك وأنني قرأت فيه الفقرة التي تقول إن القديس بولس وهو في طريقه إلى دمشق سمع صوت المسيح فأغمي عليه وسقط من فوق فرسه، وعلى الرغم من أنني لم أشعر بأي تواصل معه فقد فهمت ما حدث له وساعدني ذلك على فهم ما كان يحدث لي. عرفت أن الحقيقة تصل إلى قلوب العصاة إذا عرفوا واعترفوا بأنهم عصاة ومعنى ذلك أن السبيل الوحيد إلى الحقيقة هو الإعتراف بالذنب. لقد أنقذ المسيح كل الفئات كما يقول الإنجيل إلا الزنادقة ولأنني أدركت زلتي استطعت أن أتوب وعلى قدر الزلة كانت التوبة. ومع ذلك عشت تجربة إلتقاء الحقيقة بوضعي كرجل أسود ووجدت لها نوراً ثاقباً.

وغادر ريجينالد إلى دترويت فبدأت أجلس في الزنزانة وأحملق. وانقطعت شهيتي للطعام فأصبحت أعيش على الماء وبدأ السجناء والحراس يقلقون علي ويسألونني عما بي وينصحونني بزيارة الطبيب ولكنني لم أفعل فجيء به إلي ولا أدري ما كان تشخيصه لعلتي ولعله قال إنها تخطيط لأمر ما. كنت أمر من تجربة إنسانية صعبة وعظيمة تقضي بتقبلي لأشياء موجودة أصلاً من حولي وفي داخل نفسي.

في تلك الأثناء زارتني هيلدا بعدما اشترك إخوتي في دفع ثمن بطاقة سفرها (عرفت ذلك فيما بعد) وقالت لي إن جناب الإليجا محمد سينزل في بيت أخي ويلفريد عندما يزور دترويت وحثتني على مراسلته قائلة إنه يفهم معنى أن يكون الإنسان في سجن الرجل الأبيض، لأنه هو نفسه قضى خمس سنوات في سجن ميلان، ميشيغان بتهمة التهرب من التجنيد. وقالت إنه ينوي إعادة تنظيم مسجده الأول في دترويت الذي عمته الفوضى بعدما دخل السجن وأنه يعيش في شيكاغو حيث يقوم ببناء مسجده الثاني وتنظيمه، وقالت: «هل تريد أن تعرف قصة مجيء الرجل الأبيض إلى الأرض؟» ولقنتني درساً جوهرياً من دروس السيد الإليجا محمد يعكس موقف الدين من الجن والشياطين ويعرف بـ«تاريخ يعقوب». وهذا نصه: عندما انشق القمر عن الأرض كانت الكائنات البشرية فيها سوداء، وهذه الكائنات هي التي بنت مكة المكرمة. وكان يوجد بينها أربعة وعشرون عالماً اعتزلهم أحدهم وأسس قبيلة قوية تسمى قبيلة شَبَاز هي التي ينتمي زنوج أمريكا إليها.

ومنذ ٦٦٠٠ عام عندما كان ٧٠٪ من هؤلاء السود راضين و٣٠٪ منهم غير راضين ولد في الفئة الثانية رجل برأس ضخم فوق العادة اسمه «يعقوب» ليخلق المشاكل ويقضي على الأمن والسلام، فدخل المدرسة وهو في الرابعة من عمره وتخرج في الجامعة وهو في الثامنة عشرة ليصبح عالماً في إنتاج السلالات فأطلق عليه لقب «العالم أبو الرأس يعقوب». وبدأ ينشر دعوته في شوارع مكة وبدأت الناس تقبل عليها، وأقلق ذلك بال السلطات فنفته وأتباعه إلى جزيرة باتموس التي نزل فيها العهد الجديد من الإنجيل على يحيا. وغضب السيد يعقوب من الله رغم أنه أسود فقرر الإنتقام بإنتاج جنس شيطاني أبيض على الأرض. وكان يعرف أن الرجل الأسود يحتوي على نطفتين سوداء وسمراء وأن النطفة السمراء في طور السبات لأنها أخف ومن ثمة أشد ضعفاً فعزم على تحويل اللون الأسود لجنسه البشري إلى أبيض بتطبيق قانون تحسين النسل.

وكان بذلك قد فكر في الإخلال بقوانين الطبيعة مستعملاً ما يعرف اليوم بالبنية التنازلية لعوامل الوراثة، ففرق النطفتين وطعم النطفة السمراء وأضعفها على مراحل ثم أنتج منها سلالة بيضاء أشد ضعفاً وأكثر عرضة للخبث والشر فتم له مخططه الرامي إل إنتاج جنس شيطاني أبيض على الأرض.

وهكذا بدأ ثلث المواليد في جزيرة باتموس يولدون سمرا، وبدأ السمر بنص القانون يتزوجون السمر والسود، ومنع على السود التزاوج فيما بينهم وبدأت القابلات بأمر من السيد يعقوب يغرزن الإبرة في أدمغة المواليد السود ويقلن للأمهات إنهم ملائكة رحلوا إلى الجنة لإعداد مكان لهن فيها، في حين كن يوصين أمهات الأطفال السمر بحسن العناية بهم.

ويقول السيد إلايجا محمد إن السيد يعقوب درب مساعديه كيفية تنفيذ مخططه، وإنه لما وافته المنية وهو في الثانية والخمسين بعد المائة من عمره، كان قد خلف لقبيلته القوانين والتنظيمات التي تسير على نهجها وأنه مات قبل أن يرى ثمرة غرسه.

ويزيد فيقول: إن الجنس الأسود في جزيرة باتموس أصبح أسمر ثم أحمر فأصفر لينتهي أخيراً إلى الجنس الأبيض، وذلك على مراحل استغرقت كل منها قرنين كاملين. وهكذا أصبح يعمر الجزيرة شياطين متوحشون شقر بعيون زرق باردة وأجسام شاحبة يكسوها الشعر يمشون على أربع كالحيوان ويعيشون في الأشجار ولا يعرفون الحياء.

ويقول السيد إلايجا محمد إن هذه الفصيلة البيضاء رجعت بعد ستة قرون إلى شبه جزيرة العرب وبدأت تنشر الأكاذيب وتزرع الخلاف بين سكانها السود الطبيعيين حتى حولت جنتهم الآمنة إلى جحيم يمزقه النزاع والصراع. ولكن السود أدركوا أن الجنس الشيطاني الأبيض الذي أنتجه السيد يعقوب هو أصل بلائهم فقبضوا عليه وستروا عورته وبعثوا به مقيداً عبر الصحراء إلى كهوف أوروبا. وما فراء الخرفان والحبال التي تستعملها الماسونية اليوم إلا من مخلفات الكيفية التي أخرج بها الرجل الأبيض من شبه جزيرة العرب.

ويقول السيد إلايجا محمد إن الجنس الشيطاني الأبيض صارع الوحوش في غابات أوروبا بتسلق الأشجار وبالهراوات وأن الله بعث له موسى بعد ألفي سنة ليخرجه من كهوفه ويعلمه الحضارة وأنه كان مكتوباً أن يقود هذا الجنس العالم خلال

ست مائة سنة، وإذا كانت الناس لا تعرف أن الشيطان الأبيض كان يعيش في الكهوف فلأن كتب موسى ضُيِّعَتْ وأن من يعرفون اليوم باليهود هم أول من آمن بموسى من هؤلاء الشياطين وأن حية موسى ما هي إلا رمز للطبيعة الشيطانية في الجنس الأبيض.

ويزيد إلايجا محمد فيقول إنه كان مكتوباً أن ينقضي حكم الجنس الأبيض في أيامنا هذه التي سيظهر فيها بين السود الأصليين رجل يحمل من الحكمة والمعرفة والنفوذ ما لا يخطر على بال بشر. وأنه كان مكتوباً أن يحمل الجنس الأسود الأصلي في البواخر من إفريقيا إلى أمريكا الشمالية مقيداً بأغلال العبودية ليعرف مباشرة ما جبل عليه الشيطان الأبيض من شر.

ويقول إن أعظم وأقدر إله مشى على الأرض هو السيد ولاص د. فارد الذي جاء إلى أمريكا الشمالية من الشرق في زمان بدأت فيه التنبآت تتحقق والشعوب غير البيضاء تثور وحضارة الشيطان الأبيض التي يدينها الله تخرب نفسها بنفسها بفعل طبيعتها الشيطانية وأن السيد فارد جاء من سلالة مختلطة حتى يقبل زعامته سود أمريكا من جهة ويتسنى له من جهة أخرى التسرب إلى البيض أعداء السود ليعرفهم على حقيقتهم.

وقد جاء فارد إلى دترويت ميشيغان في ١٩٣١ منتحلاً شخصية تاجر حرير فقابل إلايجا محمد وسلمه رسالة الله وهدايته الربانية لأمة الإسلام الضائعة في قفار أمريكا الشمالية والتي تعرف بالزنج.

وأنهت هيلدا حكايتها وذهبت فتركتني في ذهول شديد. فيما بعد عرفت أن هذه الحكاية وأمثالها تثير غضب المسلمين في الشرق وقد قلت لهم عندما زرت مكة إن الخطأ خطأهم لأنهم لا يفعلون كل ما يجب للتعريف بالإسلام الحقيقي في الغرب فيتركون الباب مفتوحاً أمام المشعوذين والمضللين.

الفصل الحادي عشر

الإنقاذ

كتبت لإلايجا محمد في بيته في العنوان التالي: ٦١١٦ شارع ساوث ميشيغان، شيكاغو رسالة من صفحة واحدة أعدت كتابتها عشرين مرة على الأقل في محاولة يائسة لجعلها أوضح خطا ومعنى. كان خطي رديئاً إلى درجة أنني كنت أنا نفسي غير قادر على قراءته وهو ما أخجل منه الآن وكانت رسالتي تعج بالأخطاء النحوية والإملائية ولكنني بعثت بها على علاتها. المهم أنني قلت له فيها إنني سمعت به عن طريق إخوتي وأخواتي واعتذرت له عن رداءة خطي وركاكة أسلوبي وكثرة أخطائي.

وجاءني الرد مطبوعاً على الآلة الكاتبة ومذيلاً بتوقيع «رسول الله» فهزني بشدة. في ذلك الرد رحب بي إلى «المعرفة الحقة» وقال شيئاً مهماً، قال: «إن السجين الأسود رمز إجرام المجتمع الأبيض الذي يبقي السود تحت القمع والفقر والجهل والعجز عن شغل أي عمل محترم فيحولهم إلى مجرمين».

ونصحني بالصبر وضمن رسالته ورقة مالية من فئة خمسة دولارات. وكان من عادته أن يفعل ذلك مع السجناء الذين يراسلونه من كل أرجاء البلاد ولعله ما زال يفعله إلى اليوم.

وكان إخوتي وأخواتي يراسلونني بانتظام ويقولون لي: «إلجأ إلى الله... صَلِّ في اتجاه الشرق» ولكن الصلاة كانت أصعب امتحان مررت به في حياتي كلها. كان الإيمان بتعالم السيد إلايجا محمد كاقتناع نظري سهلاً أما السجود فقد احتجت معه إلى أسبوع كامل من الأخذ والرد. وأنت تعرف الخلفية التي كنت أنطلق منها وأنني لم أثن ركبتيَّ أبداً إلا لالتقاط قفل بيت أسرقه فكنت أهم بالسجود فأشعر بالحرج والخجل وأتراجع. ذلك أن الإعتراف بالذنب أمام الله وطلب مغفرته شيء عسير على المذنب. أنا الآن أنظر إلى ذلك وأتحدث عنه بسهولة ولكنه لم يكن سهلاً في إبانه لأنه كان

يجسد لي ذنبي وكنت أعود فأرغم نفسي على السجود حتى تعودت عليه ولكنني عندما نجحت في ذلك أخيراً وقعت ساجداً ولم أعرف ماذا أقول.

ثم انقطعت للعبادة في سجن نورفولك خلال السنوات التالية فملأت علي وقتي كما لم يملأه أي شيء آخر. وفجأة تركتني أفكاري السابقة، انزلقت عني كما ينزلق الثلج من على سطح محدودب وكأن كل ذلك الماضي لا يعنيني أنا. كنت أجدني أفكر في شخصي السابق من بعيد وكأنه كيان آخر وكنت أحاول دون جدوى شرح مشاعري في رسائلي إلى السيد إلايجا محمد كما كنت أرد يومياً على رسائل أحد إخوتي الذين كانوا يزودونني بالمزيد من المعلومات حول تعاليمه ويبعثون لي بصور له أقضي وقتاً طويلاً في تفحصها.

ولأنني رجل عملي حاولت أن أفعل شيئاً بمعرفتي الجديدة فكتبت عن الله والإسلام والسيد إلايجا محمد إلى كل المجرمين الذين أعرفهم أمثال سامي سمسار الدعارة وجون يوه صاحب نادي القمار في بوسطن وجامب ستيدي اللص وبعض باعة المخدرات. ولم أكن أعرف عناوينهم فبعثت لهم بتلك الرسائل إلى البارات والأندية الليلية التي عرفتهم فيها ولكن أياً منهم لم يجب فعزوت ذلك إلى أن المجرم بطبعه شبه أمي سيما وأنا أعرف مجرمين على قدر كبير من الفطنة يوحي بأنهم أصحاب أسهم في وول ستريت ولكنهم يلجأون في السر لمن يقرأ لهم رسائلهم. كما خمنت أن عبارة «الرجل الأبيض شيطان» ربما شككتهم في سلامة عقلي أو في أن أكون على الأقل أحاول تنفيذ ملعوب من ملاعيبي على حراس السجن.

وخلال السنوات التي قضيتها في سجن نورفولك لم يثر أحد من المسؤولين معي موضوع هذه الرسائل مع أنها كانت تخضع للرقابة. كنت أعرف بالطبع أنهم يراقبونها ويضعون تقاريرهم عنها في الملفات التي تحفظها السجون الفدرالية عمن يسلمون على يد السيد إلايجا محمد ولكنني كنت وقتها أحسب أنهم يفعلون ذلك بسبب ما يرد فيها من نعت للرجل الأبيض بالشيطان.

فيما بعد كتبت إلى عمدة بوسطن وإلى مساشوسيت وإلى هاري ترومان رسائل لم يردوا عليها ولعلهم لم يروها قلت لهم فيها إن المجتمع الأبيض يتحمل مسؤولية ما يوجد عليه السود في براري أمريكا الشمالية.

وحدت بي الحاجة لكتابة مثل تلك الرسائل إلى اكتساب شيء من الثقافة

بوسائلي الخاصة. كنت قد بدأت أشعر بالإحباط لعجزي عن كتابة رسائل سليمة بإنجليزية مبسطة ولا سيما إلى السيد إلايجا محمد وأنا الذي كنت أسحر زبنائي بكلامي الهجين وأنا بائع متجول في أسواق هارليم.

قد لا يصدق الكثيرون ممن يسمعونني اليوم أتكلم شخصياً أو على شاشات التلفزيون أن مستواي الثقافي هو السنة الثالثة من الثانوي فقط والسبب هو الدراسة التي قمت بها في السجن والتي بدأتها في سجن شالزتاون عندما بهرني بيمبي بثقافته وقدرته على إدارة دفة الحديث فبدأت أحاكيه وأقرأ مثله وإن لم أكن أفهم مما كنت أقرأه إلا ما يسمح به السياق العام.

وهكذا عندما جئت إلى سجن نورفولك كانت دراستي تنحصر في هذا النوع من القراءة التي لولا قوة الحافز لما استمررت فيها. ثم خطر لي أن ألجأ إلى المعجم لمعرفة معاني الكلمات وأن أواظب على تحسين خطي الذي لم يكن رديئاً وحسب بل كان أيضاً يزيغ عن الخط المستقيم بشكل شنيع فذهبت إلى مدرسة السجن وطلبت معجماً ولوحاً وبضعة أقلام وانزويت في الزنزانة وقضيت يومين في تقليب أوراق المعجم على غير هدي. وأذهلني عدد ما فيه من كلمات فاحترت ولم أعرف من أين أبدأ ثم شرعت لمجرد أن أشرع في شيء أنسخ الصفحة الأولى بجهد جهيد وخط مخلخل. نسختها على اللوح بنقطها وفواصلها واستغرق ذلك يوماً كاملاً. وفي الأخير قرأت على نفسي ما نسخته بصوت عالٍ مراراً وتكراراً.

واستيقظت في اليوم التالي مزهواً فوجدت ذكرى تلك المفردات في رأسي. سرني أنني كتبت كل تلك الكمية من الكلمات التي لم أكن أعلم بوجودها وأنني تذكرت وإن بجهد معاني أكثرها. وعدت إلى الكلمات التي لم أتذكرها فراجعتها جيداً. والغريب أنني عندما أفكر في تلك الصفحة تنبثق في ذهني الآن كلمة «دوبل الأرض» وبجانبها صورة حيوان إفريقي ضرعي، طويل الذنب والأذنين، يسكن في جحور يحفرها تحت الأرض ويعيش من الأرضة التي يصطادها بلسانه الطويل.

وسرني عملي فهجمت على الصفحة التالية فالتالية حتى أنهيت باب حرف الألف. كنت مع كل صفحة جديدة أتعلم المزيد عن الأماكن والأعلام والأحداث التاريخية. إن المعجم دائرة معارف مصغرة.

وتحسنت شرعتي فانتقلت إلى باب حرف الباء وهكذا حتى نسخت المعجم كله

خلال المدة المتبقية من سجني أي ما لا يقل بغالب ظني عن مليون كلمة بما فيها الرسائل. وأصبحت قادراً على أن أفتح كتاباً وأفهم ما فيه فأقبلت على القراءة بنهم شديد وأصبحت لا أُرى إلا وفي يدي كتاب ولم تعد هناك قوة على وجه الأرض تستطيع أن تنزعني منه وفتحت لي القراءة الأبواب على دنى عجيبة.

كنت موزعاً بين تعاليم السيد إلايجا محمد وقراءاتي ومراسلاتي وزواري الذين كانوا في العادة إيلا وريجينالد فمرت بي الأيام دون أن أشعر بها أو أحس أنني مسجون والحقيقة أنني كنت في ذلك الوقت حراً أكثر مني في أي وقت مضى.

كانت مكتبة سجن نورفولك توجد داخل بناية السجن وكان الأساتذة الوافدون من جامعتي هارفارد وبوسطن وغيرهما يُدَرِّسُون بها جملة من المواد كما كانت تعقد فيها مناظرات بين السجناء في مواضيع مثل: «هل تغذية الرضيع بالحليب واجبة؟»

وكانت هذه المكتبة تتضمن كتباً في مواضيع عامة وكان جزء كبير من مجموعة كتب بارهورست ما يزال في صناديقه، آلاف الكتب القديمة بعضها بأغلفة حائلة تبدو لشدة قدمها كالرقع. لقد وجد هذا الرجل ما يكفي من المال والإهتمام فجمع كتباً نادرة في التاريخ والدين كما سبق القول كانت أية جامعة في أمريكا ستعد الحصول عليها مفخرة.

وكان موظفو سجن نورفولك الذي تعد إعادة التربية فيه أسبق الأسبقيات يستقبلون النزلاء ببشاشة إذا عهدوا فيهم اهتماماً خاصاً بالقراءة. وكان هناك بالفعل من كانوا يقرأون بلا انقطاع ولا سيما الذين يشاركون في المناقشات بل كان من بينهم من كان ينعت بدائرة معارف متنقلة ويعتبر من نجوم السجن. وعندما بدأت أفهم ما أقرأه وانفتح لي ذلك العالم الجديد بدأت بدوري ألتهم الكتب وأستعير فوق ما يسمح به قانون المكتبة وأقرأ أكثره في الزنزانة.

وتقدمت فبدأت أقرأ الكتب الجدية ولكن انطفاء الضوء في العاشرة مساء كان يثير سخطي إذ كان يأتي وكأنما بالقصد عندما أكون غارقاً في موضوع هام. وكان في الممر لحسن حظي مصباح قريب من باب زنزانتي فبدأت أجلس على البلاط وأقرأ على ضوئه بعدما تتعود عيناي على العشا الليلي حتى إذا ما سمعت خطى الحارس وهو يمر بالزنازن على رأس الساعة قفزت بسرعة إلى سريري وتظاهرت بالنوم إلى أن يمر فأعود

إلى مكاني وأواصل قراءتي حتى الثالثة أو الرابعة من صباح كل يوم بحيث لم أكن أنام إلا ثلاث أو أربع ساعات في الليلة ولكن ذلك لم يكن مهماً لأنني كنت قد تعودت على قلة النوم وأنا في الشوارع.

وكان قد أثار انتباهي بشدة كلام السيد محمد إلايجا عن احتكار الرجل الأبيض للتاريخ ونسبته إياه إلى نفسه في الكتب وطمسه على آثار الرجل الأسود وإماتة ذكره ولم أكن قد نسيت درس التاريخ الأمريكي في السنة الثانية من الثانوي بمايسون الذي غُطِّيَ فيه تاريخ الزنوج بفقرة والذي أمتع فيه الأستاذ نفسه بنكتته عن ضخامة الأقدام الزنجية التي تترك حفراً في الأرض.

وإذا كانت تعاليم السيد محمد قد انتشرت في أمريكا ووصلت حتى إلى الزنوج الذين لم يسلموا فذلك لأنها تعكس واقعهم إذ كان بالفعل لا يكاد يكون هناك زنجي واحد أو حتى رجل أبيض واحد سبق له أن قرأ في كتاب أي شيء عن دور السود في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية.

وحثني ذلك فيما يخصني على البحث فعثرت على سلسلة كتب أثرت فيّ تأثيراً شديداً حتى أنني اقتنيتها فيما بعد لتقرأها بناتي. كانت مليئة بصور اكتشافات أثرية وتماثيل تعود إلى حضارات غير أوروبية وكانت بعنوان: «عجائب الدنيا».

وعثرت على كتب مثل تاريخ الحضارة لويل دورانت وكتاب الخطوط العريضة للتاريخ لـ هـ. ج. ويلز وأرواح القوم السود لدوبوا الذي أعطاني فكرة عن تاريخ السود قبل مجيئهم إلى أمريكا وكتاب التاريخ الزنجي لكارتر وودسون الذي فتح عينيَّ على الإمبراطوريات السوداء والصراعات الزنجية الأولى من أجل الحرية. وقرأت المجلدات الثلاثة من كتاب روجرز المسمى عن الجنس (العلاقة) والجنس (النوع البشري) التي تتكلم عن اختلاط الأجناس قبل مجيء المسيح وتقول إن كاتب الأساطير الإغريقي آيسوب كان أسوداً وتتحدث عن الفراعنة والإمبراطوريات القبطية العظيمة وإثيوبيا أقدم حضارة سوداء مستمرة على الأرض.

وحدت بي نظرية السيد محمد حول تكوين الرجل الأبيض إلى قراءة كتاب اكتشافات في علم الوراثة للراهب الأسترالي مانديل بعدما رجعت إلى المعجم لمعرفة المقصود بعلم الوراثة. قرأت هذا الكتاب وأعدت قراءته ودرست الإجزاء التي تقول إن بالإمكان الوصول إلى تكوين جنس أبيض انطلاقاً من الجنس الأسود ولكن العكس

مستحيل لأن الكروموزومة البيضاء بطبيعتها تنازلية. وحيث إن هناك إجماعاً على أنه لا يوجد إلا إنسان أول واحد فإن من البديهي أنه كان أسود.

وخلال السنة الماضية استعمل أرنولد توينبي في جريدة نيويورك تايمز لفظ «باهت» لوصف لون الرجل الأبيض فقال بالحرف: «الجنس البشري الأبيض الباهت المنحدر من شمال أوروبا...» كما وصف الحيز الجغرافي الأوروبي بشبه الجزيرة الآسيوية وقال إنه لا يوجد شيء اسمه أوروبا وأننا إذا نظرنا إلى الخريطة وجدنا أن أمريكا نفسها امتداد لآسيا ولكنه شارك في التحريف الجماعي الأبيض عندما قال إن إفريقيا هي القارة التي لم تنتج تاريخاً ولكنه لن يعود إلى كتابة مثل هذا الكلام بعدما ظهرت الحقيقة للعيان.

ووجدت في هذه الكتب أوصافاً لما تعرض له العبيد من أهوال فأثرت فيّ إلى درجة أنني بدأت أستعملها في مخاطبتي للسود عندما أصبحت داعية للإسلام إلى جانب السيد محمد. إن الجرائم التي تعرض لها الإنسان الأسود في أمريكا منذ وطئت قدماه ترابها لتفوق كل ما تعرض له خلال تاريخ عبوديته المرير كما يقول فريدريك أولمستيد.

وقرأت ما كتبته الأوروبية فاني كيمبال التي تزوجت أحد ملاك العبيد في الجنوب والتي قالت إنه كان يُحَط من قدرهم إلى ما دون رتبة البشر. وقرأت بالطبع «حجرة العم طوم» ولعلها الرواية الوحيدة التي قرأتها ضمن الكتب الجدية. وكان هناك بين مجموعة باكهورست مناشير لجمعية أنصار إلغاء تجارة الرقيق في منطقة نيو إنغلاند فقرأتها أيضاً وقرأت عن أصناف التعذيب التي كانت تمارس على العبيد ورأيت صور إماء شددن بالحبال وضربن بالسوط وأمهات انتزع منهن أطفالهن إلى الأبد وكلاب تطارد العبيد ومتعقبي العبيد الهاربين وهم مدججون بالأسواط والهراوات والسلاسل والمسدسات. وقرأت أن الواعظ الزنجي نات تورنر كان عندما يخاطب الأسياد يركز على خشية الله. لم يكن من ذلك النوع الذي يعد الزنوج بالعاقبة في الدار الأخرى ويدعوهم إلى كسب حريتهم بـ«الطرق السلمية». كان هو نفسه عبداً في إحدى مزارع فرجينيا. وفي ١٩٣١ قاد تمرداً استمر ليلة واحدة بدأه بسبعة عبيد وأنهاه بسبعين وقتل فيه سبعة وخمسين من البيض وأرهب الباقين فاعتصموا بالبنايات العمومية والغابات أو خرجوا من الولاية إلى غير رجعة. واحتاجت فرقة من الجيش إلى شهرين للقبض عليه

وتقديمه للمشنقة. وقد قرأت في جهة ما أن عملية تورنر هذه ألهمت بعد ثلاثين سنة جون براون في تخطيطه لغزو فرجينيا والهجوم على هاربر فيري بمساعدة ثلاثة عشر رجل أبيض وخمسة زنوج.

وقرأت هيرودوتس أبي التاريخ أو بالأحرى قرأت عنه. وقرأت تاريخ الأمم ففتح عينيَّ على كون الرجل الأبيض إينما كان يتصرف تصرف الشياطين فينهب ويغتصب ويريق الدماء ويستنزف سكان الأرض غير البيض. قرأت أيضاً كتاب ويل دورانت «قصة الحضارة الشرقية» وتقارير المهاتما غاندي عن كفاح الهند لإخراج البريطانيين. وكنت أخرج من كل واحد من هذه الكتب بمزيد من الدلالات على أن الرجل الأبيض استغل شعوب الأرض أجمعها أسودها وأسمرها وأحمرها وأصفرها على حد سواء وأنه تحت ستار التجارة والمسيحية سخر البحار منذ القرن السادس عشر لإشباع شهوته في النهب والسيطرة فلم يحمل الصليب أبداً بين من ليسوا بيضا على شاكلة المسيح بحلم وتواضع.

رأيت كيف استعمل القراصنة الإنتهازيون البيض أساليب فاوست فجعلوا من مسيحيتهم أداة لشن غزواتهم الإجرامية ورموا باسمها ثقافات وحضارات أخرى بالكفر والوثنية قبل أن يشرعوا في سفك الدماء.

قرأت كيف دخل البريطاني الأبيض الهند في ١٧٥٩ بالغش والمناورة وبها نصف مليار من السكان المتدينين. دخل تحت غطاء شركة الهند الشرقية ثم انتشر انتشار الطفيليات وعندما ثار عليه بعض السكان في ١٩٥٧ قام بتنفيذ ثاني أكبر جريمة إنسانية بعد تجارة الرقيق الإفريقي فقاد مذبحة وحشية لم تكن هناك حاجة إليها اللهم إلا إبادة شعب غير أبيض.

لقد أسفرت تجارة الرقيق عن قتل واستعباد ما ينيف عن ١١٥ مليون إفريقي أي ما يناهز عدد سكان الولايات المتحدة في ١٩٣٠. ولما قضى البيض حاجتهم من بضاعة إفريقيا البشرية قامت سلطاتهم، آكلة اللحم البشري بتوزيع مناطق إفريقيا فيما بينها ثم مارست سفاراتها ولمدة قرن لعبة تسلطها المكشوف من رأس هورن إلى القاهرة.

كنت قد غرقت في هذا النوع من القراءات حتى لم يعد بوسع عشرة حراس ومدير السجن أن ينتزعوني منها وخرجت بما يدعم رأي السيد إلايجا محمد أن البيض

فعلاً عاملوا غيرهم من الشعوب معاملة الشياطين.

إن وسائل الإعلام تعكس اليوم خوف الرجل الأبيض من الصينيين ولكنني عندما أسمع من يقول إنه لا يفهم لماذا يكرهه الصينيون إلى هذا الحد لا تملك الذاكرة إلا أن تعود بي إلى ما قرأته وأنا في السجن عما تعرضت له الصين على يد أسلافه السفاحين في وقت كان شعبها فيه مكسور الجناح وحسن الظن فقابلوا ذلك بترك تجارهم «المسيحيين» يغرقون بلاده بالأفيون وينشرون آفة الإدمان بين شبابها. وعندما قامت حكومتها اليائسة في ١٩٣٩ بإتلاف ٢٠ ٠٠٠ صندوق من الأفيون أعلن عليها الرجل الأبيض ما يعرف بحرب الأفيون. تصور! أعلنوا الحرب على شعب يرفض أن يتخدر!.

وغُلبت الصين بالبارود الذي اخترعته وأكرهتها اتفاقية نانكينغ على تعويض الرجل البريطاني الأبيض عن الأفيون الذي أتلفته حكومتها وعلى ترك موانئها مشرعة في وجه تجارته وتسليم هونكونغ لحكومته وتخفيض الضرائب على السلع البريطانية إلى أدنى حد فأدى ذلك إلى إغراق أسواق الصين بالبضائع البريطانية وعرقلة نموها الصناعي.

وكانت حرب الأفيون الثانية فغُلبت الصين من جديد وظهرت اتفاقية تيانسين التي جعلت تجارة الأفيون في الصين قانونية وأعطت للبريطانيين والفرنسيين حق الإشراف على الجمارك الصينية وعندما حاولت الصين تأجيل مصادقتها عليها نُهبت بيكين وأُحرقت.

وتمرد الصينيون في ١٩٠١ فرفعوا شعار: «اقتل الشياطين الأجانب البيض!» ولكن تمردهم أُخمد فأُخرجوا من أحياء بيكين الراقية وعلق فيها المتعجرف الأبيض لوحات تقول: «يمنع دخول الصينيين والكلاب». ويتساءلون لماذا أغلقت الصين أبوابها في وجه الغرب بعد الحرب العالمية الثانية؟ لقد مكنها ذلك على كل حال من تحقيق منجزات علمية وصناعية تضمنها كتاب نشرته في المدة الأخيرة مجلة لايف. وذكر بعض المراقبين من داخل الصين أن العالم لم يشهد حملة كراهية منظمة ضد البيض كالتي شهدتها الصين التي ينتظر أن يبلغ عدد سكانها بعد خمسين سنة نصف عدد سكان العالم ويبدو مع دخولها حقل التجارب النووية أن الفلك قد دار دورته.

ونحن نشهد الآن ظهور نظام لوني عالمي جديد في الأمم المتحدة يمكن أن يقال

عنه إنه حلف لغير البيض شجبه منذ أيام ممثل الولايات المتحدة ووصفه بـ«لعبة اللون». ولم يكن على خطأ وإنما كان يجابه الحقيقة وإن كان شجبه ذاك قد بدا شبيهاً باتهام جيسي جايمس لعميد الشرطة بحمل السلاح وكأن البيض لم يمارسوا لعبة اللون على مر التاريخ في أبشع صورها. وهكذا كان السيد إلايجا دون أن يدري قد فتح لي آفاقاً بلا حدود.

واكتشفت الفلسفة فحاولت أن أقرأ معالم تطورها وقرأت بالتدريج معظم فلاسفة الشرق والغرب فأحببت الشرقيين وانتهى بي الأمر إلى استنتاج أن أكثر فلاسفة الغرب اقتبسوا من فلاسفة الشرق. سقراط مثلاً ثبت أنه سافر إلى مصر وأطلع كما تقول المصادر على بعض أسرارها واستقى ولا شك بعض حكمته من حكمتها.

لقد غيرت القراءة مجرى حياتي تغييراً جذرياً ولم أكن أهدف من ورائها إلى كسب أية شهادات لتحسين مركزي وإنما كنت أريد أن أحيا فكرياً. وأظهر لي اكتشافي للقراءة أن الجنس الأسود في أمريكا يعيش أصم، أبكم، أعمى.

منذ أيام اتصل بي هاتفياً من لندن كاتب إنجليزي وطرح علي بعض الأسئلة من ضمنها سؤال عن الجامعة التي تخرجت منها فقلت له: «الكتب». ذلك أنني ما أن أجد عندي ربع ساعة من الوقت الشاغر حتى أملأه بقراءة شيء أنفع به الإنسان الأسود.

لقد ألقيت بالأمس محاضرة في لندن وطيلة مسافة الرحلة بالطائرة ذهاباً وإياباً درست وثيقة حول تفكير الأمم المتحدة في تأمين حقوق الإنسان بين أقليات العالم التي تعيش تحت القمع فقلت في نفسي إن الأقلية السوداء في أمريكا هي الأقلية التي تعيش أكبر قمع في العالم وأنه إذا كانت قضيتها لم تدول فذلك بسبب كلمتي «الحقوق المدنية» اللتين صبغتاها بصبغة المحلية. وهل يعقل أن يحصل الإنسان على حقوقه المدنية وهو لم يحصل بعد على حقوقه الإنسانية؟.

لو أن الإنسان الأمريكي الأسود فكر في حقوقه كإنسان واستطاع أن يقتنع بأنه من أعظم شعوب الأرض لوجد أنه صاحب قضية بحجم ما يعرض على الأمم المتحدة. أربع مائة عام وهو يعرق ويدمى من أجل أمريكا وما يزال يستجدي حقوقاً يحصل عليها غيره بمجرد ما تطرحهم السفن على التراب الأمريكي.

ولكن دعني أعود إلى موضوع الإنجليزي الذي سألني عن الجامعة التي درست

فيها والذي قلت له إنها الكتب. قلت له أيضاً: إنها «مكتبة جيدة». وبالفعل ما زلت لا أركب الطائرة إلا وبين متاعي اليدوي كتاب أريد أن أقرأه وهذا يعني أنني قد قرأت في الطائرة وحدها عدداً هائلاً من الكتب. ولو لم أكن أخوض حرباً ضروساً ضد الرجل الأبيض لأمضيت بقية عمري في القراءة وإشباع رغبتي في المعرفة. ومن هذه الناحية لا أظن أن هناك شخصاً استفاد من السجن كما استفدت أنا منه ذلك أنني لم أكن لأتعلم في الجامعة قدر ما تعلمته في السجن. الجامعة فيها في نظري فوق ما يجب من الملاهي التي تشغل عن الدراسة مثل اتحادات وجمعيات الطلبة وما إليها. وعلى كل حال لم يكن هناك فيما يخصني إلا السجن لتوفير جو يساعدني على مكافحة جهلي والتصدي له بالدراسة المستفيضة التي كانت تستغرق أحياناً خمس عشرة ساعة في اليوم.

قرأت شوبنهاور وكانت ونيتشه. لا أذكرهم من باب الإفتخار وإنما لمجرد ذكر أسماء من قرأت لهم سيما وأن الفاشية والنازية قد قامتا كما يقال على أفكارهم زد على ذلك أنهم كانوا يمضون أكثر وقتهم في مناقشة السفاسف.

وأثر فيَّ سبينوزا بعض الوقت عندما اكتشفت أنه أسود، يهودي إسباني أسود قال بوحدة الوجود أي بأن الله هو الكائنات التي هي الله فكفره اليهود وصلوا على روحه تلميحاً إلى أنه مات في نظرهم ونفوا أسرته إلى هولاندا بغالب الظن.

دعني أقول لك. لقد وجد تيار الفلسفة الغربية نفسه في مأزق. حفر للإنسان الأسود حفرة سقط فيها. خطط بعناية مَرَضيَّة لطمس معالمه وها هي اكتشافات الحفريات في إفريقيا تدل على أن الإنسان الأسود بنى حضارات عظيمة في الوقت الذي كان الرجل الأبيض فيه لم يخرج بعد من كهوفه. أجل في الأراضي الموجودة جنوب الصحراء الكبرى، أراضي أسلافنا يتم الآن استخراج منتوجات ومنحوتات وأشياء تعود إلى حقب قديمة وتعد من أروع ما أبدعته يد الإنسان. ومتحف نيويورك للفن الحديث يعرض منها حالياً مجوهرات ذهبية وأشياء فريدة أخرى.

لقد طمس الرجل الأبيض على تاريخ السود إلى درجة أن الأساتذة السود أنفسهم لا يعرفون منه إلا النزر اليسير. وعندما حاضرت في الكليات السوداء هرع دكاترتها، مغسولو الدماغ، المتخلفون عن الركب بخمسين عاماً والذين يسحبون وراءهم أذيال شهاداتهم، هرعوا إلى الصحافة واتهموني بالعصبية. ولو كنت عميداً في إحدى كلياتهم

تلك لأغلقتها إن دعا الأمر وأرسلت طلبتها إلى إفريقيا لينقبوا عن المزيد من البراهين التي تثبت عظمة جنسنا. ولكن الرجل الأبيض هو الذي يحفر الآن في إفريقيا وينقب حتى أن فيلا واحداً لا يكاد يتحرك هناك دون أن يتعثر في رجل أبيض يحمل مجرفة في يده وحتى أنه لا يكاد يمر أسبوع دون أن نقرأ عن اكتشاف المزيد من حضارة إفريقيا المفقودة. وليس الجديد في أنها موجودة ولكن الجديد في أن الرجل الأبيض فكر في استخراجها.

هناك أنثروبولوجي بريطاني يدعى الدكتور لويس س. ب. ليكي يعرض حالياً بقايا عظام بشرية تعود إلى ١ ٨١٨ ٠٣٦ سنة قبل المسيح عثر عليها في طنجنيقا بإفريقيا وهي مكونة من قدم وجزء من يد وبضعة فكوك وأجزاء من جمجمة يقول إنها جاءت بمعطيات يتحتم على ضوئها إعادة تأريخ تاريخ أصل الإنسان.

إن ما قيل للسود عبر الأجيال من أنهم جنس لا تاريخ له لجريمة في حق أطفال أدركوا قبل أن يتعلموا الكلام أن أباءهم مقتنعون بوضاعتهم فكبروا وعاشوا وماتوا وهم مستعرون من لونهم ولكن ها هي الحقيقة تظهر الآن.

فيما عدا السجن هناك مجالان آخران استفدت منهما فائدة كبرى واكتشفتهما أيضاً في سجن نورفولك. الأول شروعي في تنبيه إخواني الغافلين السود إلى حقائق هامة حول جنسهم والثاني دخولي جلسات المناظرات التي كانت تعقد في السجن والتي اكتسبت فيها خبرة مخاطبة الجماهير.

ويجب هنا أن أعترف بشيء محزن ومخجل. كنت لشدة ما تعودت على رفقة البيض أكره أن أرى تكتلات السود في السجن ولكنني عندما عرفت السيد إلايجا بدأت أكفر عن ذنبي بدعوة السود إلى الإنضمام إليه. كان علي أن أكون شديد الحرص وأنا أكشف للسود حقائق يسمعونها لأول مرة عن أنفسهم وبني جنسهم وعن البيض. وكان أخي ريجينالد قد قال لي إن كل الدعاة المسلمين يواجهون هذه الصعوبة لأن «الأخ» الأسود على حد تعبيره تعرض لعملية غسل الدماغ بما يكفي لجعله ينفر من الحقيقة عندما يسمعها لأول مرة ونصحني بالكشف له عنها تدريجياً وترك ما كشفت له عنه يرسخ في ذهنه قبل تزويده بالمزيد.

وبدأت بمحادثة زملائي السجناء السود عن تاريخم فقلت لهم أشياء لم يكونوا ليتصوروها حتى في المنام. كشفت لهم عن حقائق تجارة الرقيق ولكنني لم آنس فيهم

ما توقعته من انفعال لأن التاريخ منسوباً إليهم غير موجود في تصورهم مما يجعل من المستحيل على الزنجي في أمريكا معرفة اسمه العائلي أو اسم القبيلة التي ينحدر منها هل هي قبيلة مانديغوس أو وولوف أو سيرير أو فولا أو خانتي أو أشانتي أو غيرها. قلت لهم إن بعض العبيد كانوا يتكلمون العربية ويدينون بالإسلام عندما جاؤوا من إفريقيا ولكن الكثيرين منهم لم يكونوا ليصدقوني حتى أُثْبِتَ لهم أن رجلاً أبيض قال ذلك. ولذلك كنت أقرأ عليهم مقاطع من كتب ألفها بيض. وكنت أقول لهم إن بعض البيض العلماء، يعرفون ذلك ولكن مؤامرة إخفاء الحقيقة عن السود تواترت عبر الأجيال.

كنت أكلمهم وأراقب وقع كلامي عليهم وكان من بينهم من كان من الغفلة والخنوع بحيث كان يحرك رأسه ثم يهرع إلى البيض ليخبرهم. أما الذين كانوا يقتنعون فكنت أنتظر حتى أتوسم فيهم الإستعداد التام فأتفرد بهم وأتوكل وألقيها في وجوههم: «الرجل الأبيض شيطان» حسب ما ورد في تعاليم السيد محمد إلايجا فكان الكثيرون لا يتقبلونها أولا ثم يغيرون رأيهم بعدما يفكرون فيها جيداً.

لقد انتشر الإسلام بين السود في السجون الأمريكية على يد سجناء مسلمين سود وأقلق ذلك بال المسؤولين سيما وعدد السود في السجون يفوق نسبتهم بين مجموع السكان. وساعد على ذلك أن السجين الأسود مؤهل لتقبل عبارة «الرجل الأبيض شيطان». ذلك أنه باستثناء ما يدعى بالمثقفين السود البدناء، السعداء، الصم، البكم، العمي، المهووسين بالإندماج والذين يعيشون على بقايا البيض فإن عبارة «الرجل الأبيض شيطان» تفعل فعلها في السود دائماً. قد يحتاج ذلك ليوم أو شهر أو سنة وقد لا يأتي بطريقة علنية أبداً ولكن كن على يقين أن الإنسان الأسود إذا ما فتش في حياته سيجد أن الرجل الأبيض تصرف معه فعلاً تصرفاً شيطانياً. وأول من يفعل ذلك السجين الذي وضعه الرجل الأبيض داخل القضبان والذي يأتي في العادة من قاع المجتمع الزنجي من تلك الطبقة التي يمسح بها الرجل الأبيض الأرض ويعاملها معاملة الأطفال والتي لم تصادف في حياتها رجلاً أبيض واحداً لم يأخذ منها حقها أو يؤذها.

اجعل الزنجي يفكر كما فكرت أنا عندما سمعت بتعاليم السيد إلايجا في أنه كان سيصبح محامياً أو طبيباً أو عالماً أو أي شيء من هذا القبيل لو كان قد أعطي الفرصة. دعه يفكر وسيرى كما رأيتُ أن ملايين السود في أمريكا عوملوا من أول يوم معاملة

خرفان في جحر ذئاب وأن عبارة «الرجل الأبيض شيطان» تعكس واقعاً عاشوه ولمسوه.

سبق لي أن قلت إنه كان يعقد في سجن نورفولك مناظرات أسبوعية. وكان فكري يفور بما قرأت ورغبتي في أن أقول للرجل الأبيض حقيقته في وجهه تؤرقني، فذهبت وسجلت نفسي في قائمة المشاركين في المناظرة.

ولم يكن ليخطر لي على بال في حياتي الماضية أن يأتي يوم أجد فيه نفسي واقفاً لأخاطب الجماهير. لم أكن وأنا أتجول ببضاعتي في الأسواق أو وأنا أبيع المخدرات وأسرق البيوت لأتصور حتى ولو كنت تحت تأثير رطل كامل من الحشيش أنه سيأتي يوم أجدني فيه واقفاً على منابر في أكبر الميادين الرياضية وأشهر الجامعات وأنجح برامج الإذاعة والتلفزيون ليس في الولايات المتحدة وحسب ولكن في مصر وإفريقيا وإنجلترا.

بدأ ذلك بمشاركتي في مناظرات سجن نورفولك التي أمدتني بمتعة لا تعدلها إلا متعة القراءة فواصلتها. كان توارد الأفكار في ذهني وجريانها على لساني يثيرني فكنت أستغرق في النقاش حتى أغرق فيه وكان يمتد بيني وبين الجمهور حبل متين حتى إذا ما نجحت في إقناع المتناظرين بوجهة نظري دل ذلك على أنني تفوقت في معالجة الموضوع. كنت أتقصى وأضع نفسي مكان الخصم لأعرف ستراتيجيته وأستعد لها وكنت كلما وجدت فرصة لزرع فكرة الطبيعة الشيطانية للرجل الأبيض استعملتها. وجاءتني أول فرصة ونحن نناقش موضوع: «هل يجب أن يكون التدريب العسكري إجبارياً؟». كان خصمي قد قال إن الإثيوبيين رموا الطائرات الإيطالية بالحجارة والرماح فقلت له إنهم فعلوا ذلك لأنهم كانوا يحاربون الشيطان وأنهم كانوا سيرمونها بأجسادهم المجردة لو دعا الأمر فاستنكر الجمع ذلك لأنه يزج بالعنصرية في الموضوع فقلت لهم إنه الواقع التاريخي وأشرت عليهم بأن يقرأوا كتاب بيلي فان باسن «أيام من أعوامنا» ولكن ذلك الكتاب اختفى من المكتبة بعد ذلك مباشرة. وهناك، في ذلك السجن عاهدت نفسي على أن أقول للرجل الأبيض حقيقته ما حييت أو أهلك دون ذلك.

وفي نقاش حول ما إذا كان هوميروس شخصية حقيقية أو موضوعة؟ رميت في وجوه البيض بنظرية مفادها أن هوميروس رمز للكيفية التي كان الأوروبيون يختطفون بها الأفارقة ثم يفقأون عيونهم لئلا يعودوا إلى أوطانهم وأن هوميروس وعمر ومغربي

(مور) شيء واحد مثل بيتر وبدرو وبتراء التي تعني كلها الصخر وأن المجموعة الأولى أسماء لمغاربة علمهم الأوروبيون التغني بالقصائد التي تخلد أمجادهم كما أن آيسوب اسم إغريقي أطلق على راوية حبشي.

أذكر أيضاً نقاشاً جرى حول هوية شكسبير وهو وإن لم تكن له علاقة باللون إلا أن الغموض الذي يكتنف شخصية شكسبير جعلني أشارك فيه.

إن ترجمة الملك جايمس للإنجيل من أعظم ما كتب باللغة الإنجليزية بقلم الملك جايمس، كما يشاع، الذي ما هو إلا قلم شكسبير. وإذا كان الملك جايمس كما ثبت تاريخياً قد كلف الشعراء فيما بين ١٦٠٤ و١٦١١ بكتابة الإنجيل باللغة الإنجليزية وكان شكسبير موجوداً فلما لم يستعن به وهو قمة في كتابة الشعر؟ وإذا كان قد استعان به فلما لم يرد ذكر ذلك في المصادر؟.

أعرف أن هناك من يقول إن شكسبير هو فرانسيس بايكن وإذا كان هذا أيضاً صحيحاً فلما لم يشارك بايكن في ترجمة إنجيل الملك جايمس؟ إنه لا يمت للأسرة الملكية بصلة ولا يمكن بالتالي أن يحط من قدره اشتغاله بالفن والمسرح بل إن من شأن ذلك على العكس أن يرفع شأنه فلماذا إذن يكتب روائع أدبية ويوقعها باسم مستعار وهو من عامة الناس؟

في ذلك النقاش دافعت عن احتمال أن يكون شكسبير هو الملك جايمس سيما وأنه كان أذكى وأفضل من جلس على عرض بريطانيا وأنه لم يكن هناك بين أعضاء الأسرة الملكية من يقدر على كتابة الروائع المنسوبة إلى شكسبير سواه. ولذلك أيضاً قلت إنه هو الذي كتب الإنجيل كتابة شعرية وساهم به في استعباد العالم.

كنت أقرأ وأجمع الحجج المطابقة لتعاليم الإسلام وأطلع أخي ريجينالد عليها كلما زارني. وكنت قد قرأت في الجزء الثالث والأربعين أو الرابع والأربعين من الكلاسيكيات التي تنشرها هارفارد «الفردوس المفقود» لميلتون الذي يقول فيه إن الشيطان بعدما أخرج من الجنة بدأ يحاول الإستيلاء على الأرض فعمد إلى استعمال سلطة أوروبا المتمثلة في البابا وشارلماني ورتشارد قلب الأسد وفرسان آخرين فاستنتجت من ذلك أن الشيطان تجسد في هذه الشخصيات وخلصت إلى المطابقة بين ذلك وبين نظرية السيد إلايجا القائلة إن الإنسان الأبيض شيطان.

لذلك صعقني أن أجد ريجينالد مستاء من السيد إلايجا. لم يفصح لي عن ذلك مباشرة وإنما استشففته من كلامه ونبرة صوته وتعبير وجهه وهو يتحدث عنه فصعقت وتعكرت ثقتي ولم أصدق أن يأتي ذلك بعدما غير الإسلام بواسطة السيد إلايجا مجرى حياتي وأصبح كل شيء فيها وممن؟ من أخي ريجينالد الذي أدخلني أمة الإسلام والذي كنت أثق فيه وأحترمه. وقال ريجينالد إن السيد إلايجا أخرجه من أمة الإسلام لأنه خالف أوامره وأخل بالخلق الإسلامي.

وذهب ريجينالد وتركني في العذاب. وفي نفس الليلة كتبت للسيد إلايجا رسالة دافعت فيها عن أخي والتمست له العفو وشرحت مكانته عندي ثم وضعت الرسالة في صندوق الرقيب وأمضيت الليلة في الصلاة. صليت بحرارة وسألت الله أن يبدد شكي ويبدله باليقين.

ولم يحدث شيء تلك الليلة ولكن في الليلة التالية وأنا ممدد على الفراش جاء رجل وجلس على الكرسي بالقرب مني. وكان يرتدي بدلة سوداء. أذكر جيداً ورأيته كما أراك. ولم أشعر بأية رهبة ولكنني لم أستطيع أن أتحرك وكنت أعرف أنني لا أحلم فنظرت في وجهه في صمت ولم أستطع أن أتبين جنسه ولكنني عرفت أنه غير أوروبي. لم يكن بالأسود ولا بالأبيض. كان أسمر، خفيف السمرة، آسيوي اللمحات بشعر فاحم دهني. ولبث ملياً دون أن ينبس ثم اختفى فجأة كما ظهر.

وجاءني جواب السيد محمد يقول: «إذا كان الشك قد تسرب إلى قلبك فمعنى ذلك أنك لم تؤمن أبداً والسبب هو نفسك الضعيفة» فأثر في قوله. وكنت أعرف أن ريجينالد لم يكن مسلماً ملتزماً وأن السيد إلايجا على حق وأخي على باطل لأن الحق بين والباطل بين ولم يخطر ببالي أن يأتي يوم أرى فيه أبناء السيد إلايجا يرمون أباهم بالتهمة التي رمى بها ريجينالد وآخرين.

وعندما وصلتني رسالة السيد إلايجا كان شكي وحيرتي قد تبددا ومعهما كل ما كان لأخي علي من تأثير حتى أصبح كل ما يقوله ويفعله خطأً في نظري ولكنه بقي يزورني فبقيت أستمع إليه، ببرود، ألم يكن شقيقي؟. كان قد ودع أناقته وأصبح يرتدي القمصان القطنية والسراويل المهترئة وأحذية التنيس. ثم حل به العقاب تدريجياً أو ما يسمونه المسيحيون بـ«اللعنة». هذا ما قاله إلايجا محمد وقال أيضاً إن الله سيعاقب كل من يتحدى أو يتمرد على دينه ورسوله (إلايجا) ما بقي الرسول نفسه على المحجة البيضاء. وكان قد قيل لنا إن الإنسان عندما يسلم يخرج من الظلمات إلى

النور فإذا ارتد عاد إلى الظلمات وحق عليه العقاب. وكان السيد محمد يقول إن النجمة الخماسية ترمز إلى العدل والحواس الخمس وأن الله يعاقب بتعطيل إحداها فأيقنت أن ذلك ما يحدث لأخي.

وبعث لي فيلبرت رسالة قال فيها إن ريجينالد يوجد عندهم في دترويت ثم لم أعد أسمع عنه شيئاً حتى زارتني إيلا ذات يوم وقالت إنها تركته نائماً في بيتها وأنه جاءها في حالة مزرية وأنها سألته: «أين كنت؟» فقال: «في دترويت» وأنها سألته: «وكيف ذهبت إليها؟» فقال: «مشياً على الأقدام».

وصدقت أن يكون قد فعل ذلك لأن السيد إلايجا محمد كان قد أقنعنا أن الله يعاقب ريجينالد بسلبه إدراك الزمن والمسافة وأن هناك بعداً زمنياً لا يدرك هنا في الغرب وأن هناك أشخاصاً لهم قوة فكرية عالية يستطيعون بها أن يشيبوا الشعر في خمس دقائق وأنها تستعمل في تنفيذ عقاب الله بتعطيل إحدى حواس المذنب حتى أنه قد يمشي تسع مائة ميل ويعتقد أنه شوط من شارع.

وكنت قد أطلقت لحيتي بعدما أسلمت فقال ريجينالد عندما زارني إن كل شعرة فيها ثعبان وكان قد بدأ يرى الثعابين في كل مكان. وبعد ذلك بدأ يعتقد أنه رسول الله وقالت لي إيلا التي جاءتني بهذا الخبر إنه يمشي في شوارع روكسبوري ويقول للناس إنه يملك مواهب ربانية ثم بدأ يقول إنه الله وبعد ذلك أنه أكبر من الله فأخذوه إلى مستشفى الأمراض العقلية ثم تركوه يخرج بعدما لم يعرفوا علته ثم أدخلوه مستشفى ثانياً وهو الآن في مستشفى آخر لن أذكر اسمه حتى لا أتسبب له في المزيد من المشاكل.

وأنا اليوم لا أجد لما حدث لريجينالد إلا تفسيراً واحداً وهو أن أنتشل أنا من الظلمات التي كنت فيها؟.. وبعدما رمي إلايجا بالفاحشة بدأت أفكر أن ما حدث لريجينالد لم يكن عقاباً من الله وإنما رد فعل سببه إنكار أسرته له ومناصرتها لإيلايجا عليه مما أدى به إلى التمرد الشديد على إلايجا ومن ثم إلى الخلل العقلي.

أعتقد أنه من غير الممكن أن يرى الإنسان في حلم أو حتى في رؤيا شخصاً لم يسبق له أن رآه كما هو في الحقيقة وإذا حدث ذلك فإنه يكون من قبيل التمهيد للتجلي. ذلك أن الطيف الذي زارني في الزنزانة كان للسيد فارد الذي يقول إلايجا إنه اختاره ليكون خاتم المرسلين إلى السود في أمريكا الشمالية.

ورجعت إلى سجن شارلزتاون ولم يبق من مدة سجني إلا سنة. كان أمر دعوتي للإسلام في السجن قد علم به السجناء البيض بعدما لم يعرف بعض أنذال السود كيف

يمسكون ألسنتهم كما كانت التقارير قد ذهبت إلى السلطات المختصة في شأن رسائلي فلفقت لي تهمة الإمتناع عن التداوي بحقنة ما ونُقلت إلى سجن شارلزتاون.

وأقلقني ذلك لأنه جاء وملفي على وشك أن يعرض على لجنة العفو ولكنني عدت فقلت إنهم قد ينظرون إلى الموضوع من وجهة نظر أخرى ويطلقون سراحي حتى لا أبقى أدعو للإسلام في السجن.

كان نظري سليماً مائة في المائة ولكنه ضعف من كثرة القراءة على ضوء مصباح الممر فلبست النظارة الطبية لأول مرة في سجن شالزتاون. وكان مجال التحرك في السجن محدوداً ولكنني علمت أن هناك درساً يعطى في الإنجيل فتسجلت فيه. وكان الأستاذ طالباً في هارفارد وكان طويل القامة أشقر، بعيون زرق أي أنه كان صورة طبق الأصل للشيطان. وأنهى عرضه وفتح باب المناقشة. ولا أعرف أي منا كان قد قرأ الإنجيل أكثر من الثاني ولكنني أعترف أنه كان متضلعاً في دينه.

وناورت لأخرجه عن اتزانه وأعطي الزنوج شيئاً يتسلون به ويتناقلونه فرفعت يدي وأشار لي برأسه. كان قد تكلم عن بولس النبي فوقفت وقلت: «وما لون بولس؟» ولم أنتظر بل واصلت كلامي وأنا أتوقف بين الفينة والأخرى: «لا يمكن أن يكون إلا أسود... لأنه يهودي... ولأن اليهود الأوائل سود... أليس كذلك؟»

واحمر وجهه على الفور بطريقة البيض وقال: «نعم» ولكنني لم أكن لأتركه عند ذلك الحد فقلت: «والمسيح؟ لقد كان يهودياً أيضاً أليس كذلك؟» فاعتدل السجناء البيض والسود في جلستهم.

ومهما كانت قسوة السجين وسواء كان مسيحياً أسود مغسول الدماغ أو شيطاناً مسيحياً أبيض فإنه غير مستعد لسماع أن المسيح لم يكن أبيض وأخذ الأستاذ يذرع القاعة. لم يكن عليه أن يشعر بالذنب ذلك أنني لم أصادف فيما بعد رجلاً على قدر من الذكاء يستطيع أن يعاند ويقول إن المسيح أبيض لأن الواقع يكذبه. ورد الأستاذ على سؤالي قائلاً: «المسيح أسمر» فتركته ينفذ بذلك الحل الوسط.

وانتشر الخبر في سجن شارلزتون كما توقعت حتى بدأت حيثما نظرت أرى رؤوساً تهتز لي. وبدأت كلما وجدت الفرصة لمخاطبة أخ أسود في وجهه أثر تشريط أقول له: «هل سمعت أيها الأخ برجل يدعى السيد إلايجا محمد؟».

الفصل الثاني عشر

المنقذ

في ربيع ١٩٥٢ كتبت لإلايجا محمد ولأسرتي أزف إليهم تصويت لجنة العفو على الإفراج عني ولكن إجراءات ضمان أخي الأكبر ويلفريد تأخرت فبقيت في السجن بضعة أشهر. وكان ويلفريد قد حصل على تعهد من اليهودي الذي يعمل عنده في متجر لبيع المفروشات بتشغيلي فور خروجي من السجن.

وسمعت أن العفو قد شمل شورتي أيضاً وأنه لم يجد من يضمنه. فيما بعد علمت أن درس التأليف الموسيقي في السجن وألف بضعة قطع سمى إحداها: «كونسرتو الباستيل».

وخرجت من السجن فذهبت إلى دترويت وليس إلى هارليم أو بوسطن نزولاً عن رغبة أسرتي وخاصة هيلدا التي كانت تشعر أنني في حاجة إلى أن أعمق معرفتي بتعاليم السيد إلايجا محمد وأصبح عضواً في مسجد دترويت.

خرجت في شهر غشت. ألقوا علي محاضرة وأعطوني بدلة رخيصة ومبلغاً يسيراً من المال ثم فتحوا لي باب السجن فخرجت ولم أنظر إلى الوراء شأن الآلاف غيري. ومن هناك توجهت رأساً إلى الحمام التركي ثم قضيت الليلة في بيت إيلا. وحبذت هذه الأخيرة فكرة ذهابي إلى دترويت لأنها ليس لي فيها سوابق. هكذا عللت ذهابي إليها إذ لم تكن جماعة المسلمين تعنيها في شيء لأنها بما عهد فيها من عناد لم تسلم رغم كل محاولات هيلدا وريجينالد. قالت لي إن لهم أن يعتنقوا ما يشاؤون وأنها فيما يخصها لن تعتنق أي إسلام. وأعطتني بعض المال فذهبت واشتريت ثلاثة أشياء ما زلت أذكرها: نظارة طبية أجمل من التي أعطانيها السجن وحقيبة وساعة معصم. وتبين لي فيما بعد أنني بذلك كنت أستعد لحياتي الموالية وأنا لا أدري. ذلك أن تلك الأشياء أصبحت حيوية في حياتي: النظارة عوضت ما ذهب من نظري في السجن استعملتها في أسفاري التي جعلت زوجتي تبقي في البيت حقيبة جاهزة على الدوام لا يكون علي

عند الحاجة إلا أن ألتقطها وأنطلق والساعة تجسد ما أضحى للوقت عندي من أهمية بعدما بدأت أعيش على الزمن وضبط المواعيد حتى أنني لا أنظر الساعة وأنا أسوق ولكن إلى عداد السرعة لأن الزمن أصبح عندي أهم من المسافة.

في دترويت ركبت الأوتوبيس إلى الحي الزنجي حيث يوجد المتجر الذي يعمل فيه ويلفريد وهناك قدمني لأصحابه اليهود فشغلوني بائعاً حسب الإتفاق.

كان ذلك المتجر، ولن أذكر اسمه لسبب سيتضح، يجذب الزنوج بإعلانه الذي يقول: «اشتر الآن وادفع فيما بعد» كما يجذب الورق المبيد الذباب. كانوا يؤدون في بضائعه أضعاف أضعاف سعرها لمجرد أن الدفع بالتقسيط مع أنها حثالة من نوع ما يباع في الأحياء الزنجية. كان قماش الأرائك مثبتاً بالسلك ذي الرأسين الذي يغرز في الأوراق عادة وكان هناك أغطية أسرة وزرابي مرقطة تحاكي جلد النمر وأشياء من هذا النوع. وكنت أرى أيدي تخشبت من العمل توقع بخطوط مخلخلة على عقود مطبوعة طباعة جد متطورة تتعهد بمقتضاها بدفع فوائد عالية.

وفي ذلك المتجر عشت النكتة التي حكاها السناتور باري غولد ووتر لمجلة جيت أثناء الحملة الرئاسية لـ ١٩٦٤ والتي مفادها أن رجلاً أبيض وزنجياً ويهودياً سئلوا أن يتمنوا شيئاً فطلب الرجل الأبيض الأمن وطلب الزنجي المال وطلب اليهودي حلياً مزورة وعنوان الولد الزنجي.

في ذلك المتجر رأيت بعيني استغلال السود. رأيتهم يلقون بأنفسهم في أخطبوط اقتصاد الرجل الأبيض الذي يعود إلى بيته في نهاية النهار بكيس آخر ممتلىء بمال الحي الزنجي الذي استنزفه. رأيت مال الزنوج الذي كان ينبغي أن يصرف فيما ينفعهم يذهب إلى جيوب تجار بيض يسكنون مناطق محرم على السود أن يضعوا أقدامهم فيها.

ودعاني ويلفريد للإقامة في بيته وقبلت دعوته ممنوناً وأثر فيَّ وجودي في بيت وأسرة وكان لي بلسماً بعد كل تلك السنوات التي قضيتها وراء القضبان. وكان جو ذلك البيت المسلم بالخصوص يحثني على الإتجاه إلى الله بالتسبيح والحمد. ومع أن إخوتي كانوا وصفوا لي تقاليد البيت المسلم في رسائلهم إلا أنني وجدت الحقيقة أكبر من الوصف. وكان أخي ويلفريد يشرح لي كل صغيرة وكبيرة بلطف وأناة. ولم يكن

هناك شيء من البلبلة التي تعم البيوت في الصباح عادة. يستيقظ رب الأسرة وحاميها وعائلها أولاً أو ليس هو من يمهد الطريق لأسرته كما قال أخي ويلفريد. ويتوضأ ثم يستيقظ الأولاد بحيث يسود النظام في استعمال الحمام. ونحن المسلمون نقول باسم الله بصوت عالٍ ونتوضأ فنغسل اليدين، اليمنى فاليسرى ونتمضمض ونستنشق ونستنفر ونغسل جسدنا بالمرشة ثم نصلي.

وجدت أعضاء الأسرة حتى الأطفال فيما بينهم يهمسون في الصباح بقول: «السلام عليكم» فيقال لهم: «وعليكم السلام». وجاء ويلفريد ذلك الصباح بسجادة بسطها على الأرض وقعدنا نكبر سراً في انتظار من يتوضأون. في ذلك الوقت كانت الشمس قد أشرقت إذ لا يجوز للمسلم أن يصلي وحاجبها في الأفق لأنه لا يجب أن يتوسم من ذلك أنه يسجد لها وإذا كان يستقبل المشرق في صلاته فذلك ليكون في وحدة مع إخوانه المسلمين البالغ عددهم ٧٢٥ مليون نسمة في العالم. وجاءت زوجة ويلفريد وبناته في قمصان طويلة وخُمُر يغطين بها رؤوسهن فخلعن شباشبهن ووقفن خلفنا على السجادة في اتجاه المشرق.

هناك دعاء أردده اليوم باللغة العربية مع أسرتي كنت قد تعلمته بالإنجليزية أولاً وهو: «اللهم إني إياك أبعد. اللهم لك الحمد يا علي يا قدير يا ذا الجلال. تبارك اسمك وعظم جلالك. اللهم إني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك».

كان الفطور عصيراً وقهوة فشربناهما وخرجنا إلى العمل وهناك كنا ننسحب في هدوء كلما آن موعد الصلاة فنتوضأ ونصلي. وكان الأطفال يفعلون نفس الشيء في المدارس والأمهات في البيوت شأنهم شأن إخوانهم المسلمين في كل مكان.

وكان مسلمو دترويت يلتقون في المسجد أيام الأربعاء والجمعة والأحد. وكان المسجد في متجر سابق يقع في ١٤٧٠ شارع فريدريك على ما أظن وكان بالقرب منه ثلاثة مجازر يذبح فيها الخنزير فكان صياحه يصل إلينا أيام الأربعاء والجمعة. كان ذلك في مطلع الخمسينات أما المسجد الذي أنشأه فارد في دترويت في ١٩٣١ فيقع في مكان آخر.

أذهلتني أخلاق المسلمين التي لم أكن قد رأيت لها مثيلاً بين الزنوج. وكان زي الرجال بسيطاً في أناقة وكانت النساء يرتدين ثياباً طويلة ويغطين رؤوسهن بالخُمُر ولا يضعن أية زينة على وجوههن وكان الأطفال مهذبين ليس مع الكبار وحسب بل ومع

غيرهم من الأطفال أيضاً. كنت لأول مرة في حياتي أرى سوداً يعتزون بلونهم ويحملون الحب في قلوبهم محل الحسد والريبة. وهزتني طريقة السلام عند الرجال حيث يأخذ الرجل يد أخيه بين يديه والبسمة على شفتيه ولسانه يلهج بعبارات الفرحة باللقاء. رأيت الرجال يكرِّمون النساء ويحترمونهن كما لم أرى أي رجل أسود يفعل في حياتي وسرى إليَّ من كل ذلك شعور بالجمال. كانوا يخاطبون بعضهم البعض بعبارات تنم عن الود والإحترام والكرامة: «أخي... أختي... سيدي... سيدتي». حتى الأطفال كانوا يفعلون ذلك. شيء رائع!

وفي أول اجتماع لي بالمسجد دخل الإمام السيد حسن لوميال يقول: «السلام عليكم» فرددنا تحيته ووقف إلى جانب سبورة سوداء مرسوم على أعلى أحد طرفيها العلم الأمريكي وتحته: «عبودية، ألم، موت» فعلامة الصليب وبجانبها: «المسيحية» وتحتهما صورة رجل أسود مشنوق يتدلى من فرع شجرة. وفي أعلى الجهة الأخرى من السبورة على خلفية حمراء صورة النجمة والهلال وتحتهما: «إسلام: حرية، عدالة، مساواة» وتحتها: «من سيخرج ظافراً من الصراع بين الخير والشر؟».

وشرح الإمام خلال ما ينيف على الساعة تعاليم السيد إلايجا محمد وهو يكتب العبارات الجوهرية على السبورة وأنا أستوعب جميع كلماته وحركاته. وأغضبني أن يكون هناك مقاعد شاغرة في وقت تمتلىء فيه الشوارع المجاورة بسود منهمكين في الشتم والشجار والرقص ومعاقرة الخمور والإغراق في المخدرات والملذات أي في كل ما يقول عنه السيد محمد إلايجا إنه يبقينا تحت سطوة الرجل الأبيض في أمريكا. واتضح لي أن المسجد يتوكل على الله ليأتيه بالمزيد من المسلمين ولكنني رأيت أن علينا أن نعقلها ونتوكل خاصة وأنني أعرف سكان الأحياء الزنجية من كثرة ما عشت بينهم. وبما عهد في من طبيعة عملية ونفاذ صبر قلت لويلفريد إن علينا أن نخرج فوراً إلى الشارع لكسب المزيد من المسلمين ولكنه نصحني بالتأني.

وساعدني على اتباع نصيحته أنني كنت منصرفاً بكل تفكيري إلى ترقب لقاء الرجل الذي يلقب بـ«رسول الله». لقد قابلت فيما بعد شخصيات ذات شهرة عالمية من بينها رؤساء دول ولكنني لم أترقب لقاء أي منهم بمثل اللهفة التي ترقبت بها لقاء السيد إلايجا محمد والذي تم أخيراً في يوم الأحد الأسبق لعيد الشغل من عام ١٩٥٢ فذهبت في قافلة من حوالي عشر سيارات إلى شيكاغو.

وشعرت وأنا في الطريق بفرحة لم أشعر بها منذ الطفولة. لقد شهدت تجمعات إسلامية ضخمة وسمعت هديرها ولكنها لم تؤثر في تأثير لقاء الجماعتين المسلمتين ذلك اليوم في مسجد شيكاغو وسط التهليل والترحيب. وكان لظهور الرسول محمد إلايجا علي نفس الأثر. دخل من باب خلفي واتجه نحو المنصة وهو يحث الخطى، يحيط به حراس ثمرة الإسلام الممشوقين الذين يمشون بخطى شبه عسكرية. وبدا نحيلاً بينهم وضئيلاً بوجهه الدقيق، الرقيق، الأسمر الذي حفظته لكثرة ما حدقت في صوره وأنا في السجن حتى كنت أراه في المنام. كان يلبس بدلة داكنة مثل حراسه وقميصاً أبيض وربطة سهرة ويضع على رأسه خلافاً لهم طربوشاً أخضر مطرزاً بخيوط مذهبة.

وحملقت فيه، في الرجل الذي حمل نفسه عبء الرد على رسائل سجين لا يعرف عنه شيئاً، الرجل الذي عانى الويلات من أجلنا. وبدأ يتكلم فملت إلى الأمام وأنصت بكل حواسي. وسأختصر ما قاله والذي أذكره لأنني سمعت المئات من خطبه: «منذ إحدى وعشرين سنة وأنا أعمل بلا هوادة لنشر الإسلام بين السود في أمريكا متحملاً في سبيل ذلك محنة السجن مرتين حيث حكم علي في الأولى بثلاث سنوات ونصف قضيتها في السجن الفدرالي وفي الثانية بسنة قضيتها في سجن هذه المدينة متحملاً فراق أسرتي مدة سبع سنوات كنت أختفي فيها إتقاء لشر المنافقين، أعداء هذا الدين الذي سيمنحنا الحياة ويسوينا بالأمم الحرة والمتمدنة وبكل شعوب المعمورة».

وتكلم عن عملية غسل الدماغ التي تعرض لها ما يدعى بالزنجي في براري أمريكا الشمالية على يد الشيطان، أزرق العينين، تلك العملية التي تجعل الزنجي اليوم مغرقاً في الموت الفكري والروحي والمعنوي. وقال إن الإنسان الأول على الأرض كان أسود وتكلم عن عملية الإختطاف التي تعرض لها السود والتي تلاها تجريدهم من كل مقومات هويتهم: اللغة والثقافة والبنية العائلية والإسم العائلي. وقال إنه سيعلمنا كيف نعرف أنفسنا حتى نصعد من قاع المجتمع الأبيض ونصبح كما كنا في أعلى عليين.

وتوقف ليلتقط أنفاسه ثم ناداني فسرى في جسدي ما يشبه التيار الكهربائي وأمرني بالوقوف دون أن ينظر إليّ، فوقفت وبدأ يتكلم عني. قال إنني خرجت من السجن منذ عهد قريب وأنني برهنت وأنا فيه عن قوة إرادة ورباطة جأش وأنني كنت

أراسله يومياً فكان يرد على رسائلي قدر الإمكان ثم حكى لنا وأنا واقف والأنظار متجهة إليَّ حكاية تنطبق علي، قال: إن الله سبحانه وتعالى باهى بوفاء أيوب فقال له الشيطان إن سياج العصمة هو ما يحمل أيوب على الوفاء وأن «أزل هذا السياج وسأحمل أيوب على سبك في وجهك.» واستمر إلايجا محمد قائلاً: «كذلك سيقول الشيطان إن سياج السجن هو ما جعل الأخ ملكوم يلجأ إلى الإسلام وأنه وقد أصبح حراً سيعود إلى خمره وتدخينه ومخدراته وإجرامه. لقد زال السياج يا أخ ملكوم فلننظر ماذا تصنع. على أنني واثق أنه لن يكون إلا كل خير».

ولقد أمدني الله سبحانه وتعالى بعونه فبقيت مخلصاً للإسلام، مستميتاً به رغم المحن والامتحانات. حتى عندما ساءت العلاقة بيني وبين إلايجا محمد قلت له والأزمة على أشدها إنني رغم كل شيء ما أزال أثق فيه أكثر مما يثق هو في نفسه. ولقد ساءت العلاقة بينا بفعل الحاسدين. ومرة أخرى أقولها، كان الرجل الوحيد على وجه البسيطة الذي وضعت فيه كل ثقتي.

سبق لي أن قلت إن السيد إلايجا محمد وعد أخي ويلفريد بالنزول ضيفاً عليه عندما يزور مسجد دترويت ولكن الذي وقع هو العكس حيث دعانا في تلك الزيارة أنا وأخي فيلبرت وأسرته وحسن لوميل إمام مسجد دترويت لتناول العشاء في بيته الجديد فلبينا دعوته. وقال لنا إن أولاده وأتباعه هم الذين ضغطوا عليه لينتقل إلى بيت أفضل وأوسع فاشترى إقامة من ثماني عشرة غرفة في ٤٨٤٧ شارع وودلون، شيكاغو ورحل إليها منذ أيام على ما أظن. وأرانا المكان الذي كان يصبغه قبيل وصولنا. واحتجت لاستجماع كل إرادتي حتى أكبح رغبة جامحة في الإتيان لرسول الله بكرسي يجلس عليه. وعوض ذلك سهر هو على راحتي فكان عند حسن الظن به.

كنا نطمع في أن يزيدنا من درره ولكنه طلب منا نحن أن نتكلم. وكان يشغل بالي بصفة خاصة توكل مسجد دترويت على الله في إتيانه بالمسلمين وبصفة أخص ملايين السود في أرجاء أمريكا الذين لم تصلهم هذه التعاليم فكلمته عن ذلك بصراحتي المعهودة ثم طلبت رأيه في عدد المسلمين الذي يجب أن يكون في مسجدنا في دترويت فقال: «الآلاف وقلت: «طيب سيدي، وما هي في رأيك أنجع السبل لاستقطاب هذه الآلاف؟» فقال: «التركيز على الشباب. ركزوا على الشباب وسيتبع الكهول حياء» فعقدت العزم على أن أعمل بنصيحته.

وبعدما رجعنا إلى دترويت كلمت أخي ويلفريد في الموضوع وعرضت خدماتي على إمام المسجد الذي كان مقتنعاً من جهته بوجهة نظر السيد محمد كمرحلة أولى. وابتداء من ذلك اليوم بدأت أخرج من العمل مساء وأذهب إلى ما أصبحنا نسميه عملية «الصيد». كنت أعرف عقلية ولغة الشارع الزنجي فكنت أقول: «دعني أيها الأخ ألفت نظرك إلى شيء...»

وكنت قد كتبت إلى شيكاغو لطلب بطاقة عضوية في أمة الإسلام فجاءتني وعليها حرف «إكس» الذي يرمز إلى اسمنا العائلي المجهول الذي عوضه أحد الشياطين البيض باسمه «ليتل»، اسم الإسترقاق المفروض على جدنا الأبعد. وهكذا أصبحت منذ اليوم لا أُعرف بين أمة الإسلام إلا بملكوم إكس بعدما قال لنا السيد إلايجا إن هذا هو اسمنا الذي سنحيا ونموت به.

وفي الحي الزنجي بدأت عملية الاستقطاب في البارات وقاعات البيار والمنعطفات فوجدت إخواني الجهلاء السود المساكين في حال من الصمم والعمى الفكري والمعنوي والروحي يصعب تداركه وأغضبني ألا يدركوا نعمة هذا الدين الذي يستطيع أن يرد لهم الروح. كنت أكاد أستجديهم ليحضروا اجتماعنا القادم في المسجد فكان بعضهم يعدني ثم يخلف بوعده.

وزاد عددنا مع الأيام وبدأت قافلة سياراتنا الشهرية إلى شيكاغو تكبر ولكن أكثر من كانوا يرافقوننا لم يكونوا يطلبون بطاقة العضوية رغم رؤيتهم للسيد إلايجا. وبعد جهد جهيد تضاعف عددنا ثلاث مرات وراق ذلك للسيد محمد فقرر أن يشرفنا بزيارة خاصة. وفي تلك الزيارة أبى بعدما أخبره الإمام بنضالي في صفوف الدعوة إلا أن يشكرني شخصياً.

وبقيت قافلتنا إلى شيكاغو تكبر حتى بلغ عددها خمسة وعشرين سيارة. وكان السيد إلايجا محمد يدعونا في كل مرة للعشاء في بيته فكنت أستشف من كلامه اهتمامه بطاقتي وكنت حينذاك أحبه حب عبادة. وكنت قد تركت منذ مستهل عام ١٩٥٣ متجر المفروشات واشتغلت بأجر أفضل قليلاً في شركة لصنع شاحنات نقل الأزبال حيث كنت أنظف هياكل الشاحنات بعد إكمالها.

وفي ذلك اليوم ونحن على مائدة العشاء قال السيد إلايجا إنه في حاجة ماسة إلى

شباب كادح يساعد أئمته وكان يقصد أن علينا أن نوسع الدعوة ونفتح المساجد في المدن الأخرى. ولم يكن يخطر لي على بال أن أكون إماماً لأنني لم أكن مقتنعاً بصلاحيتي لتمثيل السيد محمد. ولو أن أحداً طلب مني ذلك لاستغربت وقلت إنني سعيد بخدمة السيد محمد وأنا في أدنى موقع.

وذات يوم طلب مني إمام مسجدنا أن أعد خطبة ألقيها على الإخوان. ولا أعرف إن كان قد فعل ذلك من تلقاء نفسه أو أن السيد محمد هو الذي اقترحه عليه. المهم أنه أرادني أن أتكلم عن تأثير تعليمات السيد محمد فيَّ فأعددت خطبة قلت فيها: «إنني لو حدثتكم عن حياتي قبل أن أسلم لما صدقتموني ولذلك فأنا عندما أتكلم عن الإنسان الأسود لا أتكلم عن شيء أجهله».

وبعدها طلب مني رجل الدين أن أرتجل خطبة فترددت ثم قبلت متشجعاً بتجربتي في مناظرات السجن فوقفت أمام الإخوان وبدأت أتكلم. ومع أنني لا أذكر ما قلته بالتفصيل إلا أنني كما سبق القول كنت في ذلك الوقت أركز على المسيحية وأهوال الرق لأنه موضوع كنت أشعر أنني أتملكه لكثرة ما قرأت عنه في السجن. قلت: «إخواني، أخواتي، لقد علمتنا المسيحية نحن السود هنا في براري أمريكا الشمالية أننا عندما نموت سينبت لنا أجنحة نطير بها إلى الملكوت الأعلى حيث يدخلنا الله فسيح جناته. هذا ما تقوله لنا المسيحية، ديانة الرجل الأبيض وأداته في غسل أدمغتنا. وقد رضينا بذلك! رضينا به واعتنقناه وآمنا به وطبقناه! وفي الوقت الذي كنا فيه نفعل ذلك من أجل الرجل الأبيض كان يقينا تحت سطوته مستعملاً مسيحيته لإبقاء عيوننا معلقة بالثواب والجنة في الدار الأخرى بينما يتمتع هو بهما في هذه الأرض وهذه الدار».

انتابني وأنا أخطب حماس غريب لم أشعر به حتى وأنا أخاطب الملايين عبر مكروفونات الإذاعة وشاشات التلفزيون، حماس مبعثه عيون ما يتراوح بين ٧٥ و١٠٠ مسلم ومسلمة المشدودة إليَّ وأنا أتكلم على صراخ الخنازير المترامي إلينا من المجزرة القريبة.

ولم يحل صيف ذلك العام حتى كنت بحمد الله إماماً ثانياً في مسجد دترويت. وكنت ما أزال أخرج إلى شارع الحي الزنجي لاستقطاب الشباب فأنظر إلى الوجوه ذات التقاطيع الإفريقية التي غسل دماغها الشيطان الأبيض إلى حد ميؤوس منه، أنظر

إلى أشعار طبخت في ماء الرماد حتى أصبحت ناعمة ومسترسلة وشبيهة بأشعار البيض وأدعو فلا ألقى إلا النفور والسخرية. كانوا يقولون: «أبعد عن طريقي يا أخي. يا للجنون الزنجي!» فكنت أغضب حتى تدور بي الأرض وكان غضبي يمتزج بالأسى على كل ذلك العمى الذي يعيش فيه أبناء جلدتي.

وكنت أتحرق على مخاطبة أعضاء المسجد حتى إذا ما حل الموعد وقفت أمامهم وشرعت أقول: «إننا لم ننزل على صخرة بليموث ولكن صخرة بليموث هي التي نزلت علينا[1]. ساعدوا الرسول إلايجا محمد بما تجود به أيديكم ليحرر السود... لقد استطاع الرجل الأبيض أن يحكمنا لأنه استطاع أن يبقينا نقول له: «من فضلك يا مولاي، من فضلك يا سيدي، يا رئيس! ألق لي بشيء من مائدتك المثقلة...

إخواني وأخواتي السود، إن كلمة أسود تعني في أمريكا كل ما ليس أبيض. أنظروا إلى جلودكم. هل هي على درجة واحدة من السواد؟ إنها بالطبع على ألف درجة ودرجة ولكن الرجل الأبيض يسمينا سوداً كلنا. أنظروا إلى بعضكم البعض. هل أبقى فيكم الشيطان الأبيض لوناً إفريقياً قحاً بعدما لوث دمكم بدمه؟. وهنا كنت أضرب لهم مثلاً من نفسي فأقول: إنهم كانوا يسمونني في الشارع أحمر دترويت لأن دمي مختلط بدم شيطان أحمر الشعر مغتصب هو أب أمي الذي كانت تكره الكلام عنه فلم تقل لنا إلا أنها لم تر وجهه وأنها تحمد الله أنها لم تفعل وأنا أحمده نيابة عنها. ولو كان بيدي لسحبت مني ذلك الدم الذي لوث دمي ووصم لوني والذي أكره كل قطرة منه.

كنت أقول لهم إن هذه القصة ليست قصتي وحدي، إنها قصتنا جميعاً منذ عهد العبودية وأزيد موضحاً: «تذكروا. من كانت تستطيع في تلك الأيام أن تحمي شرفها من السيد الذي عثى في العبد تهديداً وترهيباً حتى أفقده رجولته وأسكن في قلبه إلى الآن الخوف منه والخضوع له.

تصوروا رجلاً أسود مملوءاً رعباً يترامى إليه صراخ زوجته أو أمه أو ابنته وهي تساق إلى الإسطبل أو المطبخ أو الخلاء وهو يشله الخوف ولا يملك لها شيئاً.

---

(١) صخرة في ميناء بليموث، مساشوسيت قيل إن العبيد نزلوا بها عندما جيء بهم من إفريقيا.

تصوروا أنها زوجتكم أو أمكم أو ابنتكم!. وبعد ذلك وجد هذا الشيطان عنده الجرأة على تسمية ثمرة اغتصابه «مولاطو» و«كودرون» و«أكتورون» وما إلى ذلك من التسميات التي كان يطلقها علينا إلى جانب «الزنوج».

أنظروا إلى بعضكم البعض وفكروا في الشيطان الذي لوثنا بكل هذه الألوان ثم جاء يتهمنا بعدم حبه وكأن بإمكان الضحية أن تحب سفاحها. وكان ذلك يؤلمني ألماً شديداً فكنت أغرق في صمت طويل وأهيم على وجهي حتى ساعات متأخرة من الليل.

وذات يوم وأنا في العمل جاءني المشرف وعليه آثار القلق وقال إن في المكتب رجلاً يريد أن يلقاني فذهبت ووجدت رجلاً أبيض قال إنه من مصلحة البوليس الفدرالي وفتح لي تعريفه على حين غرة بتلك الحركة التي يبغون منها تخويف الناس وطلب مني أن أذهب معه ولم يذكر لي السبب ولا الغاية.

وذهبت معه إلى مركز الشرطة حيث كانوا يريدون أن يعرفوا لماذا لم أتسجل في الحرب الكورية فقلت لهم: «لأنني دخلت السجن ولم أكن أعرف أنكم تقبلون أصحاب السوابق» وصدقوني ثم طرحوا علي جملة من الأسئلة لم يكن بينها لحسن الحظ أي سؤال عما إذا كنت أريد الإلتحاق بالجيش ولعلهم فهموا من باب تحصيل الحاصل أنني أريد أن ألتحق به وقالوا لي إنهم لن يلقوا علي القبض وأن علي أن أتسجل فوراً.

وذهبت إلى مكان التسجيل فأعطوني استمارة كتبت عليها في المكان المخصص للدين أنني مسلم وأنني أمتنع عن أداء الخدمة العسكرية لأسباب تتعلق بالضمير ومددت الإستمارة إلى شيطان كهل تشي حركاته بالملل فتفحصها ونظر إلي شزراً ثم قام ودخل مكتباً آخر لاستشارة رئيسه المباشر ثم عاد وأشار لي بدخول ذلك المكتب.

ودخلته فوجدت ثلاثة شياطين وراء المكاتب. أعتقد أنهم كانوا ثلاثة. وحدجوني بنظرات موعدة فرددتها لهم وسألوني على أي أساس أقول إنني مسلم فقلت إنه يوجد في أمريكا رجل يسمى رسول الله إلايجا محمد وأن أتباعه يسمون مسلمين وأنا أعرف جيداً أنهم قد سمعوا به.

وسألوني إن كنت أعرف معنى عبارة «رفض الخدمة العسكرية لأسباب تتعلق بالضمير» فقلت: «عندما يسألني الرجل الأبيض أن أذهب إلى حرب قد أموت فيها

للمحافظة على الطريقة التي يعامل بها السود فإن ضميري لا يسمح لي بذلك».

وقالوا لي إن ملفي سيبقى مفتوحاً وأن علي على كل حال أن أجري الفحص الطبي ثم أرسلوا لي بطاقة عليها رقم ما وكان ذلك في ١٩٥٣. وبعد سبع سنوات جاءتني بطاقة أخرى تحمل رقماً مختلفاً هي الآن في محفظة أوراقي. ها هي. رقمها ٣٧٧ ٢٥١ ٢١٩ ٢٠ وتاريخها ٢١ نوفمبر ١٩٦٠ تحمل علامة لا أعرف المقصود منها هي: إ ـ ٥ وفي ظهرها: «لجنة ميشيغان المحلية ١٩، مقاطعة واين ٣٦٠٤، طريق ساوث واين، واين، ميشيغان.

وفي تلك الأيام كان صوتي مبحوحاً على الدوام لكثرة ما كنت أخطب في المسجد ولم أكن ألتقط أنفاسي حتى أعود لأقول لإخواني المسلمين والمسلمات: «هل تعرفون لماذا يكرهكم الرجل الأبيض؟ إنه يكرهكم لأنكم تجسدون جرائمه وتخلقون له أزمة ضمير. إن الأولى بكل رجل أبيض في أمريكا أن يخر طالباً الصفح كلما التقت عينه بعين رجل أسود ويقول له: اسمح لي بالتكفير عن الجرائم الفظيعة التي ارتكبها جنسي ضد جنسك. ولكن هل تتوقعون أن يفعل رجل أبيض ذلك؟ إنه لن يفعل بالطبع لأنه ولد شيطاناً ليزرع الخراب.»

كنت في تلك الأيام قد بدأت أشتغل في شركة فورد بأحد أقسام لينكولن مركوري لتركيب السيارات وكنت أجد الوقت للسفر إلى شيكاغو لرؤية السيد إلايجا الذي كان يشجعني على زيارته ويعاملني هو وزوجته الداكنة السواد كما لو كنت أحد أبنائهما ولكنني لم أكن أرى أولادهما إلا نادراً لأنهم كانوا يشتغلون خارج شيكاغو عمالاً وسواق تاكسيات وما إلى ذلك. وكانت أمه تعيش معه فكانت تحكي لي عن طفولته في ساندرز فيل، جورجيا التي ولد بها في ١٨٩٧.

وكان السيد محمد من جهته يحدثني مدة ساعات طويلة. كنا بعدما ننتهي من تناول الطعام الحلال نبقى على المائدة نتحدث أو كنت أرافقه في جولته على متاجر البقالة التي كان يملكها المسلمون في شيكاغو والتي كانت نموذجاً لما يمكن للسود أن يفعلوه لينهوا التبعية والإستغلال. كنا نذهب إلى محل في ملتقى شارع وينتوورث والنهج الواحد والثلاثين يجمع بين البقالة والصيدلية فكان السيد محمد كلما دخله يأخذ مكنسة ويشرع في كنس البلاط أو يفعل شيئاً من هذا القبيل يعطي به المثال للسود الذين كانوا على حد قوله يذنبون في حق أنفسهم بركونهم إلى الكسل والخمول.

وكنت أحاول أن أنتزع المكنسة من يده لأنها لا تليق بمقامه فكان يأبى أن يسلمها لي كما لم يكن يدعني أفعل أي شيء ويقول إنه لا يريد مني إلا أن أبقى إلى جانبه وأسمع نصائحه حول نشر دعوته. كان كأنه سقراط وهو يوزع الحكمة على تلامذته من على درجات سوق أثينا أو تلميذه أرسطو وهو يمشي في الميدان وتلامذته يمشون وراءه.

وذات يوم كان على المنضدة الفاصلة بين البائع والمشتري كأس متسخة فوضع السيد محمد بجانبها كأساً نظيفة وقال وهو يشير إليهما: «هل تريد أن تعرف كيف تنشر تعليماتي؟ إذا رأيت أحداً يحمل كأس ماء متسخة فلا تُدِنْهُ ولكن أره كأسك النظيفة ولن يكون عليك حينذاك أن تقول له أي الكأسين أفضل» فبقيت الصورة مرسومة في ذهني رغم أنني لم أطبقها لأنني أميل إلى الصراع بطبعي وأفضل إذا رأيت كأساً متسخة أن أقول لصاحبها إنها متسخة.

وكانت الأم ماري تحكي لنا عن طفولة ابنها مبتدئة بطفولتها فتقول إنها رأت في المنام وهي في السابعة من عمرها أنها ستلد رجلاً يكون له شأن عظيم. وقالت لي إنها تزوجت قسيساً معمدانياً يدعى الأب پوول كان يعمل في المزارع القريبة من ساندرز فيل وفي مناشير الخشب وأن إلايجا كان منذ طفولته المبكرة يختلف عن إخوته الإثني عشر وأنه كان يبت في نزاعاتهم ويتزعمهم رغم صغر سنه وضعف بنيته. وكانت تقول إنه عندما دخل المدرسة بدأ يظهر وعياً مبكراً بانتمائه العرقي وأنه تركها وهو في السنة الرابعة من التعليم الإبتدائي فقط ليعين أباه على إعالة أسرته فبدأت إحدى أخواته تعلمه في الليل.

وقالت إنه كان يمضي الساعات في قراءة الإنجيل بعيون دامعة. وقد أفضى لي فيما بعد أنه كان يفعل ذلك لأنه كان يصطدم بانغلاق معانيه واستعصائها على فهمه ولأن ذلك كان يصيبه بالإحباط. وقالت إنه بعدما انتقل إلى سن المراهقة بقي على ضعفه البنيوي وأنه كان يحمل لأبناء جنسه حباً فوق المعتاد ويحاول دائماً أن يجد المبررات لعيوبهم. وعندما توفيت الأم ماري خرجت كل شيكاغو لتشييع جنازتها نظراً للمكانة الخاصة التي كانت تحتلها عند الرسول إلايجا.

وبعد ذلك قال لي الإيجا محمد: «إنني لا أخجل من ضعف مستواي الدراسي لأن ذلك يعني أنني لا أعرف إلاّ الحق الذي علمنيه الله. وقد علمني الله الرياضيات وأطلق لساني وعلمني النطق السليم. وقال إنه لم يكن يقبل أن يسمع أرباب الشغل

يلعنون الزنوج وأنه كان يطلب منهم بكل أدب ألا يفعلوا معه ذلك وأن يطردوه إن لم يرق لهم عمله.

وكان حديثه من جنس خطبه. لم يكن بليغاً بالمعنى المعروف للكلمة ولكنه كان يؤثر في كما لم يكن يؤثر في أمهر الخطباء. وقال إنه كان يخلص في عمله وأن ذلك كان يحدو بالمشغلين إلى أن يضعوه على رأس باقي الزنوج.

وفي ١٩٢٣ لعن أحد المشغلين السيد محمد الذي كان ما يزال يعرف بإلايجا پوول فرحل بزوجته وولديه وهو في الخامسة والعشرين من عمره إلى دترويت حيث التقى بفارد. وهناك ولد له خمسة من أبنائه الثمانية أما آخر أولاده فقد ولد في شيكاغو. كانت آثار الأزمة الإقتصادية شديدة على الجميع وكانت كما قال السيد محمد أشد على السود.

وفي ذلك الوقت بدأ رجل قصير القامة، خفيف السمرة يسمي نفسه «أخ من المشرق» يطرق أبواب الزنوج ويعرض عليهم الحرير وأنواعاً أخرى من القماش ثم بدأ مع مرور الأيام يحكي لهم حكاية مجيئهم من أرض بعيدة وهم في أصلاب أسلافهم ويحذرهم من أكل لحم الخنزير القذر وأطعمة أخرى.

وبدأ يعقد اجتماعات في بيوت الذين كان يأنس منهم ميلاً إلى كلامه ثم بدأ يدرّس القرآن والإنجيل لتلامذة من بينهم إلايجا پوول.

وقال لهم إن اسمه فارد وأنه ينحدر من قريش قبيلة محمد بن عبد الله النبي العربي. وكان يعرف الإنجيل أحسن منهم فقال لهم إن الإسم الحقيقي للإله هو الله وأن الإسلام دينه الحق. وقال لهم إن أسلافهم كانوا مسلمين وأنهم خرفان الإسلام الشاردة التي جاء ليعيدها إلى دينها. وقال لهم إن الجنة والنار موجودتان في الدنيا في الظروف التي يعيش فيها الأحياء وليس في العالم الغيبي وأن زنوج أمريكا يعيشون منذ ٤٠٠ عام في النار وأنه جاء ليعيدهم إلى الجنة الموجودة في أحضان أمة الإسلام.

وقال لهم إن الشيطان موجود على الأرض أيضاً وأنه مجسد في الجنس الأبيض الذي انحدر منذ ٦٠٠٠ عام من الجنس الأسود وأن السود أبناء الله وأنهم كانوا في الأصل آلهة كان على رأسها إنسان رفيع وسامي يملك أعلى درجات الحكمة والسلطان هو الله. وأسلمت لفارد حفنة من السود في دترويت في ١٩٣١ فأخذ يقول لها إن

جميع الأديان تقول إن الله سيأتي قبيل يوم القيامة ليعزل خرفانه الشاردة من أعدائها ويبعثها في أمتها.

وكان يسمي واجد خرفان الإسلام الشاردة ومنقذها هذا ابن الإنسان أو الله ذاته أو معطي الحياة، المنقد أو المسيح الذي سيسطع كالبرق من الشرق ويظهر في الغرب وأنه هو ذات الإله الذي يسميه اليهود والنصارى المسيح ويسميه المسلمون المهدي المنتظر.

كنت أستمع بذهول إلى السيد محمد وهو يقول لي هذا الكلام الذي يعكس تاريخ ديننا، دين السود. وقد قال لي إنه رأى فارد في المنام وأنه قال له إنه آت لإكمال النبوة وأنه سأله: «من أنت؟» فقال له: «أنا الذي ينتظرني العالم منذ ألفي سنة» وأنه قال له: «وما اسمك؟» فقال: «المهدي وجئت لأهديكم إلى سواء السبيل» وأن ذلك ما حمله على تصديقه عندما ظهر وعلى الجلوس إليه والأخذ عنه كما جلست أنا إلى السيد محمد وأخذت عنه بقلب وعقل مفتوحين.

وبعد ذلك بدأ فارد مرحلة التنظيم فأخذ يكون رجال الدين الذين سينشرون الدعوة بين سود أمريكا وسماهم بأسماء جديدة فسمى إلايجا پوول مثلاً إلايجا كريم ثم أنشأ الجامعة الإسلامية في دترويت في ١٩٣١ لتعليم الكبار عدة مواد من بينها الحساب ليسلحهم به ضد احتيال الشيطان ذي العيون الزرق وإن كانت هذه الجامعة قد عانت في بدايتها من ضعف مستوى الأساتذة. وكان السيد إلايجا كريم أول من نقل أولاده إليها ليشكل بهم أول خلية بها وقد أخبرني أن نقص التكوين الذي يعاني منه أولاده يرجع إلى ذلك.

وعين فارد إلايجا كريم على رأس رجال الدين فأثار الأحقاد ضده لا سيما وأنهم كانوا أفضل منه ثقافة وطلاقة لسان فاحتجوا على ذلك بمحضره وقالوا إنهم لا يقبلون أن يرأسهم رجل لا تتوفر فيه شروط الرئاسة.

وبدل إلايجا اسم كريم بمحمد وبدأ السيد فارد على حد قوله يطلعه على تعليمات لم يطلع عليها أحداً غيره وكان قد أخذه معه إلى دترويت لفتح المسجد الثاني في الولايات المتحدة وإلى ميلووكي لوضع أساس المسجد الرابع.

وفي ١٩٣٤ اختفى السيد فارد فحاول رجال الدين «المنافقون» كما يسميهم

السيد محمد يخططون لاغتياله ففر إلى دترويت وبقي في مسجدها ولكنهم لحقوا به ففر إلى واشنطن وأنشأ بها مسجداً آخر. وهناك بدأ يتردد على مكتبة الكونغريس ويكتشف بعض الحقائق التي جمعها الشيطان الأبيض وحفظها هناك حيث لن تصل إليها إلا أيدي قليلة. ولكن «المنافقين» لحقوا به إلى هناك أيضاً فبدأ يفر من مدينة إلى مدينة ويعود إلى شيكاغو خفية لزيارة زوجته وأولاده الثمانية الصغار الذين أصبحوا يعيشون مما يجود به عليهم الزنوج الفقراء.

وفي ١٩٤٢ ألقي عليه القبض بعدما وشى به بعض أنذال الزنوج فلفق له الشيطان الأبيض تهمة التهرب من الخدمة العسكرية رغم أنه كان قد كبر عليها منذ زمن بعيد وحكم عليه بخمس سنوات لم يقض منها في سجن ميلان، ميشيغان الفدرالي إلا ثلاث سنوات ونصف. وفي ١٩٤٦ رجع لإتمام رسالة فتح عيون السود في براري أمريكا الشمالية. ولقد كنت أقف على منبر مسجدنا الصغير في دترويت وأصدح بالقول لإخواني المسلمين والمسلمات:

«إن ذلك الرجل الرقيق الذي يعلم في هذه اللحظة إخواننا وأخواتنا في شيكاغو والذي أصبح بفضل رسالته أقوى شخصية سوداء في أمريكا قد ضحى من أجلي ومن أجلكم بسبع سنوات كاملة من عمره قضاها هارباً من منافقين أنذال وبثلاث سنوات ونصف أخرى قضاها في السجن الذي وضعه فيه الشيطان الأبيض بعدما أقضت مضجعه محاولة السيد إلايجا محمد إيقاظ المارد الكامن فيَّ وفيكم وفي كل فرد من أفراد جنسنا الرازح تحت الجهل والدعاية البيضاء والذي يعيش في براري أمريكا الشمالية هلى أرض تعد جنة بالنسبة للبيض وجحيماً بالنسبة له. لقد سمعت كلمة الحق من فم رسولنا فعاهدت الله على أن أكشف للبيض عن جرائمهم وللسود عن حقيقة تعليمات السيد إلايجا محمد المحترم ولو كان في ذلك حتفي...» وكنت قد اتخذت موقفاً لا تراجع فيه فكنت أقول قولي بدون خوف أو وجل وكنت أوفى خدام السيد محمد وكان إيماني به يفوق إيمانه بنفسه ولم أكن أعرف أنني على وشك الوقوع في أزمة نفسية وروحية.

الفصل الثالث عشر

رجل الدين ملكوم

تركت شركة فورد للسيارات لأنني كنت مقتنعاً أن السيد محمد في حاجة لمن يفتح له المزيد من المساجد وينشر دعوته بين الإثنين وعشرين مليوناً من السود الذي يقبعون في أمريكا الشمالية بعقول مغسولة فكنت بذلك أول رجل دين يتفرغ للدعوة. ذلك أنني كنت طول عمري مناضلاً ولعل لتكويني العضوي دور في ذلك على أنه لم يكن هناك إمام واحد في أمة الإسلام لم يبرهن في الوقت المناسب عن اقتناعه بأنه ولد ليتتلمذ على السيد محمد عملاً بالإعتقاد الإسلامي القائل إن الإنسان مسير لما خلق له.

وكان السيد محمد يحثني على زيارته في بيته في أي وقت لأنني كنت أجري على يديه تدريباً أستغرق عدة أشهر وفاق ما درسته واستوعبته فيه كل ما درسته واستوعبته في السجن. كنت مغرقاً في دراسة العبادات والطبائع البشرية ونظم التسيير والإدارة وإدراك معاني القرآن والمعاني المتشابهة بينه وبين الإنجيل وأوجه تطبيق الكتابين.

وكنت آوي إلى الفراش مطمئناً إلى أن الله هو الذي أودع كل هذه الحكمة في هذا الرجل البسيط، الضئيل، القادم من مناشر جورجيا ومزارع قطنها بمستوى السنة الرابعة من التعليم الإبتدائي. كنت أرى فيه صورة الرجل الحَمَل المرتبطة بالنبوة والمستقاة من حَمَل سفر الرؤيا في الإنجيل الذي يمسك في فمه سيفاً ذا حدين كنت أقارنه بدعوة السيد محمد التي كنت أرى أنه سيحرر بها تفكير الإنسان الأسود من ربقة الرجل الأبيض. وكان حب السيد محمد لا ينفك يكبر في قلبي ويمتزج بهيبة ليست من نوع الخوف من رجل يحمل السلاح ولكنها شبيهة بهيبة الشمس.

وعندما تيقن السيد محمد أنني أصبحت مستعداً أرسلني إلى بوسطن حيث كان أحد الإخوة وهو لويد إكس قد مهد لنا الطريق وهناك بدأ يجمع لي الناس في بيته وبدأت أخطب فيهم. وأذكر أنني كنت أقول لهم إن الله كشف للسيد محمد حقيقة

قاطعة كحد السيف تصل إلى أعماق النفس، حقيقة قد تكون مؤلمة ولكنها شافية ومنجية. ومن ثمة كنت أنتقل بسرعة إلى فكرة الشيطان الأبيض فأقول: «إنني أعرف أنكم تشعرون بضخامة وفظاعة الجرائم التي ارتكبها ما يسمى بالمسيحي الأبيض في حقنا، جرائم لم يذكر الإنجيل عقابها لأنه لم يوجد لها نظير في عهده. لقد قتل الشيطان الأبيض مائة مليون من السود ليوصل خمسة عشر مليوناً إلى أمريكا. وأتمنى لو كان بإمكاني أن أريكم كيف كان قاع البحر مفروشاً بعظام السود المكسرة بالأحذية والهراوات وأجساد حوامل ألقي بهن في البحر بسبب مرضهن وكيف كان الحوت يتعقب سفن العبيد ليصيب من ورائها وليمته وكيف بدأ الرجل الأبيض هناك على ظهر تلك السفن في اغتصاب نساء الجنس الأسود مُبيناً عن تهتك وجشع وشبق وإراقة دماء لم يسبق لها نظير...».

كانوا يسمعون أهوال العبودية لأول مرة فكان كلامي عنها بهذا الشكل المأساوي يؤتي أكله دائماً. ومن الغريب أن بعض السود انخدعوا بكلام البيض عن العبودية الذي كان يوشك أن يفرغ عليها طابعاً رومنسياً ومن هناك كنت أخلص إلى القول:

«إنني أريد منكم أن تتذكروا هذا الكلام كلما وقعت عينكم على شيطان أبيض. أجل إنه شيطان. راقبوه في أماكنه التي أقصاكم منها. راقبوه وهو يزدهي ويتبجح بقيمته وخصوصيته في الوقت الذي ما يزال يمارس عليكم فيه طغيانه. أريدكم عندما ترون رجلاً أبيض أن تتذكروا أنكم ترون الشيطان وأن تذكروا ما فعله بأجدادكم الذين شيد على عاتقهم أغنى دولة عرفها التاريخ الحديث، بالشر وبالجشع اللذين جعلاه مكروهاً في العالم بأسره.

كانت تعرية الرجل الأبيض أمامهم لأول مرة بهذا الشكل تدفع بهم إلى العودة وإحضار أصدقائهم وأقربائهم. وكنت في الأخير أطلب من الذين يصدقون ما قلته أن يقفوا فلم يكن يبقى رجل ولا امرأة في غرفة استقبال الأخ لويد إكس لا يقف ثم كنت أشفع ذلك بالسؤال: «من منكم يريد أن ينضم إلى السيد الإيجا المحترم؟ فلم يكن يقف منهم إلا النزر اليسير، على أنه كان كافياً لفتح مسجد صغير استعملنا فيه في البداية مقاعد مستأجرة وشعرت بسعادة غامرة وأنا أسلم عنوانه إلى السيد محمد.

وبدأت أختي إيلا تأتي لتسمع خطبتي فتجلس وتحملق في وكأنها لا تصدق أنه أنا وتبقى ساكنة لا تتحرك حتى بعدما أطلب من الذين يصدقون قولي أن يقفوا. وكانت

تساهم ببعض المال عندما يأتي أوان ذلك ولكنني لم أنشغل بها لأنني كنت مقتنعاً وأنا أدرى الناس بعنادها وريبتها بأن لا أحد إلا الله يقدر على هدايتها.

وكنت أختم خطبتي بطريقة السيد محمد فأقول: «باسم الله الرحمان الرحيم. الحمد لله رب العالمين الرحمان الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. أشهد أن لا إلاه إلا أنت وأن محمد إلايجا المحترم عبدك ورسولك» لأنني كنت مقتنعاً أنه مبعوث إلينا من عند الله ثم كنت أرفع يدي إيذاناً لهم بالإنصراف وأنا أقول: «لن يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. اجنح للسلم ولا تكن من المعتدين ولكن إذا اعتدى عليك أحد فنحن لن نقول لك مد له الخد الآخر. وفقكم الله وأعانكم في كل أعمالكم».

وذهبت لزيارة شورتي. لم أكن قد وضعت قدمي في روكسبوري منذ سبع سنوات، منذ قضيت الليلة في بيت إيلا عندما خرجت من السجن. وبدا على شورتي أنه مرتاب في أمري لأنه كان قد سمع أنني أقوم بنشاط ديني في المدينة فلم يعرف ما إذا كنت جاداً خاصة وأن الأحياء الزنجية كانت تمتلىء بدعاة داعرين يملكون كنائس صغيرة مقامة في متاجر سابقة ترتادها شغيلات يظهر الولد الداعية الجميل على حسابهن ببدلة أنيقة على متن سيارة فخمة. وأفهمت شورتي بسرعة أنني جدي فيما يخص الإسلام ثم رجعت إلى لغة السوق لأرفع التكلف. وقضينا وقتاً ممتعاً ذكرنا فيه ردة فعله المَهُولة عندما قال القاضي: «التهمة الأولى، عشر سنوات.. التهمة الثانية عشر سنوات.. التهمة الثالثة، عشر سنوات...» وضحكنا حتى دمعت عيوننا. ذكرنا كيف كلفتنا مشاركة البنتين عشر سنوات بينما صادفنا في السجن من ارتكبوا جرائم أكبر من جرائمنا وحكم عليهم بأحكام أخف.

كان شورتي ما يزال يدير فرقة موسيقية صغيرة ويعيش في نوع من الرخاء. وكان فخوراً بدراسته للموسيقى في السجن. وكلمته عن الإسلام ولكنه لم يبد اهتماماً بعد كل ما سمعه عنه في السجن من أقوال مغرضة وعمد إلى تغيير الموضوع بنكتة مفادها أنه لم يكتف بعد من لحم الخنزير والنساء البيضاوات ولعله ما زال لم يكتف إلى الآن. أعرف أنه تزوج امرأة بيضاء وأنه أصبح كالخنزير لكثرة ما يأكل لحمه.

ورأيت جون يوه صاحب نادي القمار وغيره ممن كانوا ما يزالون يعيشون في

ضواحي روكسبوري. وتحدثت معهم دون أو أذكر الإسلام لمعظمهم لأنني كنت أعرف مدى إنغلاق عقولهم المغسولة.

ولم أستمر في مسجد بوسطن الذي كان المسجد الحادي عشر إلا مدة قصيرة لأنني ما كدت أنتهي من تنظيمه حتى تركته في عهدة رجل الدين يوليس إكس في مارس ١٩٥٤ وذهبت بأمر من الرسول إلى فلادلفيا مدينة الأخوة والحب الأسودين فكانت استجابتها أكبر من استجابة بوسطن. وبعد أكثر من ثلاثة أشهر بقليل أي في أواخر شهر يونيو كنا قد فتحنا مسجدنا الثاني عشر بها.

وحدا نجاحي بالسيد محمد إلى تكليفي بفتح مسجد في نيويورك فأثر في ذلك تأثيراً كبيراً. ذلك أنني أعتقد أن الروح لن ترد إلى الأمريكيين السود إلا بنمو الإسلام وانتشاره بينهم ولم تكن هناك مدينة أمريكية تتوفر فيها المواصفات الضرورية لتحقيق ذلك مثل نيويورك بمقاطعاتها الخمس الزاخرة بالزنوج. كانت حينذاك تسع سنوات قد مرت منذ كنا أنا وآرشي الغرب هندي يطارد أحدنا الآخر في الشوارع مثل كلبين.

وفي هارليم كنت ألتقي كلما خرجت ببعض المعارف القدامى فكانوا يصرخون: «أحمر! هذا هذا أنت؟». كانوا يتعرفون علي رغم أن شعري الطويل المطبوخ الذي عرفوني به كان قد أصبح جعداً وقصيراً للغاية. وكانوا يقولون: «اضرب هنا يا رجل! يا نادل! ماذا تقول؟ لم تعد تشرب الخمر؟ هل هي نكتة؟». وشعرت بسعادة كبرى لرؤيتهم ولكنني كنت معنياً بالدرجة الأولى بالبحث عن آرشي الغرب هندي وسامي تاجر الدعارة. وتلقيت أول صدمة عندما علمت أن سامي الذي قد كان غير مهنته القديمة وتعاطى لتجارة الرهان بنجاح بل وتزوج فتاة صغيرة وجد ذات صباح ميتاً على عرض سريره وفي جيوبه حسب ما قيل ٢٥٠٠٠ دولار. بعض الناس لا يصدقون أن توجد في ذلك العالم المشبوه كل تلك المبالغ. لماذا؟ اسمع. في مارس ١٩٦٤ مات في شيكاغو رجل كان يدير عملية قمار فردية بخمس وعشر سنتات اسمه لورانس وايكفيلد فوجدوا في شقته أكياساً وحقائب معبأة بـ ٧٦٠ ٠٠٠ دولاراً نهبها من الزنوج الفقراء... ونتساءل لماذا نبقى رازحين تحت الفقرا.

وذهبت وقلبي ينزف على سامي أسأل من حانة إلى حانة عن آرشي الغرب هندي فلم يقل لي أحد إنه مات أو رحل ولكن أحداً لم يقل لي أين أجده. وسمعت أخبار العديدين، من مات بالرصاص أو بالسكين أو بالمخدر ومن يوجد في السجن ومن

أصيب بالمرض أو الجنون أو أصبح سكيراً. كانت كل البلايا في هذا الترتيب على ما أظن ووجدت الذين عرفتهم في عنفوانهم يجوبون الشوارع في أحوال مزرية. كانوا ممن عركوا الحياة ولكنهم كانوا سوداً مثقلين بالفقر والجهل وعدم التكوين. سوداً أقبلت عليهم الدنيا ثم أدبرت. عثرت على حوالي عشرين منهم وتعجبت كيف يهوي الإنسان في ظرف تسع سنوات إلى الحضيض. كان من بينهم من أصبح زبالاً وساعياً وفراشاً في المركز وما إلى ذلك. وحمدت الله على أن هداني للإسلام وأنقذني به من ذلك المصير.

والتقيت كادياك درايك تاجر الدعارة البدين الذي كان يدخن السيغار ويظهر بلباس مزوق والذي كان يأتي في الأماسي إلى سمولز برديس، رأيته قادماً في اتجاهي وهو يجر قدميه وكنت قد سمعت أنه أصبح مدمن هيروين. كان على درجة من القذارة لا يتصورها العقل فأسرعت الخطى حتى لا أحرجه أنا الصبي الذي كان يلقي إليه بدولار كامل من البقشيش.

وانتشر بين مروجي الأخبار الذين يعدون بمثابة شركة البريد ومصلحة البوليس الفدرالي مُجتمعتَيْن أنني أبحث عن آرشي الغرب هندي. وذات يوم وأنا في المسجد جاءني في نهاية الخطبة زبال كنت قد أعطيته بضع دولارات وقال لي إن آرشي الغرب هندي مريض وأنه يقيم في غرفة مستأجرة في حي البرونكس وأعطاني عنوانه فأخذت سيارة أجرة وذهبت إليه. وفتح الباب وهو حافي القدمين في منامته المدعوكة ونظر إلي ملياً وهو يضيق عينيه ثم صرخ بصوت أجش: «أحمر! كم يسعدني أن أراك» ولا حاجة لأن أقول إنني عانقته عناقاً حاراً. كانت عليه نحافة المرض فأمسكت بيده وأرجعته إلى الفراش فجلس على حرفه وجلست أنا على كرسيه الوحيد وقلت له إن خروجي من هارليم على يده كان خيراً لأنه قادني إلا الإسلام وقال: «لقد كنت أحبك يا أحمر» فقلت له إنني كنت أرتعش رهبة كلما ذكرت أننا كنا على وشك أن يقتل أحدنا الآخر وقال إنه لم يكن ينوي أن يقتلني فقلت له إنني كنت على يقين تام بأنني ربحت تلك الثلاث مائة دولار التي دفعها لي فقال إن استماتتي واستعدادي للموت دفعا به إلى الشك في نفسه واحتمال أن يكون هو الذي أخطأ.

وقررنا أن ننسى ذلك الموضوع فبقي يتكلم ويقول بين الفينة والأخرى إنه سعيد برؤيتي. وحدثته قليلاً عن تعاليم السيد محمد وأخبرته باكتشافي لكوننا نحن المشردين

ضحايا المجتمع الأبيض وبالفكرة التي خطرت لي بشأنه في السجن عندما قلت في نفسي إن عقله القادر على خزن ذلك العدد الهائل من توليفات الأرقام كان يجب أن يستعمل في الرياضيات أو العلوم وأذكر أنه قال: «هذا أمر يدعو إلى التأمل يا أحمر» ولكن أياً منا لم يقل إن الأوان قد فات وأظن أنه كان يعرف أن أجله يقترب وكان قد أثر في ما آلَ إليه فقررت أن أقصر زيارتي. وقبل ذلك أعطيته مبلغاً بسيطاً من المال كان معي فلم يقبله ولكنني ألححت عليه فأخذه.

إنني لا أنفك أذكر نفسي أن مسجد نيويورك كان في يونيو ١٩٥٤ عبارة عن متجر صغير وأن مسلمي نيويورك لم يكونوا ليملأوا حافلة واحدة وأن واحداً من الألف من سكان هارليم كان يعرف معنى كلمة إسلام بينما لم يكن يعرفه من البيض فيما عدا بعض أعضاء البوليس وحراس السجون إلا حوالي خمسمائة.

وفي ذلك المسجد بدأت أعرف بتعاليم السيد محمد والزوار الذين كانوا يفدون علينا مصحوبين ببعض أصدقائهم. وكان يضايقني أنهم رغم ما يعانونه من فقر وجهل وآفات يملك الإسلام علاجها لم يكن يقف منهم عندما أقول: «من يريد أن يتبع السيد محمد إلايجا؟» إلا اثنان أو ثلاثة وأحياناً أقل من ذلك فكنت أغضب من عدم فعاليتي وعدم جدوى معرفتي بحياة الشارع ثم قررت أن أجد حلاً. كانت الطامة الكبرى أننا كنا صوتاً من مائة صوت متذمر إذ كانت هناك جماعات وطنية مختلفة تطلق دعاتها في هارليم وراء الناس. أنا لست ضد أن يحاول المرء تحقيق الحرية وتوحيد السود ولكن ذلك العدد الهائل من الأصوات كان يشوش علينا. وحاولت في البداية أن أتخطى الحاجز بطبع كتيبات بدأنا أنا وخمسة أو ستة إخوة نوزعها في الأماكن المزدحمة. كنا نعترض سبيل المارة فإذا أعرضوا عنا جعلنا نقول لهم: «اسمع حكاية اختطاف الرجل الأبيض لجنسك الأسود وكيف سرقه واغتصبه».

وبعد ذلك بدأنا نخرج إلى المنعرجات ومداخل التجمعات الوطنية. لقد أدخلت على هذه الطريقة تطورات كبيرة ولكنها لم تكن تقتضي حينذاك إلا استغلال الجماهير التي نجح آخرون في تجميعها سيما وأنه لم يكن يحضر التجمع الوطني مثلاً إلا من كان معنياً بثورة الجنس الأسود.

وبدأنا نحقق بعض النتائج بعدما بدأنا نودع في أيدي الناس بطاقاتنا الإعلانية ونقول لهم: «تعالى أيها الأخ واستمع إلينا نحن أيضاً. استمع إلى كيفية علاج السيد

إلايجا المحترم لأمراض السود الروحية والنفسية والمعنوية والإقتصادية والسياسية.»

وبدأت أرى في مسجدنا وجوهاً جديدة ثم لم نلبث أن اكتشفنا أحسن مواقع صيدنا على الإطلاق. كنا نقدم خطبتنا يوم الأحد في الساعة الثانية بعد الزوال وكانت كنائس هارليم تنهي قداسها قبل ذلك بساعة فبدأنا نقصدها متعدين الكنائس الكبرى التي توجد فيها أكبر نسبة مما يعرف بالطبقة الزنجية المتوسطة التي لم يكن تكبرها ومركزها ليسمح لها بالمجيء إلى مسجد كمسجدنا مقام في متجر.

كنا نقصد الكنائس الصغرى المقامة في المتاجر وننتظر حتى إذا ما لفظت روادها الذين يتراوح عددهم بين ثلاثين وخمسين زنجياً وزنجية انطلقنا إليهم وبدأنا نقول لهم: «تعالوا واسمعونا أيها الإخوة. إنكم لم تسمعوا شيئاً في حياتكم إن لم تسمعوا تعاليم السيد إلايجا محمد المحترم». وكان أغلبهم كهولاً جنوبيين على أتم استعداد للذهاب إلى أي مكان يضمن لهم سماع خطبة جيدة. كانوا من ذلك النوع من الزنوج الذين يعلنون عن بيع الدجاج المقلي وأمعاء الخنزير لجمع المال لكنائسهم والذين كانوا يجتمعون ثلاث أو أربع ليالي في الأسبوع للتمرن على أغاني أيام الآحاد والذين كانوا يهتزون ويُرقّصُونَ الأناجيل على نغمات الأوتار وإيقاع الصنوج.

لا أدري إن كُنتَ قد سمعت بذلك العدد الهائل من مطربي الإنجيل وشبكة أجواقه التجارية التي تكونت في الكنائس الزنجية في الشمال أو جاءت أصلاً من الجنوب والتي أعطت أشهر المغنيات من أمثال روزيتا ثارب وكلارا وارد ومحاليا جاكسن أول نجمة سوداء صنعها السود والتي كان أبوها واعظاً في لويزيانا فجاءت إلى شيكاغو وبدأت تغني في كنائسها الزنجية وتعمل في بيوت البيض أولاً ثم في أحد المصانع والتي قرأت لها أخيراً تصريحاً قالت فيه إنها تنوي القيام بزيارات مفاجئة للكنائس الزنجية لتغني مع أبناء جنسها الذين تعتبرهم محطة وقودها.

كنت ألجأ إلى تنبيه من نصطادهم في تلك الكنائس بقولي لهم إنهم طوال كل هذه السنين كانوا يعبدون إلَهاً أشقر بعينين زرقاوين وأعد لهم خطباً على مقاسهم كنت أبدأها فتخنقني الدموع وأقول: «إنني لم أبك منذ كنت طفلاً وإذا كنت الآن لا أستطيع كفكفة دموعي فلأنني أدرك فداحة مسؤوليتي في جعلكم ترون لأول مرة ما فعلته فينا المسيحية ديانة الرجل الأبيض».

وكنت أزيد فأقول: «ألا تريدون تصديقي أيها الإخوة والأخوات؟ طيب سأشير

عليكم بشيء. عندما تخرجون من هنا قوموا بجولة في حيكم وقارنوا مستوى حياتكم بمستوى حياة بعض من تعرفونهم من البيض وسترون أن وضعكم ليس من فعل الحظ العاثر وحده. وإذا فرغتم من ذلك أنزلوا إلى منطقة المنتزه المركزي وانظروا إلى ما أعطاه الإله الأبيض للرجل الأبيض. إياكم أن تتوقفوا هناك وعلى كل حال فإن البوابين سيتكفلون بالدفع بكم بعيداً.

بعد ذلك اركبوا المترو وانزلوا في أية محطة ثم انظروا إلى شقق الرجل الأبيض ومتاجره! واصلوا جولتكم إلى رأس جزيرة منهاتن التي سرقها الشيطان الأبيض من الهنود الغر بأربعة وعشرين دولاراً! وانظروا إلى مبنى البلدية وإلى وول ستريت! ثم انظروا إلى أنفسكم وإلى الإله الأبيض!

كنت قد تعلمت باكراً شيئاً مهماً وهو أن أخاطب الناس باللغة التي يفهمونها وكان أكثر من اصطدناهم من المنظمات الوطنية رجالاً وأكثر من اصطدناهم من الكنائس الزنجية الصغيرة نساء فكنت أقول لهم: «أرجو ألا أصدم من يزوروننا لأول مرة. أنا أعرف أنهم غير مهيئين لسماع مثل هذا الكلام لأنه لم يخطر ببالنا أبداً نحن السود أن يكون هناك دين خاص بنا ولكنه موجود واسمه الإسلام. سأتهجاها: إ س ل ا م! ولكن دعونا نتطرق لهذه المسيحية أولاً لنعرف لماذا يجب أن يكون البديل بالنسبة لنا هو الإسلام.

إن المسيحية هي الأداة التي استعملها الرجل الأبيض لغسل أدمغتنا منذ أقنعنا بعبادة مسيحه الذي هو على صورته بشعر أشقر وعينين زرقاوين، ومنذ علمنا أن نبقى نرفع له عقيرتنا حتى نموت بالدعاء والغناء والصلاة ثم ننتظر حلاوة العيش بعد ذلك أي بعدما نكون قد متنا وشبعنا موتاً بينما يتمتع هو بها في شوارع هذه الدنيا المبلطة بالدولار الذهبي.

كنت أقول وأشعر أنني أقدم لهم كنزاً: «أيتها السيدات السوداوات الجميلات! إن السيد إلايجا محمد المحترم يعلمنا أن الإحترام من أهم مطالب الرجل الأسود وأنا أقول لكم إنه لن يناله حتى يبدأ باحترام نسائه وإيوائهن وحمايتهن وينفض عنه كل أنواع الضعف التي فرضها عليه السيد الأبيض. وكنت أقول من منكم يصدق ما أقول فيقف كل من في القاعة ولكن السواد الأعظم كان يبقى لائذاً بمقاعده عندما أقول: «من منكم يريد أن يتبع السيد إلايجا محمد المحترم؟»

وكنت أعرف أن صرامة قانوننا الخلقي هو الذي يصد أغلبهم فبدأت أعمد إلى شرحه قائلاً: «إن الرجل الأبيض يريدنا أن نبقى مغرقين في الأوساخ الخلقية ونحن عندما نفعل ذلك نكرس استجداءنا له وتحكمه فينا. إننا لن نحقق أية حرية أو عدل أو مساواة ما لم نقم بتقويم إعوجاجنا بأنفسنا».

كنا نشرح قواعدنا لمن يرغبون في الإسلام فكانوا يعيشون محتواها في الكنائس الزنجية الصغيرة مما كان يدفع بالناس إلى المجيء إلى مسجدنا بنية الإستماع إلينا لا بنية الإسلام. وقد كنا نحرم من بين ما كنا نحرمه الفسق وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير وأي طعام ضار آخر واستهلاك السجائر والمخدرات والرقص والقمار والإختلاء بغير المحارم والذهاب إلى السينما وممارسة الرياضة وأخذ العطل الطويلة ونشجب كثرة النوم والشجار العائلي وقلة الذوق مع الزوجات ونمنع الكذب والسرقة ونطالب بطاعة أولي الأمر إلا فيما يتعارض مع ديننا. وكان يحرص على تطبيق قواعدنا هذه ثلة من فتيان ثمرة الإسلام الذين كانوا يعطون المثال بحسن إسلامهم وتمام تدربهم وكفاءتهم وتفانيهم وكانت المخالفات تؤدي إلى صدور الأمر من السيد إلايجا محمد مباشرة بالإبعاد أو المقاطعة أو الطرد حسب نوع المخالفة ودرجتها.

وبقي مسجدنا يكبر وإن لم يكن بالسرعة التي كنت أتوخاها. وكنت خلال أيام الأسبوع أستقل القطار أو الحافلة وأذهب لأخطب في مسجد فلادلفيا أيام الأربعاء وإلى سبرينغ فيل، مساشوسيت التي كنت أساعد فيها الأخ أوزبورن (الذي كان قد سمع بالإسلام مني ونحن في السجن) على فتح مسجد أعطاه السيد محمد رقم ١٣. وهناك طلبت مني سيدة كانت تأتي من هارتفورد زيارة مدينتها والخطبة فيها وحددت يوم الخميس لذلك لأنه يوم عطلة معظم الخادمات فذهبت ووجدت بيت المرأة غاصاً بحوالي خمس عشرة خادمة وطباخة وسواق وعامل في البيوت. وعملاً بالمثل القائل: «إن الرجل لا يكون بطلاً في عين خادمه» كان هؤلاء الخدام أسرع تقبلاً لكلامي من غيرهم ثم ما لبثوا أن بدأوا عملية الصيد داخل وخارج هارتفورد حتى أصبحنا في حاجة إلى إنشاء مسجد بها أعطاه السيد محمد رقم ١٤ وبدأت آتيه يوم الخميس لأخطب فيه.

وكنت كلما ذهبت إلى شيكاغو لا أستطيع أن أمنع نفسي من القول للسيد محمد بطريقة أو بأخرى إن عظمة رسالته كفيلة بالإسراع بتوسيع أمة الإسلام لو توفرت له

الأطر الكفؤة، فكان يؤنبني تأنيباً ينمُّ عن سعة صبر وحكمة كنت لا ألبث أن أشعر على إثرهما بالخجل. قال لي مرة إن الزعيم الحق لا يحمل أتباعه أكثر مما يتحملون ومرة أنه لا يريد أن يفرض على مساعديه السير بسرعة لا يستطيعون مواكبتها ومرة أن الناس تعتقد عندما ترى رجلاً يقود سيارة قديمة ببطء إنه لا يريد أن يسوق بسرعة لأنها لا تعرف مثله أن الزيادة في سرعة السيارة ستفسدها وأنه سيسرع عندما تتوفر له السيارة المناسبة. وأذكر أنه قال لي مرة بعدما شكوت له عدم فعالية أحد رجال دينه، إن بغلا يثق فيه أفضل عنده من فرس سباق لا يثق فيه.

وكنت أعرف أنه يهفو إلى تلك السيارة المناسبة ولكنه لا يستطيع أن يترك الذين ساعدوه على إنشاء مساجد بوسطن وفلادلفيا وسبرينغفيلد وهارتفورد ونيويورك (وأنا لا أذكر هنا إلا المساجد التي أعرفها لأنني ساهمت في فتحها) ويأتي بفرق تنافسهم. كنا في عام ١٩٥٥، العام الذي أخذتني فيه مهمتي إلى أبعد نقطة وهي أطلانطا، جورجيا، ولم يكن هناك مسلم يسافر لغرض خاص لا يطلب منه أن يحمل معه أفكار السيد محمد إلى الوجهة التي يقصدها.

كان الأخ جايمس إكس قد جمع لنا في أطلانطا عدداً كافياً من الناس فأصبح لزاماً على السيد محمد أن يسافر إليهم. وكنت قد قمت بأكثر من سفرة من هذا النوع ولكن تلك السفرة لم تبرح ذهني أبداً. لم تكن إمكانيات الأخ جايمس إكس تسمح له بكراء مكان مكلف سيما وأننا كنا نركز على الإنفاق في حدود إمكانياتنا الضيقة فعمد إلى كراء قاعة جنازة كانت تقام فيها عندما وصلناها مراسيم جنازة مسيحية فاضطررنا أن ننتظر حتى خرج المشيعون. وعندما دخلنا وأخذت الكلمة قلت لإخواننا: «لقد رأيتموهم وهم يبكون راحلاً أخذه الموت المادي أما نحن فإننا نهلل مبتهجين بانتشالكم من الموت المعنوي الذي كنتم فيه. قد يصدمكم هذا الكلام ولكن جنسنا الأسود في أمريكا يوجد فعلاً، في حالة موت معنوي لن تنقذه منه إلا تعاليم السيد الإيجا محمد».

وما دام الشيء بالشيء يذكر يجب أن أقول إننا كنا نكسب المسلمين من بين المعزين الذين كانوا يحضرون إلى مساجدنا لتشييع جنائز أصدقائهم وأقربائهم المسلمين. وكانت المراسيم قصيرة ومؤثرة وكانت تعكس تعاليم السيد محمد التي تتوجه للهالك لا للأحياء على عكس الحال عند المسيحيين. وحيث إنني كنت مسؤولاً

على أكثر من مسجد فقد أشرفت فيها على أكثر من جنازة. كنت أبدأ بالدعاء للهالك كما علمني السيد محمد وأنا واقف على نعشه ثم أشفع ذلك بتأبينه ثم أتلو فقرتين من الإصحاح السابع والرابع عشر من سفر أيوب من الإنجيل تنصان على عدم وجود الحياة بعد الموت ففقرة أخرى بنفس المعنى تلفظ بها داوود إثر وفاة ابنه. وكنت أشرح الأسباب التي تجعل البكاء على الميت مكروهاً عندنا ولماذا لا يوجد في جنائزنا لا أزهار ولا غناء ولا عزف على الأرغن فأقول إن كل ذلك كان يجب أن يقدم للميت عندما كان حياً وقادراً على رؤيته أما وقد رحل فإن الأحياء من أفراد أسرته أولى به وأن على من يريد أن يعطي شيئاً أن يعطيه لهم.

وكان بعض الأخوات بعد ذلك يقدم للمعزين ملبساً يضعونه في أفواههم عندما أعطيهن الإشارة ثم أقول: «والآن يجب أن نصطف لنلقي آخر نظرة على الهالك دون بكاء لأننا لا نبكي على الملبس. وكما يذوب هذا الملبس في أفواهكم ستذوب ذكرى الهالك وتخلف العذوبة التي متعكم بها في حياته، وقد قال لي حوالي مائتان من الإخوة أن تأبيني لعزيز عليهم هو الذي دفع بهم إلى طريق الله. ولكنني اكتشفت فيما بعد أن طريقة السيد محمد هذه في تشييع الجنائز تتنافى مع التعاليم الإسلامية المعمول بها في الشرق.

وفي ١٩٥٦ زاد عدد المسلمين وخاصة في المدن الكبرى مثل دترويت وشيكاغو ونيويورك دون أن ينتبه إلينا أحد لأن المنظمات في المدن الكبرى لا يسمع بها أحد حتى تحيي الحفلات العمومية وتحدث بعض الضجيج. ولم نكن قد كبرنا وحسب بل كنا قد بدأنا نصل إلى المثقفين وأصحاب المراكز السود الذين استطاعوا أن يتسربوا إلى العالم الأبيض وبذلك توفرت لنا السيارة التي تمكننا من الزيادة في سرعتنا. وكنا قد استقطبنا موظفين وممرضات وباعة في متاجر كبرى وأصبح بعضهم رجال دين من مستوى عال.

كانت ثقة السيد محمد في تزداد يوماً بعد يوم فكنت أترك نومي في سبيل الدعوة لأكون عند حسن ظنه. وفي ١٩٥٦ أعطى موافقته لمسجدنا السابع لشراء سيارة توضع رهن إشارتي. كانت بالطبع في اسم الأمة إذ لم يكن هناك من شيء في اسمي إلا ثيابي وساعة معصمي وحقيبتي. وكانت الأمة تدفع لي تكاليف عيشي ومصروفي كما كانت تفعل مع غيري من باقي رجال الدين. ذلك أن المال الذي كنت في الماضي مستعداً

لفعل أي شيء من أجله كان قد أصبح آخر ما يخطر على بالي. وعندما أخبرني السيد محمد بأمر السيارة قال إنه يعرف حبي للتنقل من أجل زرع المزيد من المساجد وأنه لا يريدني أن أشعر بأن هناك ما يقيد حركتي.

وقطعت بتلك السيارة في طريق الدعوة في ظرف خمسة أشهر حوالي ثلاثين ألف ميل قبل أن أتعرض لحادثة سير. كنت أعبر ويذرزفيلد، كاناتيكيت في آخر إحدى الليالي مع أخ من هناك عندما أضاء الضوء الأحمر فأوقفت السيارة وإذا بالسيارة التي تليني تصدمني. وهزتني تلك الصدمة بعنف ولكنها لم تلحق بي أي أذى.

وكان بصحبة الشيطان المهتاج الذي صدمني امرأة تخفي وجهها. وتبادلنا أوراق تعريفنا فوجدت أنه من ميريدن. وما كدنا نفرغ من ذلك حتى حضرت الشرطة وبدأت تتصرف معه تصرفاً فهمت منه أنه شخصية مهمة وكان بالفعل من أبرز رجال السياسة في ولاية كاناتيكيت ولكنني لن أذكر اسمه. وجاءت تلك الحادثة لمسجدنا السابع بمبلغ هام اشترينا به سيارة أخرى من نوع أولدزموبيل بقيت أسوقها منذ ذلك العهد.

كنت شديد الحرص في تعاملي مع الأخوات المسلمات فبقيت علاقتي بهن بدون شبهة. ذلك أنني كنت منصرفاً بكل جوارحي إلى الإسلام ولم يكن هناك مسجد لم تلمح لي فيه أخت عازبة إلى حاجتي للزواج ولكنني كنت أوضح لهن دائماً أنني لا أفكر في ذلك وأن كثرة مشاغلي لا تسمح لي بالزواج. وكنت كلما قمت بزياراتي الشهرية إلى شيكاغو وجدت أن إحدى الأخوات قد كتبت إلى السيد محمد تشكو إليه تحاملي على المرأة في الدروس التي كنت ألقيها في موضوع الإختلاف الطبيعي بين المرأة والرجل.

إن للإسلام أحكاماً صارمة تتعلق بالمرأة مضمونها أن الرجل مجبول على القوة والمرأة على الضعف وأن الرجل مطالب باحترام المرأة وأن عليه أن يحكمها ليضمن احترامها ولكن تحاملي كانت له أسباب شخصية.

كنت مقتنعاً بأنه يستحيل أن أقع في حب أية امرأة بعد ما رأيته من مكر النساء وخداعهن وخيانتهن وتدميرهن لحياة رجال أعرفهم أو على الأقل زرعهن للفوضى أو الجمود فيها. كنت أعتقد أن الثرثرة بالنسبة للمرأة كالسلاح بالنسبة لجيسي جايمس والقوقأة للدجاجة، من صفاتها الثابتة. زد على ذلك أنه ليس هناك ما هو أدهى على

رجل في مركز قيادي من زوجة غير مناسبة. إن شمشون نفسه وهو أقوى رجل في العالم دمرته المرأة التي كانت تنام في أحضانه وجرحته بلسانها. وخلاصة القول أنني كنت رجلاً مجرباً فوق العادة أعلم من كثرة ما خالطت من مومسات وخليلات أنهن يعرفن من أسرار الرجال ما لا تعرفه زوجاتهم لأن الزوجة كثيرة الشكوى ولا تترك لزوجها مجالاً للكلام فيلجأ إلى الخليلة أو المومس ليفضي لها بهمومه لأنها تهتم به وتخفف عنه وتصغي إليه.

على أنني كنت قد قطعت منذ عشر سنوات كل علاقة مع أية خليلة وكان شغلي الشاغل هو أمة الإسلام فلم أكن أفكر في أي زواج وكان السيد محمد يشجعني على ذلك. ولم يكن موقفي من المرأة خافياً على أحد فكانت الأخوات يتهمنني بتحريض باقي الإخوة.

وفي ذلك الوقت انضمت إلى مسجدنا السابع أخت جديدة لفتت نظري. كانت طويلة القامة، سمراء بدرجة أشد مني وعسلية العينين. وبقي الأمر لا يتعدى لفت النظر مدة حوالي السنة دون أن يخطر على بالها أنني أعرف حتى مجرد اسمها. ولم أكن أعرف اسمها وحسب بل كنت أعرف أيضاً أنها من دترويت وأنها تخرجت من قسم التربية بمعهد تاسكيغري في ألباما وأنها تدرس التمريض في مدرسة تابعة لأحد مستشفيات نيويورك الكبرى ولذلك كانت تعطي دروساً في العناية الصحية للأخوات في مسجدنا السابع. وهنا يجب أن أشرح أننا كنا نعطي دروساً ليلية وننظم أنواعاً من الأنشطة. كانت ليالي الإثنين مثلاً مخصصة لتمرينات فتيان ثمرة الإسلام التي يرى البعض أنها تدريبات عسكرية لأنها تتضمن المصارعة اليابانية والكاراتيه وما إلى ذلك وهذا صحيح ولكنها تتضمن أيضاً محاضرات ومناقشات حول مفهوم الرجولة في الإسلام ومسؤوليات الزوج والأب وحقوق المرأة وواجباتها والصورة التي يجب أن تكون للأب في الأسرة ومواضيع الساعة وأهمية الأمانة والعفة في الفرد والبيت والمجتمع والأمة والحضارة وحول النظافة ومبادىء التجارة وما إلى ذلك.

كنا نسمي ليلة الثلاثاء ليلة الوحدة ونقدم فيها المشروبات والحلويات ونجتمع إخوة وأخوات لتبادل الحديث بينما نخصص ليلة الأربعاء لمناقشة قضايا إسلامية جوهرية بطريقة سؤال جواب المعروفة في الديانة الكاثوليكية. أما ليلة الخميس فكنا نخصصها لدرس الحضارة العامة الذي تلقن فيه الفتيات والسيدات شؤون البيت والتربية

ورعاية الأزواج والطبخ والخياطة والسلوك في البيت وخارجه وكل ما يهم المرأة المسلمة. وكانت تقدم في ليلة الجمعة دروس في العلاقات العائلية للرجال والنساء تركز على التفاهم بين الزوجين وضرورة احترام كل منهما لطبيعة الآخر وكانت ليلة السبت شاغرة فكنا نتبادل فيها الزيارات أما أيام الأحد فكنا نخصصها لصلاة وخطبة الجمعة.

كنت أقوم أحياناً بزيارة فصول الرجال والنساء بما فيها فصل الأخت بيتي وهذا هو اسم المرأة التي لفتت نظري فكنت أسألها كيف يسير درسها وكانت تقول: «على ما يرام أيها الأخ» فأشكرها وأمضي إلى حال سبيلي. وكان هذا كل ما في الأمر ثم بدأت أدخل معها في أحاديث ودية قصيرة ثم خطر لي أن أدعوها لزيارة متحف التاريخ الطبيعي بعدما أقنعت نفسي أنني إنما أفعل ذلك لأفيدها في درسها لأن المتحف يعرض شجرة التطور ويقدم براهين على صحة أقوال السيد محمد عن الخنزير الذي قال لنا إنه حيوان قارض جاء نتيجة تلاقح بين الفأر والقط والكلب.

وقبيل الموعد المحدد طلبت الأخت بيتي بالتلفون لأقول لها إنه قد طرأ طارىء يحتم إلغاء الموعد فقالت: «الحق أنك تأخرت في إبلاغي الخبر لأنني كنت على وشك الخروج» فقلت لها: «تعالي إذن وسنجعلها زيارة قصيرة». وهناك سألتها جملة أسئلة لأعرف طريقة تفكيرها فبدأت تغزوني بذكائها وثقافتها وكانت واحدة من خريجي الجامعات الذين كنا قد بدأنا نستقطبهم.

وأخبرتني إحدى الأخوات بعد ذلك مباشرة بمشكلة كانت تعيشها فأدهشني أنها لم تشر إليها عندما واتتها الفرصة. وقد كان الأئمة يعرفون ما يعانيه بعض الشباب الذين كانت أسرهم تتبرأ منهم بسبب إسلامهم. وكانت الأخت بيتي إكس قد أخبرت الزوجين الذين ربياها بأنها أسلمت فوضعاها أمام خيارين: إما أن تترك الإسلام وإما أن يقطعا عنها مصاريف الدراسة فاختارت الإسلام وكانت في آخر السنة النهائية في مدرسة التمريض فبدأت في أوقات فراغها ترعى أطفال الأطباء في المستشفى الذي تتمرن فيه لكسب عيشها.

وخطرت لي فكرة. قلت ماذا يحدث لو تزوجت؟ وكنت لا أقوم بأي عمل حتى أقدر عواقبه على أمة الإسلام ككل ففكرت في الأخت بيتي إكس. كان يمكن أن تكون أية أخت من أي مسجد ولكن الأخت بيتي كانت تناسبني من حيث الطول والسن.

وكان السيد محمد يقول لنا إن الرجل الطويل إذا تزوج امرأة قصيرة أو العكس يبدو غير متجانس معها وأن السن المثالي للمرأة هو نصف سن الرجل زائد سبعة. كان يعتقد أن نمو المرأة الفزيولوجي أسرع من نمو الرجل وأن الزيجة التي لا تنظر فيها الزوجة إلى زوجها باحترام محكوم عليها بالفشل وأن الزوج يجب أن يكون مستواه أعلى من مستوى الزوجة حتى يوفر لها الأمان النفسي. وصدمني أن أجدني أفكر بهذه الطريقة فبدأت أتحاشى الأخت بيتي وأحمد الله على أنها لا تعرف شيئاً مما يدور في رأسي وقلت عسى أن يكون في تحاشيها ما يطير من ذهنها أية فكرة قد تكون طافت به. وتساءلت عما عساها تقول لو فاتحتها في الموضوع ولكنني عدت فقلت إنني لن أعطيها الفرصة لتحرجني. وكنت قد سمعت نساء يقلن إنهن قد رفضهن فلاناً وفلاناً فلزمت الحيطة.

كنت أعرف أنها قليلة الأقارب إذ كنت أؤمن بالمثل القائل إن الأقارب عقارب بعدما رأيته في مسجدنا من تصرفات أقارب متحاملين على الإسلام أدت إلى التفريق بين الزوجين. ولم أكن لأدخل معها في الرومانسيات التي تملأ بها هوليوود رؤوس النساء حتى وإن فاتحتها في الموضوع بل إنني كنت سأصل إلى بيت القصيد مباشرة بطريقتي وليس بأية طريقة رأيتها في الحياة أو قرأتها في الكتب أو شاهدتها في السينما.

وأخبرت السيد محمد فابتسم وقلت له إنها مجرد فكرة فقال إنه يريد أن يرى هذه الأخت. كانت إمكانيات الأمة قد بدأت تسمح للمساجد الفرعية بإرسال المعلمات إلى المسجد المركزي في شيكاغو لحضور الدرس النسوي ومقابلة السيد محمد المحترم. وكانت الأخت بيتي تعرف ذلك فلم تستغرب عندما قيل لها إنها ستذهب إلى شيكاغو حيث ستنزل على غرار كل الزائرات ضيفة على الأخت كلارا محمد.

وإثر ذلك أخبرني السيد محمد برضاه عنها ونصحني بحسم الموضوع. وذات ليلة أحد خرجت من المسجد وتوجهت إلى دترويت لزيارة أخي ويلفريد الذي كان قد أصبح في العام السابق (١٩٥٧) رجل دين في مسجد دترويت الأول ولم أكن قد رأيته ولا باقي أفراد أسرتي منذ زمن طويل. ووصلت إلى دترويت في العاشرة من صباح اليوم التالي فدخلت إلى إحدى محطات البنزين واتجهت نحو التلفون العمومي وطلبت الأخت بيتي إكس بعدما سألت الإستعلامات عن رقمها. كنت أعرف أكثر الأرقام عن

ظهر قلب ولكنني كنت أتعمد عدم حفظ رقمها. وجاءت إلى التلفون بعد حين وقالت: «ألو، الأخ ملكوم» فقلت لها بدون لف ولا دوران: «اسمعي هل تريدين أن تتزوجي؟» فبوغتت وبهتت ولكنني ما أزال إلى اليوم كلما ذكرت ذلك أدرك أنها كانت تمثل لأن المرأة تحس بتلك المواقف بالسليقة. وردت على سؤالي بالإيجاب كما كنت أتوقع فقلت لها إنه ليس لدي الوقت وأن عليها أن تركب أول طائرة وتلتحق بي في دترويت.

وجاءت وقابلت الزوجين الذين ربياها واللذين كانا يعيشان في دترويت واللذين كانا قد تصالحا معها. وجدتهما وديين للغاية وسعيدين بالمفاجأة حسب ما ظهر من تصرفهما على كل حال ثم قدمتها لأسرة أخي الأكبر ويلفريد. كنت قد سألته عن الولاية التي يمكن للمرء أن يعقد قرانه فيها بدون تعقيد أو تطويل فقال: «إنديانا».

وفي صباح اليوم التالي أخذت بيتي من بيت أهلها وذهبنا إلى إنديانا بالسيارة فوجدنا أنها غيرت قانونها منذ أيام وأنه يتحتم الإنتظار فيها أيضاً. كنا في ١٤ من شهر يناير ١٩٥٨ في يوم ثلاثاء وكنا على مقربة من لانسينغ حيث يقيم أخي فيلبرت فذهبنا إليها. ووجدناه في العمل فقدمت بيتي لزوجته وبينما كانتا تتكلمان علمت بواسطة التلفون أن بإمكاننا أن نتزوج هناك في سحابة يوم واحد إن نحن عجلنا.

وأجريت لنا فحوص الدم وأعطينا الرخصة وأعطينا شهادة كتبت في المكان المخصص للدين فيها أنني مسلم ثم ذهبنا إلى مكتب شرعي وزوجنا شيطان عجوز أحدب أجبت على أسئلته بالنعم التقليدية والشهود البيض وقوف ينظرون إلينا ويبتسمون ثم قال: «أنتما الآن زوجان. قبل عروسك». وذهبت بها من هناك بدون أي شيء من كلام هوليود الفارغ مثل تخطي العريس للعتبة وهو يحمل العروس التي يفوق وزنها وزنه أحياناً. لا أعرف كم زيجة حطمتها هوليود بأفلامها تلك التي توعز للنساء بانتظار أن يعود إليهن الزوج بالورود والعناق والقبل ويسحبهن من أيديهن مثل سندريلا ويأخذهن للعشاء والرقص في الخارج واللاتي تطير عصافير رؤوسهن عندما تجدن الزوج المكدود يعدو أشعث يتصبب عرقاً من مشقة عمله كالكلب طول النهار وكل همه في أن يجد ما يأكله.

وعاد أخي فيلبرت فقلت له إن عندي مفاجأة له ولكنه قال عندما عرفها: «ليس عندك أية مفاجأة» لأنه كان يعتقد أنني إما أن أكون قد تزوجت أو في طريق الزواج. والتحقت بيتي بعملها في نيويورك بالطائرة ثم رجعت بعد أربعة أيام ولكنها حسب ما

قالت لي لم تطلع أحداً في مسجدنا على الخبر فاتصلت بمساعدي وكلفته بخلافتي في المسجد والتحقنا بدترويت التي كان السيد محمد سيقوم بزيارة لمسجدها الأول. وهناك ألقى السيد محمد خطبة زف للإخوان في نهايتها نبأ زواجي ففوجئوا بحق إذ كان موقفي من النساء قد وصل إليهم.

ورجعنا بالسيارة إلى نيويورك وهناك كانت المفاجأة أكبر فانهالت النساء علي بيتي بالعناق والقبل بينما نظر إلي الشباب بخذلان وكأنني خنتهم وسمعت إحدى الأخوات تقول لبيتي: «لقد أوقعته في الفخ». هؤلاء النساء! ألم أقل لك؟ هي التي أوقعتني في الفخ؟! لذلك لم أستطع أن أبعد عن ذهني أبداً أنها كانت تعرف منذ البداية ولعلها هي التي أوقعتني فعلاً. من يدري؟.

وعشنا سنتين ونصف في كوينز في بيت من شقتين كنا نسكن إحداهما ويسكن الأخرى الأخ جون علي أمين الأمة الحالي وزوجته. وفي تلك الشقة ولدت في نوفمبر ١٩٥٨ ابنتنا البكر عتيلة التي سميناها على القائد الذي نهب روما. ورحلنا إلى بيت من سبع غرف في منطقة من كوينز، لونغ آيلاند يسكنها السود حيث رزقنا الله في ليلة الميلاد من عام ١٩٦٠ ببنتنا الثانية قُبيلة التي سميناها على قُبيلة خان. وفي يوليو ١٩٦٢ ولدت لنا ابنة ثالثة سميناها إلياسة وهي مؤنث إلياس الذي يقابل الإيجا في العربية.

أظن أنه يمكنني الآن أن أقول إنني أحب بيتي. إنها أول امرأة خطر لي أن أحبها وواحدة من أربع نساء وضعت فيهن ثقتي ومثال للمسلمة الصالحة، إن للحب في الإسلام مفهوماً شاملاً داخل مؤسسة الزواج بينما هو في المفهوم الغربي شبق. الحب بالمفهوم الإسلامي نزعة وسلوك وموقف وأفكار وميل. وكل هذه الأشياء التي تتعدى الماديات وتعتبر ركائز للجمال الحقيقي، الجمال الأبدي.

إن الزوجة في الحضارة الغربية تفقد جاذبيتها بمجرد ما تفقد جمالها المادي. أما الإسلام فيحثنا على رؤية جمال المرأة الباطني. ولقد استطاعت بيتي أن تنفذ إلى البواطن فاستطاعت أن تفهمني. أنا أعرف أن أية امرأة أخرى لم تكن لتتقبل أن أعطي وقتي كله لمهمتي التي تقتضي مني إيقاظ السود من سباتهم وكشف حقائق الشيطان الأبيض لهم. إنني نادراً ما أقضي بعض الوقت في البيت وعندما أفعل أقضيه في العمل فتوفر لي بيتي الهدوء اللازم على أنني لا أكاد أبقى في البيت أكثر من ثلاثة أيام في

الأسبوع بل لقد حدث أن غبت عنه مدة خمسة أشهر. وخلال زواجنا لم أجد الوقت أبداً لأخذها إلى أي مكان مع أنني أعرف أنها تحب أن تكون معي. لقد عودتها على أن أطلبها من أقصى المطارات في بوسطن وسان فرانسيسكو وميامي وسياتل بل لقد أصبح اتصالي بها في المدة الأخيرة بواسطة برقيات بعثت لها بها من القاهرة وآكرا ومكة المكرمة. ولن أنسى عبارتها الجميلة عندما طلبتها ذات مرة بالتلفون من مكان بعيد: «إنك حاضر وأنت غائب».

كنت في العام الأول لزواجنا أجهد نفسي وأخطب في أكثر من مكان. وذات يوم ختمت خطبتي في مسجد بوسطن بالسؤال المعهود: «من منكم يريد أن يتبع السيد إلايجا محمد؟». وإذا بي أرى أختي إيلا بين الواقفين. عندنا مثل يقول إن الذين يصعب إقناعهم هم الذين يحسن إسلامهم ولقد تطلب إقناع إيلا خمس سنوات.

سبق لي أن قلت إن المنظمات الكبرى في المدن الكبرى تظل في العتمة حتى يحدث ما يسلط الأضواء عليها وذات ليلة وقع في هارليم شيء لم يكن في الحسبان. كان شرطيان يحاولان فض نزاع نشب بين بعض الزنوج وتفريق المارة الذين كان من بينهم مسلمان هما الأخ جونسن هينتن وأخ آخر. وضرب أحد الشرطيين الأخ هينتن بالهراوة فشج رأسه ثم وضع في سيارة شرطة ذهبت به إلى المركز.

واتصل الأخ الآخر بمطعمنا وأخبره بما حدث فطلبنا أعضاء ثمرة الإسلام بالتلفون ولم تمض نصف ساعة حتى كان حوالي خمسون منهم يقفون أمام مركز الشرطة في صفوف منظمة. وأثار ذلك فضول سود آخرين فتجمهروا خلفهم في صخب وابتهاج. ولما أطل رجال الشرطة من النوافذ وهم آخرون بدخول المركز لم يصدقوا ما رأوه. ودخلت المركز بوصفي رجل دين المسجد السابع وطلبت أن أرى الأخ المحتجز فقالوا لي إنه غير موجود عندهم ثم عادوا فقالوا إنه موجود ولكنهم لن يسمحوا لي برؤيته فقلت لهم إننا سنبقى معتصمين بمدخل المركز حتى يسمحوا لي برؤيته والتأكد من أنه يتلقى العلاج اللائق.

كانوا متوترين وقلقين من تجمهر السود في الخارج فسمحوا لي برؤيته. ووجدته في شبه غيبوبة والدم يلطخ رأسه ووجهه ومنكبيه في أقبح صورة للتعسف. وقلت لضابط الشرطة إن ذلك الرجل يجب أن يكون في المستشفى وليس في مركز الشرطة فطلبوا سيارة إسعاف جاءت وأخذته إلى مستشفى هارليم فتبعناها جماعات جماعات

على طول شارع لينوكس، أحد أهم شريانات هارليم.

لم يكن الزنوج قد رأوا شيئاً مثل ذلك من قبل فأخذوا يخرجون من الدكاكين والمطاعم والبارات وينضمون إلينا حتى أصبحنا حشداً ضخماً وغاضباً عندما وصلنا إلى المستشفى. كان الكيل قد بلغ بهم الزبى من تعسف الشرطة وكنا أول منظمة سوداء تتخذ منه موقفاً حاسماً بذلك الشكل. وجاءني ضابط شرطة كبير وقال لي: «خذ أصحابك من هنا» فقلت له إننا نقف بكل نظام وامتثال وأننا لا نأتي شغباً ولا نؤذي أحداً فقال إن الذين في الخلف ليسوا كما أقول فقلت له أن لا شأن لي بالذين في الخلف.

وأخبرنا الطبيب أن الأخ هينتن يتلقى أحسن علاج فأعطيت الإشارة للإخوان بالإنصراف فانصرفوا. كان الزنوج الآخرون صاخبين بعض الشي ولكنهم انصرفوا بعدما انصرفنا. وعلمنا بعد ذلك أن العملية التي أجريت للأخ هينتن تطلبت وضع صحيفة معدنية في جمجمته. وعندما خرج من المستشفى ساعدته أمة الإسلام على متابعة شرطة نيويورك وصدر الحكم ضدها بغرامة تقدر بسبعين ألف دولار كانت أعلى غرامة حكم بها عليها. رأى الملايين من قراء الصحف النيويوركية في الحدث حلقة أخرى في سلسلة تصادم الشرطة مع السود في اضطرابات هارليم العنصرية.

كان حدثاً واقعياً عكسه الإعلام كما هو بدون مبالغة ولعله حمل الشرطة على إخراج ملفات أمة الإسلام وإعادة النظر فيها. والأهم من ذلك أن جريدة أمستردام نيوز الصادرة في هارليم وهي أكثر الأحياء السوداء كثافة في العالم نشرت الخبر على صفحتها الأولى وأن السود رجالاً ونساء وأطفالاً بدأوا يتكلمون في الشوارع لأول مرة عن المسلمين.

الفصل الرابع عشر

المسلمون السود

في ربيع ١٩٥٩ قبيل حادثة الأخ جونسن هينتن التي نبهت هارليم إلينا جاءني ذات صباح صحافي زنجي يقيم في نيويورك اسمه لويس لوماكس وسألني إن كانت أمة الإسلام توافق على تصوير فيلم وثائقي عنها يعرض ضمن برنامج مايك ولاس التلفزيوني الذي يهتم بالمواضيع الساخنة فقلت له إن مثل هذه المسائل يجب أن يبت فيها السيد إلايجا محمد المحترم. وسافر إلى شيكاغو فاستقبله السيد محمد واستفسره عن بعض النقاط وعبر له عن تحفظه في شأن بعض المسائل ثم أعطاه موافقته فبدأت الكاميرات تدور في مساجدنا بنيويورك وشيكاغو وواشنطن وتصورنا ونحن نخطب ونكشف الحقائق.

وفي ذلك الوقت كان أحد المثقفين في جامعة بوسطن واسمه إريك لينكولن قد بدأ يكتب رسالة جامعية عن أمة الإسلام التي كان قد سمع بها بواسطة تقرير قدمه أحد طلابه في جامعة كلارك بأطلانطا، جورجيا أورد في مقدمته أن المسيحية لا تستجيب لطموح الزنوج الأمريكيين في الكرامة والعدالة لأنها عوض أن تساعدهم على تذليل العقبات تخلق لهم العقبات ولأنها عمدت في تعاملها إلى التلون والتملص وأنها فصلت بين أتباعها على أساس اللون رغم تشدقها بالأخوة في كنف المسيح وأن الحب المسيحي ما هو في الحقيقة إلا حب الرجل الأبيض لنفسه وبني جنسه وأن الدين الحق بالنسبة لغير البيض هو الإسلام لأنه يعطيهم الأمل في العدالة والمساواة ويمنحهم عالماً جديداً يساهمون في بنائه.

ولفت ذلك التقرير الذي أعده طالب كان يتردد على مسجدنا بأطلانطا انتباه الأستاذ فبدأ يبحث في الموضوع واكتشف أنه أمام مادة دسمة ثم استطاع أن يحصل على منحة لكتابة رسالته فيه وعلى وعد من أحد الناشرين بنشرها في كتاب فشرع يكتبها. وهكذا أضيف مشروع الكتاب إلى مشروع الفيلم ليشكل معه حدثاً هاماً تناقلته

ألسن داخل الأمة وبدأ المسلمون يترقبون أن نصل إلى كافة سكان أمريكا بيضاً سوداً.

كنا قد بدأنا نحاول استعمال الصحافة ولكن محاولاتنا بقيت محدودة. وكنت قد مت بزيارة لجايمس هايكس رئيس تحرير أمستردام نيوز الأسبوعية الصادرة في هارليم كلمته في شأن تخصيص عمود لنا في جريدته فقبل وبدأت أكتبه كل أسبوع ثم وافق سيد محمد على كتابته فنقلت عمودي إلى جريدة سوداء أخرى هي لوس أنجلس يرالد دسباتش ولكنني بقيت أطمح إلى إصدار جريدة خاصة بنا لا تحمل إلا أخبارنا.

وكان السيد محمد قد كلفني بفتح مسجد لوس أنجلس فانتهزت الفرصة لزيارة قر جريدة لوس أنجلس هيرالد دسباتش والإطلاع على مراحل إعدادها. ومن نعم الله عالى علي أنني أتعلم بسرعة وهي خصلة إكتسبتها من حياة الشارع. ورجعت إلى يويورك فاشتريت آلة تصوير مستعملة تعلمت عليها وبدأت أكتب وأجمع أخبار أنشطتنا م أغلق علي الباب مرة في الشهر فأنسق المواد والصور لتسليمها إلى المطبعة.

وسميت تلك الجريدة «محمد يتكلم» وبدأ الإخوان المسلمون يبيعونها على واصي الحي الزنجي ولم يخطر ببالي أنه سيأتي يوم يحظر فيه نشر أخباري فيها.

الخلاصة أن الإعلام الوطني بدأ يهتم بنا. وفي ذلك الوقت أرسلني السيد محمد لى إفريقيا في مهمة استغرقت ثلاثة أسابيع بعدما كان قد بدأ يتوصل برسائل من شخصيات إفريقية وآسيوية تنوه بجهوده الرامية إلى تنوير السود الأمريكيين وهي رسائل حملت له شخصياً البعض منها. وفي تلك السفرة زرت بصفتي مبعوثاً للسيد إلايجا محمد كلا من مصر والمملكة العربية السعودية والسودان ونيجيريا وغانا.

يقول عديد من الزعماء السود إن الإعلام الأبيض هو الذي أعطى أمة الإسلام حجمها على الصعيدين الوطني والعالمي وهذا صحيح ولكنه حتمية فرضتها الأحداث ولم نكن نحن أنفسنا نحلم بها.

وفي أواخر ١٩٥٩ بث البرنامج التلفزيوني تحت عنوان: «الكراهية التي ولدتها الكراهية» فكان طافحاً بالتهويل. عرض صوراً للسيد محمد وصوراً لي ونحن نخطب... صور سود أشداء بوجوه متقلصة... فتيان ثمرة الإسلام... أخوات محجبات في كل الأعمار يلبسن الأبيض... مسلمين في مطاعمنا ومتاجرنا...

ومداخل مساجدنا قبل مواعيد الصلاة وبعدها.

ولم يترك ذلك البرنامج جملة لم يستغلها للزيادة في التهويل. وانتهى الشريط فبقيت الناس في ذهول كما أراد لها المخرج. كان رد الفعل شبيهاً بما أحدثه في ١٩٣٠ برنامج أورسن ويلز الإذاعي الذي تحدث فيه عن غزاة هبطوا الأرض من المريخ وإن كان أحد هذه المرة لم يرم بنفسه من النوافذ على أن رد فعل نيويورك بصفة أخص كان كاسحاً وأظن أن السبب يرجع إلى العنوان. وهكذا أصبحت الناس لا تسمع إلا: «هل رأيت؟ هل سمعت؟ إنهم يلقنون كراهية البيض!». كان رد فعل أبيض نموذجي حيال كل ما هو أسود خاصة وأن الرجل الأبيض من شدة حبه لذاته يذهل عندما يكتشف أن ضحاياه لا يشاطرونه رأيه الوهمي في نفسه.

كان كل شيء على ما يرام خلال قرون من الزمن عندما كان السود يتسمون للتعسف والإستغلال ويشحتون في خنوع وامتثال ولكن عندما تغير الوضع بدأ كتاب الأعمدة القارة في الصحف يدقون نواقيس الخطر ويكتبون كلاماً من نوع: «شيء يبعث على القلق»... «رسل الكراهية»... «تهديد لحسن العلاقات بين الأجناس»... «دعاة العنصرية السوداء»... «دعاة السيادة السوداء» وهلمجرا.

ولم يكد مداد الصحف اليومية يجف حتى بدأت المجلات الوطنية الكبرى تنسج على نفس المنوال وتصفنا بـ: «ملقني الكراهية»... «الباحثين عن العنف»... «العنصريين السود»... «الفاشيين السود»... «أعداء المسيحية» وربما أيضاً ولما لا «بيادقة الشيوعية»، كل ذلك ظهر في صحافة أكبر شيطان عرفه التاريخ فحرض علينا رجل الشارع.

في عهد العبودية كان الرجل الأمريكي الأبيض يختار أكثر الزنوج خضوعاً ليخدموه في البيت وكان يسميهم زنوج «البيت» وزنوج «المطبخ» بالمقارنة مع زنوج «الحقل» وكان يلقي إليهم بكمية أوفر من فتاته بل ويسمح لهم بالأكل في مطبخه ويستعملهم لتكريس خضوع زنوج «الحقل» بترديدهم على مسامعهم أسطوانة الإستقامة والطيبة وأنهم خدام رائعون من جهة وطمأنته هو من جهة أخرى بالقول له إن زنوج الحقل راضون عن حالهم وأنه لا يستطيع أن يفعل من أجلهم أكثر مما فعل لأنهم على كل حال أغبياء.

زنوج «البيت» و«المطبخ» تطوروا بحيث أصبح السيد يصدر إليهم أوامره بالهاتف. ولماذا يتجشم مشقة الإتصال؟ لقد شاهدوا الشريط في التلفزيون وقرأوا الصحف وهم يعرفون المطلوب منهم. وبالفعل أخذوا زمام المبادرة وبدأوا يجرون اتصالاتهم الهاتفية بمعرفتهم. إنني لن أسمي أحداً ولكن إذا استحضرتّ لائحة ما كانوا يدعون في ١٩٦٠ بـ «الزعماء» السود الكبار فقد عرفت من شن حملته علينا نحن زنوج «الحقل» الذين كنا في نظرهم قد فقدنا العقل عندما تجرأنا وقلنا في حق «السيد» ما قلناه.

بدأوا بتهدئة بال السيد فقالوا إننا لا نمثل الجماهير الزنجية بأية حال من الأحوال، إننا لا نمثل إلا طبقة الأحياء الزنجية الدنيا التي لا يجب أن يشغل باله بها وأن الأمر لا يعدو أن يكون سلوكاً متهوراً لتلقين الكراهية عن طريق الدين وأن الحادث يؤسف له لأنه جاء في وقت كانت صورة العنصرية فيه قد بدأت تعرف بعض التحسن.

كانوا يتهافتون على الجرائد لتنشر تصريحاتهم التي كانوا يقولون فيها: «إننا نشجب مقابلة العنصرية بالعنصرية»... «إنه رجوع سخيف إلى العقيدة الإسلامية القديمة»...«إنهم صابئون عن المسيحية».

وكان جهاز الهاتف في مطعم مسجدنا الصغير لا يهدأ وسماعته لا تفارق أذني وكنت أسمع وأكتب لممثلي الإعلام ردنا على تلك التصريحات ثم أكلم السيد محمد في شيكاغو وأقرأ عليه ما كتبته وأطلب تعليماته فكان هدوءه يذهلني أمام تلك التصريحات التي كانت تجعلني أغلي من الغيظ.

وعُرف رقم تلفون بيتي رغم أنه غير مسجل فبدأت حيثما ذهبت أجد التلفونات ترن، ذلك أنني كنت أمثل أمة الإسلام في نيويورك وهي مركز الأخبار في أمريكا. انهالت علي المكالمات من سان فرانسيسكو إلى واين بل ومن لندن وستوكهولم وباريس وكنت أدخل المسجد أو البيت فأجد أحد الإخوة أو بيتي يرد في حنق على التلفون وأتناوله فلا أصدق ما أسمعه. وأثار انتباهي أن الأوروبيين لم يهتموا بمسألة الكراهية التي كان الأمريكيون البيض يرددونها عودا على بدء في هوس يفضح عقدتهم المركبة الناتجة عن كونهم مكروهين من السود وكارهين لهم.

كانوا يسألونني: «السيد ملكوم إكس لماذا تنادون بالسلطة السوداء والكراهية؟» فكنت أفقد السيطرة على نفسي عندما أسمع ذلك. إننا عندما كنا نتكلم عن الشيطان

الأبيض كنا لا نتكلم عن شخص معين سيما وأننا نحن المسلمين لم تكن لنا أية علاقة مباشرة بالبيض ولكن عندما بدأوا يكلمونني في التلفون ويستعملون معي أسلوبهم ذاك المطبوع بالدسيسة والحسابات والقسوة والأنانية والوقاحة والغل بدأت أعطيهم ردوداً من جنس أسئلتهم فأقول: «إن الرجل الأبيض آخر من يحق له أن يتهم السيد محمد المحترم بالدعوة للسيادة السوداء والكراهية. إن السيد إلايجا محمد لا يريد أن يرفع مستوى السود في هذه البلاد إقتصادياً وإجتماعياً». إن المجرم المنافق الأبيض لا يعرف ماذا يريد. لو كان أجدادنا العبيد قد طالبوه بما يسمى بـ «الإندماج» لشنقهم وها هو الآن يسمينا بملقني الكراهية وبالفاشيين لأن السيد محمد يتكلم عن الإنفصال». «إن الرجل الأبيض لا يريد السود لأنهم عالة عليه ولأنهم يظهرونه على حقيقته للعالم فلماذا تصبح الحقيقة جريمة عندما تصبح على لسان السيد محمد؟».

وجرح حلقي من كثرة ما كنت أرفع صوتي ولكنني بقيت أرفعه وأقول: «إن المغتصِب لا يسأل المغتصَب إن كان يكرهه كما أن الذئب لا يسأل الحمل ذلك السؤال والرجل الأبيض ليس في وضع أخلاقي يسمح له بوضعه. هل تتهمني الحية التي لدغتني ولدغت أجدادي بالكراهية عندما أحذر أولادي منها؟ »

وكان هؤلاء الشياطين يسألون: «السيد ملكوم إكس لماذا تمرنون فتيان ثمرة الإسلام على الجيدو والكراتيه؟». كان تعلم السود لفنون الدفاع عن أنفسهم يبعث فيهم الرعب فكن أرد على السؤال بسؤال معاكس وأقول: «ومتى كان الكراتيه نذير خطر؟» إن كل الجمعيات في أمريكا تعلمه: الكشافة يتعلمونه وأعضاء جمعية الشباب المسيحي بل وحتى عضوات جمعية الشابات المسيحيات وغيرها. كلهم يتعلمون الجيدو ولا ضير حتى بدأ السود يتعلمونه. إن طرق الدفاع عن النفس تلقن اليوم حتى لتلميذات المدارس».

وكانوا يسألون: «السيد ملكوم إكس ما هو عددكم في هذه المنظمة؟ لقد قال الأسقف شيكنوينغ المبجل إنكم حفنة من الناس» فكنت أقول لهم: «إن الذي يعطيكم عددنا لا يعرفه والذي يعرفه لن يعطيه لكم». وكانوا يستشهدون بالأسقف شيكنوينغ أيضاً كلما جاء ذكر عدائنا للمسيحية فكنت أرد عليهم قائلاً: «إن المسيحية ديانة الرجل الأبيض والإنجيل كان في يد الرجل الأبيض وهو الذي فسره وسخره للفتك الإديولوجي واستعباد غير البيض. . وليس هناك أرض واحدة غزاها الرجل الأبيض بقوة السلاح ولم

يمهد لغزوها بتفسير الإنجيل تفسيراً يريح ضميره ويسمح له باتهام ضحاياه بالكفر والوثنية وبعد ذلك كان يرسل جيوشه ويرسل المبشرين بالإنجيل في إثر الجيوش ليكنسوا من ورائها.

كان المراسلون البيض الغاضبون قد اتهمونا بالديماغوجية مرتين أو ثلاث فأعددت لهم جواباً بدأت أقول فيه: «ارجعوا إلى التاريخ الإغريقي القديم وافهموا أولاً معنى ديماغوجي. لقد كانت هذه الكلمة في البدء تعني معلم الشعب ولنستعرض معاً أسماء بعد «الديماغوجيين» المعروفين في التاريخ.

أولهم سقراط الذي قتل بتهمة الديماغوجية وثانيهم المسيح الذي صلب لأن أحبار اليهود لم يقبلوا أن تسود شريعة أخرى على شريعتهم وما الذين يتهمون السيد محمد اليوم بالديماغوجية والجنون والتعصب الأعمى إلا أحبار العهد الحديث.

من الديماغوجيين أيضاً غاندي الذي كان سلاحه إضرابه عن الطعام في سجون بريطانيا والذي وصفه تشرشل بالفقير الهندي شبه العاري الصغير والذي تبعه شعب بكامله فلوي ذيل الأسد البريطاني. ومن الديماغوجيين غاليليو الذي وقف أما محاكميه وقال إن الأرض تدور ومنهم مارتن لوثر الذي علق أطروحته ضد الكنيسة الكاثوليكية في مكان عام مع ما كان لها من نفوذ. ونحن أتباع السيد الإيجا محمد المحترم في الأحياء الزنجية مَثَلُنا مَثَل المسيحيين الأوائل الذين كانوا يعيشون كالنمل في السراديب والمغارات ويحفرون قبر الإمبراطورية الرومانية الجبارة».

ما زلت أذكر تلك المجادلات الهاتفية وكأنها حدثت بالأمس. كان المراسلون محتدين وكنت محتداً وكانوا كلما رجعت بهم إلى التاريخ رجعوا بي إلى الحاضر وتركوا استجواباتهم جانباً وتولوا الدفاع عن ذواتهم الشيطانية. كانوا ينبشون في الماضي ويطلعون لي لينكلن وتحريره للعبيد فكنت أسرد عليهم ما قاله لينكلن في خطبه ضد السود. وكانوا يخرجون لي قرار المجلس الأعلى للقضاء الذي نَصَّ ١٩٥٤ على الإندماج في المدارس (المأثرة العظمى في تاريخ أمريكا!) فكنت أقول لهم: «إنكم تتكلمون عن تسعة قضاة محنكين ومبرزين في الصياغة القانونية لم يعرفوا كيف يصوغون قراراً باتاً بشأن إنهاء الفصل في المدارس أو بعبارة أخرى عن الدهاء الذي يجعل النص يعني الشيء وضده فيقول للسود إن الفصل العنصري قد رفع ويقول للبيض إنه يبقي لهم منافذ للتملص من تطبيقه.»

كان أولئك المراسلون يجهدون أنفسهم في البحث عن أبيض طيب واحد لا أستطيع أن أطعن فيه. ولن أنسى رد فعل أحدهم ذات مرة. سألني إن كنت أعتقد ان هناك رجلاً أبيض قدم خدمة للسود في أمريكا فقلت: «نعم، هتلر وستالين. إن السود لم يحصلوا على أعمال محترمة في المصانع الأمريكية إلا بعدما أكره هتلر الرجل الأبيض على ذلك وواصل ستالين مبادرة هتلر».

ولم تكن حجتي أبداً تصل إلى القراء بشكلها الأصلي. كنت إذا قلت: «إن لماري حملاً صغيراً» طلعت: «ملكوم إكس يهجو ماري». وكنت أتعلم تحت القصف كيف يعمد الإعلام الأبيض إلى التحريف والتشويه مع سبق الإصرار ومع ذلك لم تكن مرارتي عليه تعدل مرارتي على أولائك «الزعماء» السود الذين كانوا يواصلون تهجماتهم علينا سيما وأن السيد محمد كان يأمرنا بعدم الرد عليهم حتى لا نقع على حد قوله في فخ الرجل الأبيض الذي يريد لنا أن نبقى منشقين ومتصارعين ومتفرقين فترك ذلك للدمى السوداء الحبل على الغارب فصعدت هجوماتها على السيد محمد وأمة الإسلام حتى بدأنا نبدو وكأننا خائفون منها. وعند ذلك عيل صبر السيد محمد فأعطانا الإذن بالرد.

«إن عم طوم القرن العشرين لا يعصب رأيه بمنديل أنفه وإنما يلبس القبعة الرسمية والبدلة ويتوفر على أعلى مستوى من التعليم والثقافة والوجاهة والذوق بل إنه قد يتكلم أيضاً بلهجة جامعتي ييل وهارفارد ويدعى «بروفسور» و«دكتور» و«قاضي» و«موقر» بل وأحياناً «الدكتور الموقر بحق» أما وظيفته فهي «القيام بدور الزنجي أمام الرجل الأبيض». كنت أقول ذلك وأزيد فأسمي هؤلاء الزنوج بالرؤوس البيضاء على الأجساد السوداء وكانت المرة الأولى التي يسمعون فيها من يكشف حقائقهم علناً فكان رد فعلهم أعنف من رد فعل الشيطان الأبيض وبدأوا يهاجمون السيد محمد باسم منظماتهم لا بأسمائهم الخاصة كما كانوا يفعلون وكانت لمنظماتهم نفس التركيبة، «الزعيم» الأسود في الواجهة ليراه السود ويغتروا بينما القرار يصدره رجل أبيض في الكواليس يسمى رئيس اللجنة أو أي شيء آخر.

وتهافتت الصحف على تصريحنا ونشرته لايف ولوك ونيوزويك وتايم بل إن بعض الصحف بدأت سلسلة مقالات عنا. ونشرت الريدرز دايجيست التي توزع في أنحاء المعمورة أربعة وعشرين مليون نسخة بثلاث عشرة لغة مقالاً عنا بعنوان: «محمد

يتكلم» بقلم الكاتب الذي أسرد عليه الآن هذا الكتاب فحدت المجلات الكبرى حدودها وخصصت لنا موضوع الغلاف.

وبعد فترة قصيرة بدأت الإذاعات وشبكات التلفزيون تدعوني للمشاركة في موائد مستديرة تنظمها عن أمة الإسلام وتختار لها بكل عناية أساتذة محنكين وأحياناً دكاترة سود من نوع زنوج «البيت» و«المطبخ» الذين كانوا يشنون هجماتهم علينا.

كنت أثور لما كنت أراه كل يوم من تحريف وتشويه لتعاليم السيد محمد وأتوق إلى اليوم الذي أتمكن فيه من إظهار الحقيقة لكل سكان الولايات المتحدة وأظن أنني لم أتهيب مواجهة الملايين عبر مكروفونات الإذاعات وشاشات التلفزيون. كانت مناظرات السجن وخطب المساجد هي كل ما في جعبتي من تجربة في مخاطبة الجماهير وكنت أعرف من أيام الشارع أن هناك استراتيجية لكل شيء وكنت في مناظرات السجن أستفز الخصم لأربكه فقلت إنه لا بد أن يكون للنقاش المبثوث على الهواء أيضاً استراتيجيته واهتديت إلى أنني لو محصت أقوال الخصم جيداً وبسرعة لاستلهمت منها ما أدحضها به.

كنت أدخل الاستديوهات فأجد الشياطين ودماها السوداء حاملة شهادات الدكتوراه تتظاهر بالإنسجام والإندماج وتضحك وتتنادى بأسمائها الشخصية في نفاق يبعث على الغثيان. وكانوا يحاولون معاملتي بمودة وكلنا يعلم أنهم ما استدعوني إلا ليمحقوني وكانوا يقدمون لي القهوة فكنت أرفضها شاكراً قائلاً إنني لا أريد منهم إلا أن يدلوني على المكان الذي يريدونني أن أجلس فيه.

كانت المكروفونات توضع على المائدة أحياناً وأحياناً أخرى تعلق في العنق وكنت أفضل الطريقة الثانية لأنها لا تستوجب الإنشغال المستمر بالمكروفون. وكان أصحاب البرامج يقدمونني تقديماً خالياً من الزخرفة وبعيداً عن الدين فيقولون: «... ويوجد معنا اليوم الرجل المتقد، الغاضب، ملكوم إكس الذي يترأس مسلمي نيويورك...» ولكنني عمدت إلى إعداد تقديم خاص بي تمرنت عليه في البيت والسيارة فبدأت أقاطعهم لأقول: «أنا أمثل السيد إلايجا محمد الزعيم الروحي للجماعة الإسلامية الأكثر نمواً في النصف الغربي للكرة الأرضية. ونحن الذين نتبعه نؤمن بأنه تلقى تعليماته من الله وأنه مرسل إلينا من لدنه ونؤمن بأن محنة عشرين مليون من سكان أمريكا السود قضاء قدره الله عليهم مثل ظهور السيد إلايجا محمد في أمريكا

والتعاليم التي جاء بها للزنوج وتحذيراته لأمريكا من معاملتها لما يدعى بالزنوج. وأنا رجل دين مسجد نيويورك التابع لأمة الإسلام التي يقودها السيد إلايجا محمد المحترم». وكنت أنهي تقديمي وأنظر حولي وأنا ألتقط أنفاسي فأجد الشياطين وببغاواتها السوداء المعمرة تحملق في وبذلك كنت أحدد لهجة النقاش.

كانوا يتبارون ويتواثبون علي ويكيلون الضربات للسيد محمد ولي ولأمة الإسلام وكان السود يعزفون على نغمة الإندماج ويقولون إنه الحل الوحيد لكل مشاكلنا في أمريكا فكنت أقول لهم: «ليس هناك أسود واحد يتمتع بكامل قواه العقلية يريد الإندماج أو يصدق أن الرجل الأبيض سيسمح له إلا باندماج صوري. إن السيد إلايجا محمد يعتقد أن الإنفصال هو الحل الوحيد بالنسبة للسود في أمريكا».

كنت لا أترك المكروفون حتى أقول كل ما عندي وهي التقنية التي كنت قد اكتشفتها وكنت أقول: «يقول السيد إلايجا محمد إن المجتمع الغربي موحل في التفسخ والإنحلال وأن غضب الله سيحل به ويدمره وأن خلاصنا نحن السود في الإنفصال عنه والعيش في أرض خاصة بنا نستطيع فيها أن نقوم أنفسنا وأخلاقنا ونولي وجوهنا لله. لقد أعيا مشكل العنصرية أكثر الدبلوماسيين الغربيين حنكة وكل الخبراء والإجتماعيين ورجال الدين والدنيا وأن جميع من خاضوا فيه اعترفوا بأنه مشكل لا يقدر على حله إلا الله وأن من حقنا الآن أن نتولى أمره.

كنت كلما تلفظت بكلمة: «انفصال» وجدت أحدهم ينقض علي ليقول إننا نسير على نهج العنصريين والديماغوجيين البيض فكنت أقول: «إننا لا نسير على نهج أحد، إننا نرفض الفصل ونناضل ضده ربما أكثر منك وأن ما نريده هو الإنفصال لا الفصل وأن هناك فرقاً بين اللفظتين، إن الفصل كما يقول السيد إلايجا محمد المحترم مفروض على محكوم من طرف حاكم يتصرف في حياته وحريته وينظمهما وأن الإنفصال على العكس اختيار إرادي يتم بالإتفاق بين طرفين متساويين لما فيه مصلحتهما وإننا إذا بقينا في حالة تبعية للرجل الأبيض كما يقول السيد إلايجا محمد المحترم سنبقى نستجدي منه العمل والمأكل والملبس والمسكن ويبقى يتحكم في حياتنا وينظمها على هواه وتبقى سلطة فصلنا بين يديه. لقد عومل الزنوج في أمريكا معاملة جنين يراد له أن يبقى في بطن أمه بعد حلول أوان الوضع والحالة أن الجنين يجب أن ينفصل عن أمه في الموعد المحدد وإلا دمرها ودمر نفسه.

ويشهد من رأوني أتكلم في تلك الندوات أنني كنت أؤمن بالسيد محمد ولا أتكلم إلا باسمه ولا أنسب شيئاً لنفسي أبداً. ولم تكن هناك ندوة واحدة لم يكن فيها من يتربص بي ليرميني بتحريض السود على العنف فكنت أرد على هذا الإتهام دون حاجة لأي إعداد مسبق فأقول: «إن معجزة المسيحية الكبرى أنها استطاعت إخضاع السود للبيض في أمريكا. معجزتها أن اثنين وعشرين مليوناً من السود لم يثوروا على القمع مع أن كل معايير الأخلاق والتقليد الديموقراطي كانت إلى جانبهم. المعجزة أن إيمان الأمة السوداء بفلسفة مد الخد الآخر وثواب الدار الأخرى بقي رغم كل شيء لا يتزعزع وأن الأمريكيين السود بقوا مسالمين رغم الجحيم الذي عاشوا فيه خلال قرون. المعجزة أن الدمى المتزعمة، الواعظة والمحملة بالشهادات والآخرين الذين سمحوا بإظهار إخوانهم السود الفقراء في صورة منافية للحقيقة استطاعوا أن يحافظوا على هدوء السود حتى الآن.

كنت أبذل كل جهدي في تلك الاستديوهات لتمثيل إلايجا محمد وأمة الإسلام أحسن تمثيل أمام تلك الدمى المتحركة السوداء، المهووسة بالإندماج والشياطين الخبيثة التي كان كل همها أن تمزقني إرباً إرباً خلال المدة التي يستغرقها البرنامج.

ونشر كتاب الدكتور إيريك لينكولن في خضم المعركة وفي الوقت الذي كنا نستعد فيه لتنظيم أكبر تجمعاتنا الشعبية وكان بعنوان «المسلمون السود في أمريكا» فاستعارت منه الصحافة تلك التسمية وعممتها بين الناس وبدأ النقاد يركزون على الفقرات التي تظهر سلبياتنا ويثنون على أسلوب الكاتب. وضايقتنا التسمية بما فينا السيد محمد فحاولت محوها خلال سنتين بدون جدوى. كنت كلما وجدتني أمام صحافي أقول له إننا بشر سود في أمريكا ندين بالإسلام وإن اسمنا الحقيقي هو «مسلمون» فقط.

وحققت تجمعاتنا نجاحاً منقطع النظير فبعدما كان مسجدنا الصغير في دترويت يتعب في جمع عشر سيارات ليرسلها إلى شيكاغو بدأت مساجد الساحل الشرقي قديمها وحديثها (التي ساعدنا الإعلام الأبيض الجبار على فتحها) ترسل ما يتراوح بين ١٥٠ و٢٠٠ حافلة إلى مقر التجمعات لمشاهدة السيد محمد. وكانت تلك الحافلات تطوي الطرق السيارة وتعبر المدن وفي كل واحدة منها اثنان من فتيان ثمرة الإسلام وعليها لافتات كبيرة تعلن عن هويتها ووجهتها. زد على ذلك مئات المسلمين

والفضوليين الذين كانوا يأتون بسياراتهم الخاصة أو في وسائل النقل العمومي. أما السيد محمد فكان يستقل طائرته الخاصة ويلتحق بمقر التجمع على متن سيارة ذات منبه يشبه منبه سيارات الشرطة.

وبدأت مصالح الأمن التي كانت تتهمنا بالجنون تجد صعوبة في منع بعض المجانين البيض من خلق الإضطرابات. كانت تجمعات فريدة من نوعها من حيث أنها سوداء صرف وكنا نعقدها في أماكن مثل ميدان سانت نيكولاس بنيويورك وميدان شيكاغو وميدان أوتلاين بواشنطن. وكان الدخول ممنوعاً على البيض فوجدوا وذُماهم في ذلك ما يثبت عنصريتنا بعدما كانت عنصريتهم قد أصبحت شيئاً تجري به العادة. كانت الجماهير السوداء تتدفق علينا في ابتهاج وحبور حتى تضيق بها الميادين فنضطر إلى وضع مكبرات للصوت في الخارج وكان الجمهور يدخل في أربعة صفوف يسهر على تنظيمها فتيان ثمرة الإسلام الذين يحملون أجهزة الإتصال اللاسلكي.

وكان الإخوة المسلمون يفتشون الرجال والأخوات في حجابهن الأبيض يفتشن النساء وكان حتى الأطفال يخضعون للتفتيش وكان يمنع إدخال السجائر والخمر وكل ما من شأنه أن يسبب أي أذى للسيد محمد الذي كان يؤكد على التشدد في إجراءات الأمن وأنا اليوم أفهمه.

كان فتيان ثمرة الإسلام يأتون من مساجد المدن القريبة وكانوا يكلفون بإدخال الناس. وكانت المقاعد مصنفة بحيث يجلس الجمهور العام في الشرفات والصفوف الخلفية بينما تخصص الصفوف الأمامية للمسلمين الذين كانوا يعرفون بلباسهم حيث تلبس الأخوات الحجاب الأبيض ويلبس الإخوة البدلات الداكنة والقمصان البيضاء. وأمام هؤلاء يجلس ما يدعى بـ«العلية» الذين كانوا مدعوين والذين كان يوجد من بينهم المثقفون وأصحاب المهن الحرة الذين كانوا يتهجمون علينا والذين كان من المفروض أن يعينوا إخوانهم على الخروج من البؤس والحاجة كما كان السيد محمد يقول. وكان الصفان الأماميان مخصصان للصحافة السوداء أو للصحافيين السود الذين يستأجرهم الإعلام الأبيض. وأنتهز الفرصة هنا لأقول أنه خليق ببعض الكتاب السود أن يتعرفوا بجميل السيد محمد لأنه أعطاهم فرصة الظهور بالكتابة عن أمة الإسلام.

وكنا نحن رجال الدين والشخصيات الرسمية في أمة الإسلام ندخل المنصة من الباب الخلفي فنشغل فيها الصفوف الخمسة أو الستة من المقاعد التي تتقدمها أريكة

السيد محمد. وكان بعض رجال الدين يأتون من مدن بعيدة فكنا نتلفت ونشد على أيدي بعضنا قائلين في بهجة: «السلام عليكم، «وعليكم السلام».

وكان هناك دائماً رجال دين المساجد الصغيرة ومن بينهم أخواي ويلفريد وفيلبيرت اللذان كانا قد أصبحا رجلي دين في كل من دترويت ولانسينغ على التوالي بينما كان الأخ غريما إكس رجل دين في مسجد أطلانطا والأخ جون إكس رجل دين في مسجد لوس أنجلس وولاس محمد نجل الرسول رجل دين في مسجد فلادلفيا والأخ وودرو إكس رجل في مسجد أطلانطيك سيتي.

وكان لبعض هؤلاء خلفية غريبة إذ كان الأخ لوسيوس إكس رجل دين مسجد واشنطن قد تبع من قبل أحد المذاهب المسيحية والماسونية ذات الإثنين وثلاثين درجة. وكان الأخ جورج إكس رجل دين مسجد كامدن، نيوجرزي مشتغلاً بعلم الأمراض والأخ دايفد إكس قسيساً سابقاً بكنيسة في رتشموند، فرجينيا وقد أسلم وهو ومجموعة من أعضاء كنيسته فانشقوا عن الآخرين وحولوا كنيستهم إلى مسجد. وكان الأخ الشاب لويس إكس إمام مسجد بوسطن مغنياً شعبياً مشهوراً يلقب بالفاتن ويتكهن له بمستقبل زاهر في المدان وهو الذي كتب لنا أول أناشيدنا بعنوان «نعيم البيض جحيم السود» وأولى مسرحياتنا بعنوان «الزنجي» معكوسة التي كانت تدور حول مثول رجل أبيض أمام محكمة سوداء بتهمة ما اقترفه جنسه من جرائم في حق غير البيض وصدور الحكم عليه بالإعدام ثم سحبه وهو يعترف بجرائمه. وكان هناك رجال دين أصغر سناً من الأخ لويس الموهوب مثل الأخ توماس هارتفورد والأخ روبيرت إكس رجل دين مسجد بوفالو.

كان منظر رجال الدين هؤلاء يعيد إلى ذهني ذكريات «اصطياد» المسلمين في الشوارع والبيوت داخل التجمعات السكنية الزنجية عندما كنت أساعد في تأسيس أو تنظيم المساجد وكنت أذكر اجتماعاتنا في غرف استقبال لا تسع أكثر من سبعة أفراد ونمونا المطرد الذي كان يلجئنا إلى من يسعون إلى الموت باعتماد فلسفات عدم العنف واستجداء الرجل الأبيض وكل تلك الإعتصامات والتسلُّلات والانحشارات... إلخ.

إخواني وأخواتي السود، لقد جئتم لتسمعوا فاسمعوا أحكم السود وأكثرهم جرأة وشجاعة وقوة في براري أمريكا الشمالية». كنت أنزل من المنبر فيعتليه السيد محمد ويرنو إلى الجمهور الساكن بوجه جامد في البداية: ويقول: «السلام عليكم» فيرد عليه

المسلمون في هدير: «وعليكم السلام» ويأخذون في التأهب للإستماع وهم يعرفون أنه سيعمل سيف الحقيقة البتار مدة ساعتين من الزمن وهو شيء ما كان يقلق بالهم نظراً لما يعرفونه من معاناته من ضيق التنفس. وكان يبدأ خطابه كما يلي: «إنني لا أحمل أية شهادة مثل البعض منكم. على أن الشهادات لا تساوي شيئاً إذا كان حاملها يرزح تحت ما أثقله به الرجل الأبيض من خوف منه منذ كان طفلاً أسود. إنني أعرف أن البعض منكم لا يقوى على مجابهة الحقيقة لأنه شب على الخوف والكذب ولكنني سأبقى أجهر بها إلى أن أحرركم من الخوف...

لقد جاء بكم المستعبد إلى هنا وأتلف جميع ماضيكم حتى أصبحتم لا تعرفون لغتكم أو قبيلتكم ولا تستطيعون أن تتعرفوا حتى على اسم لغتكم لو سمعتموه. حتى أسماؤكم جردكم منها وألبسكم أسماءه، هو الذي لا يكن لكم إلا الكراهية.

استئجار المقاعد واستعمال المتاجر التي كنا ننظفها بكل عناية. كنت أذكر ذلك وأنا أنظر إلى الجماهير المائجة أمامي وأدرك قدرة القادر عز وجل.

كنت منذ بداية التجمعات مقتنعاً بما سبق أن حكاه لي السيد محمد من أحلام كان يرى نفسه واقفاً فيها أمام جماهير غفيرة يبلغها تعاليمه أيام كان مطارداً وعندما كان سجيناً.

وكان الأخ جون علي السكرتير العام لأمة الإسلام والأخ لويس إكس رجل دين مسجد بوسطن يتناولان الكلمة فيعم الصمت. وكانا يعرفان كيف يشعلان حماس الجمهور بكلامهما عن العالم الجديد الذي تفتحه أمة الإسلام للسود بينما كانت الأخت تينيتا دينير تتكلم عن دور المرأة في أمة الإسلام وفي الرفع من مستوى إخوانها المادي والمعنوي والإجتماعي والسياسي. وكان دوري يأتي بعدها مباشرة لأقدم السيد محمد للجمهور فكنت أرفع يدي وأقول: «السلام عليكم» فيرد علي المسلمون في هدير بـ«وعليكم السلام» فأدخل في الموضوع قائلاً: «أيها الإخوة والأخوات السود المسلمون منكم وأتباع الديانات الأخرى أو من ليست له أية ديانة. أخاطبكم على حد سواء على أساس أقوى آصرة تجمع بيننا هي لون بشرتنا.

ولأنني لا أريد أن أطيل عليكم في تعريفكم بالسيد إلايجا محمد المحترم سأكتفي بذكر مزية واحدة من مزاياه وهي أنه الزعيم الأسود الأول والوحيد الذي عرفنا

بعدونا، الزعيم الأول الذي كانت له شجاعة الإفصاح عن شيء ستجدون عندما تفكرون فيه أنكم كنتم تعايشونه وترونه وتعانون منه طوال حياتكم وهو أن «الرجل الأبيض هو عدونا». وإن إفصاح السيد محمد عن ذلك لشيء عظيم لأن العدو عندما يكشف يجرد من قدرته على الخداع وزرع التفرقة والخلاف في صفوف عدوه والكذب عليه ومنافقته وممارسة شره عليه وإبقائه في عداد الصم، البكم، العمي. عندما تعرفون عدوكم تجردونه من الإستمرار في غسل أدمغتكم ووضع العصابات على أعينكم لمنعكم من رؤية الجحيم الذي تعيشون فيه بالمقارنة مع النعيم الذي يعيش هو فيه على أرض واحدة. وهذا العدو يريدنا أن نعبد إلهه المسيحي ويقول لنا إن الناس عنده سواسية.

أجل، الشيطان الأبيض عدونا وسأبرهن لكم عن ذلك. خذوا أية جريدة يومية واقرأوا ما تروجه من إشاعات عن زعيمنا المحبوب. وهم يفعلون ذلك لأنهم لا يريدون لمن ليس دمية بين أيديهم أن يتكلم باسم السود. إن الشيطان الأبيض المستبد يريدنا أن نبقى معه ليبقينا أسفل سافلين، مركونين في مكان لا تصل إليه الأنظار وهو لا يحب من الزعماء إلا من يستطيع أن يسألهم بعجرفة: «وكيف تسير أمور أصحابك هناك؟» وكراهيتهم للسيد محمد دليل على أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك معه ولكنكم تسمعون وتصدقون ما يشاع عنه من جنوح إلى العنصرية وتلقين للكراهية ومناهضة للبيض ودعوة للسيادة السوداء.» عندها يدخل السيد محمد من الخلف يحث الخطى عبر ممر صاعد كما كان يدخل معابدنا الصغيرة فنرى فيه حمل الإسلام الوديع، الأسمر، كان يدخل محفوفاً بفتيان ثمرة الإسلام الأقوياء ذوي القامات المتساوية والخطى المتئدة وهو يحمل الإنجيل والقرآن ويلبس طربوشاً أخضر مطرزة فيه بخيوط ذهبية راية الإسلام، الهلال والنجوم فكان الجمهور يتلفت ويستقبله بالتهليل ويقول: «يا أيها الحمل الصغير!» «السلام عليكم!» «الحمد لله!».

كانت عيناي تغرورقان بالدمع شأن الكثيرين ذلك أنه أنقذني وأنا سجين وعلمني في بيته كما لو كنت أحد أبنائه. وأظن أنني كنت أبلغ قمة الإنفعال عندما كان فتيان ثمرة الإسلام يتوقفون بغتة فيصعد السيد محمد المنصة بمفرده ونهرع إليه فنحدق به ونعانقه ونشد على يديه ثم كنت ألتفت إلى المكروفون لأضع حداً لإنتظار الجماهير السوداء الغفيرة التي جاءت من كل مكان لتسمعه فأقول:

«إخواني وأخواتي السود، إن أحداً لن يعرف ما هي هويتنا إذا لم نعرفها نحن وإذا لم نعرفها بقينا حيث نحن. وقد آلى السيد محمد على نفسه أن يفعل ذلك وإن له من القوة والسلطان ما لا يستطيع أحد أن يدركه حتى وإن كان يعيش إلى جانبه وأنا الآن أشعر بهذه القوة والسلطان ينضحان من شخصه. إن السيد إلايجا محمد المحترم لا يستعرض قوته ولكن ليس هناك بين الزعماء السود في أمريكا من يستطيع مثله أن يفتدى بأتباعه لو طلب منهم ذلك.

إنكم تحسبون أنكم تعرفون الإنجيل والمسيحية بل إنكم من الحماقة بحيث تعتقدون أن المسيحية هي الصواب الوحيد في العالم. إنكم المجموعة البشرية الوحيدة على وجه الأرض التي تجهل كل شيء عن نفسها وتاريخها وعدوها. أنتم لا تعرفون إلا ما ارتأى الرجل الأبيض أن يقوله لكم أي ما يخدم مصالحه وجنسه ويقنعكم بأنكم «زنوج» لا وزن لكم ولا حول ولا قوة. أضع لفظ «زنوج» بين قوسين لأنكم لستم «زنوجاً» وإنما جزء من الأمة الآسيوية وسلالة قبيلة شباز وما صفة «الزنجي» إلا افتراء افتراه عليكم المستعبد إلى جانب نعوت أخرى منذ اليوم الذي وصلت فيه أول سفينة محملة بالعبيد إلى هذه الأرض». وكان يتوقف فنسمع تعاليق المسلمين في الصفوف الأمامية: «يا أيها الحمل الصغير!»... «لله الحمد كله!»... «لقن أيها الرسول!» ويستمر فيقول:

«إن جهلنا وكراهيتنا لأنفسنا يدلان على ما ارتأى الرجل الأبيض أن يقوله لنا. أو ليست لنا عقول لنفكر بها ونوحد صفوفنا مثل بقية خلق الله؟ لماذا نذل أنفسنا بالإعتصام والإستجداء ومحاولة الإتحاد مع المستعبد؟ أو لسنا نفهم رده على ذلك بألف طريقة وطريقة؟ إنه يقول لنا كل يوم: «ممنوع عليكم السكن هنا»، «ممنوع عليكم الدخول إلى هنا»، «ممنوع عليكم الأكل هنا»، «ممنوع عليكم الشرب هنا»، «ممنوع عليكم المشي هنا»، «ممنوع عليكم العمل هنا»، «ممنوع عليكم السياقة هنا»، «ممنوع عليكم اللعب هنا»، «ممنوع عليكم الدراسة هنا» فكيف لا نفهم أنه لا ينوي أن يتحد معنا؟.

لقد خدمتم أراضيه وطبختم طعامه وغسلتم ثيابه واعتنيتم بأهله في غيابه بل وأرضعتموه أحياناً والتزمتم بمسيحيته أكثر منه وبذلتم له دمكم ومساعدتكم ليبني بلاداً هي اليوم من الثراء بحيث تبعثر أموالها حتى على أعدائها وعندما يغتني أعداؤها

ويصبحون قادرين على مواجهتها تبذلون أرواحكم في سبيله وتصبحون يده التي يبطش بها في أيام الحرب كما كنتم خدامه الأوفياء في أيام السلم ومع ذلك لم يجد هذا المسيحي الأمريكي الأبيض عنده من الحياء وروح العدالة مما يجعله يعترف بكم ويقبلكم كبشر مماثلين له».

ويتوقف فترتفع التعاليق من جديد: «صدقت، صدقت!». . . «قل لهم!». . . «خذ كل وقتك أيها الحمل الصغير!». . . «لله ما أصدقه!» حينذاك يبدأ غير المسلمين يشاركون في الهتاف. كنا نحن المسلمين أقل منهم إنعزالية فكان تجمعنا بعد ذلك يبدأ يبدو وكأنه معسكر من طراز قديم ويواصل السيد محمد كلامه فيقول:

«علينا إذن أن ننفصل عن هذا المستعبد الذي يحتقرنا إلى أقصى درجة». ويرد على من يستجدون منه ما يسمى بالإندماج بأنه لا يريد أن يندمج معهم لأنه يخشى على صفاء بياضه. «انظروا إلينا، إلتفتوا حولكم وأنظروا إلى بعضكم البعض واسألوا أنفسكم ألم يدمجنا بعد بما فيه الكفاية؟ ألم يدمجنا إلى درجة أننا أصبحنا لا نكاد نجد بيننا رجلاً أسود أصيل واحد؟» وترتفع التعاليق: «يا إلهي! إن الرجل على حق!. . . «لقن أيها الرسول!». . . «اسمع! اسمع!» ويستمر فيقول:

«إن الرجل الأبيض يوشك أن يقضي على كل سواد فينا إلى حد أنه أصبح يشعر بالذنب ويحتقر نفسه من خلال احتقاره لنا ويقول لنا بنص قوانينه إن القطرة الواحدة من الدم الأسود تجعلنا سوداً وإذا كانت تلك القطرة هي كل ما تبقى لنا فإننا نتمسك بها!». وتخور قواه ولكنه يستمر فيقول:

«لننفصل عنه إذن بمقتضى حجته نفسها، حتى لا نفقد بالإندماج ما تبقى لنا من سواد. إنه يتشدق بطيبوبته وكرمه ويمول حتى أعداءه فلماذا والحالة هذه لا يعيننا على إقامة دولة منفصلة نحن الذين أسلفنا له عبودية وخدمة مقرونتين بالوفاء؟ لماذا لا يعطينا أرضاً تخرجنا من أحيائه الموبوءة وتغنينا عن برامجه الخيرية سيما وهو يشتكي مما تكلفه إياه؟ إننا قادرون على الفعل وإذا كنا لم نفعل حتى الآن فلأنه أقنعنا بأن علينا أن نقصده دائماً للحصول على ما نريده ونحتاجه.» وبعد حوالي تسعين دقيقة يبدأ القلق يتسرب إلى رجال الدين ويبدأ هو يتمسك بعمود المكرفون ولكنه يستمر قائلاً:

«إننا نحن السود لا نعرف قدراتنا، على أن أحداً لا يعرف إمكانياته حتى يتحرر ويصبح قادراً على التصرف الذاتي. إذا كان لك قط وكنت تدلله يجب أن تحرره

وتطلقه في الغابة لتعرف أنه كان مجبولاً على إيواء نفسه وإطعامها ولكننا نحن السود في أمريكا لم نعط هذه الفرصة أبداً. لقد خدمنا الأرض طول حياتنا وبإمكاننا أن نؤمن غذاءنا، بإمكاننا أن نتحرر من المعتقدات التي رسخها الرجل الأبيض فينا ومن عقدة كراهيتنا لأنفسنا ونعيش في إخاء. إننا نريد أرضاً خاصة بنا، نريد أن نترك المستعبد الأبيض».

وكان يتوقف دائماً على حين غرة عندما يفقد القدرة على الإستمرار فكان هتاف الجمهور يتعالى ويستمر مدة طويلة وكنت أتوجه إلى المكروفون وأشير إلى الجمهور بالهدوء في الوقت الذي كان فتيان ثمرة الإسلام يشرعون فيه في المرور بين الصفوف بدلاء من ورق يجمعون فيها العطايا المالية وأقول:

«لقد اتضح لكم الآن أن السيد محمد لا يتلقى أي دعم مالي أبيض من شأنه أن يكرهه على قبول أية مشورة أو احتواء لأنه غير «مندمج» ولأن برنامجه مثل منظمته أسود مائة في المائة.

إننا المنظمة السوداء الوحيدة التي لا يدعمها إلا السود على عكس غيرنا ممم يسمون أنفسهم بـ«التقدم الزنجي» وهم وصمة في جبين الزنوج، الذين يزعمون أنهن يناضلون من أجلكم لتخويلكم حقوقاً مساوية لحقوق البيض والحالة أن من يناضلون ضده ومن يرفض أن يمنحكم هذه الحقوق هو نفسه من يغدق عليهم الأموال. إن كل عضوية تفرض دفع اشتراك سنوي، دولارين أو ثلاث ولكن هذه الدولارات الإثنين والثلاثة والخمس مائة ألف يدفعها لهم الرجل الأبيض ليهيمن عليهم ويشير عليهم ويحتويهم. فكروا قليلاً. أليس بديهياً أن من يومل يحتوي؟ إن الرجل الأبيض يتمنى لو استطاع أن يدعم السيد محمد ليضمن تبعيته المادية ومن ثم بدل المشورة إليه.

إخواني وأخواتي السود، إذا كان السيد محمد قد استطاع أن ينظم مثل هذه التجمعات السوداء الضخمة ويبلغ بها الحقيقة إليكم فذلك بفضل أموالكم».

كان فتيان ثمرة الإسلام يملأون المكان والدلاء تفرغ وتمتلىء والجمهور كأن على رؤوسه الطير. وكانت تلك الأموال تغطي نفقات الجميع ويبقى منها فائض نضعه في صندوق أمة الإسلام.

وبعد حين قرر السيد محمد أن نفتح أبوابنا للصحافة البيضاء التي بدأت تخضع

لإجراءات أمن مشددة تسلم بمقتضاها كل ما معها للتفتيش من كراسات وكاميرات وعلب كاميرات. وبدأ البيض يتوافدون علينا حتى بدأت تمتلىء بهم منطقة خاصة. وكان أغلبهم طلاباً وأساتذة جامعيين فكنت أنظر إلى وجوههم المتجمدة الحمراء وهم يحملقون في السيد محمد إذ يقول: «إن الرجل الأبيض يعرف أن أعماله أعمال شيطان» وإلى السود ذوي المهن الحرة «المثقفين» الذين كانوا يتهجمون علينا والذين كان لهم من الخبرة التقنية والمهارة العلمية ما كان يمكنهم معه إنقاذ إخوانهم مما هم فيه من بؤس والذين عمدوا عوض ذلك إلى إذلال أنفسهم بالإستجداء والسعي وراء الإندماج مع ما يدعى بـ«الليبرالي» الأبيض الذي يقول لهم: «سنجد حلاً لكل مشاكلكم عندما يؤون الأوان... في يوم من الأيام... فقط انتظروا واصبروا» أولئك الذين لم يكونوا قادرين على استعمال ما لديهم من إمكانيات لصالح أبناء جنسهم لأنهم كانوا يعانون من التفرقة فيما بينهم ومن كونهم في وادٍ والجماهير السوداء في وادٍ، ولولا ذلك لأفادوا السود في العالم بأسره. وإذن فقد كنت أنظر إلى وجوههم وهي تتقلص وتتشرب بالخطورة.

وأصبحنا مراقبين وأصبحت تلفوناتنا تحت الإستماع وما يزال ذلك الشأن معي حتى الآن، فلو أنني قلت في تلفون بيتي مثلاً إنني سأقبل بناية إمباير ستايت لأصبحت مطوقة بالبوليس في ظرف خمس دقائق، كما أنني كنت أتعرف في تجمعاتنا على وجوه المخبرين التابعين للبوليس الفدرالي وباقي الوكالات الأخرى. وكان البوليس المحلي والفدرالي يأتي إلينا ويستنطقنا فكان السيد محمد يعلق على ذلك قائلاً: «إنني لاأخشاهم لأن عندي كل ما أحتاجه، عندي الحقيقة».

وكنت أكثر الأحيان أذهب لأنام وأنا أتعجب مما لتلك الحقيقة من قدرة على إيلام وإرباك وإقلاق وإزعاج دولة بما لها من رجال مدربين أعلى تدريب في كل أنواع العلوم الحديثة وأشعر أن ذلك لم يكن ليكون لولا أن هذا الرجل الذي لا يتعدى مستواه الثقافي السنة الرابعة من التعليم الإبتدائي قد تلقى علمه من أعلم عليم.

وبدأوا يسربون إلينا المخبرين السود الذين لم تلبث أن غلبت على أكثرهم نزعتهم السوداء، أقول أكثرهم لأنه لم يكن من السهل معرفتهم جميعاً ولكن البعض منهم بعدما التحق بنا واستمع إلينا ورأى الحقيقة وأحس بها أطلعنا على سره ومنهم من استقال من الوكالات البيضاء وبدأ يعمل معنا ومنهم قلة احتفظت بأعمالها وبدأت تقوم

بالمخابرة المضادة وتطلعنا على أقوال البيض وخططهم فيما يخص منظمتنا. وبذلك علمنا أنهم بعدما كانوا مهتمين بمعرفة ما يجري داخل أمة الإسلام أصبحوا يريدون بإيعاز من إدارات السجون معرفة الأسباب التي تدفع بالسجناء السود إلى الإسلام بكثرة. وقد كان السجناء المسلمون يتلزمون بقوانيننا الأخلاقية كما حدث لي فكانوا أكثر استعداداً من سواهم ولم يكونوا يحتاجون بعد إطلاق سراحهم إلا إلى الإلتحاق بأحد معابدنا لتسجيل أنفسهم. ولم يكن الإنضمام إلينا بالشيء السهل على عكس الكنائس المسيحية لأنه لم يكن بإمكان المرء أن يعلن أنه يتبع السيد محمد ويُبقي على أسلوب حياته السابق المثقل بالمعاصي والفساد بل كان عليه أن يغير نفسه تغييراً جذرياً، مادياً وأخلاقياً ويلتزم بقوانيننا الصارمة ويلزمها إن أراد أن يبقى مسلماً. ولم يكن يعقد في معابدنا اجتماع واحد لا يحضره مسلمون جدد تدل عليهم رؤوسهم الحليقة بعدما ودعوا إلى الأبد تلك الشعور المعدنية المزورة، المطبوخة بماء الرماد والتي كانت طريقة تليينها قد أصبحت تعرف بـ«العملية».

ويؤلمني أنني حيثما ذهبت الآن أجد تلك التسريحة على الرؤوس بكل ما تنم عنه من جهل وكراهية للنفس. أنا أعرف أن ما سأقوله سيجرح بعض أصدقائي غير المسلمين الذين يستعملون تلك التسريحة. إننا عندما نتمعن في أي من الزنوج الذين يستعملونها نجد أنهم جهال. وهي بغض النظر عما تقترن به من تصنع وتظاهر تفضح خجل صاحبها من سواده ولو أنه استطاع أن يتخلص منها ويترك شعره كما خلقه الله ولا يشعر بالنقص لاكتشف أن نفسيته ستتحسن كثيراً كما حدث لي.

المسلم لا يدخن في عرفنا وهذا ما وجده البعض صعباً أكثر من حظر المخدرات ولكنهم كانوا يذعنون له بسهولة عندما نقنعهم بأن الدولة البيضاء لا تعنيها الصحة العمومية بقدر ما تعنيها ضرائب صناعة السجائر التي تقدر بالملايين. كنا نقول لهم: «هل تعرفون كم يدفع العامل لمصلحة الضرائب في صندوق سجائر واحد؟» وكنا نحسب فنجد أنه يدفع دولارين كاملين من ماله الذي كسبه بعرق جبينه.

ولعلك سمعت بما كتب عن علاج أمة الإسلام لمدمني المخدرات ومن بينه المقال الذي نشرته نيويورك تايمز حول استعانة بعض الوكالات ببرنامجنا في الموضوع. وهذا البرنامج يبدأ بإقرار وجود ارتباط بين اللون والإدمان بدليل أن هارليم هي أكثر التجمعات إقبالاً على المخدرات في النصف الغربي من الكرة الأرضية.

ويرتكز هذا البرنامج على العمل الشاق الذي يقوم به مدمنون سابقون عالجناهم فقاموا بالمقابل بجلب مدمنين يعرفونهم وتكفلوا بالإشراف على علاجهم بصبر كبير مدة تتراوح بين شهر وسنة في نطاق برنامج من ست نقط هي:

أولاً، الوصول بالمدمن إلى الإعتراف فيما بينه وبين نفسه بأنه مدمن.

ثانياً، إقناعه بأن علاجه ممكن.

رابعاً، إعادة ثقته في نفسه بحيث يصبح يعتقد أنه قادر على وضع حد لإدمانه.

خامساً، وصوله إلى اتخاذ قرار بذلك.

سادساً، شفاء المدمن وشروعه في البحث عن مدمنين يعرفهم وإشرافه على علاجهم.

وقد كان فشل برنامج الولاكات الإجتماعية يعود إلى أنه لم يكن يطبق المرحلة الأخيرة فيترك المدمن فريسة لعدائه للمجتمع وريبته فيه. أما في برنامجنا فإن المدمن الجديد يعرف أنه أمام رجل كان مثله تحت رحمة عادة تكلفه يومياً من عشرين إلى ثلاثين دولاراً لا سيما وأنه قد يكون زميلاً سابقاً له قاسمه المخدرات والسرقة والنوم على الأرصفة وتخطي عود ثقاب يبدو في حجم الكلب يكلمه بلغته، لغة غابة المخدرات.

وكما أن مدمن الخمر لا يمكن أن يعالج إلا إذا اعترف بحالته وتقبلها كذلك مدمن المخدرات. وعندما يتم اختيار المدمن يلزمه المسلم كظله فيقول له ويعيد: «أنت مدمن يا رجل!» ولكن اقتناعه بذلك قد يحتاج إلى شهور فإذا اقتنع بدأت مرحلة معرفة الأسباب التي دفعت به إلى التخدر.

والمسلم يقوم بعمله في درك ولا يمكن أن يتصوره العقل حيث تتجمع له دزينة من المخدرين الذين ساقهم إليه كونه كان واحداً منهم. وهناك يفسر لهم أن المخدرات مهرب وأن المخدَّر الأسود يريد أن يهرب من كونه أسود في أمريكا البيض وأن إقبالهم على المخدرات يؤكد ما يقوله البيض عن السود من أنهم لا شيء.

ويتكلم المسلم مباشرة وبسرية فيقول: «أنا أعرف حالتكم لأنني مررت منها، أعرف معنى أن يحك المرء جلده مثل قرد ومعنى النتن والجوع والتهور والسرقة والهرب من البيض» ثم يقول لهم إن من يشتري المخدرات يخدم هدفين اثنين وهما إغناء البيض وإهلاك نفسه. كل ذلك وهو يتحين الفرصة ليقول إن خلاصهم من المخدر في انضمامهم إلى أمة الإسلام حتى إذا ما فعل جاء بمدمن المخدرات إلى

أقرب مطعم مسلم ليرى بعينيه مسلمين معتزين بأنفسهم، نظيفين، يحترمون بعضهم البعض ويحبون بعضهم البعض على عكس الحال في الأحياء السوداء ويسمع لأول مرة من يناديه بـ «أخي» و«سيدي» و«السيد فلان» دون أن يهتم بماضيه فإذا ما حدث وأثير موضوع تخدره يكون ذلك في إطار حثه على التحدي. وفي ذلك المطعم يقول له كل من يراه إنه قادر على التغلب على المخدرات.

وتتغير نظرة المدمن إلى نفسه فيقتنع بأنه قادر فعلاً على أن يتغلب على المخدرات إذ يكتشف معنى العزة السوداء وهي نتيجة جبارة بالنسبة لمن كان يعيش في الوحل. والمتردي يتغير إذا وجد الحافز ولعل مثالي الخاص أكبر دليل على ذلك. وفي الأخير يقرر المدمن من ذات نفسه أنه يريد أن يبدأ العلاج مع علمه بما يترتب عن الترك المفاجىء للعادة من آلام حادة فيسهر عليه المسلمون بالتناوب ليساعدوه على تطهير نفسه استعداداً للدخول في الإسلام ومخاطبته عندما يشتد عليه الألم بلغته قائلين: «انفض ذلك القرد من ظهرك!». ويتلوى من الألم فتسيل عيناه وأنفه ويتصبب عرقاً من رأسه إلى قدميه ويحاول ضرب رأسه وذراعيه بالحائط ومصارعة مساعديه ثم يبدأ القيء والإسهال ويقول له المسلمون: «لا تبق فيك شيئاً، دع الرجل الأبيض يذهب عنك إلى غير رجعة وسترفع رأسك عالياً وتمشي في سرب فتيان ثمرة الإسلام».

وتمر الأزمة ويتكسر قيد المخدر فيقدم المسلمون تهانيهم إليه ثم تعطاه الشربة والمرق لتقويته وبعدها يستحيل أن ينسى أولائك الرجال الذين ساندوه وقت المحنة أو أن ينسى أن برنامج أمة الإسلام هو الذي أنقذه من جحيم المخدرات أو أن يعود إليها إلا في النادر بل إنه ما أن يقف على قدميه حتى يسارع إلى البحث عمن يساعده.

ولو كان رجل أبيض أو أسود مرضي عنه قد جاء بمثل ذلك البرنامج لهرعت إليه الحكومة بالدعم والثناء والدعاية ولكنهم عوض ذلك شنوا علينا الهجوم. أنا لا أعرف ما تكلفه الجرائم المرتكبة تحت تأثير المخدر على الصعيد الوطني ويقال إنه مليارات الدولارات سنوياً في نيويورك وحوالي اثني عشر مليون دولار من المسروقات في هارليم وحدها. إن المدمن لا يعمل فمن أين يصرف على عادته التي تكلفه من عشر إلى خمسة عشرة دولاراً في اليوم؟ إنه يسرق بالطبع ويُهرِّب وينصب على كل الناس كالصقر أو كالنسر كما كنت أفعل. وهو في غالب الأحوال ترك المدرسة ورده الجيش وليس له أي استعداد نفسي للعمل حتى وإن وجده كما حدث لي.

أما المدمنات فيسرقن المتاجر ويتعاطين الدعارة واللواتي يرغبن منهن في مصارعة المخدر استعداداً لإعتناق الإسلام يسلمن للأخوات المسلمات اللاتي يستعملن معهن لهجة شديدة فيقلن لهن: «إنكن تساعدن الرجل الأبيض على النظر إلى أجسادكن كما لو كانت أوعية زبالة».

لقد أشارت العروض التي قدمت عن أمة الإسلام إلى أن أتباع السيد محمد مدمنو مخدرات وسجناء سابقون وهذا صحيح بالنسبة للسنوات الأولى إذ كان عدد لا يستهان به في قاعدة أمة الإسلام من أدنى الطبقات الإجتماعية وكان السيد محمد يقول لنا دائماً: «ركزوا على الإنسان الأسود الذي يعيش في الوحل فإنه عندما يسلم يحسن إسلامه». ولكننا بدأنا نصل بالتدريج إلى نوع آخر من السود المسيحيين الجيدين الذين كنا نصطادهم في كنائسهم فارتفعت نسبة المتعلمين والمكونين بيننا وكان كل تجمع عام يأتينا بالمزيد مما يدعى بالطبقة المتوسطة من الزنوج الذين كانوا من قبل ينعتوننا بالديماغوجيين وملقني الكراهية والعنصرية السود وما إلى ذلك.

وجاءتنا الحقيقة الإسلامية بحصاد متنام من الشباب الأسود الذي صادف عندنا حاجتنا إلى خبرته ومواهبه. وكان من بينه من كان يخفي إسلامه خوفاً على منصبه فلا يعلم به إل المسلمون وأحياناً لا يعلم به إلا رجال الدين والسيد إلايجا محمد.

وبلغت الأمة أوج ازدهارها في ١٩٦١ فظهر على الصفحة الأخيرة من جريدتنا تصميم المركز الإسلامي المزمع بناؤه في شيكاغو بغلاف مالي قدره عشرون مليون دولار يجمع من اكتتاب المسلمين والذي يضم مسجداً جميلاً ومدرسة ومكتبة ومستشفى ومتحفاً لتاريخ السود المجيد. وكان السيد محمد قد زار البلاد الإسلامية وقرر بعد عودته أن نسمي معابدنا مساجد.

كانت أعمال المسلمين أيضاً في ازدهار، تلك الأعمال التي كنا نريد أن نثبت بها للسود أنهم يستطيعون الإعتماد على أنفسهم إن توحدوا وتعاونوا وقاموا بتشغيل بعضهم وإبقاء أموالهم بينهم كما تفعل باقي الأقليات. وكانت إذاعات صغيرة في مجموع التراب الأمريكي قد بدأت تذيع خطب السيد محمد كما كان الطلبة المسلمون قد بدأوا يلتحقون بجامعتينا في دترويت وشيكاغو قادمين إليهما من مدارسنا الثانوية في نفس المدينتين حيث لقنوا تاريخ السود المجيد وتعلموا ابتداء السنة الثالثة من التعليم الإبتدائي اللغة العربية، لغة الإنسان الأسود الأصلية.

وكان قد أثلج صدري أن أولاد السيد محمد الثمانية قد أصبحوا يشتغلون مع أمة الإسلام لأنني كنت قد قلت للسيد محمد عندما بدأت اشتغل معه إن من غير المعقول أن يبقى أولاده يعملون في مصانع البيض وأوراش بنائهم وسيارات أجرتهم. . .إلخ. وكنت أشعر أن علي أن أخدم أسرة السيد محمد بنفس الإخلاص الذي كنت أخدمه به فطلبت منه أن يأذن لي بجمع المال لإقامة مشاريع تسمح لنا بإغناء أبنائه عن العمل مع البيض. ونجح مسعاي فأصبح ابنه الأكبر إمانويال يدير وحدة لتنظيف الملابس وابنته إيثيل الشريف عقيلة رايموند الشريف الرئيس الأعلى لفتيان ثمرة الإسلام، كبيرة المعلمات وابنته لوتي عميدة الجامعتين الإسلاميتين وابنه نتانييل مساعداً لأخيه إمانويال وهربيرت مدير الجريدة وإلايجا الأصغر مساعداً للقائد الأعلى لفتيان ثمرة الإسلام وابنه ولاس، الذي أبعد وإياي من أمة الإسلام لأسباب سيأتي ذكرها، رجل دين مسجد فلادلفيا أما ابنه أكبر وهو أصغر أبنائه والوحيد الذي تلقى تعليماً جامعياً فهو طالب في جامعة الأزهر بالقاهرة وقد انفصل أيضاً عن والده.

وانتهى الإجهاد بالسيد محمد إلى تدهور صحي مفاجىء فاشتدت عليه نوبات السعال الحاد وألزمته الفراش واضطرنا ذلك إلى إلغاء خطبه المقررة منذ أمد بعيد وإرسال من يلقيها نيابة عنه مما كان بالطبع يخيب أمل الجماهير ويقلق بال المسؤولين في أمة الإسلام.

وأشار عليه الأطباء بالهواء الجاف فاشترت له أمة الإسلام بيتاً في فينيكس، أريزونا. وزرته مرة هناك فوجدت مصورين يوجهون آلاتهم وأضواءهم نحو سلم الطائرة فتلفت لأرى من ينزل خلفي ثم رأيت مسدساتهم فعرفت أنهم بوليس سري جاء ليصورني.

وشاع بين المسلمين أن جو أريزونا قد خفف من آلام الرسول فبقي هناك. ومع أن نشاطه قل وهو في طور النقاهة إلا أنه أصبح يتحمل عبء القرار والواجبات الإدارية أكثر من أي وقت. كانت أمة الإسلام قد اتسعت على كل الأصعدة داخلياً وخارجياً فلم يعد قادراً على النظر في كل شيء وسمح لي بإتخاذ القرار ونصحني بمراعاة الحكمة ومصلحة أمة الإسلام في ذلك وقال: «إنني أريدك أن تصبح مشهوراً يا أخ ملكوم لأن شهرتك من شأنها أن تعرف بي ولكن عليك أن تعلم أن ذلك سيجر عليك الأحقاد لأن الناس تغار عادة من الشخصيات المشهورة وقد أثبتت لي الأيام صدق كلامه.

الفصل الخامس عشر

إيكاروس

ومع ازدياد كلامي باسم السيد محمد في الإذاعات ومحطات التلفزيون والجامعات ازداد عدد الرسائل الموجهة إلي من البيض التي كان أقلها منها من ذلك النوع الذي يبتدىء بـ«عزيزي الزنجي إكس» أو يهدد بالموت. وكشفت لي تلك الرسائل خوف الرجل الأبيض من شيئين اثنين هما: اعتقاده الخاص بحلول غضب الله عليه وتدميره والخوف من تسرب الرجل الأسود إلى جسد المرأة البيضاء.

كان عدد لا يستهان به من تلك الرسائل يتفق مع السيد محمد في نظرته للمشاكل ويختلف معه في طريقة علاجه له ويفزع من عبارة «الشيطان الأبيض»، فعمدت إلى شرحها في خطبي التي بدأت أقول فيها:

«إننا عندما نقول الشيطان الأبيض لا نقصد رجلاً أبيض بعينه، وإنما نقصد السجل التاريخي الجماعي للبيض، قسوتهم وشرورهم وشرههم وهي الصفات التي جعلتهم يتصرفون مع غير البيض تصرف الشيطان. إن كل من له عقل وأمانة وموضوعية لا يمكن إلا أن يعترف بأن تجارة الرقيق وما ترتب عنها من أعمال شيطانية قد أدت ليس فقط إلى وجود السود في أمريكا ولكن أيضاً إلى الظروف التي يعيشون فيها وإلى ما تعرض له كل إنسان أسود على يد البيض ككل.

وكانت هناك دائماً ردود في الصحافة تنعتني بالديماغوجية، ولكن ذلك لم يكن يهمني بقدر ما كان يحز في نفسي سبها للسيد محمد. وقد حاول الإجتماعيون والمساعدون أن يتصدوا لي على حدة ولا سيما السود منهم الذين كانوا يتلقون أجورهم من البيض والذين كانوا يتهمونني بالإستقطاب والعنصرية والمغالاة في التعميم والتلاعب. . .

وذات يوم جاءني إخوان كانوا يهتمون بالمراهقين في إحدى جهات هارليم بتقرير

كتبه عنا أحد أولئك المساعدين الإجتماعيين السود وقرأته فردتني كل فقرة فيه إلى المعجم، ولذلك ربما ما زلت أحفظ ما قاله عني مثل: «إن ملكوم إكس يغالي في تبسيطه لزخم الثّلَم التي تعاني منها ثقافة هارليم وفي تحريفه لها خدمة لأغراضه الخاصة» وأنا أتساءل من منا يعرف ثقافة هارليم أكثر أنا الذي تقلبت في أعمال هارليم غير القانونية مدة سنوات طويلة أم ذلك الوصولي المتفيقه الأسود؟ على أن الخطير في المسألة هو أنه كان واحداً من قلة سوداء ساعدها الحظ فتعلمت ولكنها لم تفهم مغزى التعليم ولا هدفه ولا أوجه استعماله فأصبح تعلمها آسناً لا ينفع ولا يظهر إلا في استعمال الألفاظ الطنانة وهو سبب من الأسباب التي سهلت على الرجل الأبيض في أمريكا احتواء السود. ذلك أن القلة المتعلمة السوداء لا تستعمل تعليمها كما يستعمله البيض في البحث والتفكير الخلاق لتحسين أحوالها وأحوال بني جنسها في هذا العالم الأبيض الزاخر بالمنافسة والمادية والدوس على الآخرين لتحقيق المصلحة الخاصة.

لقد قاد ما يدعى بالمثقفين الزنوج إخوانهم خلال أجيال كاملة بمنطق أبيض خدم مصلحة البيض ونزعتهم الإستغلالية. لا أحد ينكر ما للرجل الأبيض من ذكاء خارق وحنكة تزخر حياته بالأدلة عليها حتى أنه ليس هناك شيء لا يقدر على صنعه أو مشكل علمي يستعصي عليه وها هو الآن يقتحم حتى أبعاد الفضاء ويرسل إليه رجالاً ثم يعيدهم إلى الأرض سالمين، ولكن ذكاءه هذا ينقص في تعامله مع الناس ويهجره نهائياً إذا كان هؤلاء الناس غير بيض فإذا به يحل العاطفة محل العقل ويتصرف بانفعال واندفاع تحت فعل عقدة الكمال المترسخة في أعماق نفسه.

أين ألقيت القنبلة الذرية للحفاظ المزعوم على الأرواح الأمريكية؟ هل يعقل أن الرجل الأمريكي الأبيض كان من السذاجة بحيث لم يعرف ما يترتب عن فعلته تلك على ثلثي سكان الأرض غير البيض؟ وقبل ذلك سيق مواطنون أمريكيون مخلصون لوطنهم إلى مخيمات محاطة بالأسلاك الشائكة لمجرد أنهم من أصل ياباني ولكن عندما دخلت أمريكا الحرب ضد ألمانيا لم يفعل شيء بالمواطنين ذوي الأصل الألماني لأنهم بيض ولأن الطبيعة الشيطانية الكامنة في الرجل الأبيض كما يثبت التاريخ، تتبلور عندما يتعلق الأمر بغير البيض. وهذه الطبيعة هي التي جعلت الرجل الأبيض يعمى عن أن يرى أن العبيد إذا تحرروا وحصلوا على قدر ولو محدود من التعليم سيثورون عليه في يوم من الأيام.

لقد كان أولى بهذا العقل الذي يستكشف اليوم الفضاء أن يقول للسيد إن العبد عندما يتعلم سوف يكف عن الخوف منه، وإن التاريخ يؤكد أن العبد عندما يتعلم يبدأ يسأل ثم يطالب بالمساواة مع سيده. وها قد جاء هذا اليوم وبدأ السود يرون البيض ككل أفضل مما يرى البيض أنفسهم ويدركون أكثر فأكثر أنهم قادرون جسمانياً وسياسياً وإقتصادياً بل وإجتماعياً إلى حد ما، على أن يزعزعوا مقومات البيض الحيوية وسمعتهم في الخارج.

قلت إنني كنت في ١٩٦٣ في صراع مع الإعلام الأبيض الذي كان قد آلى على نفسه أن يقضي على تعاليم السيد محمد. وكان المخبرون الصحافيون البيض قد بدأوا يظهرون لي في هيأة ابن مقرض، يتشممون في استجواباتهم ويتحفزون للتحايل علي ومحاصرتي. كان «زعماء» حركة الحقوق المدنية لا يكادون ينطقون بما يغضب السلطة البيضاء حتى يأتيني هؤلاء المخبرون لاستعمالي في الرد عليهم فيقولون لي: «لقد سبق لك يا سيد ملكوم إكس أن أعلنت عن استنكارك لعملية الإعتصام التي يقوم بها بعض الزنوج، فما رأيك الآن في المقاطعة التي يتزعمها الدكتور كينغ في مونتغومري؟». ولم أكن من الغباء بحيث أسمح لرجل أبيض بأن يستعملني في صراعه مع سود هم منا وإلينا حتى وإن كانوا هم يفعلون ذلك معنا نحن المسلمين فكنت أجيب عن السؤال بالتعرض للأسباب التي أدت إلى موقف الدكتور كينغ ذاك فأقول: «لقد كانت السيدة ليزا باركس تركب الأوتوبيس متوجهة إلى بيتها عندما جاءها ذلك السائق الأبيض المجنون وأمرها بأن تقوم من مقعدها ليجلس فيه رجل أبيض. تصورا! هذه مسيحية كادحة سوداء دفعت أجرتها تؤمر بالقيام من مكانها لأنها سوداء! إنه يصعب علي أنا نفسي في بعض الأحيان أن أفهم غطرسة الرجل الأبيض». أو كنت أقول: «إن أحداً لا يعرف الدوافع العاطفية التي جعلت مثل هذه الحادثة البسيطة تشعل الفتيل. لقد تعرض السود في الجنوب خلال قرون لما هو أفظع، تعرضوا للإعدام من دون محاكمة، وللإغتصاب والجلد والرمي بالرصاص، ولكن الأحداث التي تبدو لنا بسيطة هي التي تحرك التاريخ. لقد منع مرة هندي ضئيل ومغمور اسمه المهاتما غاندي من ركوب القطار فأدى به ذلك إلى عقد عقدة في ذيل الأسد البريطاني». أو كنت أستعمل حيلة رأيت المحامين في الحياة وفي الأفلام يستعملونها. ألم أقل أنني ولدت لأكون محامياً لولا ذلك الأستاذ الذي أشار علي بأن أكون نجاراً؟ كنت أعمد إلى التملص من الرد على السؤال بطرح معضلة يحار المخبر فيها كأن أقول: «إنني أفهم منطق هؤلاء الذين

ينادون بالمقاطعة في مونتغومري، إذ كيف يعقل أن ننتظر من الزنجي أن يلتحق بالجيش البري أو البحري أو الجوي ويموت من أجل ديموقراطية مزعومة تعطي مهاجر اليوم الواحد الأبيض أكثر مما تعطيه للسود الذين استعبدوا في هذه البلاد وخدموها منذ أربعة قرون؟» فكانوا يفضلون خمسين مقاطعة على نشر مثل ذلك الكلام وحتى عندما كانوا ينشرونه كان يأتي مقلوباً رأساً على عقب ثم كفوا عن توجيه ذلك النوع من الأسئلة إلي.

كنت أقارعهم بالحجة وأشير في سياق الكلام إلى التحسن الذي حصل في ميدان الحقوق المدنية مثل توظيف عشرة زنوج في صناعة كبيرة وشروع إحدى شبكات المطاعم في استقبال الزنوج وتسجيل زنجي بإحدى جامعات الجنوب دون أن تضطر قوات الأمن للحضور، وما إلى ذلك. وكان صاحب البرنامج الإذاعي أو التلفزيوني يتلقف ذلك مني ليقول إنه تقدم ملموس لصالح الجنس الأسود لا يمكنني أن أنكره، فكان قوله يثيرني فأقول: «إنني لا أكاد أتحرك يمنة أو يسرة دون أن أجد من يكلمني عن التقدم الذي حصل في ميدان الحقوق المدنية ولعل البيض ينتظرون منا أن نشكرهم على ذلك. لقد أغمد الرجل الأبيض سكينه في ظهورنا مدة أربعة قرون، والآن وقد بدأ يحركها قليلاً يراد منا أن نكون ممتنين. إن الجرح سيبقى حتى وإن أخرج السكين». وكانوا كلما تبجح عمدة أو رئيس مجلس بلدي في جهة ما بأنه ليست له أية مشاكل مع الزنوج يأتون لي في استديوهات الإذاعات والتلفزيون بتصريحه ويضعونه أمام وجهي فكنت أقول لهم إن ذلك لا بد وأن يكون قد وقع في جهة يعد فيها الزنوج على رؤوس الأصابع وأن العنصرية موجودة في كل مكان ولنأخذ الديموقراطية البريطانية التي منعت الهجرة عندما جاء ١٠٠ ٠٠٠ أسود إلى بريطانيا من جزر الهند الغربية، وأن فنلاندا التي رحبت بسفر أمريكي أسود لم تكن لتبقي على ترحيبها لو أن عدداً كبيراً من الزنوج تبعوه إلى هناك، وأن روسيا نفسها هددت على لسان خروتشوف بعدم منح طلاب أفارقة تأشيرات الدخول إليها لأنهم شاركوا في مظاهرات نظمت لشجب موقفها العنصري من السود.

وكانت صحافة الجنوب البيضاء تقاطعني ولكنها كانت تنشر على صفحاتها الأولى ما أقوله عن ذهاب أنصار الحرية البيض والسود للمشاركة في المظاهرات المنظمة في الجنوب تضامناً مع السود. وقد كنت أصف تلك المشاركة بالسخافة وأقول إن الأولى بهؤلاء المتظاهرين الشماليين أن يلتفتوا إلى حالة الزنوج في الشمال وإلى

الأحياء الزنجية فيه التي تغزوها الفئران والصراصير وتمتلىء بأطفال صغار يتسكعون في الشوارع في منتصفات الليالي، ومفاتيح بيوتهم معلقة في أعناقهم لأن آباءهم وأمهاتهم منشغلون بالخمر والمخدرات والسرقة والدعارة. كنت أقول إن الأولى بهؤلاء المتظاهرين الشماليين أن يحملوا المجالس البلدية والنقابات والصناعات الكبرى في الشمال على تشغيل السود وإغنائهم عن مد أيديهم للبرامج الخيرية التي علمتهم الكسل وزادتهم تدهوراً على تدهورهم. وما كنت أنتهي من كلامي ذاك حتى ينتصب لي الليبراليون كالأفاعي خصوصاً وأنهم ليس من عادتهم أن يسمعوا من يميط اللثام عن نفاقهم، ولعل حياتي أكبر دليل على نفاق الليبراليين الشماليين. إنني لا أعرف الجنوب وإنما أنا صنيعة الشمال الأبيض ونفاقه. وقد كان السيد محمد يقول دائماً: إن الجنوبي الأبيض على الأقل لا ينافق. إنه يكشر عن أنيابه للسود ويقول لهم صراحة إنه لن يقبل أي «اندماج» صوري معهم وإنه سيحاربه، وإن ذلك نتج عنه أن الزنجي في الجنوب على الأقل يعرف عدوه على حقيقته.

إن هناك جنوبيين بيضاً ساعدوا بعض الزنوج بشكل فردي، أما الشماليون فهم يبتسمون جماعة ويتشدقون بـ «مساواة» و«اندماج» لا يؤمنون بهما ويحاولون التملص من مسؤوليتهم فيما وقع ويقع للسود في حين أن أخطر سود في الوقت الراهن هم أولئك الذين وضعوا في الأحياء الزنجية بالشمال لئلا يراهم أحد في الوقت الذي كانت فيه سلطة الشمال تتبجح بالديموقراطية.

إن أول من استعمل كلمة «إندماج» بمدلولها العنصري الحالي ليبرالي شمالي، ذلك المدلول الذي يموه ويعتم على الحاجات الحقيقية للسود. هنا في هذه الولايات الخمسين حيث ترتع العنصرية الجديدة توقع هذه الكلمة ملايين البيض في البلبلة والغضب لأنها توهمهم بأن الجماهير السوداء تريد أن تختلط بهم. والحالة أن حفنة من مجانين الإندماج هي التي تريد ذلك وتهرب من إخوانها السود الفقراء وما تهرب إلا من نفسها. أنا هنا أتكلم على الزنوج الذين يتقربون من البيض، أي عن القلة الناجية التي تتبنى التفكير الأبيض وتعد أكثر معارضة للسود من البيض.

إن الأمريكي الأسود لا يريد إلا حقوقه الإنسانية، أن يكرم كبني آدم، ألا يفر منه البيض كما لو كان مصاباً بالطاعون، ألا يعزل في الأحياء الزنجية كالحيوان، ألا يعيش مختفياً وأن يمشي مرفوع الرأس كبني آدم.

إن معظم البيض يجهلون أن معظم السود يكرهون اليوم مخالطتهـ
يتحملونها مرغمين عند الضرورة، ولكن مفهوم هذا «الإندماج» جعل ملا
يغترون ويتوهمون أن السود يريدون النوم معهم والحقيقة غير ذلك. لقد
أسود في المدة الأخيرة: «هل تعرف كيف تكون رائحتهم عندما يعرقـ
الجماهير السوداء تفضل صحبة السود وحتى البرجوازيون السود عندما يـ
الحفلات المندمجة الأنيقة بمجرد ما يدخلون بيوتهم يتكلمون على الليبرالـ
الذين كانوا معهم وكأنهم يتكلمون على كلاب، ولعل الليبراليين البيض يفعـ
عينه. أنا لا أعرفهم، ولذلك لا يمكنني أن أكون متأكداً من ذلك، ولكـ
السود. هذه هي الحقيقة أطلقها كعادتي فجة وعارية لأنني أؤمن بأننا في
الحقيقة في علاقتنا مع البيض، خصوصاً وأن هذه العلاقة قد أثقلت منذ أ
بالعنصرية والأفكار الجاهزة والأكاذيب.

لقد تطوع البيض ولا سيما في التجمعات السكنية الصغيرة فصنعو
صورة تؤكد حسن نيتهم مع الزنوج، ولذلك عندما يقول لهم الزنجي إنه لم يـ
أن يبقى في المؤخرة، مواطناً من الدرجة الثانية محروماً أبسط حقوقه، يقالـ
شديد إن موقفه يؤسف له لأنه يدفع حتى بأنصار السود إلى تغيير رأيهم...
حقاً لأنه يعوق التقدم الذي كان قد بدأ ويقفل باب الحوار بين الجنسين.

والحقيقة أنه لم يكن هناك أي حوار، وإلى ما بعد الحرب العالمية الثا
هناك تجمع سكني واحد في كل أمريكا سمع «زعيماً» زنجياً محلياً واحداً
ما يعانيه الزنوج، وأكبر دليل على ذلك الذهول الذي استقبلت به أمريكا تمر
هل رأيت في حياتك قائداً عسكرياً يجهل كل شيء عن جيشه؟ كانت الأمور
بالسود في أمريكا إلى حد الإنفجار، والبيض لا يعلمون لأن «الزعيم» المحـ
كان دائماً يطمئن الرجل الأبيض في المكان عينه ليضمن بقاءه في «الزعامة»
عند الضرورة: «إن بعض الناس يا سيدي يقولون إننا في حاجة إلى مدرسـ
فإذا كان الزنوج في تلك الجهة لا يشاغبون تفضل الرجل المحلي الأبيض
المدرسة أو الشغل. والبيض في الجهات الأمريكية يعرفون أن هذه هي الـ
هذا هو النسق الذي كان الحوار بين البيض والسود في الجهات سارياً ع
ابتكره البيض بدافع من أنانيتهم ونزعتهم إلى السيطرة ومكنهم من أن يلقوا ا

السود ويشعرون بأنهم يقومون بعمل جليل بدلاً من أن يشعروا بالذنب.

وهذا النسق أو النظام الذي أوجده الرجل الأبيض وعلم به الزنوج أن يخفوا عنه الحقيقة وراء جدار من الإبتسام والموافقة والوقوف في خضوع وحك الرأس، قد ألحق بالأمريكي الأبيض أذى لم يكن ليلحقه به جيش غازٍ، أقول ذلك لأنه من الأسباب التي جعلت الأمريكي الأبيض يعتقد في قرارة نفسه أنه «الأفضل» حتى أن هناك في جهات عدة رجال بيض لم يكملوا تعليمهم الثانوي، ينظرون بعجرفة إلى رجال سود تخرجوا في الجامعات وأصبحوا «زعماء» ومديري مدارس وأساتذة وأطباء وأصحاب مهن حرة.

لقد فرض البيض على غير البيض في كل مكان نظامهم بالقوة ولذلك تجد الحكومات البيضاء نفسها اليوم أمام مشاكل مع غير البيض لا أول لها ولا آخر، مشاكل يتوقف بقاؤهم على قدرتهم على مجابهتها.

وما إنتفاض الشعوب غير البيضاء التي كانت إلى حين تموت خوفاً إذا ما رفعت الأمم البيضاء حاجبها، إلا لأن هذه الشعوب السوداء والسمراء والحمراء والصفراء لم تعد تطيق هيمنة الأبيض واستغلاله واستصغاره لها وانتهاكه لحقوقها.

كيف تتصور الحكومة الأمريكية أنها تستطيع أن تُسَوّق «الديموقراطية» و«الأخوة» إلى شعوب العالم غير البيضاء، وهذه الشعوب تقرأ وتسمع كل يوم ما يجري فيها وترى صوراً توضح لها أفضل من ألف كلمة أن الأمريكيين غير البيض ممنوعون من هذه «الديموقراطية» وهذه «الأخوة»؟.

الشعوب البيضاء تعرف أن الزنجي أحب الرجل الأبيض وتفانى في خدمته ورعايته له وعنايته به عندما كان طفلاً، وأنه خاض حروبه ضد البيض وضد السود على السواء ومات من أجله وأن الرجل الأبيض قابل ذلك بقذفه بالعبوات الناسفة وإطلاق كلابه عليه وتوجيه خراطيم نيرانه إليه وسجنه بالألوف وجلده وتعريضه لكل أنواع الجرائم. وهذا هو ما يجعل السفارات والمفوضيات الأمريكية في الخارج تقذف بالعبوات الناسفة وتتعرض لإحراق السيارات الفخمة وللرجم والتطويق ونداء: «إرحل من هنا أيها الرجل الأبيض!» وإلى الإعتداء على المبشرين المسيحيين وتمزيق العلم الأمريكي. ألم أقل إن مُرَكَّبَ الكمال الأبيض قد ألحق بالأمريكيين البيض من الضرر ما لم يلحقه بهم جيش غازٍ؟

إن على الأمريكيين السود أن ينصرفوا إلى تقوية تجاراتهم وبناء مساكن لائقة

لأسرهم وتعلم حماية بني جنسهم وتشغيلهم كما تفعل باقي السلالات ليزيدوا في قدرة الجنس الأسود على الفعل، لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي ستجعل الإنسان الأسود ينظر إلى نفسه باحترام، وتساعده على أن يكون مستقلاً ومعترفاً به كإنسان. وعلى الإنسان الأسود في الأحياء الزنجية أن يبدأ بإصلاح عيوبه ونقائصه المادية والمعنوية والروحية وأن يتخلص من السكر والتخدر والعهارة، عليه أن يرتفع بقيمه.

إن ما يدعى بالإندماج لا تشارك فيه إلا أقلية من الزنوج البرجوازيين الذين يهرعون لإنفاق القليل مما لديهم في فنادق البيض الفخمة ونواديهم الليلية الأنيقة ومطاعمهم الفاخرة التي هي من مستوى البيض لا من مستواهم. إنها مهزلة أن يرى الإنسان زنجياً يتلقى أجره بالتقسيط يتعشى في ذلك النوع من المطاعم ويبتسم في بلادة لرئيس نادلين يملك من المال أكثر مما يملكه هو. مهزلة أن ترى هذا النوع من الزنوج يفرشون المناديل الكبيرة على ركبهم ويطلبون لحم السُّمّان والحلزون المطبوخ على نار هادئة وكأن الزنوج يحبون الحلزون. هذا التصرف إن دل على شيء فهو يدل على أن هؤلاء الزنوج يريدون إثبات أنهم اندمجوا فعلاً إلى درجة أنهم أصبحوا مستعدين للزواج المختلط الذي يقول عنه بيض الجنوب إنه الطريق الوحيد نحو الإندماج. وأنا إن كنت أتفق معهم، إلا أنني أتساءل عن وجه الفائدة من الزواج المختلط في عالم يقوم على العداء المتبادل. إن مثل هذا الزواج لن يقابل إلا بالنفور من الأوساط السوداء قبل البيضاء وبالرفض، ولن يكون إلا نغمة نشازاً في كلا الوسطين. إن الإندماج بمعناه الإجتماعي لا يناسب أحداً لأنه سيقضي على الجنسين قضاء مبرماً.

لقد اندمج الرجل الأسود في أمريكا مع المرأة البيضاء فأفضى ذلك إلى تغير لونه وسماته. وقد قيل لي إن ما يتراوح بين مليونين وخمسة ملايين من البيض المتحدرين من أصل زنجي يعيشون في الوسط الأبيض على أنهم بيض. هل تتصور ما يعيشون فيه من قلق ورعب دائمين مخافة أن يفتضح أمرهم؟ هل تتصور حالة شخص يعيش يومياً في الكذب ويسمع يومياً ما يقوله زوجه الأبيض أو زوجته البيضاء أو أبناؤه عن الزنوج؟.

لا أظن أن أحداً سمع زنوجاً يتكلمون بالمرارة التي سمعتهم أنا يتكلمون بها على البيض، إلا أن أمرّ ما سمعته كان من الزنوج الذين يعيشون مع البيض على أساس أنهم بيض ويسمعون كل ما يقال في جلساتهم عن الزنوج والذين سيكونون أفضل حليف

ومخبر لنا إذا ما حدث وقامت مجابهة بيننا وبين البيض.

هل اندمج أطفال أوروبا السمر الذين أصبحوا الآن شباباً وبدأوا يتزوجون ويؤسسون الأسر؟ إن «الإندماج» عند البيض معناه الإذابة التي سيحاربها كل من يتشبثون بتراثهم بكل ما أوتوا من قوة. أرأيت كيف طرد الإرلانديون البريطانيين؟ ولو لم يفعلوا لابتلعوهم. والكنديون المتحدرون من أصل فرنسي ألا ترى كيف يتمسكون بهويتهم؟

التاريخ يثبت أن أفظع إدماج قام به البيض هو ذاك الذي مورس على يهود ألمانيا وأضعفت به الهوية اليهودية. لقد بذل اليهود لألمانيا أكثر مما بذله لها الألمان. جاؤوها بنصف جوائز نوبل التي نالتها وحملوا لواء ثقافتها فنشروا أكبر صحفها وظهر بينهم أكبر فنانيها وشعرائها ومؤلفيها ومخرجيها المسرحيين ولكن اليهود ارتكبوا غلطة فادحة عندما قبلوا فيما بين نهاية الحرب العالمية الأولى وصعود هتلر أن يذوبوا في الكيان الألماني وبدأوا يتزوجون من ألمان غير يهود وبدأ الكثيرون منهم يغيرون أسماءهم بأسماء ألمانية ويتحولون عن دينهم، أجل تحولوا عن دينهم وتخلوا عن تراثهم اليهودي الغني وقطعوا جذورهم وعطلوها وبدأوا يعتبرون أنفسهم ألمانيين فلم يشعروا إلا وهتلر يطلع لهم من الكباريهات بنظرية «سيادة الجنس الآري» ليجعل منهم كبش الفداء.

والغريب أن هؤلاء اليهود على الرغم من كل ذكائهم وعلى الرغم مما كان لهم من نفوذ في مختلف القطاعات الألمانية، وقفوا ينظرون كالمشلولين إلى مخطط اغتيالهم الذي لم يظهر على كل حال بين يوم وليلة. كانت عملية غسل الدماغ التي تعرضوا لها تامة بحيث كانوا وهم داخل غرف الغاز يرددون أنهم لا يصدقون ما يحدث ولو تم لهتلر غزو العالم لما ترك على وجه الأرض يهودياً واحداً. لن ينسى اليهود هذا الدرس أو يتوانوا عن تتبع التنظيمات النازية التي تظهر للوجود.

وما إن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى أنهت لجنة هاكانا مفاوضاتها الطويلة مع البريطانيين الذين بدأت عصابة ستيرن تغتالهم، ثم أذعنت بريطانيا وقبلت أن تساعد اليهود على اغتصاب فلسطين من العرب فأقيمت إسرائيل لتكون أرضاً لليهود وهو الشيء الوحيد الذي تقبله اليوم كل أجناس الأرض وتنظر إليه باحترام. وكذلك فإن زنوج أمريكا مهددون بالتذويب والإضعاف باسم الإدماج كما تبلور ذلك في المسيرة

إلى واشنطن التي أسميها المهزلة إلى واشنطن.

كانت تلك المسيرة من تدبير جمعية عمال عربات النوم في قطارات فيليب راندولف بعدما راجت فكرتها بين الزنوج عشرين عاماً. وشارك فيها عندما انطلقت زنوج الجنوب بثياب العمل الزرقاء وزنوج المدن الصغرى وأحياء الشمال الزنجية وآلاف الزنوج من فصيلة العم طوم فتحقق بذلك الإلتحام الزنجي لأول مرة منذ عهد جو لويس.

كانوا عازمين على الذهاب إلى واشنطن بأية وسيلة، بالسيارات البالية والحافلات واستيقاف سيارات الطرق العامة بل وحتى على الأقدام إن دعا الأمر. كانت المسيرة في تصورهم عبارة عن تمدد في الشوارع ومدرجات المطارات وحشيش الدولة لمطالبة الكونغريس والبيت الأبيض بمنحهم بعض الحقوق المدنية الملموسة. كانت تعبيراً عن المرارة السوداء على الصعيد الوطني وعن الرغبة في النضال وكانت بلا زعامة أو تنظيم لأنها كانت مبادرة من شباب زنجي ملَّ من تسلط الرجل الأبيض. وفزع البيض منها لأن أبسط انفعال والحالة تلك كان من شأنه أن يشعل الفتيل ويحول المسيرة إلى انتفاضة سوداء. وكانت السلطة تعرف أن تجمعاً أسود من ذلك القبيل في واشنطن من شأنه أن يفضي إلى الإضطراب إن لم نقل الإنفجار.

وهكذا سارع البيت الأبيض إلى دعوة أهم زعماء حركة الحقوق المدنية وطلب منهم إيقاف المسيرة فقالوا له إنهم لم يبدأوها وأن ليست لهم أية سلطة عليها، وهي الحقيقة لأنها كانت قد نبعت كما سبق القول من فكرة وطنية عفوية سوداء ولأنها كانت من دون زعامة ولا تنظيم.

وأعطت تلك المسيرة للسود درساً جوهرياً في كيف يفضي الإدماج إلى الإضعاف. بدأت أبواق الإعلام الدولي تردد أن البيت الأبيض «يبارك» المسيرة و«يعضدها» و«يرحب» بها وبدأ زعماء حركة الحقوق المدنية يتعاركون على التبرعات فاكتشفت ذلك جريدة نيويورك تايمز ونشرته. وكانت الجمعية الوطنية لتقدم الملونين تشتكي من حصول وكالات سوداء أخرى على أكبر قدر من التبرعات بسبب إعطاء مظاهراتها أكبر قدر من التغطية الإعلامية.

كانت الأحداث تمر كشريط سينمائي. وتلا ذلك لقاء «زعماء» حركة الحقوق المدنية المعروفين بـ«الستة الكبار» في نيويورك مع رئيس وكالة خيرية كبرى بعدما قيل

لهم إن نزاعهم على التبرعات يضر بسمعتهم. وتكون على الفور مجلس موحد ضم زعماء الحقوق المدنية الستة وأعطته مساعدة مالية قدرها ٨٠٠ ٠٠٠ دولار فقامت بذلك الوحدة السوداء على المال الأبيض المعلق بالمشورة. وليس هذا وحسب بل وعد المجلس بـ ٨٠٠ ٠٠٠ دولار أخرى تسلم له بعد المسيرة أي بشرط أن تنتهي في هدوء.

وهكذا تغيرت روح المسيرة ونصّب الإعلام العالمي الضخم «الستة الكبار» زعماء لها فكان ذلك مفاجأة للقاعدة السوداء التي كانت ما تزال تبث فيها الحماس ولعلها توسمت أن هؤلاء «الزعماء» ينوون الإنضمام إليها. ثم طلب من أربع شخصيات بيضاء المشاركة في الهيأة المُسَيِّرَة وهم كاثوليكي ويهودي وبروتستانتي ومنتدب منظمة عمالية وبدأ الإعلام الضخم يوعز بأن «العشرة» يمسكون بزمام المسيرة.

وبدأ «الأربعة» الجدد يهزون رؤوسهم بالموافقة على كل ما يملى عليهم ودفع انضمامهم إلى «الزعماء» بأتباعهم إلى المشاركة في المسيرة بعدما أصبح ذلك سلوكاً ديموقراطياً. وعندما رأى مجانين الإندماج من الزنوج البرجوازيون بطبقتيهم «المتوسطة» و«العليا» أن البيض يشاركون في المسيرة انتبهوا بغتة كأنما تحت فعل تيار كهربائي وبدأوا يتعثرون في بعضهم ويكادون يدوسون بؤساء الزنوج في طريقهم إلى مراكز التسجيل للمشاركة في المسيرة التي كانوا قد شجبوها. وهكذا تحولت المسيرة الغاضبة إلى حدث اجتماعي راقٍ من قبيل سباق خيل كانتاكي وما زال هؤلاء البرجوازيون السود إلى يومنا هذا يسألون بعضهم البعض: «هل شاركت فيها؟».

كانت المسيرة قد أصبحت نزهة، تناول طعام في الهواء الطلق ولم تعد سيارات زنوج المدن الصغرى الغاضبين، المغبرين والمبتلين بالعرق تظهر أمام الطائرات النفاثة المستأجرة والقاطرات والحافلات المكيفة التي حولت المسيرة الغاضبة إلى ما أسمته جريدة إنجليزية بحق بـ«الطوفان اللطيف».

كان إندماجاً من قبيل إندماج الملح والفلفل الأسود وكان كل شيء قد أصبح منظماً ومبرمجاً من توزيع الطعام إلى توزيع الشعارات التي قيل للناس ألا يحضروها إلى النشيد الذي قيل لهم أن ينشدوه إلى وسائل النقل إلى مواعيد الإنطلاق والوصول إلى الطريق الذي يجب سلوكه حتى أوشك التنظيم أن يحدد الأماكن التي يجب أن يغمى على الناس فيها.

أجل كنت هناك وشاهدت المهزلة. من سمع بثوار غاضبين يشبكون أذرعهم في أذرع العدو ويدبون وهم ينشدون ويتمايلون: «سنتغلب... في يوم من الأيام»؟.

من سمع قبل اليوم بثوار يجلسون جنباً لجنب مع أعدائهم على حافة أحواض النباتات المائية وهم يضربون صفحتها بأقدامهم الحافية على عزف القيثارات وتلاوة الأناجيل وخطب «عندي حلم»؟ وها هي الجماهير السوداء في أمريكا ما تزال تعيش في الكابوس.

وطبق «الثوار الغاضبون» بالحرف التعليمات الصادرة إليهم فرحلوا مبكراً ولم يبق منهم إلا عدد قليل حتى أن جمعية الفنادق بواشنطن أعلنت في اليوم التالي أنها تكبدت خسائر فادحة.

كانت التمثيلية محبوكة. وفي استطلاع للرأي تلا ذلك لم يقل أحد من أعضاء الكونغريس المعارضين للحقوق المدنية إنه غير رأيه. وهل كان أحد ينتظر غير ذلك أو يتصور أن فسحة إدماج ليوم واحد ستحمل أعضاء الكونغريس على تغيير أفكارهم المسبقة المتجذرة في أعماق نفوسهم البيضاء منذ ٤٠٠ عام؟

إن تصديق ملايين البيض والسود لهذه المهزلة الكبرى مثال آخر على ميل هذه البلاد إلى التلميع الخارجي والخدع وعلاج ظواهر الأمراض دون جذورها. وهكذا لم تنجح تلك المسيرة إلى واشنطن إلا في هدهدة الزنوج لبعض الوقت ثم أدركوا أنهم ذهبوا مرة أخرى ضحية خداع الرجل الأبيض فعاد الغضب أقوى مما كان وظهر في أزمات صيف ١٩٦٠ الطويل والحار والتي لم يسبق لها مثيل.

وقبل المهزلة إلى واشنطن بحوالي شهر أجرت جريدة نيويورك تايمز استطلاعاً للرأي في الجامعات تبين منه أنني ثاني شخصية مطلوبة لمخاطبة الجماهير الجامعية بعد السيناتور باري غولد ووتر. وأعتقد أن كتاب الدكتور لينكولن «المسلمون السود في أمريكا» كان له دور في ذلك لأنه كان قد أصبح مقرراً في العديد من الدروس الجامعية وكذلك استجواب كانت مجلة بلاي بوي التي تعد أكثر المجلات انتشاراً في الجامعات قد أجرته معي فكان الطلبة يريدون أن يسمعوا شخصياً هذا المسلم الأسود الشرس.

وكنت حتى ذلك الوقت قد خطبت في ما لا يقل عن خمسين جامعة مثل براون

و ـارفارد وييل وكولومبيا وراتغارز وفي مجموعة جامعات الشمال الشرقي وغيرها. وما ز ـت هناك استدعاءات من جهات أخرى تنتظر أن يتم التنسيق بين ظروفي وبرامجها. و ي ما يخص الجامعات الزنجية خطبت في جامعة أطلانطا وكلية كلارك بأطلانطا ، جامعة هووارد بواشنطن وغيرها من الجامعات الصغرى. وكان الجمهور الجامعي أ ـب جمهور إلى نفسي باستثناء الجمهور الأسود. كانت الجلسة تستغرق من ساعتين إ ـ أربع ساعات وتعدى الوقت المحدد لها أحياناً وكانت التحديات فيها والأسئلة ، لإنتقادات تأتيني من عقول منطقية، موضوعية في الجملة وحية دائماً عقول طلاب ا ـلك الثاني والثالث وأساتذتهم. وكنت أتعلم في تلك الجلسات وأكتشف ا ـتراتيجيات جديدة لتقديم تعاليم السيد محمد والدفاع عنها. كنت أجابه خمسة وستة ـلبة وعلماء هم رؤساء شعب علم الإجتماع وعلم النفس والفلسفة والتاريخ والدين ، ـان كل واحد منهم يخاطبني في نطاق تخصصه أمام جمهور غفير.

وكنت أفتتح كلامي بقولي: «أيها السادة، لقد أنهيت السنة الثالثة من التعليم ـانوي في مايسون، ميشيغان وتعليمي الثانوي في حي روكسبوري الزنجي ـاساشوسيت وتعليمي الجامعي في شوارع هارليم وحصلت على الماجيستير في ـسجن. لقد علمني السيد محمد ألا أخشى أي عقل يحاول أن يدافع عن سجلات ـجل الأبيض الإجرامية في حق غير البيض أو أن يبررها وأخص منها بالذكر جرائم ـمريكيين البيض على الأمريكيين السود». كنت كأنني أخوض حرباً برصاص فكري ـلسفي وكنت أتجاوب مع الجمهور إلى حد أنني كنت أدرك مزاجه وأجس نبضه. لقد ـرت ذلك مع خطباء آخرين ووجدتهم يتفقون معي في كون كسب الجماهير موهبة ـطرية تجعل الخطيب ينفذ إلى النفوس كالرادار وأعتقد أنني كنت قادراً على معرفة لون ـجمهور في خمس دقائق وأنا معصوب العينين. ذلك أن هناك فرقاً بين الجماهير ـسوداء والبيضاء فالأولى أكثر دفئاً وتجاوباً، يشعر المرء حتى في صمتها بإيقاع يكاد ـكون موسيقياً. كما أنني كنت أعرف من السؤال انتساب السائل العرقي لا سيما إذا ـان يهودياً أو زنجياً برجوازياً «مندمجاً» ذلك أن سؤال اليهودي ذاتي دائماً. اليهودي ـفرط في الحساسية حتى أنك لا تستطيع أن تنطق بمجرد كلمة «يهودي» دون أن ـهمك بمعاداة السامية. وسواء كان طبيباً أو تاجراً أو ربة بيت أو طالباً أو أي شيء ـنه يفكر أولاً وقبل كل شيء من موقعه كيهودي.

أنا أفهم أنه تعرض منذ ألفي سنة للضيم بسبب شخصه ودينه، ضيم يعادل ما

تعرض له غير البيض على يد البيض، ولكنني أعرف أيضاً أن يهود أمريكا البالغ عددهم خمسة ملايين ونصف المليون والذين يعيش مليونان منهم في نيويورك، يلائمهم ما يلاقيه السود الأمريكيون من تعصب وكراهية لأنه يحول النار عنهم. إن لليهود تجارات كبرى في الأحياء الزنجية يعودون منها كل ليلة إلى بيوتهم الواقعة خارج الحي الزنجي بأموال تستنزف الحي الزنجي وتبقيه في الفقر.

وكنت كلما نطقت بهذه الحقيقة أجد اليهود ينتصبون ليتهموني بمعاداة السامية، ولعلني قلت لهم خمس مائة مرة على الأقل إن اليهود لم يكونوا ليقفوا ويتفرجوا لو أن أقلية أخرى عمدت إلى استنزاف مصادر طائفتهم بتواتر وإن قول الحقيقة لا يعني أنني معادٍ للسامية، ولكنه يعني أنني معادٍ للإستغلال.

إنني، وهذا أمر قد لا يصدقه الليبراليون البيض، لم أسمع أبداً في الجماهير السوداء من يدافع عن البيض حتى ظهرت البرجوازية السوداء نصيرة «الإندماج» وإن كان كل الزنوج يعترفون إلى الآن فيما بينهم بالتاريخ الإجرامي الأبيض. قد لا يعرفونه كما أعرفه بالتفصيل ولكنهم يعرفون خطوطه العريضة. على أن البرجوازي الأسود يغير سلوكه في التجمعات المختلطة لأنه يعرف أن مستر شارلي يسمعه. ليتك سمعت ذلك النوع من الزنوج وهم يهاجمونني ويحاولون تبرير أعمال البيض والصفح عنها. كانوا يدفعون بي إلى الإخلال بالتزام قطعته على نفسي بعدم الإهتياج والشعور بالرغبة في الإنقضاض عليهم من مكاني في المنصة. مغسولو الأدمغة هؤلاء! ألعوبة الرجل الأبيض وببغاواته ودماه! ومع الأيام أعددت لهم جوابهم وبدأت أقول: «لعلك طالب في الحقوق؟» فيقولون نعم أو لا وأقول: «عرفت ذلك» أو «حسبت ذلك» لأنك تدافع عن الرجل الأبيض أكثر مما يدافع هو عن نفسه المجرمة.

ولن أنسى أحد هؤلاء وهو أستاذ جامعي يحمل شهادة الدكتوراه. بدلاً من أن يستعمل عقله في ما ينفع أبناء جنسه، كان ساقطاً بين زملائه البيض في تلك القاعة كذبابة في اللبن، وبدأ ينهشني ويلغط بقول إنني «ديماغوجي مفرق» و«عنصري مضاد» فأعملت فكري جيداً ورفعت يدي فتوقف وقلت له: «هل تعرف كيف يسمي البيض أمثالك من الدكاترة السود؟» وقال شيئاً أحسبه: «أظن أنني لا أعرف» بطريق بعض الزنوج في انتقاء كلامهم فرميتها في وجهه: «ا ل ز ن ج ي ا».

كنت أقدم للسيد محمد تقارير عن خطبي في الجامعات التي كان لها مردود كبير

على أمة الإسلام لا سيما وأنها المدرسة التي تكونت فيها الأدمغة الشيطانية، ولكنه لم يكن يريدني أن أخطب هناك لسبب فهمته فيما بعد عندما قال لي أحد أبنائه إنه يغبطني لأنه يشعر بأنه غير مؤهل لأن يفعل ذلك بنفسه.

كنت أجد الجماهير الجامعية جادة وذكية ومتفتحة على الحقائق الفجة والعارية إلى حد مذهل فكنت أقول لها: «لقد أيقنت الأجناس السوداء والسمراء والحمراء والصفراء أنها عانت من كون الرجل الأبيض غير قادر على فهم خلجات الروح، ولعله أصم عن كل لحن تعزفه الإنسانية. إنه لا يستطيع أن يرى إلا العالم الذي أنشأه ولا يزيد إلا إغراقاً في الموبقات والظلمات، إن غضب الله لن يلبث أن يحل به وإنه لم يبق هناك من الدول البيضاء العظمى إلا الإتحاد السوفياتي والولايات المتحدة اللذان يملكان صواريخ رهيبة. إن أمريكا تعمد الآن إلى دعم ما تبقى من دول بيضاء، على أن فرنسا وبلجيكا وهولاندا والبرتغال وإسبانيا وغيرها آلت إلى الضعف بعدما استرجعت البلاد غير البيضاء استقلالها.

وها هي أمريكا تجمع ما تبقى من اعتبار بريطانيا ذات البأس البائد بعدما غربت عنها الشمس إلى الأبد، وعن صورة الإستعماري البريطاني بالخوذة ونظارة العين الواحدة وهو جالس يحتسي الشاي مع زوجته الناعمة في مستعمرات غير بيضاء تبتز بلاده كل ما لديها من موارد. نعم ما يزال هناك في بريطانيا ملكية ونبلاء يعيشان مما يدفعه السياح للتفرج على قصور البارونات ومن بيع المذكرات والعطور والأتوغرافات والألقاب وأنفسهم.

الرجل الأبيض غير قادر على خوض حرب أخرى، وهذا شيء يعرفه الجميع ولو أن أحد العظميين ضغط على الزر لأصبحت الحضارة البيضاء في خبر كان. إننا ندرك مرة أخرى أن ما يجمع الناس هو العرق واللون وليس الإديولوجيات، وليس من باب الصدفة أن تتقرب أمريكا من روسيا كلما زار صينيون بلاداً إفريقية وآسيوية، وإن كان التاريخ الجماعي الأبيض يلزم الشعوب غير البيضاء بالتقارب. إن الشيطان الأبيض يريد اليوم أن يشتري أصدقاء من بين غير البيض للتغطية على ماضيه، ولكنه لا يستطيع أن يتخلص من عجرفته أو أن يتواضع فيعترف بآثامه ويكفر عنها بعدما حرف رسالة النبي عيسى القائمة على الحب على بساطتها.

كانت الجماهير تدهش عندما تجدني أتكلم على عيسى، فكنت أشرح أننا نحن

المسلمين نؤمن بالنبي عيسى ونعتبره أحد أهم ثلاثة أنبياء إلى جانب محمد وموسى. إنه يوجد في القدس مقدسات إسلامية رفعت تكريماً للنبي عيسى، ولكننا نؤمن من جهة أخرى أن المسيحية لم تلتزم برسالته. وكنت أستشهد بقول بيلي غراهام في إفريقيا عندما حوصر بالحجة فقال إنه يؤمن بالمسيح لا بالمسيحية.

ولن أنسى طالبة شقراء صغيرة لحقت بي إلى نيويورك مباشرة بعدما خطبت في كلية نيوإنغلاند. جاءتني إلى المطعم الإسلامي بهارليم ووجدتني فيه بالصدفة. كان كل ما فيها ينطق بأنها من أقصى الجنوب ويفضح أمواله وطابعه، لباسها وشكلها ولهجتها.

وكنت قد شرحت في كليتها أن السيد قبل الحرب الأهلية كان يحتال حتى على زوجته البيضاء فيقنعها بأنها أطهر من أن تنحط معه في غرائزه الحيوانية فيبعدها «بنبل» ليختلي بالمرأة «الحيوانية» السوداء ما جعل المرأة الناعمة البيضاء تنظر إلى أبيها وزوجها وإخوتها وأبنائها وهم يعمرون المزرعة بالسلالة المختلطة. وقلت إن ذنب الأمريكيين البيض يشمل معرفتهم بكونهم عندما يكرهون الزنوج يكرهون ويرفضون وينكرون لحمهم ودمهم.

المهم أن تلك الطالبة كانت متأثرة جداً وأنها قالت لي بمجرد ما رأتني: «ألا تعتقد أن هناك بيضا طيبين؟» ولم أشأ أن أجرح شعورها فقلت لها: «إنني يا آنستي أحكم على الناس من أفعالهم لا من أقوالهم» وقالت: «ماذا يمكنني أن أفعل؟» قلت: «لا شيء» فانفجرت باكية وهرولت خارجاً إلى شارع لينوكس حيث أوقفت سيارة أجرة.

كان السيد محمد كلما زرته في شيكاغو أو فينيكس يعبر لي عن رضاه وثقته، وعندما قام بالعمرة تركني على رأس أمة الإسلام، كنت أؤمن به إلى حد أنني كنت مستعداً لأن أضع نفسي بينه وبين الموت ولكن حادثة غير مرتقبة جاءت لتزعزع ذلك التبجيل وتقنعني بأن هناك ما هو أهم وتكشف لي فظاعة موقفي من السيد محمد.

كنت في كلية الحقوق بجامعة هارفارد حيث كنت مدعواً لإلقاء محاضرة ونظرت بالصدفة من النافذة وإذا بي أطل على الناحية التي تقع فيها العمارة التي توجد بها الشقة التي كنت أخفي فيها مسروقات عصابتي. واعترتني هزة عنيفة وشعور مصطخب وعادت صور الأيام التي كنت أعيش وأفكر فيها كالحيوان، وقلت في نفسي: ما أعمق ما امتدت إليّ يد الإسلام لترفعني! ولولاها لكنت الآن وأنا في السابعة والثلاثين من

عمري ميتاً أو سجيناً ممتلئاً قسوة ومرارة أو مجنوناً في أحد مستشفيات الأمراض العقلية أو في أفضل الأحوال «أحمر دترويت» ذابل، يهرب ويسرق ما يكفي لأكله ومخدراته تحت رحمة مهربين قساة أصغر سناً من نوع ما كنته عندما كنت أعرف بأحمر دترويت، ولكن الله منَّ عليَّ فهداني إلى الإسلام وساعدني الإسلام على الإرتفاع بنفسي من أوساخ هذا العالم المتعفن وأوحاله لأقف في هارفارد خطيباً! وذكرت قصة قرأتها في السجن عندما كنت مغرقاً في قراءة الأساطير الإغريقية، قصة الصبي إيكاروس. هل تذكرها؟ لقد صنع له أبوه جناحين ألصق ريشهما بالشمع الخام وقال له: «إياك أن تحلق بهما عالياً». وبدأ إيكاروس يطير وتمادى به الطيران فحسب أنه مسيطر على الوضع وارتفع في الفضاء وظل يرتفع حتى ذاب الشمع في حرارة الشمس فهوى.

وهناك، أمام تلك النافذة عاهدت الله على ألا أنسى أن الإسلام هو الذي أعطاني الأجنحة التي أحلق بها ولم أنس ذلك أبداً... لم أنسه لحظة واحدة.

الفصل السادس عشر

الطرد

في ١٩٦١ تدهورت حالة السيد محمد الصحية فجأة وبدأت تصيبه نوبات سعال كلما تكلم وتشتد عليه حتى يرتعد جسده الخرب في ألم فظيع ثم لزم الفراش.

وأبقينا الأمر سراً بيننا وبين أعضاء أسرته إلى أن علم به بعض الإخوة ثم بدأت التجمعات الكبرى المقررة منذ مدة طويلة تلغى في آخر لحظة فشعر المسلمون بالخطر وأصبحنا ملزمين بالرد على الأسئلة فانكشف الخبر وشاع في أمة الإسلام بسرعة.

كنا نقدر الخسارة التي سيسببها غياب السيد محمد الذي كان يجسد لنا أمة الإسلام التي جمعتنا تحت لوائها في أحسن تنظيم عرفه السود في أمريكا بدافع تفانينا في شخصه ونظرتنا إليه كمصلح خلقي وفكري وروحي في أمريكا السوداء. أقول أمريكا السوداء لأننا كنا نعتبر أنفسنا إذ نسير على نهج السيد محمد قدوة خلقية وفكرية وروحية لكل السود في أمريكا الذين كانوا يتكلمون باحترام على إبعاد المسلمين من أمة الإسلام، إذا ثبت أنهم كذبوا أو قامروا أو غشوا أو دخنوا السجائر، لأن السيد محمد كان يحكم على مرتكبي الموبقات كالزنى بالعزل مدة تتراوح بين سنة وخمس سنوات وأحياناً بالطرد البات، وكان أكثر صرامة مع أعوانه، لأن ذنب الرسميين كما كان يقول ذنب مُركَّب لأنهم يضرون بأنفسهم وبمسؤوليتهم كزعماء يقتدى بهم، وكان يضرب لنا المثل بحسن سلوكه، فكان لنا منارة هدى نشعر أننا بدونها سنتيه في الظلام. وكان الأطباء قد أشاروا عليه بالمناخ الجاف وكنا قد عثرنا في فينيكس كما سبق القول على بيت عازف السكسوفون لويس جوردن فاشتريناه له.

كنت أخدم أمة الإسلام بجهد مضاعف وكانت تعطاني كل الإمتيازات التي أطلبها. وكنت قد ساهمت في تقدم أمة الإسلام وتشييد سمعتها على الصعيد الوطني، حتى لم يعد بإمكان أحد أن يتهمنا بالكذب إذا ما قلنا إن السيد محمد هو الرجل

الأسود الأكثر نفوذاً في أمريكا. وكنت قد ساعدت السيد محمد وباقي رجال الدين العاملين معه في إحداث ثورة في تفكير الأمريكيين السود وفتح أعينهم بصفة جذرية يستحيل أو ينظروا بعدها إلى الرجل الأبيض بتبجيل ورهبة، وساهمت في نشر حقائق ساعدت الإنسان الأسود على التخلص من أسطورة الجنس الأبيض المتكون من رجال فوق العادة وفي تثبيت شيء ما في الروح السوداء.

وإذا كان لي من خيبة أمل مكتومة فهي اقتناعي بأننا كنا نستطيع أن نتحرك أكثر ونجعل أمة إسلامنا أقوى وأكمل في نطاق صراع الإنسان الأسود في أمريكا، أي أنني كنت أعتقد في سري أنه كان علينا أن نعدل أو أن نخفف سياسة عدم الإلتزام التي كنا ننهجها. كنت أعتقد أنه كان على المسلمين المناضلين والمُؤَطّرِين أن يهرعوا إلى كل مكان يظهر فيه تحرك أسود لصالح القضية، من نوع ما حدث في ليتل روكس وبرمنغهام وغيرهما، حتى يرى العالم ويسمع.

وكان قد بدأ يقال في الأحياء الزنجية: «إن هؤلاء المسلمين لا تسمع أصواتهم إلا إذا تعلق الأمر بإخوانهم في الإسلام» وكنت على اتصال بغير المسلمين أكثر من غيري في أمة الإسلام، فشعرت أن ذلك الكلام، باعتبار المزاج الأسود المتقلب، سينتهي بنا في يوم من الأيام إلى فقدان مكانتنا في جبهة الصراع الأمامية، وفيما عدا ذلك كان الله يبارك جهودي إذ كانت نيويورك المدينة التي يضرب فيها انتشار الإسلام الرقم القياسي، وكان المسجد الصغير الذي كان السيد محمد قد بعثني إليه قد أصبح ثلاثة من أقوى مساجد أمة الإسلام وأكثرها جرأة:

١) مسجد هارليم ٧ ـ أ في منهاتن.

٢) مسجد كورونا ٧ ـ ب في كوينز.

٣) مسجد ٧ ـ ج في بروكلين.

وكنت قد أنشأت أو ساهمت في إنشاء أكثر مساجد أمة الإسلام المائة المنتشرة في التراب الأمريكي وعبرت أمريكا أربع مرات في الأسبوع أحياناً ونمت في الطائرات النفاثة وعشت في مراطونات مع الصحافة والإذاعات وشبكات التلفزيون والجماهير، ولم أكن لأفعل ذلك كله لولا الأجنحة التي كان السيد محمد قد ركبها لي.

وفي ١٩٦١ عندما ساءت أحوال السيد محمد الصحية بدأ يصلني ما يشاع عني، وبدأت أسمع إيماءات مغلفة وأرى ما يثبت الحسد والغيرة اللذين تنبأ لي بهما السيد

محمد مثل: «إن ملكون يريد أن يستحوذ على أمة الإسلام»، «إنه يستغل تعليمات السيد محمد لصنع مجده الخاص»، «إنه يحب النجومية». ولم يغضبني ذلك بقدر ما جعلني أحرص على ألا أجعل شيئاً منه ينطبق علي. كنت أعرف أن السيد محمد نفسه تنبأ لي بالحسد والغيرة وأنه سيفهم إذا ما بلغه ذلك فلم أهتم به.

وكان غير المسلمين من جهة أخرى يتهمونني ببناء ثروة كبيرة، ولكن المسلمين كانوا يعرفون الحقيقة. أنا أبني ثروة كبيرة؟ لم يكن البوليس الفدرالي ووكالة المخابرات الأمريكية ومصلحة الضرائب مجتمعة بقادرة على إيجاد شيء في اسمي باستثناء السيارة التي أتنقل فيها والبيت الذي أسكنه والذي تحاول أمة الإسلام الآن بكل ما يحركها من غيرة وبخل أن تخرجني منه.

نعم كنت أتصرف في المال وكان إلايجا محمد يأذن لي بأخذ ما أطلبه، ولكنه كان يعرف كأي مسؤول مسلم آخر أنني لم أكن أستعمل أي فلس آخذه إلا فيما يساعد أمة الإسلام على التقدم.

وكان موقفي من المال سبب الشجار الوحيد الذي نشب بيني وبين زوجتي المحبوبة بيتي التي كانت مع ازدياد عدد بناتنا، قد ازدادت تلميحاً إلى ضرورة توفير بعض المال، وكنت أرفض فانتهى بنا الأمر إلى الشجار أوشك أن ينتهي بنا إلى الفراق، ولكنني لم أتزعزع عن موقفي. كنت أعرف أنها مستعدة لفدائي بنفسها فقلت لها إن أكثر من منظمة قد خربت لأن زعماءها حاولوا تحت تأثير زوجاتهم أغلب الأحيان أن يستغلوها لمصلحتهم الخاصة، ثم أقنعتها بأن أمة الإسلام ستتكفل بها حتى تموت وبالبنات حتى يكبرن إذا حدث لي مكروه، وكنت أكبر مغفل إذ اعتقدت ذلك.

كنت لا أنفك أوضح في كل استجواباتي الصحافية أنني أمثل السيد محمد وأقول على رأس كل دقيقة تقريباً: «يقول السيد محمد المحترم. . .» وأرفض الإجابة عن كل من يسخر من ذكري المستمر لاسمه، وأستشيط غضباً كلما قرأت أو سمعت من يسميني بالرجل الثاني في جماعة المسلمين السود وأهتف لصحافيين في مدن بعيدة طالباً منهم ألا يعودوا إلى استعمال تلك العبارة أبداً موضحاً لهم أن كل المسلمين رجل ثانٍ بعد السيد محمد».

كنت أبقي حقيبتي مكتظة بصور السيد محمد لأوزعها على الصحافيين الذين يأخذون صوري، ثم أطلب رؤساءهم وأقول لهم: «أرجوك استعمل صورة السيد محمد

عوض صورتي». وعندما وافق السيد محمد على أن يستقبل الصحافيين البيض لم أعد أدلي بشيء لا للصحافة السوداء ولا للصحافة البيضاء قبل أن أحثها على زيارة السيد محمد شخصياً في شيكاغو قائلاً: «خذ الحقيقة من فم السيد محمد نفسه» فكانت في الغالب تفعل ذلك.

كان البيض والزنوج حتى المسلمين منهم يحرجونني بنسب تقدم أمة الإسلام إليَّ فكنت أقول لهم: «إن الفضل لله وللسيد محمد». وأعتقد أنه لم يكن بإمكان أي رجل في أمة الإسلام أن يصل إلى السمعة العالمية التي وصلت إليها بفضل الأجنحة التي ركبها له السيد محمد ويبقى على إخلاصه وإيثاره له كما بقيت.

وفي ١٩٦٢ بدأت ألاحظ قلة أخباري في جريدة أمتنا «محمد يتكلم». أظن أن ذلك كان في ١٩٦٢ ثم علمت أن ابن السيد محمد هيربرت الذي يشرف الآن على جريدة، أصدر الأمر بعدم نشر إلا ما قل عني. وبذلك أصبحت أخبار الزعماء الإندماجيين الزنوج في جريدتنا تفوق أخباري، وأصبحت أقرأ عني في الصحف الأوروبية والآسيوية والإفريقية أكثر مما أقرأه في تلك الجريدة.

أنا لا ألهث وراء الدعاية الشخصية، فلقد نلت منها ما لم تنله شخصيات دولية، ولكن ضايقني أن تخفي جريدة المسلمين أخباراً هامة تمسهم من قريب لمجرد أنها ترتبط باسمي. ودفع بي ذلك مع ما ينم عنه من غيرة وقصر نظر، إلى إيقاف تجمعات كبرى خاصة وأن الأمر كان قد صدر للجريدة بمقاطعتي نهائياً. وكنت قد خطبت في ١٨٠٠٠ طالب في جامعة كاليفورنيا فغطت صحافة تلك الولاية ما قلته عن برنامج السيد محمد وقوته، ولكنني عندما وصلت إلى شيكاغو وأنا أترقب أن أقابل بالشكر وبعض التغطية قوبلت ببرودة تامة. وكررت تنظيم تجمع في هارليم حضره ٧٠٠٠ شخص فتكرر سلوك قيادة شيكاغو وكانت تثنيني عن تنظيم مثل تلك التجمعات، ولكنني عمدت بعد أسبوع إلى تنظيم تجمع آخر في هارليم أكبر من سابقه وأنجح فازدادت القيادة حسداً على حسد.

سأقول كل شيء كما حدث بقدر ما تسمح لي به قدرتي البشرية. أنا لا أحاول أن أفرغ على نفسي صفتي الحق والنبل، وإنما أحاول أن أقول الحقيقة. لقد كنت أحب أمة الإسلام والسيد محمد وأعيش لهما فأثار ذلك أحقاد باقي المسؤولين علي، لأنه كان يؤدي إلى ظهور صورتي باستمرار في الصحافة اليومية. ولم يكونوا ليدركوا

أن ذلك إنما جاء نتيجة حماستي للسيد محمد أو يستطيعون أن يفهموا أننا في غنى عن تضييع وقتنا في تكذيب الإشاعات. لم يكونوا ليدركوا أن السيد محمد لا يمكنه أن يعبر البلاد من أقصاها إلى أقصاها كناطق رسمي باسم نفسه وأن الشخص الذي كلفه بتلك المهمة لم يكن بمقدوره أن يرد عنه الأضواء.

كنت أخجل من نفسي كلما وجدت فيها شعوراً بالإمتعاض وكنت أعتبره مؤشر ضعف لأنني كنت أعرف أن السيد محمد يعرف أنني وقفت حياتي على تمثيله، ولكنني في ١٩٦٣ لم أستطع أن أمنع نفسي من الحساسية المفرطة عندما وصلتني انتقادات مسؤولين كبار في أمة الإسلام لي، فتوقفت عن تزويد بعض الإخوة بالمال وإرسالهم في مهمات تأسيس مساجد جديدة في مدن أخرى. وكانت تلك الإنتقادات تأتي ضمنياً في تسمية أولئك الإخوة استخفافاً بـ«رجال دين ملكوم».

وفي الوقت الذي كنا فيه في أمس الحاجة إلى إيصال صوتنا إلى الجماهير الواسعة، رفضتُ طلب مقابلات شخصية تقدمت لي بها مجلة لايف ونيوزويك وبرنامج «قابل الصحافة» التلفزيوني الشهير، مع ما في ذلك من خسارة للإنسان الأسود عامة ولأمة الإسلام خاصة، كل ذلك بسبب موقف قيادة شيكاغو التي زاد في غيرتها أنني طلبت شخصياً لهذه المقابلات.

وعندما اغتيل مدغر إيفرز الكاتب العام للجمعية الوطنية لتقدم الملونين في ولاية مسيسيبي سكتُّ عن الحقائق التي كان يجب أن تقال. وعندما تفجرت قنبلة في كنيسة زنجية ببرمنغهام، ألباما وأُطفئت حياة أولئك الفتيات السوداوات الجميلات الأربع، لم أتكلم بالصراحة المطلوبة على جو الكراهية التي يشيعها ويغذيها الرجل الأمريكي الأبيض. لم أقل إن السماح للكراهية بالظهور حينما تكون هناك طرق لكبحها يجعلها تعبر عن نفسها بجرأة متزايدة إلى أن تصل إلى الجنس الأبيض نفسه بما فيه زعماؤه (وكان نائب رئيس الولايات المتحدة ليندن جونسون قد سُب سباً دنيئاً في دلاس، تكساس وكانت شرطية بيضاء قد بصقت على ألداي ستيفنس السفير الأمريكي لدى الأمم المتحدة وضربته على رأسه).

كان السيد محمد عندما عينني في ١٩٦٣ أول رجل دين في أمة الإسلام بفلادلفيا قد قال وهو يعانقني: «هذا أخلص وأنشط رجل دين تابع لي وَسيبقى مخلصاً لي حتى آخر يوم في حياته». ولم يكن قد أثنى على مسلم آخر بمثل ذلك، فاعتززت به كما لم

أعتز بشيء في حياتي، ولكنها كانت آخر مرة وقفنا فيها أمام الجمهور معاً.

وكنت قبلها في برنامج جيري وليامز الإذاعي ببوسطن عندما جاءني شخص ببرقية وصلت لتوها على خط اليونايتد بريس تقول إن فرع لجنة المواطنين في لويزيانا يهب ١٠ ٠٠٠ دولار لمن يقتلني فقرأتها وأنا لا أدري أن خطر القتل في بوسطن كان أقرب إلي منه في لويزيانا. إن ما أقوله هو الحقيقة. لقد اكتشفت بذهول شديد أن هناك جهة أخرى تريد قتلي.

خلال الإثنتي عشرة سنة التي قضيتها كرجل دين، كنت صارماً في كل ما يتعلق بالأخلاق حتى اتهمني كثير من المسلمين بمعاداة المرأة. كنت أؤمن إيماناً راسخاً بأن إلايجا محمد يمثل للسود، في كل جوانب حياته، رمز الإصلاح الخلقي والفكري والروحي، وكنت أركز على ذلك في خطبي، وأعلن أن ما طرأ على حياتي من تغيير مثال حي في قدرة السيد محمد على إصلاح السود. لم أكن قد مسست امرأة خلال إثنتي عشرة سنة أي منذ دخولي السجن إلى يوم زفافي، بسبب تأثير السيد محمد عليَّ، ولكن في مشارف ١٩٦٣ بدأت أتحاشى الكلام على الدين. كنت أدرس للمسلمين المبادىء الإجتماعية والأحداث الراهنة والسياسة لأبقى بعيداً عن الأخلاق، لأن إيماني كان قد اهتز بشكل لا يمكنني شرحه بعدما اكتشفت أن إلايجا محمد قد خدع المسلمين. لن أقول هنا إلا ما يساعد على فهم موقفي وردود فعلي سيما وأن ذلك قد أصبح الآن معروفاً. ورغبة في الإختصار سأورد نص الخبر الذي أصدرته إحدى وكالات الأخبار كما نشرته وأذاعته وسائل الإعلام في طول البلاد وعرضها:

«لوس أنجلس ٣ يوليو، يونايتد بريس إنترناشنل. جابه اليوم إلايجا محمد البالغ من العمر ٦٧ سنة دعوتين رفعتهما عليه امرأتان كانتا تعملان سكرتيرتين عنده تتهمانه فيهما بأنه أب أولادهما الأربعة من الزنى. المرأتان اسمهما الآنسة روزاري والآنسة وليامز وكلاهما دون الثلاثين أكدتا أنهما كانتا على علاقة حميمة بإلايجا محمد من ١٩٥٧ إلى العام الحالي. وقالت الآنسة روزاري إنها حامل بطفل ثالث منه بينما أكدت المدعية الثانية أنه أب ابنتها...».

كنت قد بدأت أسمع منذ ١٩٥٥ بعض التلميحات، ولكن مجرد التفكير في أخذ أي شيء يتعلق بفساد السيد محمد بعين الإعتبار كان يملأني بالفزع، ولذلك رفضت بكل بساطة أن أسمع لفظ زنى مقروناً باسم السيد محمد، وهو الجريمة التي كنا نطرد

من يرتكبها طرداً شنيعاً. كانت مجموعة متواترة من سكرتيرات السيد محمد قد ظهرت عليهن أعراض الحمل، وكنا قد أبقينا أمرهن سراً بيننا وشكلنا محكمة حكمت عليهن بعدما اعترفن بارتكابهن الزنى بالمقاطعة مدداً تتراوح بين سنة وخمس سنوات.

هل يمكن أن يكون هناك دليل على عمق إيماني بالسيد محمد أكبر من رفضي استعمال عقلي في اتهامه بالزنى ولجوئي بكل بساطة إلى عدم تصديقه؟ كنت أخشى أن يذهب الله بعقلي كما ذهب بعقل أخي ريجينالد إن أنا أسأت الظن بالسيد محمد. وكان آخر عهدي بريجينالد يوم رأيته قادماً إلى المسجد السابع فذهبت إليه وأوقفته وحدقت إليه النظر وأنا أقول له إنه شخص غير مرغوب فيه بين المسلمين فاستدار وذهب ولم أره بعد ذلك. فعلت ذلك مع أخي لأن السيد محمد كان قد أمر المسلمين بمقاطعته منذ سنوات، وكنت أعتبر أنني مسلم قبل أن أكون أخ ريجينالد. ولم يكن بمستطاع أي كان أن يقنعني بأن السيد محمد سيخون ثقة أولئك البؤساء وتبجيلهم الذين كانوا يعطون ملاليمهم لأمة الإسلام وهم عاجزون عن دفع إيجار مساكنهم.

وفي ١٩٦٢ علمت أن عدداً كبيراً من المسلمين قد هجر مسجد شيكاغو الثاني. وكانت الفضيحة الشنيعة قد بدأت تنتشر حتى بين الزنوج غير المسلمين، فخفت أن تصل إلى الصحافيين السود أو البيض علماً مني بأنهم بالمرصاد للنيل من أمة الإسلام، حتى بدأت أعيش في كوابيس وأرى الفضيحة في عناوين الأخبار. وكنت والحالة هذه أشعر بعبء ثقيل وأنا أواصل إلقاء خطبي في كل أرجاء البلاد. لم يكن هناك صحافي واحد يقترب مني ولا يقول: «هل ما سمعناه صحيح يا سيد ملكوم؟ أن. . .» وماذا كان بإمكاني أن أقول؟

لم أكن في وقت من الأوقات قد سمحت لعقلي بمعالجة الورطة بشكل طبيعي. حتى عندما بدأت أنظر فيها كنت أفعل ذلك منطلقاً من مبدأ الرفض. وبدأ غير المسلمين في كل من نيويورك وشيكاغو يقولون لي إنهم سمعوا أو يسألونني إن كنت قد سمعت، فكنت أتظاهر بأنني أسمع الخبر لأول مرة وأرجوهم ألا يذكروه لأحد. كنت أعرف أنهم ينظرون إلي كأكبر مغفل وأشعر أنني كذلك فعلاً وأنا أواصل إلقاء خطبي في الوقت الذي كنت لا أعرف فيه على ما يبدو ما يجري أمام عيني، داخل منظمتي في شأن الرجل الذي كنت أغدق عليه الثناء. وأيقظ ذلك في نفسي أحاسيس لم أشعر بها منذ كنت خارجاً على القانون في شوارع هارليم حيث يعتبر الخداع أدهى وصمة يصاب بها الإنسان.

وذات يوم قال لي الممثل ديك غريغوري في كواليس مسرح أبولو بهارليم متعجباً: «إن محمد مجرد. . .» لا أستطيع أن أذكر اللفظ الذي استعمله والذي أثار فيَّ حميتي الإسلامية وآلمني ألماً لا يوصف. وأردت أن أضربه ولكنني شعرت بضعف وخواء، ولعله رأى ذلك على وجهي فتركني أحيد به عن الموضوع. كنت أعرف أن ديك وأصله من شيكاغو رزين رزانة أولاد الشوارع وفج العبارة وأردت أن أرجوه ألا يقول ما قاله لي لأحد، ولكنني لم أستطع لأنني لو فعلت لأكدت الإشاعة بطريقة غير مباشرة.

كنت فيما مضى كلما وجدتني أمام مشكل عويص أركب أول طائرة إلى السيد محمد. وكان السيد محمد قد رد إلي الروح وأعطاني أحسن ما أملك وجعل مني الرجل الذي أصبحته فشعرت أنه لا يمكنني أن أتخلى عنه مهما حدث. ولم يكن عندي من ألجأ إليه في مثل تلك الحالة سواه، فقر قراري آخر الأمر على أن أذهب إليه، ولكنني ذهبت بدلاً من ذلك إلى شيكاغو، وبدأت برؤية ابنه ما قبل الأخير ولاس. كنت أشعر أنه أكثر أبنائه إيماناً وموضوعية، وكانت تجمعني به معزة وثقة متبادلتان. ورآني فعرف على التو ما جاء بي وقال: «أعرف» وقلت إنني أعتقد أن علينا أن نكتل جهودنا لمساعدة والده، فقال إنه لا يشعر أن والده سيقبل أن يساعده أحد فقلت في نفسي إنه (ولاس) مجنون ولا شك.

وبعد ذلك خرقت القانون واتصلت بثلاث من سكرتيرات السيد محمد السابقات المحكوم عليهن بالمقاطعة وسمعت منهن مباشرة حكاية أبوة السيد محمد لأبنائهن، وإلى جانبها ما كان يقوله عني من أنني أعظم رجال الدين التابعين له ولكنني خطر كبير عليه لأنني سأتخلى عنه وأنقلب ضده في يوم من الأيام فآلمني بشدة أنه كان يمدحني في وجهي ويمزقني في ظهري.

وبقيت أستقبل وسائل الإعلام وأفي بالتزاماتي وأتعامل مع المسلمين في مسجدنا السابع ورأسي يدور من الإشكال حتى كدت أجن ثم توضحت لي الأمور. قلت إنني إخل بولائي للسيد محمد ولا أساعده وأنا قابع لا أفعل شيئاً وأن شخصاً ما عليه أن يتحرك، فكتبت له ذات ليلة رسالة ذكرت له فيها ما يشاع عنه فطلبني بالتلفون وقال إنه سيناقش الموضوع معي عندما يراني.

كنت أريد أن أجد مخرجاً، معبراً تقطع عليه أمة الإسلام هذه المحنة التي تهددنا

بتخريبها من الداخل، فقد كنت أؤمن بها ولم نكن جماعة زنوج مسيحيين نقفز ونصيح وكلنا آثام، ثم وجدت المعبر. فكرت أن نقول للمسلمين المخلصين إن منجزات المرء تغطي على ضعفه البشري المرتبط بحياته الشخصية. وكنت قد راجعت بمساعدة السيد محمد كلاً من القرآن والإنجيل للإستدلال بهما عند الحاجة فعدت إلى النصوص التي تظهر أن زنى النبي داوود بباتشيبا سقط من ذاكرة التاريخ لحساب قتله غولياث وأن لوطاً يرتبط في أذهاننا بإنقاذه أهله من دمار سادوم وعامورة وليس بزناه ببناته، وأن الصورة التي كوناها عن نوح هي صورة بنائه سفينته وتلقينه قومه طرق النجاة من الطوفان وليس صورة سكره ذات مرة، وأننا عندما نفكر في موسى نراه وهو يقود اليهود من العبودية وليس وهو يزني بالحبشيات... وهي أمثلة تغلب فيها الحسنات على السيئات. وبدأت أقول في خطبي بمسجد نيويورك السابع إن منجزات الإنسان تغلب على ضعفه وحسناته على سيئاته دون أن أشير إلى الزنى أو الإنحلال الخلقي.

والغريب أن الفضيحة لم يعلم بها إلا عدد قليل من المسلمين في بوسطن ودترويت ونيويورك، بينما لم يعلم بها أحد في مساجد المدن الأخرى. وعلمت أن عدد الخارجين من مسجد شيكاغو يزداد وأن المتعاطفين مع الأمة قد قلبوا لها ظهر المجن. وفي فبراير ١٩٦٣ عندما ترأست حفل التخرج في الجامعة الإسلامية وقدمت أعضاء أسرة السيد محمد شعرت ببرودة المسلمين في الجمهور.

وفي أبريل ١٩٦٣ طلبني السيد محمد من فينكس فذهبت إليه. وتعانقنا كعادتنا فأخذني إلى الحديقة رأسا وبدأ يتكلم بجانب مسبحه. كان رسول الله وكان قد أنقذني وأنا سجين على درجة من الدناءة والخسة جعلت باقي السجناء يلقبونني بالشيطان. وكان هو من علمني وعاملني معاملة الرجل لابن صلبه وزودني بإمكانات الذهاب إلى أماكن وفعل أشياء لم أكن لأحلم بها. وتمشينا وأنا في دوامة من الإنفعالات ثم قال: «ما الذي يشغل بالك يا بني؟» فرددت عليه ما يقال عنه بوضوح وصراحة ودون أن أحاول تخفيف كلامي، وقبل أن يجيبني قلت له إنني وابنه ولاس قد وجدنا في القرآن والإنجيل ما يمكننا به تبرير عمله للمسلمين إذا دعا الأمر وتقديمه لهم كشرط مكمل للنبوة فقال: «إنك لا تدهشني يا ولدي. إنك تفهم النبوة والروحانيات فهماً كاملاً. أنت تعترف أن ما حدث علامة من علامات النبوة. إنك تملك فهم الشيوخ». وزاد قائلاً: «أنا داوود

عندما أخذ داوود زوجة رجل آخر. ونوح الذي قرأت أنه سكر ذات مرة أنا، وأنا لوط الذي قرأت أنه ضاجع بناته. إنني ملزم بإنجاز كل هذه الأشياء.»

وتذكرت أن الوباء يجابه بلقاح يحمل الجراثيم التي تنقله لمساعدة الجسم على مقاومتها فاخترت ستة من المسؤولين من مساجد الساحل الشرقي وأطلعتهم على ما دار بيني وبين السيد محمد وشرحت لهم السبب الذي جعلني أفعل ذلك وهو أنني لا أريدهم أن يفاجأوا أو يصدموا إذا ما طلب منهم أن يفسروا حكاية «إكمال النبوة» في مساجدهم. كان بعضهم قد علم بالفضيحة منذ ستة أشهر مثل رجل الدين لويس إكس من بوسطن وكانوا كلهم يعانون في سرهم.

ولم يخطر ببالي أن المسؤولين في شيكاغو سيستعملون عملي ذاك ضدي ويتهمونني بمحاولة إطفاء النار بالبترول وليس بالماء كما كانت نيتي. لم يخطر ببالي أنهم سيجعلون عملي ذاك يبدو وكأنه محاولة لنشر الوباء لا للتلقيح ضده كما كانت نيتي. وهكذا هُيئت المسرحية في شيكاغو لتحويل إنتباه المسلمين إلي وجمع شمل من كان إيمانهم قد تضعضع على كراهيتي.

وبدأ زنوج غير مسلمين أعرفهم جيداً بل وحتى صحافيون بيض كنت على اتصال بهم يقولون لي كلما رأوني تقريباً: «إن التعب بادٍ عليك يا ملكوم إكس. أنت في حاجة إلى الراحة».

كانت المرة الأولى منذ إسلامي التي يكلمني فيها بيض في موضوع شخصي، وكنت أشعر أن بعضهم يفعل ذلك بنية صافية. وقال لي واحد منهم لن أسميه حتى لا أتسبب في طرده من عمله: «إن البيض يا ملكوم يحتاجون إلى صوتك أكثر مما يحتاج إليه الزنوج». أذكر ذلك لأنها كانت المرة الأولى التي تكلمت فيها منذ أسلمت مع أي رجل أبيض خلال مدة ما من الزمن في موضوع لا يتعلق بأمة الإسلام وصراع الأمريكيين السود الراهن.

لا أعرف كيف أو لماذا أورد ذلك الصحافي الكتابات المكتشفة في حفريات البحر الميت فقلت له: «إنها ستخرج المسيح من الزجاج الملون والرسوم الحائطية التي ظل بها ولمدة قرون بلونه الأبيض الناصع وتعيده إلى لونه الحقيقي». ودهش صحافي وواصلت كلامي قائلاً: «إن كتابات البحر الأحمر هذه ستثبت أن المسيح كان ينتمي إلى جماعة دينية مصرية وهي حقيقة كانت معروفة من أيام المؤرخ المصري فيلو

الذي عاصر المسيح. وأخذني الحديث مع ذلك الصحافي في متاهات الحفريات والتاريخ والدين ساعتين كدت أن أنسى همومي خلالهما، واتفقنا على أن كل طفل سيتعلم في المدرسة في حدود ٢٠٠٠ اللون الحقيقي لرجالات القرون الوسطى.

سبق لي أن قلت إنني كنت بين الفينة والأخرى أنتظر أن تتكلم الصحف عليّ ولكن ليس كما فعلت. الكل يعرف من قتل في دلاس، تكساس في نوفمبر ١٩٦٣. وبعد الحادثة بساعتين، وأنا أقول الحقيقة، كان كل رجل دين مسلم قد توصل بأمر السيد محمد الذي كان في الواقع أمرين: عدم الإدلاء بأية ملاحظة في موضوع الإغتيال والإكتفاء بقول: «ليس عندي أي تعليق» إذا ألح السائل.

وخلال الأيام الثلاثة التي كانت الأخبار فيها لا تدور إلا عن اغتيال الرئيس، قرر السيد محمد عدم إلقاء خطاب كان من المقرر أن يلقيه في مركز منهاتن بنيويورك ولم نتمكن من استرجاع تكاليف استئجار المركز فقد أمرني أن أخطب نيابة عنه.

لقد رجعت أكثر من مرة إلى نقط ذلك الخطاب الذي كان بعنوان «حكم الله على أمريكا البيضاء» والذي كان موضوعه أن المرء لا يحصد إلا ما زرعته يداه وهو من أحب المواضيع إلي. وفتح باب المناقشة فطرح علي سؤال يفرض نفسه: «ما رأيك في اغتيال الرئيس كيندي؟» ودون أن أفكر قلت للسائل رأيي بصدق. قلت له إن البيض قد نالوا جزاءهم وإن الكراهية البيضاء لا يمكن حصرها في قتل سود عزل، إنها عندما يسمح لها بالإنتشار دون رادع ترد في نحر مروجيها وتضرب رئيس الدولة بذات نفسه. قلت إن ذلك ما وقع مع مدغر إيفرز وباتريس لومومبا وزوج السيدة نهو.

وتلقفت الصحف قولي: «ملكوم إكس الناطق باسم المسلمين السود يقول إن البيض قد نالوا جزاءهم». إن استرجاع ذلك كله الآن ينهكني. كانت بعض الشخصيات البارزة في أمريكا والعالم تقول الشيء نفسه بكل الطرق وبلهجة أكثر حدة، إن الكراهية في أمريكا هي التي قتلت الرئيس، ولكنه أصبح في فمي نذير سوء.

وكان اليوم التالي هو موعد لقائي الشهري مع السيد محمد. وشعرت بالتوتر وأنا في الطائرة فأقلقني ذلك لأن حدسي لا يخيب. وعانقني السيد محمد فوجدت ترحابه بارداً، وفجأة شعرت بالتوتر من جديد وهو مؤشر له كما قلت دلالته. كنت أعتز بكوني من القرب من السيد محمد بحيث أعرف شعوره من شعوري. إذا كان متوتراً كنت أشعر بالتوتر وإذا كنت هادئاً كنت أعرف أنه هادىء وقد كنت ذلك اليوم في غاية التوتر.

وتكلمنا على أشياء كثيرة في غرفة الإستقبال ثم سألني: «هل قرأت الصحف هذا الصباح؟» فقلت له: «نعم يا سيدي قرأتها» فقال: «لقد أخطأت خطأً كبيراً عندما نطقت بذلك الكلام. إن البلاد تحب ذلك الرجل. البلاد كلها تبكيه. لم يكن من الصواب أن تقول مثل ذلك الكلام في مثل هذا الوقت. إنه في غير صالح المسلمين». وواصل بصوت خيل إلي أنه يأتي من مكان بعيد: «إني أراني مضطراً لإسكاتك مدة تسعين يوماً حتى أبرىء ذمة المسلمين من كلامك المتهور».

وشعرت بتنمل في جسدي ولكنني كنت من أتباع السيد محمد وكنت أقول مراراً لمساعدي: إن من يصدر الأوامر يجب أن يكون مستعداً لتطبيقها على نفسه فقلت للسيد محمد: «أنا متفق معك ومستسلم لأمرك مائة في المائة».

وفي الطائرة استعددت نفسانياً لإطلاع مساعدي على توقيفي أو «إسكاتي» ولكنني لدهشتي وجدتهم يعرفون، وأكثر من ذلك كانت كل جريدة وكل محطة إذاعية وتلفزيونية في نيويورك قد توصلت ببرقية تنهي إليها الخبر فكان ذلك أسرع وأشمل عمل إعلامي رأيت المسؤولين في شيكاغو يقومون به بمبادرة منهم.

وبدأت التلفونات ترن في كل مكان أتردد عليه وكان من بينها مكالمات من لندن وباريس ومن الأسوشييتد بريس واليونايتد برس إنترناشينل ومن كل شبكات التلفزيون والإذاعة وكل الصحف في البلاد فقلت لهم «إنني خالفت أمر السيد محمد وإنني مستسلم لحكمته وإنني أترقب رفع المنع عني بعد تسعين يوماً» فظهرت الصحف وعليها هذا العنوان: «إسكات ملكوم إكس». كان أكثر ما يقلق بالي أنني وأنا أكثر المسلمين خبرة في التعامل مع الإعلام لن أتمكن من الكلام إذا ما ظهرت فضيحة تمس أمة الإسلام وأن هذه الفضيحة إذا ما ظهرت ستستغل إلى أقصى حد.

واكتشفت بعد ذلك أنني لم أكن ممنوعاً من مخاطبة الصحافة وحسب، ولكنني كنت ممنوعاً أيضاً من إلقاء خطبتي في مسجدي. بعد ذلك أعلنوا لأمة الإسلام أنني سأرجع إلى ممارسة عملي إذا «استسلمت» فبدأ الشك يراودني. كنت قد استسلمت كلية ولكنهم كانوا يوعزون للمسلمين بأنني متمرد، ولما كنت قد عشت مع الخارجين على القانون فقد كنت أستطيع أن أميز بين الترقية والتجريد من الرتبة.

وبلغني بعد أيام أن أحد أعواني المباشرين يقول لبعض الإخوان في المسجد السابع: «لو عرفتم ما فعله لخرجتم وقتلتموه بأنفسكم» ففهمت أن ذلك لم يكن ليقال

لولا أن المصادقة على قتلي إن لم تكن المبادرة لم تصدر من أعلى مستوى.

شعرت كأن برأسي نزيف، كأن عطباً قد أصاب مخي فذهبت إلى طبيبة الأسرة الدكتورة ليونا تورنر في شرق إلمهورست بلونغ آيلاند وسألتها أن تجري لي فحصاً على مخي ففعلت ثم قالت إنني تحت تأثير ضغط شديد وأنني في حاجة إلى الراحة.

إنني لم أعد أرى كاسيوس كلاي ولكنني مدين له بأنه دعاني وزوجتي وبناتي دعوة كانت هدية منه بمناسبة عيد زواجي السادس في ذلك الوقت بالذات إلى ميامي التي كان يتمرن به لمقابلة سوني لستون.

وكنت قد تعرفت إليه في دترويت في ١٩٦٢ حيث كان قد حضر مع أخيه رادولف إلى مطعم الطلبة المجاور لمسجد دترويت حيث كان السيد محمد سيخطب في تجمع كبير. وأعجب المسلمون ببساطة وتلقائية الأخوين البطلين الأخاذين. وجاء كاسيوس وربت على يدي وقدم لي نفسه كما قدمها فيما بعد للعالم قائلاً: «أنا كاسيوس كلاي» بلهجة من يفترض أنني أعرف من هو، فتصرفت كما لو كنت أعرف ثم ذهب كل منا إلى حال سبيله، إذ إننا كنا من عالمين مختلفين للغاية زيادة على أن السيد محمد كان قد أمرنا بعدم ممارسة أي نوع من أنواع الرياضة.

وبدأ السيد محمد يتكلم فبدأ الأخوان يقودان التصفيق وزاد ذلك من إعجاب الناس بصدقهما سيما وأن تجمعا إسلامياً كان آخر مكان يمكن أن يبحث فيه المصارع لنفسه عن أنصار. بعد ذلك بدأت أسمع من حين لحين أن كاسيوس قد زار مسجداً أو مطعماً إسلامياً في هذه المدينة أو تلك. وكنت كلما خطبت في مكان يوجد هو على مقربة منه وجدته في الجمهور. وأحببته ولعل ميزة ما فيه جعلتني أدعوه إلى بيتي مع أنني لم أكن أدعو إليه في العادة أحداً. وأحبته بيتي وجنت به البنات. كان في الواقع شخصاً يحب، كان ودياً وأنيقاً وواقعياً. ولاحظت أنه ينتبه إلى أدق التفاصيل وشككت في أن تكون الدعاية الشائعة عن فظاظته إشاعة مرسومة فقلت له ذلك وقال إنه يستعمل كل الوسائل لهز ثقة سوني لستون في نفسه وتعقيده وجعله يدخل الحلبة غاضباً، غير مدرب وواثقاً في نفسه أكثر من اللازم ومطمئناً إلى أنه سيحقق ضربة قاضية أخرى من ضرباته المتبجحة.

ولم يكن كاسيوس يتقبل النصح وحسب، ولكنه كان يسعى إليه فقلت له إن نجاح الأبطال متوقف على مدى انتباههم ومعرفتهم بحقيقة طبائع ودوافع من يحيطون

بهم، وحذرته من «الثعالب» وهو الإسم الذي كان يطلقه على البنات اللاتي كن يحطن به وقلت له إنهن في الحقيقة ذئاب لا ثعالب.

كانت تلك أول إجازة لبيتي منذ زواجنا. ومرحت بناتنا الثلاث ولعبن مع المرشح لبطولة العالم في الوزن الثقيل. لا أعرف ماذا كنت سأفعل لو بقيت في ذلك الوقت الحرج في نيويورك محاصراً بتلفونات ترن وبالصحافة وكل من كانوا يتحرقون على التمحيص والتأويل والشفقة. وكنت كمن عاش زواجاً منسجماً وجميلاً مدة إثنتي عشرة سنة ثم وجد رفيقه ذات صباح وهو يتناول فطوره يرمي إليه عبر المائدة بورقة الطلاق. أصبت بما يشبه الصدمة العاطفية وشعرت كأن شيئاً في الطبيعة قد تعطل، الشمس مثلاً أو النجوم. كانت الواقعة على ذلك القدر من الإستحالة والهول بحيث يستحيل قبولها. كنت وأنا مع مساعدي كاسيوس أو في فندق هامبتون هاوس حيث كنا نقيم أكلم زوجتي والناس ولا أعي مما أقوله شيئاً. كانت الكلمات تخرج من زاوية صغيرة من عقلي بينما بقية عقلي تعج بألف صورة وصورة من السنوات الإثنتي عشرة الماضية. صور من المساجد. . . . ومع السيد محمد. . . ومع أهل السيد محمد. . . ومع المسلمين كجمهور وكأفراد في جلسات خاصة. . . وصور مع البيض كجمهور وكصحافة. كانت الصور تدور في رأسي وأنا أمشي وأتكلم وأتحرك.

وفي يوم المقابلة قلت للصحافيين الرياضيين وكررت لهم أنني مقتنع في قرارة نفسي بأن عودتي إلى عملي بعد انقضاء فترة التسعين يوماً هراء. كنت أعرف أنني انفصلت عن أمة الإسلام انفصالاً جسدياً وليس نفسانياً. هل تفهم ما أقوله؟ قد يوقع القاضي على ورقة الطلاق ولكن الطلاق بالنسبة لأحد الطرفين أو لكليهما لا يستقر في نفسيهما إلا بعد سنوات.

وهكذا كانت شيكاغو قد دبرت مكيدتها لإبعادي من أمة الإسلام إن لم أقل من الحياة ولم يكن هناك ما أستطيع فعله لمنعها من ذلك ولم يكن قولي: «إن البيض قد نالوا جزاءهم» إلا فرصة انتهزتها وعللت بها إبعادي. ولما كانت المرحلة الأولى من الخطة قد تمت وأوهم المسلمون بأنني تمردت فقد بدأت أنتظر أن تبدأ المرحلة الثانية التي تقضي بإيقافي موقتاً في انتظار مقاطعتي لفترة غير محددة. وكنت أعتقد أنهم في المرحلة الثالثة سوف يقنعون أحد المسلمين الجاهلين للحقيقة. بالتطوع لقتلي كواجب ديني أو الإكتفاء بإبعادي حتى أختفي نهائياً من مسرح الأحداث.

كانت زوجتي هي الشخص الوحيد الذي يعرف الحقيقة ولم يكن يخطر ببالي أبداً أنني سأصبح متكلاً على امرأة كما أصبحت متكلاً عليها في استمداد قواي المعنوية. لم نكن نتكلم في الموضوع وكانت هي تلوذ بالصمت بما عهد فيها من تفهم، ولكنني كنت أشعر بمؤازرتها. كنت أعرف أنها تؤمن بالله قدر إيماني به، فكنت أعرف أنها ستبقى إلى جانبي مهما حدث. ولم أكن أخشى الموت لأنني كنت طوال السنوات الإثنتي عشرة الماضية مستعداً لفداء السيد محمد بحياتي، ولكن الخيانة كانت أشد علي من الموت. كنت أستطيع أن أتقبل الموت ولكنني لم أكن أستطيع أن أتقبل خيانة كل ما أسلفته من ولاء لأمة الإسلام وللسيد محمد. ولو أن السيد محمد كان خلال السنوات الإثنتي عشرة الماضية قد ارتكب جريمة مدنية يستحق عليها الموت لحاولت أن أثبت أنني أنا الذي ارتكبتها ولذهبت إلى المشنقة عوضاً عنه.

وفي ميامي وأنا ضيف على كاسيوس كلاي كنت أبذل جهداً خارقاً لتحويل تفكيري من همومي إلى هموم أمة الإسلام وأحاول إقناع نفسي بأن المعاصي التي ارتكبها السيد محمد كان القصد منها إكمال شروط النبوة ذلك أنني كنت أؤمن بأنه يأتي بعد الله مباشرة.

ومع ذلك فشلت في مواراة أو تجاهل كونه لم يعترف بمسؤوليته أمام أتباعه كضعف بشري أو تكميل للنبوة، وهو ما كان المسلمون سيفهمونه أو يتقبلونه على الأقل، وأنه كان فوق كل ذلك يختفي ويخفي فعلته فصدمني ذلك بعنف. وانتبهت إلى أنني آمنت به أكثر مما آمن هو بنفسه فبدأت أسيطر على أعصابي وأستجمع قواي لمواجهة الواقع والتفكير في نفسي لأول مرة بعد إثنتي عشرة سنة.

ورجعنا إلى بيتنا في لونغ آيلاند وهناك علمت أن استياء مسلمي شيكاغو مني قد زاد بسبب وقوفي في صف كاسيوس كلاي الذي عكسته الصحافة. كانوا يعتقدون أن كاسيوس لن يفوز وأنني أحرج الأمة بربطه به ولا أعرف إن كان كاسيوس يأبه اليوم لكون «محمد يتكلم» هي الجريدة الوحيدة في أمريكا التي كانت تعتقد أن مقابلته تلك لا تستحق التغطية مع أنه مسلم.

وشعرت أن إرادة الله هي التي دبرت لي أن أساعده على إثبات تفوق الإسلام أمام العالم بإثبات تفوق العقل على العضلات، في الوقت الذي كانت الناس فيه تتكلم على إمكانية فوز كاسيوس على لستون باستهزاء، فقفلت راجعاً إلى فلوريدا ومعي صور

فوتوغرافية لفلويد باترسون وصوني لستون وإلى جانبهما كهان مسيحيون يعملون معهما كـ«مستشارين روحيين». ولم أكن في حاجة لأن أذكر كاسيوس بما فعلته المسيحية البيضاء بالسود فاكتفيت بقولي له: «إن هذه المقابلة فاصل بين الحق والباطل، إنها صراع أول بين الصليب والهلال يجابه فيه مسلم مسيحياً لأول مرة وتنقله عدسات الكاميرات إلى العالم بأسره». قلت له: «هل تعتقد أن الله دبر هذا كله لو لم يكن قد كتب لك النصر؟». ولذلك كان يقول يوم إقرار الوزن ولعلك تذكر ذلك أنه قد تنبّأ له بالنصر وأنه لا يمكن أن يهزم.

كان مدربو لستون ومستشاروه يمرنونه على الإندماج لا على مصارعة كاسيوس، وكان قد استأجر بيتاً فخماً في منطقة بيضاء غنية كان جاره فيه هو دان توينغ صاحب نادي نيويورك الأبيض للبايسبول. ولعل هذا يعطيك فكرة عن مدى غنى تلك المنطقة، في حين كنتُ أرافق كاسيوس في الأماسي إلى الأحياء السوداء فكان يُذهل الزنوج أنه يأتي إليهم ولا يذهب مثل معظم الأبطال السود إلى البيض. وكان يزيد في دهشتهم قول كاسيوس لهم: «أنتم أهلي وأنا أستمد قواي منكم». وبذلك كان صوني على وشك أن يقابل مصارعاً مدمراً يعبد الله ويجهل الخوف.

ويوم المقابلة وجدت أن مقعدي في قصر المؤتمرات يحمل رقم سبعة، الرقم الذي أتفاءل به فاستبشرت. كان أخو كاسيوس رادولف يجري مقابلته الإقصائية الأولى وكان كاسيوس قلقاً عليه، ولكن في الوقت الذي كان رادولف يفوز فيه على زنجي من فلوريدا يدعى «شيب» جونسون كان كاسيوس يتابع المباراة من الخلف بمنتهى الهدوء في سترة سوداء. وكان ذلك إلى جانب تهكمه، وما قاله يوم الوزن كفيلاً بتنوير بعض الصحافيين الرياضيين الذين كانوا يتكهنون بهلاكه.

وذهب كاسيوس لتغيير ملابسه استعداداً لدخول الحلبة فدعوت له كما وعدته. وجاء الخصمان أخيراً ووقف كل منهما في ركن من أركان الحلبة فشبكت ذراعيَّ على صدري محاولاً أن أبدو هادئاً لا سيما والكاميرات في مثل ذلك الموقف كفيلة بأن تظهر المرء في أطوار قريبة من الجنون.

ومرت المقابلة حسب ما كان كاسيوس يبتغي في كل أطوارها باستثناء الجولتين الرابعة والخامسة اللتين فقد فيهما الرؤيا موقتاً. وكان يتحاشى لكمات خصمه القوية الذي كان العياء قد بدأ يظهر عليه ابتداء من الجولة الثالثة نظراً لتقدمه في السن ولصبه

جميع قواه في الجولتين الأوليين ثم لم يلبث أن استسلم وانهزم.

كان تحولاً كبيراً في تاريخ الملاكمة يرجع السر فيه إلى أن كلاي درس قبل المباراة بعدة أشهر إمكانات خصمه دراسة مستفيضة. وكان احتفال كلاي بفوزه بلقب بطل العالم في الوزن الثقيل احتفالاً غريباً. جاء إلى الفندق الذي أقيم فيه وأكل الآيس كريم وشرب الحليب تكلم مع جيمي براون بطل الكرة المستطيلة ومع أصدقاء آخرين ومع الصحافيين ثم نام قليلاً في غرفتي قبل أن يلتحق بمقر إقامته.

وفي اليوم التالي تناولت الفطور معه قبل أن يعقد ندوته الصحافية التي أعلن فيها للعالم أنه مسلم. ولكن دعني أوضح هنا شيئاً. إنه لم يقل أبداً أنه ينتمي إلى أي «مسلمين سود» ولكن الصحافة هي التي استنتجت ذلك من كلامه الذي جاء فيه: «إنني أؤمن بالدين الإسلامي أي أنني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله شأن ما ينيف على سبع مائة مليون مسلم داكن اللون في إفريقيا وآسيا.

وكان أسخف رد في فورة الغضب التي تلت ذلك هو الذي جاء على لسان فلويد باترسون الذي قال إنه يعلن ككاثوليكي منازلته كاسيوس كلاي ليستخلص تاج بطولة الوزن الثقيل من يد مسلم، فكان بذلك مثالاً حياً على مأساة المسيحيين مغسولي الدماغ السود المستعدين لخوض معارك الرجل الأبيض وهو لا يأبه بهم. ولم تمر ثلاثة أسابيع على تصريحه ذاك حتى نشرت الصحف خبراً مفاده أن باترسون هذا يعرض بيته في يوكرز بنيويورك الذي يساوي ١٤٠٠٠٠ دولار للبيع بخسارة لا تقل عن ٢٠٠٠٠ دولار. كان قد «اندمج» في حي أبيض حوّل حياته إلى جحيم، لم يجد فيه شخصاً واحداً يبادله المودة وسمى فيه الأطفال أولاده بـ«الزنوج» ودرب أحد جيرانه كلبه على تخريب بيته وأقام آخر حاجزاً بينه وبينه ليخفي عنه منظر الزنوج فقال للصحافة وهو يترك ذلك الحي: «لقد حاولت وفشلت».

جاءني أول تهديد بالقتل من شخص كان من أقرب من عملوا إلى جانبي في المسجد السابع بنيويورك ثم كلّف أحد مساعدي الآخرين نظراً لخبرته في أعمال التخريب بوضع قنبلة في سيارتي بحيث تنفجر بمجرد ما أشغل المحرك. وكان ما قد رآه من تفانيّ في أمة الإسلام ما دفع به إلى إطلاعي على الأمر فشكرته وأخبرته بحقيقة ما يجري في شيكاغو.

وتعهد هذا الأخ بتنبيه بقية الإخوة في المسجد السابع حتى لا يقعوا في الفخ.

وكانت حادثة محاولة قتلي هذه الحد الفاصل الذي تم به الطلاق السيكولوجي بيني وبين أمة الإسلام، وبدأت بعد ذلك أرى في الشوارع والمتاجر والمصاعد ونواصي الطرقات والسيارات وغيرها من مسلمين أعرفهم وأقول لعل بينهم من قد كلف بقتلي.

لم أعرف ماذا أفعل بعدما كنت قد وقفت حياتي على صراع الإنسان الأسود وأصبحت في نظر معظم الناس زعيماً. وكنت فيما مضى أتهم معظم من يدعون بالزعماء السود بالتقصير، وإذا بي في موقف لا أعرف فيه ما أفعله أو أدرك معنى لأن تكون لي إمكانات فطرية أساعد بها السود على كسب حقوقهم الإنسانية.

وكان لدي من الخبرة ما يكفي لإدراك أن أي عمل تنظيمي يجب أن يبدأ بمعرفة المؤهلات الثابتة عند من يعتزم القيام به. وقد كانت لي شهرتي العالمية التي لا تُقيَّم بالمال، فكنت أعرف أن الناس وربما حتى في الخارج سيسمعون ما أقوله لهم إن كان يستحق أن يسمع، وكنت في نيويورك حيث يتوافر لي عدد لا يستهان به من الأتباع غير المسلمين الذين كسبتهم يوم قدت تلك المظاهرة الزنجية إلى مقر الشرطة احتجاجاً على ضرب أخينا هينتن، والتي أثبتت لمئات الآلاف من زنوج هارليم أن السود يستطيعون أن يحققوا أهدافهم إن هم جابهوا البيض بلا خوف. كانت هارليم برمتها قد رأت كيف أن البوليس أصبح بعد ذلك يعامل المسلمين باحترام. وكان ذلك هو الوقت الذي قال فيه عميد شرطة الدائرة الثامنة والعشرين: «يجب ألا يتجمع لرجل واحد كل هذا القدر من السلطة».

بعد ذلك ثبت لي أن نسبة عالية من سود نيويورك يستجيبون لما أقوله لهم بمن فيهم عدد ممن لم يكونوا ليعترفوا بذلك علانية. كانت تجمعاتي مثلاً تستقطب أضعاف ما تستقطبه تجمعات من يسمون بـ«الزعماء الزنوج» وكنت أعرف أن الزعيم الحقيقي يكسب ثقة أتباعه ويستحقها، وأن الأتباع المخلصين ينضمون إليه طواعية وعن اقتناع وميل. وكنت أعرف أن ما يعوز مشاهير «الزعماء الزنوج» هو ذلك الرباط الحقيقي مع سكان الأحياء الزنجية، وأنهم لا يستطيعون أن يحققوه لأن الإندماج يأخذ كل وقتهم. وكنت أعرف أن الزنوج يعرفون أن علاقتي بالأحياء الزنجية علاقة فكرية وجسدية لم تنقطع أبداً. كنت أعرف إيقاع الحي الزنجي وأشعر بارتفاع التوتر في جمهوره فوق العادة وأتكلم لغته وأفهمها. وهنا تحضرني حادثة أذكرها كلما سمعت بعض «مشاهير الزنوج» يعلنون أنهم يتكلمون باسم سكان الأحياء الزنجية.

كنا قد أنهينا تجمعاً في الهواء الطلق وكنت أتكلم مع أحد هؤلاء «الزعماء» الذين يسكنون المركز فاقترب منا مهرب لا أظنني رأيته من قبل وكلمني بعامية الحي الزنجي وانصرف واستدرت فوجدت «الزعيم الزنجي» ساكن المركز يتابعه بنظراته بحيرة من لم يفهم مما قاله شيئاً وكأنه تكلم بالسنسكريتية ثم سألني: «ماذا قال لك؟» فقلت له إنه قال إن المسلمين ينظمون في قصر روكلاند المخصص للحفلات الراقصة بيع العديد من الأشياء لجمع بعض المال وإنه سيرهن بدلته بعشرة دولارات ليساهم في العملية وأنه لا يملك شيئاً ولكنه يحاول أن يحسن حالته المادية وأنه ذاهب الآن ليأكل ثم ينام.

الغاية من هذا أنني كزعيم كنت أستطيع أن أتكلم أمام مكروفونات شبكات التلفزيون الوطنية الثلاث وفي هارفارد وتاسكري ومع ما يدعى بـ«الطبقة الزنجية المتوسطة» وسكان الأحياء الزنجية الذين كان بقية الزعماء يكتفون بالكلام عليهم.

وكمهرب سابق كنت أعرف أكثر من كل البيض ومن كل «الزعماء السود» تقريباً أن المهرب في الأحياء الزنجية أخطر رجل أسود في أمريكا، لأنه يزدري جهاز الحكم الأبيض أكثر من أي أسود آخر، لأنه ليس له أي رادع داخلي لا دين ولا مفهوم أخلاقي ولا مسؤولية مدنية ولا خوف ولا شيء. ولذلك تراه يعيش من نصب شباكه على الناس ويمضي وقته في الترقب كالحيوان. المهرب في الحي الزنجي يعاني على الدوام الإحباط والقلق والتعطش إلى العنف، وكيفما كان العمل الذي اعتزمَ القيام به فإنه يقوم به حتى النهاية وبتفانٍ.

ومما يزيد في خطورة المهرب في الحي الزنجي أنه يحرص على بقاء بريق سمعته في أعين مراهقي الحي الذين تركوا المدرسة والذين يرون أن كدح آبائهم لم يسفر عن شيء في هذا العالم الأبيض المليء بالعنصرية والأحقاد وعدم التسامح، فيقررون أنهم سيصبحون مثل المهربين الذين يخطرون في أجمل الملابس ويلعبون بالأوراق المالية ولا يعيرون بالا لشيء أو أحد. وهكذا يتم إنجذاب مراهقي الأحياء الزنجية إلى عالم المهربين الحافل بالمخدرات والسرقة والدعارة والجريمة العمومية والإنحلال، وهي حقيقة راعتني عندما اكتشفتها.

وفي مساء يوم حار من أيام الصيف ذهبت إلى تجمع كان يعقد في شوارع هارليم ضم عديداً من أولئك المراهقين. ذهبت بدعوة من زعيم زنجي «مسؤول» لم يكن قد كلمني من قبل. وكنت أقول لنفسي وأنا في الطريق إنهم يريدون استغلال

اسمي لجلب الجمهور، فكنت كلما فكرت في ذلك ازددت شعوراً بالحرارة. وصعدت المنصة فقلت للجمهور إنهم لم يستدعوني حباً فيَّ ولكن رغبة في استغلال اسمي ونزلت. وثار المراهقون وبدأوا يدورون ويصرخون فأغضبوا الزنوج الأكبر سناً. وتوقفت حركة المرور في الشوارع المجاورة وارتفع الغضب بشكل أقلقني فاعتليت سيارة ولوحت بذراعي وطلبت منهم أن يهدأوا فهدأوا، ثم طلبت منهم أن ينصرفوا فانصرفوا. وكان ذلك هو الوقت الذي بدأ يقال فيه إنني الزنجي الوحيد في أمريكا الذي يستطيع أن يبدأ أو أن يوقف حركة تمرد. لا أعرف إن كان بإمكاني أن أفعل ذلك، ولكنني أعرف أنني تعلمت من تلك الحادثة في دقائق أن أقدِّر قوة الإشتعال الكامنة في المهربين والشباب المعجب بهم الذي يعيش في أحياء زنجية أقفلها الرجل الشمالي الأبيض على الزنوج ليبعدهم مدة قرون.

وجاءت أحداث صيف ١٩٦٩ في هارليم وروشستر ومدن أخرى لتعطي فكرة على ما يمكن أن يحدث. لقد حوصر الشغب في الأماكن التي يعيش فيها الزنوج، ولكن الأحياء الزنجية في كل مكان من أمريكا تظل بما يعتريها من مرارة وغيظ، قابلة للإنفجار والتدفق على أحياء البيض. في نيويورك مثلاً لو حدث وعبر السود الغاضبون المتنزه المركزي وتدفقوا على شوارع مادسون والخامس ولكسنغتون وبارك لهدموا سراديبها. ولو أن حي المنطقة الجنوبية في شيكاغو وهو أسوأ من هارليم زحف على شارع بنسيلفانيا المركزي، ماذا تظن أن يحدث؟ وباعتبار أن دترويت عرفت مظاهرة سلمية شارك فيها مائة ألف من السود فإن الأمر يدعو للتأمل. وبإمكاني أن أستمر وأن أثبت أن خطر الإنفجار الأسود موجود في كل مدينة أمريكية. في كليفلاند وفلادلفيا وسان فرانسيسكو ولوس أنجلس يختمر الغضب الأسود.

لقد بقيت بعيداً عن حوادث ومواقف تعلمت منها كما قلت تقدير الخطر الكامن في الأحياء الزنجية كما حاولت تقييم المؤهلات التي تخول لي التكلم باسم السود «كزعيم» حر، فوجدت أن القرار اتخذ نيابة عني وأن جماهير الأحياء الزنجية أفرغت علي صفة الزعامة. كنت أعرف أن الحي الزنجي لا يمنح ثقته إلا لمن أثبت له أنه لن يبيعه للبيض، ولم أكن لأفكر في ذلك وما كان بيع ثقة أبناء جنسي من شيمي. وشعرت بالرغبة في التخطيط لإنشاء منظمة تساعد الإنسان الأسود في أمريكا الشمالية على الشفاء من المرض الذي يبقيه تحت كعب الرجل الأبيض.

نعم كان الإنسان الأسود في أمريكا مصاباً بمرض نفساني جعله يقبل تراث الرجل

الأبيض ويتقبله بوداعة الخرفان. وكان مصاباً بمرض روحي جعله يقبل مسيحية الرجل الأبيض مدة قرون، وهي تثبت له انعدام أية أخوة حقيقية وترضخه للقسوة التي يمارسها عليه من يسمون بالمسيحيين. المسيحية عتمت على تفكير الإنسان الأسود وأوقعته في الإشكال والغموض وقالت له إنه إن لم يكن له حذاء في هذه الدار وكان جائعاً فيها. فإنه سيحصل على الحذاء وعلى الحليب والعسل والسمك المقلي في الجنة. وقد كان الإنسان الأسود في أمريكا يعاني فوق ذلك من مرض إقتصادي، بدليل أنه يجمع بين قلة الإنتاج وقلة الإستهلاك. الإنسان الأسود اليوم أكبر عالة ولكنه يحسب واهماً، أنه يتقدم لأنه يوجد على ضرع بقرة حلوب هي أمريكا البيضاء.

السود ينفقون سنوياً في شراء السيارات ثلاثة مليارات من الدولارات، ولكن يوشك ألا يكون في أمريكا كلها بائع سيارات أسود واحد. أربعون في المائة من الويسكي المستهلك في أمريكا يصب في بطون السود المرضى بالمظاهر، ولكن معامل الخمور التي توجد في حوزة السود توجد إما في أحواض الإستحمام بالبيوت أو في جهة ما في الغابات. في نيويورك مثلاً، وهو عار مزر، حيث يعيش أكثر من مليون من السود، ليست هناك شركة واحدة تشغل أكثر من عشرة سود، وحيث إن السود لا يملكون في أحيائهم مؤسسات للبيع بالتقسيط فإنهم لا يستطيعون إحداث التوازن فيها.

لقد كان الإنسان الأسود في أمريكا أكثر من عانى من المرض السياسي بعدما سَمَحَ للرجل الأبيض بتوزيعه على أحزابه، في الوقت الذي كانت فيه عشرة ملايين من الأصوات السوداء كافية لتعديل ميزان السلطة في السياسة الأمريكية، لأن الأصوات البيضاء توشك أن تكون مقسمة بالتساوي. إن صناديق الإقتراع هي المكان الذي يمكن فيه للإنسان الأسود أن يناضل بكرامة مستعملاً السلطة والآليات التي يفهمها ويخشاها ويتعامل معها الرجل الأبيض. دعني أقل لك شيئاً. لو أن لجنة سوداء مكتلة قالت لأكبر العنصريين في واشنطن إننا نمثل عشرة ملايين من الأصوات لهرعوا إليها ولقالوا لها: «كيف الحال؟ أهلاً وسهلاً ومرحباً». لو أن سود ولاية المسيسيبي كانوا يصوتون جماعة لاضطر إستلاند إلى أن يصبح ليبرالياً أكثر من جاكوب وجافيت أو لما بقي في مكتبه لحظة واحدة. هذه هي الحقيقة وإلا لما بذل السياسيون العنصريون كل ذلك الجهد لإبعاد السود عن صناديق الإقتراع.

وعندما تكون جماعة من الناس قادرة على التصويت الجماعي والتأثير في

الإنتخابات وتفشل في ذلك، فإنها لا بد أن تكون مصابة بمرض سياسي. لقد كانت جماعة قاعة تاماري أكثر الجماعات تأثيراً في السياسة الأمريكية. في ١٨٨٠ انتخب أول إرلندي عمدة على نيويورك، وفي ١٩٦٠ حصلت أمريكا على أول رئيس جمهورية إرلندي. ولو أن السود الأمريكيين صوتوا جماعةً لأصبحوا أكثر قوة من الايرلنديين. ذلك أن السياسة الأمريكية تسيرها التكتلات ذات المصالح الخاصة واللوبيات. وهل هناك جماعة لها مصلحة خاصة وعاجلة وتحتاج إلى تكتل ولوبي أكثر من السود؟

إن العمال يملكون إحدى أكبر البنايات غير الحكومية في واشنطن في مكان يطل على البيت الأبيض مباشرة، وليس هناك من يتحرك تحركاً سياسياً واحداً قبل أن يعرف رأي العمال فيه. لقد ساعد أحد اللوبيات بيغ أويل على الحصول على مساعدة مالية كبيرة، ويحصل المزارعون بفضل لوبيهم على أهم المساعدات التي تقدمها الحكومة إلى أية جماعة في أمريكا، لأن المزارعين يصوتون كمزارعين لا كديموقراطيين أو جمهوريين أو ليبراليين أو محافظين.

ويتوافر للأطباء أفضل لوبي في واشنطن، وهو اللوبي الذي أفشل البرنامج الفدرالي الذي كان منتظراً أن يؤمن علاج المرضى الذين هم فوق الخامسة والستين رغم حاجة ملايين المواطنين إلى هذا البرنامج ورغبتهم فيه. وهناك لوبي منتجي الشمندر ولوبي منتجي القمح ولوبي مربي الماشية ولوبي الصين ولوبيات بلاد صغيرة لم يسمع بها أحد تدافع لها عن مصالحها في واشنطن.

والحكومة لها وزارات للتعامل مع الجماعات ذات المصلحة الخاصة التي تعرف كيف تُسمع صوتها وتُثبت ذاتها، فوزارة الزراعة تهتم بحاجيات المزارعين، وهناك وزارة للصحة والتربية ومساعدة المعوزين ووزارة الداخلية التي يدخل الهنود الحمر في إختصاصها، فهل إن المزارع والطبيب والهندي يشكلون أكبر هموم أمريكا الآن؟ طبعاً لا. السود هم أكبر هموم أمريكا في الوقت الراهن، وقد كان يجب والحالة هذه أن تكون هناك وزارة بحجم البانتغون لتعتني بكل جانب من جوانب مشاكلهم.

لقد قدم اثنان وعشرون مليوناً من السود لأمريكا قروناً من الكدح وماتوا من أجلها منذ الثورة وكانوا فيها قبل جماعة الطهريين وقبل الهجرة الموسعة وما يزالون إلى اليوم هم الأسفلون في كل شيء.

ولو أن كل واحد من هؤلاء الإثنين وعشرين مليوناً أعطى دولاراً واحداً، لبنوا

ناطحة سحاب للوبي يمثلهم في واشنطن. كان يجب أن يتوصل كل من يعمل في الجهاز التشريعي كل صباح بمكالمة حول ما يترقبه السود في أمريكا وما يريدونه وما يحتاجون إليه. كان يجب أن يسمع اللوبي الأسود كل من يدلي بصوته في أي شيء في الكونغريس.

إن حجر الزاوية في تسيير هذه البلاد هو القوة والسلطة الإقتصادية والسياسية وإذا كان الإنسان الأسود لا يملك القوة الإقتصادية ويحتاج إلى الوقت لاكتسابها، فإنه يمتلك على القوة والسلطة السياسيتين وهما كفيلتان بتغيير مصيره بين عشية وضحاها.

كنت أفكر في إنشاء هيأة ضخمة تساعد على إيقاظ همة الإنسان الأسود حتى يهب لكسب حقوقه الإنسانية وعلاج أمراضه، وهو عمل ضخم يحتاج إلى تخطيط ضخم. كنت أرى أن هذه الهيأة يجب أن تختلف عن أمة الإسلام فتضم كل السود، بغض النظر عن معتقداتهم الدينية، وأن تطبق كل ما كانت أمة الإسلام تكتفي بترديده. وانتشر الخبر في الساحل الشرقي بالخصوص فأخذت الأهبة لبدء العمل. كان علي أولاً أن أستقطب أدمغة وأيدي تساعدني. وكان المزيد من الإخوة المناضلين في المسجد السابع يعلنون انفصالهم عن أمة الإسلام وينضمون إلي، كما كان الزنوج غير المسلمين يساندونني ومن بينهم، وهو شيء غريب أفراد من الطبقتين الوسطى والعليا الذين يعرفون بالبرجوازيين السود والذين كانوا قد سئموا من خرافة المركز، وبدأ كل هؤلاء يلحون علي بالسؤال: «متى تعقد الإجتماع التنظيمي؟» متى تظهر منظمتك؟» فاستأجرت لذلك الغرض قاعة الرقص بفندق تيريزا الواقع في ملتقى الشارع السابع والنهج الخامس والعشرين الذي يعد أسخن نقطة في هارليم.

ونشرت جريدة أمستردام نيوز الخبر، فاستنتج كثير من الناس أننا ننوي إقامة مسجدنا في فندق تيريزا. وهناك تدفقت علي البرقيات والرسائل والمكالمات من كل أنحاء البلاد، وكانت تجمع على أن الناس كانت تنتظر ذلك وعبر أشخاص لا أعرفهم بشكل مؤثر عن ثقتهم فيَّ، وقال الكثيرون إن تشدد أمة الإسلام في الأمور الأخلاقية هو الذي أبعدهم عنها وأنهم يريدون الإنضمام إلي. وكلمني طبيب يملك مستشفى صغيراً في جهة بعيدة، وقال إنه يريد أن ينضم إلي بينما تقاطرت علينا المساعدات المالية ونحن لم نعلن بعد عن سياستنا. وكتب لي مسلمون من مدن أخرى يقولون إنهم يريدون أن ينضموا إلي، وكانت رسائلهم تجمع على أن «الإسلام لا يتحرك بما فيه الكفاية». . . وأن «الأمة تتحرك ببطء شديد».

وجاءتني مكالمات ورسائل من البيض بأعداد مذهلة، عرضوا علي فيها مساعداتهم المالية، وسألوا إن كانوا يستطيعون الإنضمام إلينا، ولكنني قلت لهم إن ذلك غير ممكن لأن المنظمة سوداء وإن بإمكانهم أن يساعدونا مادياً لحل المشكل العنصري في أمريكا، إن كان هذا هو ما يمليه عليهم ضميرهم.

وجاءتني طلبات من أشخاص يريدون أن يخطبوا في مسجدنا من بينها ٢٢ طلباً توصلنا بها في صبيحة يوم اثنين واحد وأدهشني أن أغلبها من مجموعات من القسيسين المسيحيين.

وعقدت ندوة صحافية وقفت فيها أمام المكروفونات وأضواء الكاميرات والصحافيين الذين جلسوا ينظرون إلي وهم يحملون أقلامهم وكراساتهم مفتوحة بين أيديهم، رجال ونساء، بيض وسود يمثلون مختلف وسائل الإعلام العالمية، فقلت لهم إنني أنوي تنظيم مسجد في نيويورك وترؤسه، يحمل اسم المسجد الإسلامي الموحد ويكون لنا بمثابة قاعدة دينية نستمد منها القوة الروحية التي نحتاج إليها لإنتشال قومنا من الرذائل التي تنخر أجسامهم. وأعلنت أن المسجد سيكون مقره في فندق تيريزا في هارليم وأننا سنطبق فيه برنامج عمل يهدف إلى ما يتعرض له اثنان وعشرون مليوناً من الأفرو أمريكيين من تعسف سياسي واستغلال إقتصادي وتَرَدٍّ إجتماعي، ثم انهالت علي الأسئلة.

لم تكن المسألة بسيطة كما قد يتبادر إلى الذهن. كنت أتنقل من مكان إلى مكان دون أن يعلم أحد من إخواني السابقين في أمة الإسلام أنه كان من المحتمل أن يُعَيَّن لتصفيتي. وكنت أَعْرَفُ الناس بعقلية أتباع إلايجا محمد سيما وأنهم تعلموا التفكير مني، وكنت أعرف أنه ليس هناك من يبادر إلى القتل أسرع من مسلم مقتنع بأنه يرضي الله بذلك.

وكان هناك عمل لم أنجزه بعد، كنت كمسلم أفكر فيه منذ زمن بعيد ولا أجد له المال الكافي فركبت طائرة إلى بوسطن وقصدت أختي إيلا مرة أخرى. كنت قد أغضبتها أكثر من مرة ولكنها أبداً لم تدر لي ظهرها منذ جئتها من ميشيغن في ذلك المظهر القروي. قلت لها: «إنني أريد أن أحج يا إيلا» فقالت: «كم تريد؟».

الفصل السابع عشر

مكة

الحج ركن من أركان الإسلام واجب على من يستطيعه مرة في العمر. يقول الله في كتابه: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾، ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معدودات﴾.

عندما كنت أحاضر في الجامعات كان يأتيني أشخاص بيض ويقولون لي إنهم عرب من الشرق الأوسط أو شمال إفريقيا يزورون الولايات المتحدة أو يدرسون بجامعاتها أو يقيمون فيها. وكانوا يقولون لي إن إدانتي للون الأبيض تتنافى وحسن إسلامي، وأنهم على يقين أنه لو تسنت لي معرفة الإسلام الحقيقي لفهمته واقتنعت به، ولكنني كنت أنفر من كلامهم ذاك بوصفي من أتباع إلايجا محمد. وعندما وجدته يتكرر بدأت أراجع نفسي وأقول: «إذا كان إيمان المرء بدينه صادقاً حقاً فلمَ لا يوسع معرفته بهذا الدين؟». وكنت قد أثرت ذلك مع ولاس محمد ابن إلايجا محمد الذي أحترم آراءه فأكد لي أن من واجب المسلم فعلاً أن يتعلم كل ما يستطيع تعلمه عن الإسلام.

وكان كل واحد من هؤلاء المسلمين العرب قد حثني على مقابلة رجل يدعى الدكتور محمود يوسف شواربي، وقال بعضهم إنه عالم مسلم تخرج في جامعة القاهرة وحصل على الدكتوراه من جامعة لندن وأنه يحاضر عن الإسلام وأنه مستشار في الأمم المتحدة وأستاذ مبرز بجامعة القاهرة وصاحب مؤلفات، وأنه يشغل الآن في نيويورك منصب مدير جامعة الجمعيات الإسلامية في الولايات المتحدة وكندا. وكنت كلما مررت بمكتبه الواقع في ١ ريفر سايد درايف، أفكر في زيارته حتى كان يوم وقدَّمه لي أحد الصحافيين.

كان ودياً وقال إنه يتابع أخباري في الصحافة، فقلت له إنني سمعت به ثم تكلمنا

مدة خمس عشرة أو عشرين دقيقة وانصرف كل منا إلى التزاماته بعدما كان قد قال لي شيئاً لم يبرح منطقه ذهني. قال إن المؤمن لا يؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

وهكذا وجدتني مع أختي إيلا التي لا تنفك تبهرني. سبق لي أن قلت إنها جورجية سوداء من القوة والضخامة بمكان وذات طابع مستبد أدى إلى إقصائها من مسجد بوسطن الحادي عشر ثم أرجعت إليه ولكنها تركته طوعاً وبدأت تتعلم الإسلام السني ثم فتحت مدرسة لتعليم العربية جاءتها بأساتذة مختصين. وكانت فوق ذلك تتاجر في العقار وتدخر لتحج.

وتكلمنا في غرفة الإستقبال طول الليل فقالت إنها مقتنعة بأن حجي أهم من حجها. وفي طريق العودة إلى نيويورك بقيت لا أفكر إلا في إيلا. ما أقواها! أجهزت على ثلاثة أزواج كانت تفوق ثلاثتهم حيوية وعنفواناً. كانت المرأة التي لعبت دوراً أساسياً في حياتي واستطاعت أن توجهني وأنا من تعود توجيه النساء. كنت قد جئت بها إلى الإسلام وإذا بها تساعدني على أداء الحج.

إذا كان الإنسان مع الله كان الله معه وأرسل له عند الحاجة علامات على ذلك. ذهبت إلى السفارة السعودية لطلب التأشيرة، فقال لي السفير إن من يسلمون في أمريكا في حاجة إلى تزكية الدكتور محمود شواربي، فكانت تلك بداية العلامة على أن الله معي. وطلبت الدكتور شواربي هاتفياً فدهش وقال: «لقد كنت على وشك أن أطلبك. تعال فوراً، أرجوك». وذهبت فناولني رسالة التزكية وكتاباً بالإنجليزية من تأليف عبد الرحمان عزام تحت عنوان رسالة محمد الخالدة وقال: إن المؤلف قد أرسله إليه وكلفه بتسليمه لي وأنه (المؤلف) مواطن سعودي من أصل مصري وشخصية سياسية مرموقة على الصعيد الدولي وأنه من مستشاري الملك فيصل المقربين وزاد: «إنه يتتبع أخبارك في الصحافة عن قرب» فأذهلني أن يحدث ذلك في ذلك الوقت.

وأعطاني الدكتور شواربي رقم مهتف ابنه محمد الذي يتابع دراسته الجامعية في القاهرة ورقم مهتف ابن المؤلف عمر عزام في جدة وقال: «إن جدة هي آخر محطة لك قبل مكة. اتصل بهما أرجوك».

وتركت نيويورك دون ضجة وأنا لا أدري أن رجوعي إليها سيقيم الدنيا ويقعدها. كنت قد كتمت خبر سفري خوفاً من أن تخلق لي وزارة الخارجية العراقيل في آخر لحظة، فلم يرافقني إلى مطار كينيدي الدولي إلا زوجتي بيتي وبناتي الثلاث وبعض

مساعدي الأقربين. وأقلعت طائرة لوفتهانزا فظهرت لي العلامة الثانية على أن الله معي. كلمت جاريَّ وإذا بهما مسلمان أحدهما متوجه مثلي إلى القاهرة والآخر إلى جدة محطتي التالية. وبقيت أكلمهما أو أقرأ كتاب عمر عزام حتى وصلنا فرانكفورت، وهناك ودعنا الأخ المتوجه إلى جدة وبقينا أنا والأخ الآخر ننتظر الطائرة المتوجهة إلى القاهرة. ولما كان ما يزال على موعدها عدة ساعات ارتأينا أن نزور فرانكفورت. وقبل ذلك قابلت في دورة المياه بالمطار أول أمريكي في الخارج، طالب أبيض من رودس آيلاند يدرس في فرنسا. وتفحصني ثم مشى نحوي وقال: «هل أنت إكس؟» ولم أكن قد سمعت أحداً يناديني بتلك الصيغة فضحكت وقلت له نعم فقال: «مستحيل. يا إلهي! لن يصدقني أحد.»

وأدهشتني أنا والأخ المسلم دماثة الناس في فرانكفورت. كنا ندخل الدكاكين والمتاجر للفرجة وحسب، فكانوا يستقبلوننا بالترحيب على الرغم من أنهم لم يرونا من قبل وعلى الرغم من أنهم يعرفون أننا أجانب، ولم تكن مودتهم تتغير حتى عندما كنا نخرج دون أن نشتري شيئاً. في أمريكا تدخل المتجر وتشتري وتخرج منه وتبقى أجنبياً. في أمريكا يتصرف البائع والمشتري وكأن كليهما يتفضل على الآخر، أما الأوروبيون فإنهم أكثر إنسانية أو أكثر رحمة إن شئت.

كان الأخ المسلم يعرف الألمانية بعض الشيء وكان يقول لهم إننا مسلمون فكنت أجد شيئاً كنت أجده حتى في أمريكا عندما كان الناس ينظرون إلي كمسلم لا كزنجي. عندما ينظر الناس إليك كمسلم فإنهم ينظرون إليك كإنسان فتتغير نظرتهم وطريقة كلامهم وكل شيء.

وفي دكان صغير بفرانكفورت انحنى البائع فوق الحاجز وقال بالإنجليزية مشيراً إلى الألمان المارين في الطريق: «اليوم هكذا وغداً هكذا» فقال لي الأخ المسلم إنه يقصد أن الألمانيين سيثورون مرة أخرى.

وفي مطار فرانكفورت وجدنا جماعات من المسلمين من كل جنس ولون. كانوا يتعانقون وكان الجو حولهم مشبعاً بالحرارة والمودة، وفجأة انتبهت إلى أن اللون عندهم ليس مشكلة. كنت أشعر كأنني خرجت لتوي من السجن.

كنت قد قلت للأخ المسلم إنني أريد أن أبقى يومين في القاهرة لزيارتها فأعطاني رقم مهتفه وطلب مني أن أتصل به، وقال إنه يعرف أشخاصاً يتكلمون الإنجليزية

سيحجون هذا العام، وأنه يريد أن يعرفني إليهم. وقضيت يومين في القاهرة وقفت فيهما بإعجاب على ما بنته مصر من مدارس عصرية ومساكن شعبية وطرق سيارة ومصانع. وكنت قد سمعت أن حكومة جمال عبد الناصر قد جعلت من مصر إحدى أكثر البلاد تصنيعاً في إفريقيا وأظن أن أكثر ما لفت إنتباهي بها هو صناعة السيارات والحافلات.

كان ابن الدكتور شواربي البالغ من العمر تسع عشرة سنة والذي كان يدرس الإقتصاد والعلوم السياسية قد جال بي القاهرة وقال لي إن والده يحلم بإنشاء جامعة إسلامية في الولايات المتحدة.

كان الناس في القاهرة وديين وكانوا يدهشون عندما كانوا يعرفون أنني مسلم من أمريكا؛ ومن بين من قابلتهم هناك أستاذ يدرس العلوم الطبيعية وزوجته كانا أيضاً ينويان أداء الحج ذلك العام. ودعياني للعشاء في مطعم بهيليوبوليس وهي إحدى ضواحي القاهرة فوجدتهما ذكيين وواسعي الإطلاع. ومما قاله الزوج لي إن عداء الدول الغربية الكبرى لمصر يعود إلى أنها تعطي المثال في النمو لباقي البلاد الإفريقية وسألتني الزوجة: «كيف يموت الناس جوعاً في العالم وأمريكا بها كل هذا الفائض من الطعام؟» ماذا تفعل به؟ هل تلقيه قي البحر؟» فقلت لها: «نعم، تلقي ببعضه في البحر وتضع الباقي في بواخر شاغرة ومخازن وثلاجات تجعلها في رعاية جيش صغير من العمال إلى أن تفسد فيتولاها جيش آخر من عمال تصريف القمامة ليوضع مكانها طعام جديد، فنظرت إلي نظرة من لا يصدق وكأنها تحسبني أمزح، ولكن الأمريكيين يعرفون أنها الحقيقة. ولم أشأ أن أقول لها إن أمريكا نفسها يوجد فيها ناس يموتون جوعاً حتى لا تحسب أنني أغالي في المزاح.

ووجدت الحجاج الذين يعرفهم رفيق سفري المسلم في انتظاري، فانضممت إليهم وأصبحت ثامنهم ثم انضم إلينا قاضٍ وموظف سامٍ من وزارة التعليم. كانوا يتكلمون الإنجليزية بطلاقة واحتضنوني وكأنني واحد منهم، فاعتبرت ذلك علامة ثالثة بأن الله معي وكنت حيثما توجهت أجد من يساعدني.

الحج في اللغة العربية معناه قصد مكان معين وفي الشرع زيارة الكعبة أي البيت الحرام لأداء فريضة الحج. في مطار القاهرة كان العشرات يُحرِمون أي يدخلون في الحج، وكان بعض الإخوة قد نصحني بترك متاعي في القاهرة بما فيه ثلاث آلات

تصوير وكاميرا ففعلت. واشتريت حقيبة صغيرة وضعت فيها بدلة وقميصاً وزوجاً من الملابس الداخلية وحذاء وحملتها معي. وفي الطريق إلى المطار بدأت أشعر بالقلق لأنني بدأت أدرك أنني على وشك أن أدخل مرحلة من المناسك سيكون علي أن أفعلها بالنظر إلى الآخرين والتقليد.

وكذلك كان. خلعنا ملابسنا في المطار وارتدينا فوطتين إحداهما وتسمى الإزار لففناها حول خواصرنا وشددناها بحزام جلدي يشتمل على محفظة النقود، والأخرى وتسمى الرضى وضعناها على كتفنا الأيسر تاركين الكتف والذراع الأيمنين عاريين، وانتعلنا صندلاً يسمى النعل يبقي الكعبين عاريين أيضاً ووضعنا حول رقابنا محفظة فيها الجواز والأوراق الهامة الأخرى مثل رسالة الدكتور شواربي.

كانت ألوف الحجاج تغادر مطار القاهرة وهي على تلك الهيأة التي لا يمكن أن يميز فيها بين الغني والفقير، وقد كان بيننا بعض ذوي النفوذ فعلاً ولكنهم كانوا يلبسون ما نلبسه. بعد ذلك شرعنا نقول: «لبيك اللهم لبيك!» ومعناها: «ها أنذا يا ربي!» حتى اهتز المطار بها.

كانت الطائرات تقلع على رأس كل بضع دقائق وهي محملة بالحجاج، ولكن المزيد منهم كان لا ينفك يتوافد على المطار ومعهم أهلهم وذووهم الذين جاؤوا مودّعين والذين كانوا يطلبون منهم أن يدعوا لهم في ذلك المقام. وركبنا طائرة الخطوط العربية المتحدة، ولم أعلم إلا بعدما أقلعت بنا أنهم أنزلوا حاجاً آخر لأركب أنا فشعرت بمزيج من الأسف والتواضع والإمتنان.

كانت الطائرة مكتظة بحجاج بيض وسود وسمر وحمر وصفر وشقر بعيون زرق، وأنا بينهم بشعري الأكرت الأحمر وكلنا سواء يجمع بيننا الإسلام. وسرى خبري في الطائرة من مقعد إلى مقعد، أنني مسلم من أمريكا فالتفتت إليّ الوجوه باسمة، وعندما قدم لنا الطعام كان الخبر قد وصل إلى غرفة القيادة، فجاء قائد الطائرة وهو مصري ليسلم علي وإذا به أشد مني سواداً، بحيث كان يمكن أن يعبر هارليم ولا يتلفت إليه أحد. كان سعيداً بمقابلة أمريكي مسلم ودعاني لزيارة غرفة القيادة فلبيت دعوته على الفور.

ودخلت غرفة القيادة وإذا بمساعده أشد منه سواداً. لم أكن في حياتي قد رأيت رجلاً أسود يقود طائرة. ونظرت إلى سبورة القيادة بكل ما عليها من أزرار وإلى الربانين اللذين ينظران إلي ويبتسمان ويغدقان علي مزيداً من ذلك التكريم الذي كنت

ألقاه منذ تركت التراب الأمريكي، فبقيت أنظر إلى السماء من خلال الزجاج وأفكر في ذلك. كنت قد ركبت من الطائرات في أمريكا ما قد لا يكون أي زنجي آخر قد ركبه، ولكن أحداً لم يدعني أبداً لزيارة غرفة القيادة. وكان بجانبي الحاجان اللذان يجلسان إلى جواري في الطائرة وأحدهما مصري والآخر سعودي، ونحن وقوف في تلك الغرفة في طريقنا إلى الحج، ومرة أخرى عرفت أن الله معي كما أن «الليلة قبل الغد».

ورجعت إلى مقعدي وبقيت أردد مع الركاب: «لبيك اللهم لبيك!» حتى وصلنا جدة، وهي مدينة على البحر الأحمر يوجد بها المطار الذي تنزل فيه طائرات الحجاج وتقع على بعد حوالي أربعين ميلاً غرب مكة. كان مطار جدة أكثر اكتظاظاً من مطار القاهرة فشققنا حشوداً من كل جنس ووقفنا في صف طويل لإجتياز الجمارك. كانوا قد عينوا لنا المطوف الذي سيتولى نقلنا إلى مكة، وكان بعض الحجاج يكتفي بقول: «لبيك اللهم لبيك!» بينما يزيد عليها البعض الآخر: «لبيك لا شريك لك لبيك! إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك». وهو دعاء يؤكد وحدانية الله.

لم يكن هناك من رجل في ذلك المطار إلا كان يرتدي لباس الإحرام ما عدا الموظفين والمطوفين وأعوانهم الذين كانوا يلبسون أقمصة طويلة وقلانس بيضاء وينتعلون النعال.

وكلمة مطوف مشتقة من الطواف ومعناه في اللغة العربية الدوران (حول الكعبة). كنت أشعر بالقلق والرهبة وأقول في نفسي وأنا في الصف: «أنظر ماذا ستبرز لهم!» كنت في قلب العالم الإسلامي، في النبع وكنت على وشك أن أبرز لهم الجواز الأمريكي الذي يرمز إلى نقيض كل ما ينادي به الإسلام. وشعر القاضي المصري بما يعتريني فربت على كتفي. وكنت حيثما وليت وجهي أجد حباً وتواضعاً وأخوة صادقة توشك أن تتجسد.

ووصلنا إلى موظفي الجمارك الذين ينظرون في الجوازات ويفتشون الحقائب ثم يومئون للحجاج بالمرور، وحاولت فتح حقيبتي فلم تنفتح وخشيت أن يعتقدوا أن بها ممنوعات فكسرتها ثم فتح الموظف جوازي ووجده أمريكياً فقال شيئاً وبدأ أصدقائي يتكلمون من حولي بسرعة ويحركون أيديهم ويشيرون محاولين التوسط لي عنده، ثم طلب مني القاضي رسالة الدكتور شواربي فأعطيتها له وألقاها إلى الموظف فقرأها وأرجعها له وكأنه لم يقتنع، فدخل القاضي معه في نقاش. كنت كالغبي بينهما لا

أستطيع أن أقول كلمة واحدة ولا أستطيع حتى أن أفهم ما يقال. وأخيراً التفت القاضي إلي وقال بحزن إن علي أن أمثل أمام القاضي الشرعي ليعطيني الإذن بدخول مكة. كان أصدقائي واجمين فقلت لهم: «لا تقلقوا علي. لن يحدث لي شيء. إن الله سيرشدني» فقالوا إنهم سيدعون لي وجاء المطوف في قميصه الطويل يحثهم على الذهاب فذهبوا وأنا أرد على تلويحهم وأتبعهم بنظراتي. لم أكن في حياتي قد وجدتني بين مثل هذه الحشود، ومع ذلك شعرت بوحشة لم أشعر بها منذ كنت طفلاً.

كانت الساعة حوالي الثالثة من صباح يوم الجمعة وهو اليوم الذي يقابل يوم الأحد في الغرب الذي يجتمع الناس فيه للصلاة جماعة ومن ثم تسميته بالجمعة. ومعنى ذلك أنه يوم عطلة وأن المحكمة لا تفتح والقاضي لا يشتغل وأن علي أن أنتظر حتى يوم السبت على الأقل.

ونادى موظف أحد مساعدي المطوفين وقال له شيئاً ثم شرح لي بإنجليزية ركيكة أنه سيذهب بي إلى مكان أقيم فيه موقتاً يوجد في المطار نفسه. وأردت أن أقول إن القانون ينص على ألا ينفصل المسافر عن جوازه، ولكنني عدلت عن ذلك وسرت مع مساعد المطوف. هو بطاقيته وقميصه الطويل وشبشبه وأنا في الفوطتين والنعل والناس من حولنا تتكلم كل اللغات ما عدا الإنجليزية فوجدتني في حالة يرثى لها.

كان في خارج المطار مباشرة مسجد وبناية من أربع طبقات وكان الفجر يقترب والطائرات تقلع وتنزل وأضواؤها تمسح المدرجات أو تلمع في الفضاء، وحجاج من كل مكان، من غانا وأندونيسيا واليابان وروسيا يخرجون من البناية التي نقصدها أو يدخلونها في منظر بشري زاهٍ لا أظن أن أية كاميرا قد التقطت نظيره. ودخلنا البناية وصعدنا سلماً إلى الطبقة الرابعة ونحن نمر بأشخاص من الصين وأندونيسيا وأفغانستان ومن بينهم من ما يزال في لباسه الوطني. كانوا كأنهم صور على صفحات مجلة ناشينل جيوغرافيك.

وفي الطبقة الرابعة أدخلني دليلي غرفة بها حوالي خمسة عشر شخصاً معظمهم ينام مكوراً على السجادات، ومن بينهم نساء عرفتهن من رؤوسهن وأقدامهن المغطاة، وأومأ لي أن هذا هو المكان الذي سأبقى فيه. وكان روسي عجوز وزوجته صاحيين فحدقا فيّ. واستيقظ مصريان وفارسي وأخذوا ينظرون إلى الدليل وهو ينتحي بي ركنا ويفهمني بالإشارة أنه سيريني كيفية أداء الصلاة. تصورا كنت رجل دين مسلم وزعيماً

في أمة إسلام إلايجا محمد ولم أكن أعرف كيف أصلي.

وحاولت أن أقلده وأنا أشعر بالعيون موجهة إلي وأشعر أنني لا أصلي على الوجه الأكمل، إذ لم يكن من السهل على رُكَبٍ غربية تعودت الجلوس على الكراسي أن تنطوي بليونة ركب المسلمين. وركع الدليل فحاولت أن أركع ولكنني بقيت متصلباً. وبقي يعلمني ساعة من الزمن ثم ذهب بعدما أومأ لي بأنه سيعود. لم أكن أشعر بالنوم فبقيت أتمرن والمسلمون ينظرون إليّ وأنا لا أبالي، حتى أصبحت أتقن السجود، ولكن ما مر يوم أو ثلاثة حتى تورم كوعاي.

وأذن الفجر فاستيقظ النائمون وشعروا بي فبقينا نتبادل النظرات، ثم بدأت أدرك أهمية السجاد عند المسلمين. كان لكل شخص سجادة صلاة ولكل زوجين أو جماعة من الناس سجاد كبير. وصلى المسلمون في تلك الغرفة كل على سجادته ثم فرشوا فوق سجاد كبير منديلاً وأكلوا عليه فأصبح السجاد غرفة طعام، ثم حملوا الصحون والمنديل وجلسوا على السجاد فأصبح السجاد غرفة جلوس، وكانوا من قبل يفترشونه فكان غرفة نوم. حينذاك أدركت لماذا كان تاجر المسروقات في بوسطن يدفع لنا كل تلك المبالغ في السجاد الشرقي، أدركت أن غلاءه يعود إلى إتقانه الذي يعود إلى أهميته في بلاد له فيها كل هذه الوجوه من الإستعمال. فيما بعد رأيت في مكة إستعمالاً آخر للسجاد. عندما كان ينشب نزاع بين شخصين كان رجل محترم ومحايد يأتي فيجلس على السجاد ويجلس الخصمان بين يديه فيصبح السجاد محكمة، وفي حالات أخرى يصبح فصلاً دراسياً.

كان أحد المصريين ينظر إليّ باستمرار من طرف خفي فابتسمت له فقام وجاء إلي وقال بالإنجليزية: «أهلاً» فأوسعت ابتسامتي وسألته عن اسمه فلم يفهم فقلت: «إسم إسم؟» ففكر ملياً ولم يفهم فجربنا بضع كلمات أخرى. كانت مفرداته الإنجليزية لا تتعدى العشرين أي أنها بالعدد الكافي لإصابتي بالإحباط، وبدأت أعلمه مفردات جديدة وأقول: «سماء» وأشير إلى السماء فيضحك وأعيد: «سماء» مشيراً إليه بأن يكرر بعدي فكان يفعل وأقول: «طائرة... سجاد... قدم... صندل... عيون...» وهكذا ثم حدث شيء غريب. أسعدني أنني وجدت أخيراً إنساناً أتفاهم معه فبدأت أقول أي شيء يخطر ببالي إلى أن قلت: «محمد علي كلاي» فاستنار المسلمون كشجرة الميلاد وقال صديقي وهو يشير إلي: «أنت؟ أنت؟» فحركت رأسي بالنفي

وقلت: لا، لا. محمد علي كلاي صديقي... صديقي!» وفهم البعض بعض الشيء ولم يفهم الآخرون، فشاع في البناية أنني محمد علي كلاي بطل العالم في الوزن الثقيل. فيما بعد علمت أنه ليس هناك في العالم الإسلامي رجل أو امرأة أو طفل لا يعرف أن صوني ليستون الذي يتصورونه غولاً قد هزم على يد كاسيوس كلاي الذي أعلن للعالم أن اسمه قد أصبح محمد علي ودينه الإسلام وأن النصر جاءه من عند الله. وكان ذلك النوع من التواصل أهم ما حدث في تلك القاعة فغير موقف سكانها مني بعدما عرفوا أنني أمريكي. أصبحت نظراتهم إلي مشفوعة بالمراقبة وبدأوا يكثرون من الإبتسام والإقتراب مني والتفرس فيّ وكأنني رجل من المريخ.

ورجع مساعد المطوف فأومأ لي بأن أتبعه، ثم أشار من الشرفة إلى المسجد ففهمت أنه جاء ليأخذني لصلاة الفجر، فتبعته واختلطنا بآلاف الحجاج الذين كانوا يتكلمون كل الألسن ما عدا اللسان الإنجليزي. وسرت معه وأنا حانق على نفسي لكوني لم أتعلم الصلاة قبل أن أغادر أمريكا. كنا في أمة إسلام إلايجا محمد لا نتلو الأدعية بالعربية، وكان أحد مسلمي بوسطن السنيين واسمه عبد الحميد قد زارني في السجن منذ إثنتي عشرة سنة وبعث لي أدعية بالعربية فتعلمت كيف أنطقها ولكنني لم أستعملها. وارتأيت أن أراقب الدليل أولاً ثم أفعل ما يفعله ولم أجد صعوبة في إقناعه لأنه كان يفكر في الشيء نفسه على كل حال.

كان بجانب المسجد دورة مياه بها حوض يعتليه صف من الحنفيات للوضوء الذي يسبق الصلاة. كنت أعرف ذلك. وراقبت مساعد المطوف ولكنني عندما أردت أن أفعل كل شيء وحدي أخطأت، سيما وأن من سنن الوضوء ترتيب الفرائض.

بعد ذلك تبعته إلى المسجد ووقفت خلفه مباشرة وبدأت أقرأ معه: «باسم الله الرحمان الرحيم» ثم بدأت أهمهم مردداً ما يقوله من غير معرفة دون أن يبدو ذلك علي. أنا لا أريد أن يحمل قولي هذا محمل الطرافة لأنه لم يكن بالنسبة لي طريفاً. وأرجعني دليلي إلى الطبقة الرابعة في تلك البناية، ثم تركني بعدما أفهمني أنه سيعود بعد ثلاث ساعات.

وخرجت إلى الشرفة وجعلت أطل على المطار. كانت الطائرات تحط وتقلع في انتظام والحجاج يتدفقون من باب المطار بالألوف وبعضهم في ملابس زاهية ثم يغادرون إلى مكة على متن الحافلات والشاحنات والسيارات، بل وحتى على الأقدام

أحياناً، فتمنيت لو كنت مع المشاة سيما وقد كان بوسعي أن أفعل ذلك على الأقل دون أن يعلمني إياه أحد.

كنت خائفاً ألاّ يسمحوا لي بزيارة مكة وأداء الحج، وكنت أتساءل عن نوع الأسئلة التي سيطرحها علي القاضي وعن موعدي معه حين جاءني الفارسي وقال في تردد: «أمر... أمريكي؟» ثم أومأ لي بأنه يريدني أن أقاسمه وزوجته فطورهما على سجادهما. وكنت أعرف أن دعوة رجل مسلم لك لشرب الشاي مع زوجته تفضّل كبير منه، ولم أشأ أن أفرض نفسي عليه فحركت رأسي في ما معناه: «لا، شكراً» ولا أدري إن كان قد فهم دوافعي، ومع ذلك جاءني بكوب من الشاي وحلوى، فتذكرت أنني لم أفكر في الأكل حتى ذلك الحين. وبدأ الآخرون يكلمونني بالإشارة. كانوا يأتونني ويبتسمون ويحركون رؤوسهم بعدما كان الرجل الذي يتكلم قليلاً من الإنجليزية قد نشر خبري في البناية ورحل.

كانت حركة السيارات قد كثرت والمسلمون يدبون باسمين في لباس الإحرام أو في أزياء وطنية. ولم يرجع مساعد المطوف في الموعد الذي حدده لي، فبدأت أقلق وأنا رجل قلق بطبعي. خفت أن يكون قد تخلى عني بعدما تبين له أنني حالة ميؤوس منها. وشعرت بالجوع. كان كل المسلمين في القاعة قد قدموا لي طعاماً رفضته، لأنني بصراحة لم أكن أعرف إن كان علي أن آكل كما يأكلون من إناء واحد على سجاد به كل شيء.

وبقيت أتفرج على الساحة من تلك الشرفة، ثم عنّ لي أن أخرج فنزلت، وفي الطبقة الأولى خطر لي أن أحداً قد يأتي للسؤال عني فرجعت، وبعد حوالي خمس وأربعين دقيقة نزلت مرة أخرى ووجدت في الساحة مطعماً صغيراً فدخلته. كان مكتظاً وضاجاً بكلام بكل اللغات. وطلبت بالإشارة دجاجة مشوية كاملة وشيئاً كأنه قطع سميكة من البطاطس المقلية ثم رجعت إلى الساحة فافترست تلك الدجاجة شأن كل من كان حولي. ورأيت رجالاً يناهزون السبعين يجلسون متربعين ويأكلون في تؤدة ورضى وكأنهم في أفخم الفنادق. كان هؤلاء المسلمون يأكلون معاً وينامون معاً وكان كل ما حولهم يبلور وحدة الإنسان في كنف وحدة الله.

وبقيت أخرج ذلك اليوم وأوغل في التجول مرة بعد مرة حتى وقعت على رجلين أسودين هززت لهما رأسي وإذا بأحدهما لدهشتي الشديدة يرد علي بإنجليزية بريطانية،

ولكن فرحتي لم تدم، إذ سرعان ما عرفت أنهما يتأهبان للذهاب إلى مكة. وقلت لهما إنني أمريكي فقالا إنهما من الحبشة وأنهما درسا في القاهرة ويعيشان في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية. فيما بعد تعجبت عندما قيل لي إن عشرة ملايين من سكان الحبشة مسلمون والباقي، أي ثمانية ملايين مسيحيون، على عكس الإعتقاد السائد بأن إثيوبيا مسيحية كلها، والحقيقة أن حكومتها مسيحية لأن الغرب يحرص على أن تكون كذلك.

وصليت المغرب ثم اضطجعت في سريري وأنا أشعر بالوحشة والوحدة، وبغتة لمعت في ذهني فكرة. كنت قد رأيت في الساحة أربعة رجال رسميين في مكتب عليه مهتف وتذكرت رقم المهتف الذي أعطانيه الدكتور شواربي في نيويورك، رقم ابن المؤلف الذي بعث لي كتابه والذي يعيش هنا في جدة!.

وما هي إلا دقائق حتى كنت عند الموظفين الأربعة. كان أحدهم يتكلم إنجليزية وظيفية فأعطيته رسالة الدكتور شواربي في إنفعال وقرأها سراً ثم جهراً على أصحابه فقالوا في دهشة: «مسلم من أمريكا؟». وسألت الذي يتكلم الإنجليزية أن يطلب لي الدكتور عمر عزام ففعل بسرور. ورد عليه شخص كلمه بالعربية ولم يلبث الدكتور عزام أن جاء إلى المطار. شد على يدي بقوة والموظفون الأربعة ينظرون إلينا ويبتسمون. كان طويلاً، قوي البنية ومهذباً للغاية، وكان في أمريكا سيعتبر رجلاً أبيض. ولفت انتباهي بشدة أنني بسبب سلوكه لم أشعر أنه رجل أبيض. وقال معاتباً: «لماذا لم تكلمني من قبل؟» وأخرج للموظفين ورقة تعريف ما ثم استعمل مهتفهم ليتصل بأحد المسؤولين في المطار ثم قال له: «تعال!» وفي نصف ساعة كان قد فك أسري وأرجع لي حقيبتي وجوازي وأركبني إلى جواره في سيارته وأخذ يشق بي شوارع جدة وأنا بالفوطتين والنعل. وبفعل سلوكه لم أشعر بوجود أي فرق بيني وبينه. كنت قد سمعت بالكرم العربي ولكن حرارته تفوق كل تصور.

وسألته عن نفسه فعرفت أنه درس الهندسة المعمارية في سويسرا وتخصص في تخطيط المدن وأن الحكومة السعودية تستعيره من الأمم المتحدة ليشرف على أشغال إصلاح الحرمين وأن أخته متزوجة من نجل الملك فيصل.

وهكذا وجدتني في جدة في سيارة صهر ابن العاهل السعودي، ولم يكن ذلك أقصى ما كان الله سيمن به علي، إذ قال لي الدكتور عزام إن والده الذي كان يعرف

بعزام باشا قبل أن يلغي جمال عبد الناصر الألقاب في مصر ينتظرني في بيته، والده المؤلف الذي بعث لي بتلك النسخة من كتابه. وزاد: «إنه يعمل مع الأمم المتحدة ويتابع أخبارك باهتمام كبير» فبقيت في تلك السيارة مذهولاً.

ووصلنا البيت في ساعة مبكرة من الصباح فوجدنا والد الدكتور عزام وعمه (وهو كيميائي) وصديقاً لهما قد استيقظوا لاستقبالي في ذلك الوقت المبكر فعانقوني على التوالي بحرارة. مع أنني لم أكن قد رأيت أولئك الرجال من قبل، عانقوني بحرارة واحتفوا بي احتفاء عظيماً. سأقول لك، إنني في حياتي لم أشهد نظيراً لذلك الإحتفاء والكرم.

وجاء خادم بالشاي والقهوة ثم انسحب. وسألوني أن آخذ كل راحتي. لم يكن هناك في ذلك البيت أثر لامرأة سعودية، بلد يخيل إلى المرء فيه بسهولة أنه خال من النساء.

كان الدكتور عبد الرحمان عزام يتكلم طوال الوقت وكانوا يسألونني بين الفينة والأخرى لماذا لم أطلبهم من قبل؟ ولا يفهمون لماذا لم أفعل ويسألون إن كنت قد تضايقت من بقائي في المطار. كانوا محرجين من ذلك ومن إرجاء سفري إلى مكة فحاولت أن أقنعهم بأن ذلك لم يسبب لي أية مضايقة ولكنهم لم يقتنعوا.

وقال الدكتور عزام: «يجب أن تستريح» ثم حمل سماعة المهتف وأخذ يتكلم ولم يكن ما يدبره ذلك الرجل المرموق بذلك المهتف ليخطر على بالي، وعندما قيل لي إنني سأعود للعشاء معهم وأنني سأذهب في السيارة لم أكن أعرف أنني على وشك أن أشهد عصارة الكرم الإسلامي.

كان الدكتور عزام ينزل في جدة في جناح خاص بفندق جدة بالاس، ولأنني كنت ضيفهم بتوصية من أحد أصدقائهم، قرر أن ينتقل إلى بيت ابنه ويترك لي جناحه في الفندق. وحاولت عبثاً أن أعترض على ذلك عندما أدركته، ولما تركني الدكتور عزام الإبن في جناح والده وذهب، لم تعد هناك فائدة من الإعتراض.

كان رقم ذلك الجناح ٢١٤ وكان من ثلاث غرف وحمام في حجم غرف النوم الكبرى بفندق هيلتون نيويورك وشرفة تطل على المدينة العتيقة. وشعرت برغبة في الصلاة لم أشعر بها من قبل فصليت على سجاد غرفة الإستقبال.

لم يكن في حياتي كرجل أسود في أمريكا، ما يجعلني أعتبر أية خدمة تقدم لي خالصة لوجه الله. وذلك الصباح في ذلك الفندق الذي جئته من فراش بسيط في قاعة نوم جماعية، كنت أعيش لحظة من اللحظات القليلة في حياتي التي شعرت فيها بضعفي.

كان رجل أبيض (على الأقل كان في أمريكا سيعتبر كذلك) صهر ملك ومستشاره وشخصية دولية قد أعطاني جناحه الخاص لكي أرتاح دون أن تكون له أية مصلحة في ذلك. رجل في غنى تام عني ويملك كل شيء، أية مصلحة ستكون له في ذلك؟ الحقيقة أن معرفتي كانت كفيلة بأن تضره أكثر مما تنفعه. إنه يتتبع أخباري في الصحافة الأمريكية ويعرف أنني موصوم وموصوف بـ«العنصرية» و«معاداة البيض» وهو رجل أبيض بكل المقاييس، ويعرف أنني «مجرم» ومتهم فوق ذلك كله باستعمال الإسلام كمطية لممارساتي وفلسفاتي الإجرامية. وحتى لو فرضنا أنه يريد استغلالي فكيف يستغلني وهو يعلم أنني انفصلت عن إلايجا محمد وأمة الإسلام وهما «مصدر قواي» على حد تعبير الصحافة الأمريكية ويعلم أن المنظمة الوحيدة التي أملكها لا يتعدى عمرها الأسبوعين؟ ثم كيف يستغل رجلاً مثلي لا مال له ولا عمل كان عليه لكي يؤدي فريضة الحج أن يستدين من أخته؟.

ذلك الصباح بدأت أعيد النظر في تقييمي لـ«الرجل الأبيض» وأدرك أننا عندما نستعمل عبارة «الرجل الأبيض» لا نقصد اللون وإنما نقصد المواقف والمعاملة. عندما نقول «رجل أبيض» في أمريكا نعني مواقف خاصة ومعاملة خاصة للإنسان الأسود ولكل من ليس بأبيض، ولكنني في العالم الإسلامي وجدت رجالاً بيضاً أكثر تلقائية في إخائهم من أي شخص آخر. ذلك الصباح تغيرت نظرتي الشاملة لـ«البيض» وسأورد هنا ما كتبته في ذلك الفندق والساعة تقارب منتصف النهار:

«أشعر بانفعال شديد وأنا جالس هنا في انتظار أن أمثل أمام لجنة الحج. نافذتي الغربية تطل على البحر والشوارع تحت تكتظ بحجاج من كل حدب وصوب يلهجون بالدعاء ويرتلون القرآن. مشهدهم جميل لم تبصر له عيني نظيراً وهذا الجو لم يسبق لي أن شعرت به. وعلى الرغم من انفعالي أشعر بالأمن والأمان وأنا على بعد آلاف الأميال من الحياة المناقضة التي عشتها. منذ أربع وعشرين ساعة كنت قلقاً ووحيداً في غرفة جماعية في الطبقة الرابعة من بناية الحجاج بالمطار، وأنا مع أشخاص لا أستطيع

أن أتفاهم معهم وبمكالمة هاتفية واحدة قابلت رجلاً مرموقاً في العالم الإسلامي سأنام في فراشه. أحس أنني مع أصدقاء صادقين ومتدينين وأحس بالرغبة في الصلاة، شكراً لله والدعاء لزوجتي وبناتي في أمريكا وسؤال الله أن يكافئهن على تضحياتهن».

وصليت أربع ركعات كما قلت في المذكرة ثم نمت حوالي أربع ساعات حتى أيقظني جرس المهتف. وجدت المتكلم عزام الإبن وقال إنه سيأتي ليأخذني للعشاء بعد حوالي ساعة وأردت أن أشكره وتعثرت فقاطعني قائلاً: «إن شاء الله».

وفتحت الباب لأنزل إلى البهو وأتفرج عليه قبل أن يأتي عزام، فوجدت رجلاً في لباس رسمي يخرج من الباب المقابل وينزل السلم وسط حاشية، فنزلت في إثرهم ثم سرت خلفهم إلى مدخل الفندق حيث كان أسطول من السيارات في انتظارهم. وما كاد الرجل يخرج إلى الشارع حتى هرع الناس إليه والتفوا حوله وأخذوا يقبلون يده وسألت عنه فقيل لي إنه مفتي القدس. فيما بعد جمعتني به جلسة خاصة وتحدثت معه حوالي نصف ساعة فوجدته ودياً ومهيباً وعلى إطلاع بما يجري في العالم وبآخر الأخبار في أمريكا.

لن أنسى عشاء تلك الليلة في بيت الدكتور عزام. ومرة أخرى سأعود إلى مذكرتي لاستحضار ما كتبته:

«لا أستطيع في قرارة نفسي أن أقول إن هؤلاء الرجال «بيض». لقد عاملوني كما لو كنت أخاهم وعاملني الدكتور الكبير كما لو كنت ابنه وكنت أشعر فعلاً كأنه أبي. واضح أنه دبلوماسي محنك، دبلوماسي بكل معنى الكلمة ورجل له إطلاع دقيق على شؤون العالم. معلوماته تنصب من معين لا ينضب. قال إن نسل الرسول فيه الأبيض والأسود وأن اللون في العالم الإسلامي لا يشكل مشكلة إلا في الأماكن التي يوجد بها تأثير غربي، وأنه إذا حدث ووجد موقف من اللون في مكان ما من العالم الإسلامي فإنه يعكس مدى تأثير الغرب في ذلك المكان. وعلمت ونحن في العشاء أن لجنة الحج قد أحيطت علماً بأمري وأنني سأمثل بين يديها في الصباح.

وفي الصباح ذهبت إلى المحكمة فلم يكن بها فيها عدا القاضي الشيخ محمد حرقون إلاي وأخت من الهند كانت بروتستانتية وأسلمت وجاءت مثلي لتحج. وكانت سمراء، ذات وجه صغير يغطي حجاب معظمه. وكان القاضي رجلاً رحيماً ومهيباً. وسألني عدة أسئلة تعود إلى صدق إسلامي فأجبته بكل ما أملك من صدق. وأقر

إسلامي وأعطاني كتابين أحدهما بالعربية والآخر بالإنجليزية ثم دون اسمي في سجل ثم رفع الجلسة وقال: «أرجوا أن تصبح داعية كبيراً للإسلام في أمريكا» فقلت له إنني أشاطره هذا الرجاء وأنني سوف أعمل على تحقيقه.

وأطلعت آل عزام على الخبر السعيد فسروا به ثم تغديت في الفندق ونمت بضع ساعات حتى أيقظني جرس المهتف. كان المتكلم محمد عبد العزيز ماجد رئيس البروتوكول الملكي وقال: «إن سيارة خاصة ستأتي لأخذك إلى مكة بعد العشاء» وأوصاني بالأكل جيداً لأن مناسك الحج تتطلب مجهوداً كبيراً. كان ذهولي حتى ذلك الحين قد بلغ حده فشعرت بما يفوق الذهول.

ورافقني شابان عربيان فسرنا في طريق سيار منار ومريح للغاية. كنا نصادف بين الفينة والفينة حراساً فكانوا يلقون على السيارة نظرة وكان السائق يلوح لهم ويمضي دون أن يحتاج حتى إلى تخفيض سرعته، وكنت أشعر بمزيج من الفرحة والأهمية والتواضع والإمتنان.

ودخلنا مكة فإذا هي قديمة قدم الزمان، ثم سار السائق ببطء في أزقة ملتوية تصطف على جوانبها الدكاكين والحافلات والسيارات والشاحنات وتكتظ بعشرات الآلاف من الحجاج، وأوقف السيارة في مكان كان المطوف ينتظرني فيه، وكان عربياً قصير القامة وداكن اللون يضع القلنسوة البيضاء والقميص الطويل اللذين رأيتهما في المطار ولا يتكلم حرفاً واحداً من الإنجليزية.

وتركنا السيارة بجانب الحرم ثم توضأنا ودخلنا فإذا الحجاج يوشك أن يكون بعضهم فوق بعض ومنهم من يتمدد ومن يجلس ومن ينام ومن يصلي ومن يمشي، وإذا المسجد المشيد حول الكعبة في عظمة لا تستوعبها الكلمات، وإذا أنا أدرك بسرور غامر أن كل هذا تم على يد الدكتور عزام الإبن الذي كنت ضيفه منذ حين. إن حرم مكة عندما ينتهي إصلاحه سيفوق قصر تاج محل الهندي من حيث الجمال الهندسي.

وسرت وأنا أحمل نعلي خلف المطوف ثم رأيت الكعبة، بيت ضخم من الحجر الأسود في قلب الحرام تحدق به الألوف المؤلفة من الحجاج نساء ورجالاً في كل الأحجام والأشكال والألوان. وكنت أعرف الدعاء الذي يتلى عند استقبال الكعبة فأخذت أردده: «اللهم أنت السلام ومنك السلام فاستقبلنا بالسلام يا رب!»

في الطواف يستحسن بعد كل شوط أن يقبل الحاج الحجر الأسود، فإن لم يستطع اكتفى بلمسه، فإن لم يستطع استقبله من بعيد ورفع يده مكبراً. ولما تبين لي أن تقبيلي له محال اكتفيت بالتكبير.

كنت أشعر بتخدر شامل وكان المطوف قد شق بي الحشود التي تطوف وتدعو وتطفح وجوهها بالإيمان ومن بينها شيوخ وعجزة يحملهم غيرهم. وأنهيت الأشواط السبعة فصليت ركعتين الأولى بالفاتحة وقل يا أيها الكافرون والثانية بالفاتحة وقل هو الله أحد والمطوف واقف يرد الطائفين عني. بعد ذلك شربنا من ماء زمزم أنا وهو ثم سعينا بين الصفا والمروة مكررين ما فعلته هاجر عندما كانت تبحث لابنها إسماعيل عن الماء. ذلك اليوم رجعت إلى الكعبة ثلاث مرات وطفت بها.

وفي اليوم التالي صلينا الصبح وخرجنا إلى عرفات ونحن نردد: «لبيك اللهم لبيك!» و«الله أكبر». كانت مكة محاطة بأخشن وأقحل شعاب رأيتها، شعاب يخيل إليك أنها من حمم.

ووصلنا عرفات في منتصف النهار فبقينا ندعو حتى المغرب ونقول ونحن نرفع أكفنا نحو السماء: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير». وبتلك الوقفة في عرفات كنا قد أدينا أساس الحج الذي لا يصح حج من دونه. وبعدها رمينا الجمرات وحلق البعض رؤوسهم ولحاهم ولكنني قررت أن أبقي على شعر رأسي ولحيتي لأنني كنت أفكر في ما عسى أن تقوله زوجتي بيتي وبناتي إذا رأينني بلا لحية ولا شعر. بدت لي نيويورك بعيدة بعد السماء ولم تكن هناك جريدة أستطيع قراءتها فلم أعلم بما كان يحاك ضدي فيها. كان البوليس قد اكتشف بهارليم نادي مسلحين عمره إثنتا عشرة سنة فأشيع أنني وراءه، كما كانت أمة إسلام إلايجا محمد قد رفعت ضدي دعوى تطالبني فيها بإفراغ البيت الذي أسكنه في لونغ آيلاند وكان مراسلو وسائل الإعلام الأمريكية الكبرى في القاهرة يقلبون الدنيا علي لمعرفة رأيي في الغضب الذي زعم أنني أشعلته والذي لم أكن أعرف عنه شيئاً. في ذلك الوقت لم أكن أعرف إلا ما تركته في أمريكا والذي يتعارض مع ما وجدته في العالم الإسلامي.

وكنت في عرفات قد جلست في خيمة كبيرة مع حوالي عشرين حاجاً كنت محط اهتمامهم بوصفي مسلماً من أمريكا، وكانوا قد سألوا عما لفت انتباهي في الحج،

فبدأت أرد على سؤالهم وبدأت القلة التي تفهم الإنجليزية تترجم للآخرين وفاجأهم جوابي ولكنهم وجدوه في الصميم. قلت لهم: «الأخوة. وحدة هذا البشر المنتمي إلى كل لون وجنس أكدت لي قدرة الله الواحد».

ولعلني أخللت بالذوق، ولكنني انتهزت الفرصة فكلمتهم عن العنصرية الأمريكية وشرها وأثر فيهم ما سمعوه تأثيراً كبيراً هم المسلمون ذوو القلوب الرحيمة والإحساس بالحق والعدل. كانوا يعرفون محنة الإنسان الأسود في أمريكا، ولكنهم لم يكونوا يعرفون أنها لا إنسانية إلى ذلك الحد، وأنها تصيب النفس إصابة وخيمة. وكانوا يدركون أن العنصرية شر ما في الوجود لأنها دليل على عجز الإنسان، ولا سيما في الغرب عن العيش في وحدة.

كنت حتى ذلك الحين قد صغت في ذهني رسالة حول إنعدام الإحساس باللون في العالم الإسلامي الراجع إلى التدين والإنسانية، وهما الصفتان اللتان كان أثرهما علي يزداد يوماً بعد يوم ويغير تفكيري.

وكانت تلك الرسالة بالطبع لزوجتي بيتي، ولم أشك لحظة واحدة في أنها بعدما تفيق من الصدمة ستغير موقفها وتتبنى رأيي وأنها ستفهم أن الله هداني في أرض محمد وإبراهيم إلى الإسلام الحقيقي وفهم المعضلة العنصرية في أمريكا فهماً أفضل. وكتبت رسالة أخرى لأختي إيلا قلت لها فيها الشيء نفسه، وكنت أيضاً أعرف موقفها إذ كانت هي نفسها قد نوت الحج. وكتبت للدكتور شواربي الرجل الذي اقتنع بصدق إسلامي ففتح لي أبواب مكة ثم أمضيت بقية الليل في نسخ رسائل في المعنى نفسه إلى أصدقائي المقربين ومن بينهم ولاص ابن إلايجا محمد الذي كان قد عبر لي عن اقتناعه بأن أمة الإسلام لن ينقذها إلا الإسلام السني. وكتبت لمساعدي المخلصين في مسجدي الجديد بهارليم وأرفقت لهم ملحوظة قلت فيها أن يوزعوا نسخاً من تلك الرسالة على الصحافة. كنت أعرف أن تلك الرسالة ستذهل الأصدقاء والأعداء والملايين ممن لم أكن أعرفهم والذين كانوا ينظرون إلي طوال الإثنتي عشرة سنة التي قضيتها مع إلايجا محمد على أنني داعية للكراهية. ولم تكن الرسالة من دون سوابق فقد كانت حياتي سلسلة من التحولات. في تلك الرسالة كتبت من صميم قلبي:

«في حياتي لم أشهد أصدق من هذا الإخاء بين أناس من كل الألوان والأجناس أذهلوني خلال الأسبوع الماضي بما رأيته منهم من لطف.

لقد منَّ الله علي فحججت البيت وطفت به برفقة مطوف اسمه محمد وشربت من ماء زمزم وسعيت بين الصفا والمروة وصليت في منى ووقفت بعرفات مع عشرات الآلاف من الناس القادمين من كل أرض والذين يمثلون كل درجات الألوان البشرية من الشقر ذوي العيون الزرق إلى الأفارقة السود فأديت معهم المناسك نفسها في إخاء ووحدة كنت أحسب من تجربتي في أمريكا أنهما أمران مستحيلان بين الإنسان الأبيض والأسود.

إن أمريكا في حاجة إلى فهم الإسلام لأنه الدين الوحيد الذي يملك حل مشكل العنصرية فيها. وخلال سفري في العالم الإسلامي قابلت وكلمت بل وأكلت مع رجال كانوا سيعتبرون «بيضا» في أمريكا ولكن الإسلام محا الموقف «الأبيض» من سلوكهم، ورأيت لأول مرة في حياتي أناساً من كل الألوان لا ينظرون إلى ألوانهم ويعيشون في إخاء صادق وحقيقي.

قد يدهشكم ما سأقوله، ولكن ما رأيته وعشته في هذه الحجة قلب أفكاري وجعلني أتخلص بسهولة من بعض استنتاجاتي السابقة. لقد كنت دائماً أحاول على الرغم من اقتناعاتي السابقة أن أجابه الوقائع وأقبلها على ضوء التجارب والإكتشافات لأن لي عقلاً متفتحاً ومرناً وهما الصفتان الضروريتان للبحث عن الحقيقة.

وخلال الإثني عشر يوماً التي قضيتها في العالم الإسلامي أكلت من إناء واحد وشربت من كأس واحدة ونمت في فراش واحد (أو على سجاد واحد) وأنا أعبد رباً واحداً، مع مسلمين عيونهم زرقاء كأشد ما تكون الزرقة، وشعورهم شقراء كأشد ما تكون الشقرة، وجلدهم أبيض كأشد ما يكون البياض، رجال وجدت في أقوالهم وأفعالهم الإخلاص نفسه الذي وجدته عند المسلمين السود القادمين من نيجيريا والسودان وغانا، وأكد لي تصرفهم أنهم يعتبرون أنفسهم أخوة متساوين معنا، لأن إيمانهم بالرب الواحد نزع «البياض» من أنفسهم وسلوكهم ومواقفهم ولذلك أعتقد أن الأمريكيين البيض إذا قبلوا وحدانية الله سيقبلون بالتالي وحدة الناس ويكفون عن وزنهم في الموازين وصدهم وإيذائهم لا لشيء إلا لإختلاف لونهم. وأمام السرطان العنصري الذي ينخر جسم أمريكا يجب أن تكون قلوب مسيحييها البيض أكثر تقبلاً للحل الإسلامي لأن التجربة أثبتت فاعليته وعسى أن تطبقه أمريكا قبل أن تدمرها العنصرية كما دمرت ألمانيا من قبل.

إن كل ساعة أمضيها في هذه البقاع المقدسة تزيدني فهماً لما يجري بين البيض والسود في أمريكا وتزيدني إقتناعاً بأنه لا يحق لنا أن نلوم الزنجي الأمريكي على حساسيته العنصرية لأنها رد فعل على الوعي العنصري الأبيض الذي عانى منه منذ قرون عدة، وأن العنصرية ستقود أمريكا إلى الإنتحار وأن الأمل الوحيد معقود على قدرة شبابها الجامعي الأبيض على رؤية خطر العنصرية والوقوف مع الحق.

إنني أحظى بتكريم لم أحظ به في حياتي وأشعر بتواضع وضعة لم أشعر بهما من قبل. من يصدق أن كل هذا يغدق على زنجي أمريكي؟. من بضعة ليال أعطاني رجل كان في أمريكا سيعتبر «أبيضَ» (دبلوماسي في الأمم المتحدة وسفير ورفيق ملوك) أعطاني جناحه الخاص وفراشه وأعلم بي عاهل البلاد الملك فيصل فكلف ابنه بذات نفسه بالإتصال بي وإخباري بأنني أصبحت ضيف الدولة بأمر من والده المبجل. وأخذني رئيس البروتوكول الملكي بنفسه إلى محكمة الحج حيث صادق القاضي محمد حرقون على دخولي مكة وأعطاني كتابين عن الإسلام وضع عليهما خاتمه وتوقيعه، ودعا الله أن يوفقني إلى نشر الإسلام في أمريكا. ووضعت رهن إشارتي سيارة وسائق ومرافق فبدأت أتنقل في هذه الأرض المقدسة كيف أشاء. ووضعت الحكومة رهن إشارتي في كل مدينة زرتها مقر إقامة مكيف وخدما، وهو تكريم يخصص في أمريكا للملوك لا للزنوج فلله الحمد رب العالمين».

المخلص

الحاج مالك الشباز

(ملكوم إكس)

الفصل الثامن عشر

الحاج مالك الشباز

كان الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية قد جعلني ضيف الدولة فعاد علي ذلك بسيارة وسائق تركته دون خجل يجوب بي مكة ويعرفني بمعالمها. كانت جهات منها تبدو كما قلت في قدم الزمان، وجهات أخرى نسخة لإحدى ضواحي ميامي العصرية. ووضعت يدي على أرضها المقدسة فانتابني شعور لا يوصف.

كنت كمسلم من أمريكا محط اهتمام شديد، وكان الناس يخلطون بيني وبين كاسيوس كلاي، وكانت جريدة جهوية قد نشرت صورة لي معه في الأمم المتحدة فكان الناس يسألونني عنه بواسطة السائق الذي كان في الوقت نفسه مترجماً ومرافقاً. وكان حتى الأطفال يعرفون كلاي ويحبونه، وكانت قاعات السينما في الشرق وإفريقيا قد عرضت شريط مقابلته الحاسمة فكان يملأ خيال العالم الإسلامي ويستحوذ على قلبه، وأقلتني تلك السيارة إلى عرفات ومنى للصلاة، فكانت السياقة ضارية. كان هناك عدد مهول من السيارات وصرير الفرامل والعجلات وأصوات المنبهات، وأظن أنه ما من سيارة في تلك البقاع إلا وتنطلق باسم الله. وكنت قد بدأت أحفظ القرآن بالعربية فأصبحت مشكلتي مع الصلاة جسدية وحسب لأن الجلوس على قدمي بتلك الصورة التي لم أتعود عليها تسبب في تورم أصبع قدمي الكبرى، فكانت تؤلمني.

وسرعان ما تعودت على التقاليد الإسلامية وبدأت أتناول الطعام بيدي من إناء مشترك مع إخواني المسلمين، وأشرب دون تردد من الكأس نفسها وأغتسل من الجرة الصغيرة عينها وأنام في العراء مع ثمانية أو عشرة أنفار على السجاد نفسه. وأذكر ليلة نمنا فيها في المزدلفة تحت السماء واكتشفت فيها أن الحجاج المنتمين إلى كل أرض ولون وطبقة ورتبة، الموظفين السامين منهم والمتسولين على السواء، كلهم يغطون بلفّة واحدة.

في تلك الحجة أجزم أنه تم استهلاك مليون زجاجة من المشروبات على الأقل

وتدخين عشرة ملايين سيجارة. المسلمون العرب على وجه الخصوص كانوا لا يكفون عن التدخين. كانوا يدخنون حتى وهم محرمون وأنا على يقين أن التدخين لو وجد في عهد الرسول لحرمه.

قيل لي إن عدد الحجاج ذلك العام قد ضرب الرقم القياسي، وأخبرني برلماني تركي اسمه قاسم غوليك وهو يبتسم مزهواً أن أكثر من ست مائة حافلة جاءت من تركيا وحدها وعلى متنها ما يزيد على خمسين ألف حاج وحاجة، فقلت له إن أملي أن أرى اليوم الذي أجد فيه الطائرات والباخرات تغادر أمريكا محملة بالحجاج.

كنت أرى الناس مكتلين حسب ألوانهم. لاحظت ذلك يوماً ثم بدأت أراقبه فقد كانت عندي بوصفي من أمريكا حساسية اتجاه اللون. ولاحظت شبهاً بين أفراد المجموعات، وكان ذلك يتم بمحض الإختيار ولم يكن له أي تفسير آخر. كان الأفارقة مع الأفارقة والباكستانيون مع الباكستانيين وهكذا. وعقدت العزم على أن أقول ذلك للأمريكيين عندما أعود، أنه عندما تكون هناك أخوة صادقة بين الألوان ولا يكون هناك شعور بالفصل ومركب الكمال والنقص، أن الناس تنجذب تلقائياً بشكل طبيعي نحو المجموعة التي تجمعها بها عوامل مشتركة.

وكنت أيضاً قد عزمت على ألا آتي في حجتي القادمة إلا وأنا أعرف قدراً لا بأس به من المفردات العربية الجوهرية. لقد حالفني الحظ هذه المرة فوقعت على إخوة حباهم الله سعة الصدر فترجموا لي، وعندما لم أكن أجد المترجم كنت أحس أنني أعمى أصم لا أفهم شيئاً مما يقال من حولي وعني أو يقال لي من طرف من لا يعرفون أنني «مسلم من أمريكا» لا يحفظ إلا ما تيسر من آيات قرآنية بالعربية ولا يستطيع فيما عدا ذلك إلا أن يهز رأسه ويبتسم، وإن كنت في الحقيقة لا أكتفي بهز الرأس والإبتسام. كنت أفكر وأتأمل بمنطق أمريكي وأقول إن الناس كانت ستقبل على الإسلام بأضعاف مضاعفة لو أن صورة الحج بألوانها وروحانيتها وصلت إليهم، وأن العرب لا يفهمون نفسية غير العرب ولا يدركون أهمية العلاقات العامة، إنهم يقولون: «إن شاء الله» ثم ينتظرون أن يأتيهم الناس مسلمين. أنا لا أقول إن الإسلام لا يسير، ولكن لو كان المسلمون يستعملون مناهج العلاقات العامة المتطورة لسار بسرعة مضاعفة.

كان الناس في كل مكان يسألونني باستمرار عن العنصرية في أمريكا، وكنت

رغماً عن خلفيتي أذهل من كون العنصرية هي الصورة الأساسية والوحيدة الموجودة في أذهان الناس عن أمريكا. وكنت خلال مئات المرات التي تحدثت فيها مع مسلمين من كل المستويات ومع غير المسلمين الذين رأيتهم فيما بعد عندما زرت إفريقيا السوداء، كنت لا أحجم أو أدع الفرصة تمر دون أن أتكلم على حقيقة الجرائم والأذيات والإهانات التي يتعرض لها الإنسان الأسود في أمريكا. كنت أنتهز كل الفرص لأعلن عن محنة الإنسان الأمريكي الأسود. وكنت عندما فعلت ذلك في جبل عرفات وفي بهو فندق جدة بلاس أشير إلى أفراد معينين لأقرب الصورة من أذهانهم وأقول: «أنت... وأنت... وأنت... لو كنت في أمريكا لسموك زنجياً ولقنبلوك ورموك بالرصاص ووخزوك بالمناخس، ولوجهوا لك خراطيم النار ولضربوك بسبب لونك».

ودخلت في حوار طويل مع مفتي القدس وهو رجل أزرق العينين، أشقر الشعر قدمني إليه قاسم غوليك البرلماني التركي، وكان كلاهما متعلماً وعلى علم بما يجري في أمريكا، فسألني قاسم غوليك عن سبب انفصالي عن إلايجا محمد فقلت له إنني لا أحب أن أتكلم على خلافي معه، لأن ذلك ليس في صالح وحدة الأمريكيين السود، ففهم كلا الرجلين موقفي واقتنعا به.

وقابلت عمدة مكة الشيخ عبد الله الرائف وهو صحافي سابق كان قد كتب ينتقد سياسة بلدية مكة فعينه الملك فيصل عمدة عليها ليرى ما يفعله فنجح في مهمته نجاحاً شهد له به الجميع.

وأجرت التلفزة التونسية استطلاعاً عني بعنوان «المسلم القادم من أمريكا» أجراه صحافي كان قد أجرى مقابلة مع إلايجا محمد في شيكاغو. وكنت قد حولت بهو فندق جدة بلاس إلى مقر لاستقبالاتي وبدأت أجلس فيه إلى شخصيات من بلاد مختلفة تتوق لسماع «الأمريكي المسلم» ومن بينها أفارقة سبق لهم أن زاروا أمريكا أو سمعوا بواقع الإنسان الأسود فيها. وما زلت أذكر ما حكاه وزير إفريقي، سافر إليها بدون زيه الوطني، عن الإهانات التي تعرض لها والتي كان مجرد كلامه عنها ما يزال إلى ذلك الحين يخرجه عن أطواره فتحتقن عيناه من الغضب ويقول وهو يشق الهواء بيديه: «لماذا يصبر الأمريكي الأسود على كل ذلك الهوان؟ لماذا لا يدافع عن كرامته؟».

وأذكر أن موظفاً سودانياً سامياً عانقني وقال: «يا بطل الشعب الأمريكي الأسود!»

وأن موظفاً هندياً سامياً بكى رحمة بمن أسماهم «إخواني في أرضكم». وفكرت مراراً في كثافة العصابة الموضوعة على أعين الزنوج في أمريكا والتي تمنعهم من رؤية أحوالهم والتفكير فيها بوصفهم جزءاً من شعوب العالم غير الأبيض. إن الزنجي الأمريكي لا يشعر بما تكنه له الملايين من أفراد شعوب العالم غير الأبيض من تعاطف وأخوة. هناك في تلك البقاع المقدسة وفي إفريقيا السوداء كونت قناعة بقيت معي إلى الآن، وهي أن على الزعماء الزنوج الأمريكيين أن يزوروا البلاد غير البيضاء ويقابلوا رجالاتها السياسية ولي اليقين أنهم سيرجعون (إذا كانوا صادقين ومتفتحين) بحلول أكثر فاعلية لمشاكل الأمريكيين السود، وأن الرسميين في البلاد غير البيضاء ولا سيما الأفارقة سيهمسون في آذانهم بأنهم سيضعون كل ثقلهم لصالح قضيتهم في الأمم المتحدة وغيرها.

إن هؤلاء الرسميين يعتقدون ومعهم الحق أن الزنجي في أمريكا يعيش في بلبلة وتفرقة لم يعد هو نفسه قادراً معها على معرفة قضيته. وقد قال لي الأفارقة إن الناس لا تعرف كيف تقدم المساعدة للسود الأمريكيين وهم لم يقدموا الدليل على أنهم يريدونها.

إن مأساة «الزعماء» الأمريكيين السود في أن خيالهم وتفكيرهم وتخطيطاتهم (إن كانت لهم تخطيطات) محدودة دائماً إن لم نقل محدودة بالأساس، نظراً لما يتلقونه من استشارة أو مصادقة بيضاء. وأكثر ما يقضّ مضجع الجهاز الأمريكي الحاكم هو أن يبدأ الزنوج يفكرون على مستوى عالمي.

لقد منيت المنظمات الأمريكية السوداء وزعماؤها بفشل ذريع عندما عجزت عن إحلال اتصال قائم على الأخوة بين الأمريكيين السود والأمم الإفريقية المستقلة. وقد كان من الواجب أن يتوصل كل رئيس دولة إفريقي من السود الأمريكيين مباشرة بتقارير عن تطورات صراعهم وليس بمنشورات وزارة الخارجية الأمريكية التي توعز دائماً بأن المشكل في طريقه إلى الحل.

وقد ساعد كتابان أمريكيان مترجمان إلى العربية على تقوية الإهتمام العربي بالسود الأمريكيين وتوسيعه. الأول كتاب جايمس بالدوين والثاني كتاب جون غريفين الذي يحمل عنوان «أسود مثلي» ويحكي الأهوال التي تعرض لها رجل أبيض صبغ نفسه بالسواد وسافر إلى أمريكا مدة شهرين والذي كان يقال لي عنه: «إنه يعكس

تجربة مريعة حقاً» فكنت أقول: «إذا كانت مريعة بالنسبة له وهو لم يعشها إلا موقتاً فما بالك بمن يعيشها منذ ٤٠٠ عام؟».

وفي نهاية الحج حظيت بتشريف، صليت شكراً لله عليه، وهو استقبال الملك فيصل لي. دخلت عليه فقام من مكتبه وجاء نحوي. وكان طويلاً ووسيماً فعنت لي فكرة لم تبرح بالي. قلت في نفسي: «هذه إحدى أبرز الشخصيات في العالم، ومع ذلك أنظر كيف تتساوى فيها العزة والتواضع!». وأشار إلى مقعد مواجه لمقعده فجلست وجلس المترجم، محمد عبد العزيز ماجد رئيس البروتوكول وهو مصري أسود كأنه جاء لتوه من هارليم.

وحاولت أن أعبر للملك عن امتناني لما لقيته من تكريم فحرك يده قائلاً ما ذلك إلا كرم مسلم مع مسلم آخر، مسلم من نوع خاص، وقال إنه فعل ذلك بسرور وإنه لم تكن له أية دوافع أخرى. وجاء خادم بنوعين من الشاي بهدوء والملك يتكلم. كنت قد عرفت ابنه محمد في أحد البرامج التلفزيونية في أمريكا حين كان طالباً بإحدى جامعات شمال كاليفورنيا. وكان الملك قد قرأ ما كتبته الصحافة المصرية عن المسلمين السود فقال: «إذا كان ما كتبته هذه الصحف صحيحاً فإن ما يتبعه المسلمون السود ليس هو الإسلام الصحيح»، فشرحت له دوري في أمة الإسلام خلال الإثنتي عشرة سنة الماضية وقلت له إن هدفي من الحج هو معرفة الإسلام الصحيح فقال: «هذا جيد» وأضاف: «على أن هناك عدداً كبيراً من المنشورات عن الإسلام بالإنجليزية ولذا فإن التعلل بعدم المعرفة ليس عذراً كما أنه لا ينبغي للمسلم الحق أن يسمح لغيره بتضليله».

وعندما غادرت جدة في نهاية أبريل ١٩٦٤ متوجهاً إلى بيروت عاصمة لبنان الواقعة على البحر، كنت قد تركت جزءاً من نفسي في مكة المكرمة وأخذت جزءاً منها معي إلى الأبد. ومن بيروت ذهبت إلى نيجيريا، فغانا.

كان البعض ممن قابلتهم في الحج قد نصحوني بزيارة بعض المدن ومنها بيروت فعملت بنصحهم ووافقت على إلقاء محاضرة في جامعتها الأمريكية. وهناك بفندق بالم بيتش نمت لأول مرة منذ تركت أمريكا أطول وأهنأ نومة، ثم خرجت أتمشى فأثار انتباهي، بعد الأسابيع التي قضيتها في البقاع المقدسة، تصنّع اللبنانيات وتأنقهن. بعد نساء البقاع المقدسة اللاتي كن في منتهى البساطة والرقة كانت النقلة عنيفة إلى هؤلاء

اللبنانيات النصف عربيات النصف فرنسيات اللاتي يدل لباسهن وسلوكهن في الشارع على أنهن أكثر حرية وأكثر جرأة.

كان التأثير الأوروبي واضحاً على التراث اللبناني، واتضح لي أن القوة والضعف المعنويين للبلدان يظهران بسرعة على مظهر النساء في تلك البلدان وسلوكهن في الشارع ولا سيما الشابات، لأن انحطاط الأخلاق وذهابها ينعكسان على النساء ويأتيان نتيجة سيادة الماديات. راقب النساء في أمريكا وستفهم ما أعنيه. ويبدو أن عالم اليوم لم يعد فيه إلا التطرف بين الشيء وضده، ولو أننا وجدنا الموقف الوسط وجمعنا بين النمو المادي والقيم الروحية لأوجدنا الجنة على الأرض.

وتكلمت في الجامعة الأمريكية في بيروت على واقع الإنسان الأمريكي الأسود. وقد سبق أن قلت إن الخطيب المجرب يحس برد فعل جمهوره وفي ذلك اليوم شعرت أن رد فعل الطلاب الأمريكيين الحاضرين ذاتي ودفاعي، ولكنهم بدأوا يتراجعون عنه تدريجياً مع طرحي للوقائع. ولاحظت أن مشاعر الطلاب ذوي الأصول الإفريقية تظهر عليهم بسهولة فريدة من نوعها.

وعلمت فيما بعد بدهشة بما نشرته الصحافة الأمريكية عن أن محاضرتي تلك سببت «إضطراباً» وهو شيء غير صحيح. أي اضطراب؟ لم يكن هناك أي اضطراب إطلاقاً. لا أعرف كيف يسمح صحافي رصين لنفسه بالإبراق بمثل ذلك إلى جريدته عبر المحيط. لقد غطت الدايلي ستار البيروتية محاضرتي ولم يرد فيما كتبته ذكر لأي «اضطراب» لأنه لم يكن هناك اضطراب.

كان الطلاب الأفارقة قد أحدقوا بي في نهاية المحاضرة وطلبوا مني أوتوغرافات وعانقني بعضهم في حفاوة لم يسبق لي أن حظيت بها حتى من الزنوج الأمريكيين الأكثر كبتاً والأقل واقعية.

ومن بيروت رجعت بالطائرة إلى القاهرة ثم ذهبت إلى الإسكندرية بالقطار وأنا أستعمل آلة تصويري في كل المحطات. وأخيراً وجدتني في طائرة متوجهة إلى نيجيريا. وخلال الرحلة التي استغرقت ست ساعات، كنت إما أتحدث مع الربان وهو بطل أولمبي في السباحة لعام ١٩٦٠ أو أتكلم مع جاري وهو سياسي إفريقي متحمس كان يتمادى به الحماس حتى يوشك أن يصرخ. قال لي: «عندما يكون الناس في حالة الخروج من الجمود لا يكون لديهم الوقت للإنتخابات» وكان يركز على أن الأمم

الإفريقية التي ما تزال تحاول أن تتحرر ليست في حاجة إلى أي نظام سياسي يسمح بالتقسيم والخلاف، وأن الناس في إفريقيا لا تعرف معنى الإنتخابات، وأن رفع مستواها الفكري موكول إلى الزعماء الذين يعلمون.

وفي لايغوس استقبلني البروفسور إيسيان أودوم من جامعة إيبادام فكان كلانا سعيداً برؤية الآخر لأننا كنا قد تقابلنا في الولايات المتحدة عندما جاء لجمع عناصر كتابه حول أمة الإسلام الذي أسماه الوطنية السوداء. وأقام على شرفي في بيته تلك الليلة حفلة عشاء حضرها أساتذة وأصحاب مهن حرة. وأثناء العشاء سألني دكتور شاب إن كنت قد سمعت بما خلفه مقتل امرأة بيضاء في هارليم من غضب الصحافة النيويوركية وما ينسب إليّ من مسؤولية غير مباشرة فيه. وزاد أن المرأة توفيت على إثر طعنة بالسكين بعدما هاجمها وزوجها شاب زنجي في هارليم التي يملكان بها متجراً للملابس، وأن بعض أولئك الشباب ألقي عليهم القبض فاعترفوا بأنهم ينتمون إلى منظمة تسمى «الأخوة» قالوا إنها، حسب ما أوردته الصحف، تنتمي إلى «المسلمين السود» الذين انفصلوا عن أمة الإسلام ليلتحقوا بي، فقلت إنني أسمع ذلك لأول مرة وإنني لا أستغرب العنف عندما أجده في الأحياء الزنجية التي يتكدس فيها السود كالحيوانات ويعاملون كالمجذومين وأن تحميلي المسؤولية شيء تعودناه من الرجل الأبيض الذي يبحث، كلما وقع في الأحياء السوداء ما لا يرضيه، عن كبش الفداء عوض أن يبحث عن المسببات. وقلت فيما يخص «الأخوة» إنني أعتبر كل السود إخواني وأن ما يبذله الرجل الأبيض من جهود لتلطيخ اسمي لم ينجح إلا في جعل ملايين السود ينظرون إلي كما لو كنت جو لويس.

وألقيت بقاعة ترانشارد في جامعة آيبدان محاضرة ناشدت فيها الأمم الإفريقية المستقلة أن تعمل على طرح القضية الآفرو أمريكية على الأمم المتحدة، وقلت إن اليهودي الأمريكي منسجم سياسياً واقتصادياً وثقافياً مع يهود العالم، وإن الوقت قد حان لينضم الآفرو أمريكيون إلى العالم الإفريقي. وقلت إننا نحن الآفرو أمريكيين نستطيع أن نبقى بأجسادنا في أمريكا ونكافح من أجل حقوقنا الدستورية، ولكننا فلسفياً وثقافياً في حاجة ماسة إلى العودة إلى حظيرة المجموعة الإفريقية والعمل في إطارها. وطرح علي الشباب الإفريقي أسئلة سياسية في منتهى الذكاء لا نسمعها في أمريكا حتى في الكهول، ثم حدث شيء غريب. قام عجوز غرب هندي وبدأ يعنفني على انتقادي لأمريكا فضجت القاعة بـ: «صه! صه!» وبالصياح والتصفير ولكنه حاول أن يتحداهم

فانقضت عليه جماعة من الطلبة ففر إلى الخارج وتلك الجماعة تركض في إثره وتصرخ حتى أخرجته من حظيرة الجامعة. لم أكن قد رأيت شيئاً مثل ذلك من قبل. وأفهمت فيما بعد أن ذلك العجوز متزوج من امرأة بيضاء وأنه يحاول الحصول على عمل في وكالة للبيض فيها نفوذ ففهمت دوافعه ولم تكن تلك آخر مرة أقف فيها على تطرف الأفارقة في التعبير عن انفعالاتهم السياسية.

وفي مقر إتحاد الطلبة تدفقت علي الأسئلة ومنحت العضوية الشرفية في جمعية الطلبة المسلمين النيجيريين. ها هي البطاقة! ما تزال في محفظتي. مكتوب فيها: «الحاج ملكوم إكس. رقم التسجيل م ـ ١٣٨».

ومنحت إلى جانب العضوية اسماً جديداً وهو أومووال ومعناه في اللغة اليوروبية الإبن العائد فقلت بحق إنه تشريف أعتز به اعتزازاً كبيراً.

كان يوجد في نيجيريا حينذاك ست مائة أمريكي يعملون في نطاق كتائب السلام، وجدت البعض ممن كلمتهم منهم محرجاً من آثام جنسه في أمريكا. وكان بينهم عشرون زنجياً أثار إعجابي من بينهم واحد يدعى لاري جاكسون وهو خريج جامعة مورغن ستايت بلودردايل، فلوريدا، وكان قد التحق بكتائب السلام سنة ١٩٦٢.

واستضافتني برامج الإذاعة والتلفزة النيجيرية فشعرت بما أشعر به عندما أرى سوداً يديرون وكالات إعلامية خاصة بهم، أي التأثر الشديد، كما قابلت مراسلين صحافيين من بينهم زنجي يمثل نيوزويك ويقوم بجولة في إفريقيا استجوب خلالها رئيس الوزراء نكروما.

وقال لي بعض الرسميين النيجيريين: إن وكالة الإعلام الأمريكية تحاول أن تشيع بين الأفارقة أن أحوال الزنوج الأمريكيين في تحسن وأن العنصرية في أمريكا سيقضى عليها عما قريب، وأن الزعماء الأفارقة شأنهم شأن غيرهم يعرفون أن الحقيقة غير ذلك. وقال إن الواجهة الدبلوماسية لكل موظف رسمي في الأمم المتحدة اعتراف بازدواجية الرجل الأبيض الهائلة وتورطه في إبقاء شعوب العالم ذات الجذور الإفريقية منقسمة مادياً وإديولوجياً وسألني: «هل يعرف السود في بلادك أن ثمانين مليوناً من سكان القارة الأمريكية أصلهم من إفريقيا؟ إن مسيرة العالم ستتغير يوم تجتمع الشعوب ذات التراث الإفريقي المشترك تحت لواء الأخوة؟». ولم أكن قد سمعت زعيماً أمريكياً أسود يتكلم بمثل تلك الشمولية، فأثر فيّ ذلك.

ومن لايغوس ركبت الطائرة إلى أكرا عاصمة غانا. وأظن أن غانا هي البلد الذي يبلغ غنى القارة السوداء وجمال الناس الطبيعي فيه مداهما والتي تعد نبع الوحدة الإفريقية، ولكنني نزلت من الطائرة على نغمة نشاز. وجدت أمريكياً أبيض ذا وجه أحمر عرفني ووجد عنده الجرأة فشد على يدي وأخبرني أنه من ألباما ودعاني للعشاء.

وعندما دخلت مطعم الفندق للفطور وجدته مكتظاً بهؤلاء البيض وهم يتكلمون على ثروة إفريقيا الخام وكأن النادلين بلا آذان، فقلت في نفسي: «في أمريكا كانوا يطلقون الكلاب الضارية على السود ويضعون القنابل في كنائسهم في الوقت الذي يغلقون فيه أبواب كنائسهم في وجوههم، وها هم الآن يعودون إلى إفريقيا التي اختطف أجدادهم منها السود ورموا بهم في العبودية». أغاظني ذلك حتى كاد أن يفسد علي فطوري وقررت بيني وبين نفسي ألا أفتح فمي في إفريقيا إلا لفضح ذلك الرجل الأبيض الذي يبتسم ملء فيه محاولاً هذه المرة استغلال خيرات إفريقيا المنجمية بعدما استغل خيراتها البشرية. وكنت مقتنعاً أن ذلك لا يتعارض مع قناعات الأخوة التي كونتها في البقاع المقدسة، لأن المسلمين «البيض» الذي حملوني على تغيير آرائي كانوا يطبقون الأخوة بشكل تلقائي، أما الأمريكيون «البيض» فإن من الصعب أن تجد بينهم من يشعر حيال السود بشكل تلقائي بأية أخوة مهما ابتسم.

كان المؤلف جوليان مايفيلد يتزعم في غانا على ما يبدو الأمريكيين السود المبعدين. وطلبته هاتفياً ثم ما أسرع ما وجدتني في بيته مع حوالي أربعين من الأمريكيين السود المبعدين الذين كانوا في انتظاري، ومن بينهم تجار ومهنيون أمثال البروكليني السابق والمناضل الدكتور روبيرت لي وزوجته وهما طبيبا أسنان تخليا عن جنسيتهما الأمريكية. وكانت هناك أيضاً أليس ويندان ومايا أنجلو مايك وفكتوريا غارفن -ولسلي لايسي الذين كونوا لجنة سموها «لجنة ملكوم إكس» تكفلت ببرنامج زيارتي المشحون. وها هي القصاصات التي نشرتها الصحف الإفريقية قبيل زيارتي، ها هي حقيبتي. سأقرأ لك منها: «إن الغانيين يعرفون اسم ملكوم إكس معرفتهم بكلاب الجنوب وخراطيم النار والمناخس والهراوات والوجوه القبيحة البيضاء المتقلصة من الكراهية... «إن انضمام ملكوم إكس إلى الكفاح لخير بشير في مسرح المقاومة الكئيبة والمقززة والمسالمة والمستسلمة والمعرضة لكل أنواع العنف»... «إن ملكوم إكس أول زعيم وطني آفرو أمريكي يقوم بعد الدكتور دوبوا بزيارة شخصية لغانا عساها أن تكون بداية لمرحلة جديدة في الصراع الأمريكي الأسود، لذا يحق لنا أن نوليها من

الإهتمام أكثر مما توليه لها وزارة الخارجية الأمريكية»... «إن ملكوم إكس أحد أهم الزعماء وأكثرهم نضالاً في الصراع الأمريكي الأسود، وهذا ما سيدفع بخصومه إلى بذل كل جهودهم للحط منه وتشويه زيارته». وقد أذهلني ذلك الإستقبال في بلاد تقع على بعد خمسة آلاف ميل من أمريكا.

وقرر رجال الصحافة تغطية نفقات إقامتي ومن بينهم بافو رئيس تحرير «ذو غانين تايمز» وأنيم مدير وكالة الأنباء الغانية وكوفيني باتسا رئيس تحرير سبارك والأمين العام لإتحاد الصحافيين الأفارقة والسيد كاميرون دويودو وآخرون، وحاولت أن أعترض على ذلك دون جدوى فقبلت ضيافتهم شاكراً.

وفي حفل العشاء الذي دعاني إليه جوليان مايفيلد وزوجته وأنّا البورتوريكانية التي كانت تشرف على برنامج وزارة الصحة في أكرا، تساقطت علي الأسئلة من الأمريكيين السود المبعدين والعائدين إلى إفريقيا الأم. ليت الأمريكيين السود كانوا معي في تلك الزيارة! أقول ذلك لأن الترحيب الذي أغدق علي لم يكن موجهاً لشخصي بقدر ما كان موجهاً لما أرمز إليه كمناضل أمريكي أسود.

وفي ندوة صحافية مكتظة كان أول سؤال على ما أظن حول سبب انفصالي عن إلايجا محمد وأمة الإسلام. وكانت إشاعة قد وصلت إلى الأفارقة مفادها أنه بنى لنفسه قصراً في أريزونا فأجبت عن السؤال نافياً الإشاعة ومتجنباً النقد، وقلت إنني اختلفت معه حول الإتجاه والإلتزام السياسيين اللازمين وحول تقوية الصراع الديني للوصول عن طريقه إلى تحقيق حقوق الإنسان الأسود. وقلت إنني أحترم أمة الإسلام لأنها بعثت في السود قوة سيكولوجية وجاءتهم بإصلاح معنوي واجتماعي وأن إلايجا محمد كان له تأثير أساسي على الأمريكيين السود.

وأكدت في تلك الندوة على ضرورة تقوية الإتصال والتعاون بين الأفارقة والأمريكيين السود الذين تعرض صراعهم للكبت الشديد. وأذكر أنني استعملت كلمة «زنجي» فأوقفوني قائلين إنهم في إفريقيا لا يستعملونها، وأن كلمة آفرو أمريكي أكثر كرامة وأوسع دلالة فقدمت لهم اعتذاري عن ذلك ولا أظنني رجعت إلى استعمالها طيلة المدة التي قضيتها في إفريقيا.

وقلت في تلك الندوة إن الإثنين وعشرين مليوناً من الآفرو أمريكيين الموجودين في الولايات المتحدة يشكلون قوة كبرى يمكن أن تستفيد منها إفريقيا، وأن بإمكان

الأمم الأفريقية ومن واجبها أن تستعمل من جهتها كل إمكاناتها في المحافل الدولية للقضاء على الميز العنصري الأمريكي.

وقلت: «إن إفريقيا تقف كرجل واحد في وجه الأبرتايد في جنوب إفريقيا والتعسف في المستعمرات البرتغالية، ولكن جهودها ستذهب أدراج الرياح إذا لم تفهم أن لا فروورد ولا سالازار ولا بريطانيا ولا فرنسا ما كانوا ليستمروا لولا دعم الولايات المتحدة ومساندة المسؤولين في واشنطن».

كنت أعرف أن موظفاً من وزارة الخارجية الأمريكية هو مينن وليامز يقوم بزيارة رسمية إلى إفريقيا فانتهزت الفرصة وقلت: «كونوا على حذر من الموظفين الأمريكيين الذين يأتون إلى إفريقيا ويبتسمون لكم. صدقوني إنهم في أمريكا لا يبتسمون لنا. وقلت إن بيض ميشيغان التي كان مينن والياً عليها في يوم من الأيام قد قتلوا أبي.

وفي نادي غانا تشرفت بحضور مزيد من الصحافيين والشخصيات ودعيت إلى بيت جوليا ابنة الكاتب الأمريكي الأسود رتشارد رايت، الهيفاء، الجميلة ذات الصوت الرخيم والمتزوجة من فرنسي شاب يشرف على نشر جريدة غانية والتي قابلت أمها إلين وأختها الصغرى راشيل فيما بعد في باريس.

وتكلمت مع سفراء في سفاراتهم فأعجبت بالسفير الجزائري بوصفه رجلاً يقف نفسه على النضال ويؤمن بالثورة العالمية كسبيل لحل مشاكل الجماهير المضطهدة ولا تقتصر رؤياه على الجزائريين وإنما تتعداهم لتشمل الآفرو أمريكيين والمضطهدين في كل مكان.

وكان السفير الصيني هوانغ ها رجلاً متبصراً ومناضلاً وتكلم بالخصوص عن جهود الغرب لفصل الأفارقة عن الشعوب ذات التراث الإفريقي، بينما كان السفير النيجيري معنياً جداً بمحنة الآفرو أمريكيين في أمريكا. وكان يعرفها عن قرب لأنه عاش في واشنطن ودرس بها شأنه شأن السفير المالي الذي عاش في نيويورك كسفير لبلاده في الأمم المتحدة.

وتناولت الفطور مع الدكتور ماكونن من غوانا البريطانية وتحدثنا عن وحدة إفريقية تشمل الآفرو أمريكيين كما تكلمت مع نانا نكيتسيا وزير الثقافة الغاني على المشاكل الآفرو أمريكية.

ورجعت ذات مرة إلى الفندق فوجدت مكالمة من أمريكا في انتظاري من ممثل شركة الإذاعة الأمريكية مول غود وطرح علي خلالها أسئلة حول منظمة «الأخوة» في هارليم ونادي الزنوج المسلحين وما إلى ذلك من المواضيع التي كانت الصحافة تربطني بها.

وفي القاعة الكبرى بجامعة غانا خاطبت أكبر جماهيري الإفريقية. كان هناك بعض البيض وحاولت دحض المزاعم التي تنشرها وكالة الإعلام الأمريكي عن العلاقات بين البيض والسود في أمريكا وشرح حقيقة المحنة التي يعانيها الآفرو أمريكيون على يد الرجل الأبيض، فوجهت كلامي إلى البيض في القاعة قائلاً: «إنني لم أر مثل هذا العدد من البيض يعامل مثل هذا العدد من السود بمثل هذه الرقة حتى جئت إفريقيا. كان على الآفرو أمريكيين الذين يصارعون من أجل الإندماج أن يأتوا إلى هنا ليروا كم تبتسمون للأفارقة. لقد حققتم الإندماج هنا ولكن هل تستطيعون أن تقولوا للأفارقة إنكم تفعلون الشيء نفسه مع السود في أمريكا؟ بالطبع لا! وأنتم لا تحبون الأفارقة أكثر مما تحبون الأمريكيين السود ولكن ما تحبونه هو معادنهم...».

كانت ألوانهم تتغير من الوردي إلى الأحمر وكانوا يعرفون أنني أقول الحقيقة. وواصلت كلامي: «أنا لست معادياً للأمريكيين ولم آت إلى هنا لأدين أمريكا. يجب أن يكون ذلك واضحاً. لقد جئت لأقول الحقيقة فإذا كانت الحقيقة تدين أمريكا فلتدنها!».

وذات مساء أقام كوفي باكو وزير الدفاع الغاني ورئيس الجمعية الوطنية حفل عشاء على شرفي اجتمعت فيه من جديد بمعظم من سبق لي أن قابلتهم. كنت حسب ما قيل لي أول شخصية أجنبية بعد دوبوا يخصص لها مثل ذلك التكريم. كان هناك رقص وموسيقى وطعام غيني لذيذ. وكان العديد من الضيوف يسخرون فيما بينهم من تصرف السفير الأمريكي في حفل أقامه ذلك اليوم وأوشك أن يقتل فيه نفسه من مغالاته في الود والمرح. وقال البعض إنه كان يريد أن يعوضنا عن الحقيقة التي كنت لا أتوانى عن نشرها.

وتوصلت بدعوة لم أكن أحلم بها لمخاطبة البرلمان الغاني وقررت أن أجعل ملاحظاتي مركزة وقوية فقلت: «كيف تدينون البرتغال وجنوب إفريقيا وتنسون أمريكا التي يضرب السود فيها بالهراوات وتنهشهم الكلاب؟». وقلت إنني لا أفسر ذلك إلا بكونهم قد ذهبوا ضحية دعاية الوكالات الحكومية الأمريكية فسمعت من يقول في نهاية

الخطبة: «نعم! سنساند الآفرو أمريكيين... معنوياً وجسدياً وحتى مادياً إن دعا الأمر». وجاءني تشريف آخر كان قمة ما نالني في غانا إن لم أقل في إفريقيا وهو استقبال رئيس الدولة قوامي نكروما لي في قصره.

وفتشت تفتيشاً دقيقاً قبل دخولي القصر ولكنني فهمت أن يحيط الغانيون زعيمهم بكل إجراءات الأمن الضرورية وزادني ذلك إحتراماً للإنسان الأسود الحر. وعندما دخلت مكتبه الطويل قام من نهايته في ثوب بسيط ومد لي يده والبسمة على وجهه الدقيق فتناولتها من توي، ثم جلسنا على أريكة وبدأنا نتكلم. كنت أعرف أنه مطلع على محنة الآفرو أمريكيين لأنه عاش سنوات في أمريكا ودرس بها. وتكلمنا على الوحدة بين الأفارقة والشعوب ذات الجذور الإفريقية واتفقنا على أن الوحدة الإفريقية هي الحل لمشاكل الشعوب ذات التراث الإفريقي المشترك. وتبينت لي مميزات شخصيته وهي الحرارة والقبول والواقعية. ومر الوقت بسرعة وعندما ودعني حملني تحياته الحارة والشخصية إلى الآفرو أمريكيين.

في مساء ذلك اليوم ذهبت إلى وانيبا الواقعة على بعد ٣٩ ميلاً من أكرا لإلقاء محاضرة في معهد قوامي نكروما الآيديولوجي الذي يدرب فيه ٢٠٠ طالب على مواصلة الثورة الثقافية الغانية. وهناك وقعت حادثة أخرى من ذلك النوع المذهل الذي ينفجر فيه الحماس السياسي عند الأفارقة. كنت أجيب عن الأسئلة عندما وقف آفرو أمريكي شاب لم يكن يبدو أن أحداً من الحاضرين يعرفه وقال: «إنني زنجي أمريكي» وشرع يدافع دفاعاً مغلفاً عن الأمريكيين البيض فبدأ الطلبة الأفارقة يشوشون عليه ويسبونه ويقولون: «هل أنت عميل لروكفلر؟»... «لا تفسد أولادنا!» (وعلمت فيما بعد أنه أستاذ في إحدى المدارس الثانوية وأنه حصل على عمله ذاك بمساعدة وكالة أمريكية) وقالوا له: «تعال إلى معهدنا لتحصل على بعض التوجيه!» وخف أحد الأساتذة إلى نجدته، ولكن الطلبة أطبقوا عليه من جديد ودفعوه بعيداً وهم يصرخون: «يا عميل!»... «سي. آي. إي!»... «يا عميل أمريكا!».

وأقام السفير الصيني السيد هوانغ هوا وحرمه على شرفي حفلة عشاء رسمية حضرها من بين من حضروها سفيرا الجزائر وكوبا وقابلت فيها السيدة دوبوا. وبعد العشاء عرضت ثلاثة أفلام أحدها بالألوان الذكرى الرابعة عشرة لقيام الجمهورية في الصين ظهر فيه بوضوح المناضل الآفرو أمريكي روبيرت وليامز الشمال كاروليني الذي

كان لاجئاً في كوبا بعدما دعا الآفرو أمريكيين إلى حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم، والثاني عن المساعدة الصينية للكفاح الآفرو أمريكي وظهر فيه ماو تسي تونغ وهو يصرح بذلك كما ظهرت صور للعنف الأبيض بما فيه عنف البوليس والمدنيين على الآفرو أمريكيين وهم يتظاهرون في مختلف المدن الأمريكية للمطالبة بالحقوق المدنية. وكان الفيلم الأخير عرضاً مأساوياً للثورة الجزائرية.

وأخذتني «لجنة مالكوم إكس» من مقر إقامة السفير الصيني إلى نادي الصحافة حيث كانت سهرة راقصة منظمة على شرفي قد بدأت وحيث رأيت لأول مرة حياة الترف الغاني. كان الجو مشبعاً بالغبطة والسرور وطلب مني أن ألقي كلمة ففعلت وأكدت فيها من جديد على تدعيم الوحدة بين الأفارقة والآفرو أمريكيين، ثم صحت من صميم فؤادي قائلاً: «ارقصوا وغنوا ولكن لا تنسوا مانديلا وسوبوكوي ولومومبا وكل السود المحتجزين في سجون جنوب إفريقيا!». وقلت: « تتساءلون لم لا أرقص؟ إنني لا أرقص لأنني أريدكم أن تذكروا الإثنين وعشرين مليوناً من الآفرو أمريكيين الموجودين في الولايات المتحدة!» ولكن رقص الغانيين الساخن حرك كوامني. وأدت فتاة إفريقية جميلة أغنية «بلو مون» كما تؤديها سارة فوغان وعزف الجوق بطريقة ميلت جاكسون حيناً وحيناً آخر بطريقة شارلي باركر.

وفي اليوم التالي وهو يوم سبت علمت أن كاسيوس كلاي قد وصل مع مرافقيه إلى مطار أكرا حيث خصص له استقبال ضخم. وشعرت أن أي لقاء بيننا قد يحرجه لأنه كان قد اختار إسلام إلايجا محمد ومع أنني لم أكن لأتضايق من مقابلته إلا أنني كنت أعرف أن الإتصال بي ممنوع عليه. وكنت أعرف أنه ما يزال يذكر أنني كنت إلى جانبه وساندته وآمنت به عندما كان أولئك الذين يحتضنونه الآن مقتنعين بأن انتصاره ميؤوس منه ولذلك قررت أن أتحاشاه حتى لا أتسبب له في أية مشاكل.

وبعد ظهر ذلك اليوم أقام الحاج عيسى والي المندوب النيجيري السامي حفل غداء على شرفي. وكان رجلاً قصيراً بنظارات، بشوشاً للغاية وودياً، وكان قد عاش مدة عامين في واشنطن. وبعد الغداء وجه إلى ضيوفه كلمة ذكر فيها ما رآه من صور العنصرية عندما كان في أمريكا وتكلم على صداقاته مع الآفرو أمريكيين وأكد على ضرورة التعاون ين الأفارقة والآفرو أمريكيين، ثم قدم نسخة فاخرة من المجلة الأمريكية «هورايزن» التي كانت قد نشرت مقالاً بقلم الدكتور مورو بورغر من جامعة برينستن حول أمة الإسلام ومعه صورة لي على صفحة كاملة وصورة جميلة من مئات

السنين لأمير نيجيري قوي البنية ووسيم وقال: «عندما أنظر إلى هاتين الصورتين أحس أن الرجلين واحد وأن الفرق الوحيد بينهما في لباسهما وفي كون أحدهما ولد في إفريقيا والآخر في أمريكا. وتأكيداً لما يربطنا بإخواننا الآفرو أمريكيين من أخوة سأعطي الحاج ملكوم إكس ثوباً كالذي يلبسه هذا النيجيري». وبهرني رونق الثوب الأزرق الجميل والعمامة البرتقالية التي تصحبه. وكان علي أن أنحني ليتمكن سعادة المندوب من لف العمامة حول رأسي، وبعد ذلك أهداني ترجمة إنجليزية للقرآن في مجلدين.

وبعد هذا الغداء الذي لا ينسى أخذتني السيدة شولي غراهام دوبوا في سيارتها لزيارة وتصوير البيت الذي عاش فيه زوجها الزعيم الآفرو أمريكي وقضى فيه نحبه. وكانت (وهي كاتبة) مديرة للتلفزة الغانية التي كانت برامجها تربوية بالأساس. وقالت لي إن الدكتور نكروما عامل زوجها عندما جاء إلى غانا معاملة الملوك وأغدق عليه من كل شيء وأنه زاره على فراش المرض وغادر والدموع في عينيه.

وختمت سلسلة الحفلات المقامة على شرفي بحفلة سفير كوبا السيد أرماندو إنترالغو غونساليس. وفي اليوم التالي وهو يوم أحد جاءت «لجنة ملكوم إكس» لتأخذني إلى المطار فاصطدمنا خارج الفندق بكاسيوس كلاي ورفاقه وهم عائدون من جولة صباحية، وتردد كاسيوس لحظة ثم قال شيئاً من قبيل: «كيف الحال؟» فلمعت في ذهني صورة صداقتنا التي كانت قبيل المقابلة التي غيرت مجرى حياته ورددت عليه بكلام أحسبه: «بخير وكيف حالك أنت؟». بعد ذلك أرسلت له برقية قلت له فيها إنني أريد أن أخبره بما يكنه له المسلمون في كل مكان من حب كبير وأنصحه بألا يدع أحداً يستعمله أو يدفع به إلى قول ما من شأنه أن يشوه صورته.

كنت أودع أعضاء «لجنة ملكوم إكس» في المطار عندما جاءت قافلة صغيرة مكونة من سيارات خمس سفراء لتوديعي فلم أعرف من دهشتي ما أقوله لهم. وفي الطائرة التي أقلتني إلى مونروفيا التي أمضيت بها يوماً، راجعت نفسي ووجدت أن ثاني أعظم ذكرى سأحملها معي إلى أمريكا بعد الديار المقدسة هي وعي إفريقيا بذاتها وثروتها وسلطتها ودورها العالمي الموعود.

ومن مونروفيا ذهبت إلى دكار عاصمة السينغال حيث اصطف الناس في المطار عندما سمعوا بالمسلم القادم من أمريكا ليسلموا علي ويطلبوا مني توقيعاتي. وقال لي أحدهم: «إننا لا نتكلم العربية ولكن الإسلام في قلوبنا» فقلت له إن ذلك شأني أيضاً.

ومن دكار ذهبت إلى المغرب وأمضيت يوماً تجولت فيه في الدار البيضاء وزرت

قصبتها المشهورة التي كان الفرنسيون البيض يحصرون فيها الأهالي ذوي اللون
بعدما حرموا عليهم الأحياء المخصصة لهم، كما هو الشأن بالنسبة لهارليم في
التي تعد «القصبة» الأمريكية.

وفي يوم الثلاثاء ٩ مايو ١٩٦٤ وهو يوم ذكرى ميلادي التاسعة والثلاثين
إلى الجزائر محملاً بتجربة اثني عشر رجلاً. وذكر لي سائق التاكسي وهو يأخ
فندق أليتي الفظائع التي مارسها الفرنسيون على الجزائريين، وكيف كان يناور
ليخرج منها بجسد سليم. وتمشيت في الجزائر العاصمة وأنا أسمع عبارات
الشعبية لأمريكا على مساندتها لجلادي الشعب الجزائري. كان الجزائريون ثور
عايشوا الموت عن قرب فلم يعودوا يرهبونه.

وأخيراً وجدتني على متن طائرة تابعة لشركة بان أمريكان في رحلة
المتوجهة إلى نيويورك. وفي الرابعة وخمس وعشرين دقيقة من بعد ظهر يوم
وصلت إلى مطار كينيدي. ونزل الركاب وتوجهوا إلى الجمارك فوجدت
خمسين صحافياً ومصوراً في كامل عدتهم فقلت في نفسي إنني كنت ولا
الطائرة نفسها مع شخصية كبيرة وإذا بي «الوغد» الذي كانوا له بالمرصاد
الإنفجارات التي كان يتكهن بها قد بدأت بالفعل في ذلك الصيف من عام ٤
بعض المدن الأمريكية ولا سيما في هارليم. وكانت المقالات المنشورة في
الرجل الأبيض تجعل مني رمزاً للتمرد والعنف الأمريكيين الأسودين حيثما ظه
نقل عاملاً محركاً لهما.

وهكذا وجدتني في مطار كينيدي في خضم أضخم ندوة صحافية عرفته
مكان. وبدأت الأضواء تشتغل علي والأسئلة تأتيني من كل مكان: «السيد ملك
ما هي حكاية جمعية الأخوة التي يقال إنها على علاقة بمنظمتك وأنها مد
العنف والتي قتلت بيضاً أبرياء؟».... «السيد ملكوم إكس هل من تعليق عل
إن على الزنوج أن يشكلوا نوادي للمسلحين؟».

وأدركت أنني قد رجعت إلى أمريكا وبدأت أسمع من جديد أسئلة الرجل
الذاتية والباحثة عن كبش الفداء. عندما يقتل الشبابُ الأبيضُ الأبرياءَ في
يسمون ذلك مشكلا «إجتماعياً» وعندما يقتل الشباب الأسود أحداً يبدأ جهاز ال
البحث عمن يضعه في حبل المشنقة. عندما كان السود يعدمون من دون محاك
تؤدة كان يقال: «ستتحسن الأمور» وعندما كانوا يحتفظون بالبنادق في بيوتهم

الدستور الحق في حماية أنفسهم، ولكن عندما بدأ السود يفكرون في الإحتفاظ بالبنادق في بيوتهم أصبح ذلك أمراً شنيعاً.

وقذفت أولئك الصحافيين بما لم يكن لهم في الحسبان فقلت إن على الأمريكيين السود أن يقلعوا عن التفكير فيما زرعه البيض في نفوسهم من أنهم ليس لهم أي بديل عن استجداء ما يسمى بـ«الحقوق المدنية»، إن على الأمريكيين السود أن يفهموا أن السود في أمريكا أصحاب قضية قد تحمل الولايات المتحدة أمام الأمم المتحدة بدعوى إنكار حقوق الإنسان وأن حال أمريكا في هذا الباب ليس أفضل من حال أنغولا أو جنوب إفريقيا وأنها لن تجد مفراً من الحكم عندما يصدر عليها فوق ترابها.

وحاولت الصحافة كما توقعت أن تحيد بي عن الموضوع فسألتني عن الرسالة التي بعثت بها من مكة وكنت مستعداً لذلك السؤال فقلت رداً عليه: «أرجو أن يثبت حجي بصفة نهائية انتماء مسجدنا إلى الـ ٧٥٠ مليوناً من المسلمين السنيين الموجودين في العالم، وأنا على يقين تام أن الأفارقة السود يعتبرون ال٢٢ مليوناً من الأمريكيين إخوة عثروا عليهم بعد فراق طويل. إنهم يحبوننا ويتابعون صراعنا من أجل الحرية.

لقد أثلج صدورهم أننا نفيق من سباتنا العميق ونرمي عنا عقدة خجلنا من إخواننا السود وأرض أجدادنا، ذلك الخجل الذي زرعه فينا المسيحي الأبيض.

نعم كتبت رسالة من مكة تريدون الآن أن تعرفوا إن كنت قد قلت فيها إنني أقبل البيض كإخوة؟ وأنا أجيب بأن ما رأيته في أرض الإسلام وشعرت به وكتبته في تلك الرسالة قد وسّع دائرة تفكيري وأنني وجدت عندي مشاعر أخوة وحباً أخوياً اتجاه مسلمين بيض لم يكونوا يعيرون انتباهاً لجنس أي مسلم آخر أو لونه.

لقد أوسع الحج نطاق تفكيري وفتح بصيرتي فرأيت في أسبوعين ما لم أره في تسع وثلاثين سنة، رأيت كل الأجناس والألوان من البيض ذوي العيون الزرق حتى الأفارقة ذوي الجلود السوداء وقد ألفت بين قلوبهم الوحدة والأخوة الحقيقية فأصبحوا يعيشون وكأنهم ذات واحدة في كنف الله الواحد. لم أر بينهم لا دعاة عنصرية ولا ليبراليين، ولغتهم على كل حال لا تتسع لمثل هذه المصطلحات.

نعم كنت أدين البيض كلهم بشدة ولكنني اكتشفت الآن أن هناك بيضاً قادرين على أن يكنوا للإنسان الأسود مشاعر أخوة صادقة. ولقد فتح الإسلام الصحيح عيني على أن إدانة كل البيض كإدانة البيض للسود شيء خطأ.

نعم اقتنعت بأن هناك بيضاً يودون بإخلاص معالجة العنصرية الزاحفة لتخريب هذه

البلاد. وقد غير موقفي ما رأيته وعشته في البقاع المقدسة من أخوة لم تقتصر علي وحدي، ولكنها شملت كل من كانوا هناك على اختلاف جنسياتهم وألوانهم. والآن وقد عدت إلى أمريكا، سوف يتحكم في موقفي كما يتحكم في موقف إخواني السود ما أراه هنا من عدم أخوة إلا فيما قل وندر ومن معاملة للسود لا تقتصر على القلة الطيبة البيضاء، ولكنها تأتي من المائة وخمسين مليون أمريكي أبيض غير طيب وغير أخوي ومؤمن بالعنصرية وبأفضليته إيماناً راسخاً، وحتى من أولئك الذين يحسبون أنهم غير عنصريين، إلى أن يحدث ما يجعل عنصريتهم الكامنة في لاوعيهم تطفو على السطح.

إن عنصرية الرجل الأبيض هنا في أمريكا هي سبب كل ما يتخبط فيه من مشاكل مع شعوب العالم غير البيضاء، لأنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من رؤية النقص بصفة تلقائية في أي شخص من غير لونه كيفما كان. ولقد ملت شعوب العالم غير البيضاء ترفعات الرجل الأبيض وهذا ما يجعلكم اليوم في مطبات متعددة ليست فيتنام إلا وجهاً من وجوهها.

وفي هذا النصف الغربي من الكرة الأرضية يعاني مائة مليون من السكان ذوي الجذور الإفريقية الإنقسام نتيجة ما يزرعه الرجل الأبيض بينهم من كراهية وعدم ثقة. يقع ذلك في جزر الهند الغربية وكوبا والبرازيل وفنزويلا وفي كل أمريكا الجنوبية والوسطى. وفي إفريقيا نفسها ناور الرجل الأبيض للتفريق بين الإفريقي والعربي وبين المسيحي والمسلم. هل تتصورون ما قد يقع لو أن الشعوب ذات التراث الإفريقي اكتشفت ما يؤلف بينها من روابط الدم والأهداف المشتركة واتحدت؟».

وتنفست الصحافة الصعداء ذلك اليوم عندما تخلصت مني ولعل الإخوان الأفارقة الذين كنت معهم إلى حين كانوا سيشعرون بأنني أعطيت الموضوع حقه. تلك الليلة لم يتوقف مهتف بيتي عن الرنين. كان إخواني وأخواتي السود في نيويورك وضواحيها يطلبونني ليهنئوني على ما قلته بينما كان البيض يريدون مني أن أخطب في هذه الجهة أو تلك.

وفي اليوم التالي وأنا أسوق سيارتي في طريق سيار توقفت عند ضوء أحمر فاقتربت مني سيارة تسوقها امرأة بيضاء وبجانبها رجل أبيض. وأطل الرجل من النافذة ونادى: «يا سيد ملكوم إكس!» والتفت فأخرج يده من النافذة ومدها لي وهو يقول مبتسماً: «هل يضيرك أن تصافح رجلاً أبيض؟» تصورا فقلت له والضوء يتغير إلى الأخضر: «لا يضيرني أن أصافح أي رجل إذا كان إنساناً فهل أنت إنسان؟».

الفصل التاسع عشر

العام ١٩٦٥

يجب أن أعترف بأن الزنوج أو الآفرو أمريكيين لم يظهروا أية رغبة في الحصول على حقهم بواسطة الأمم المتحدة. وقد كنت أعرف ذلك، لأن تأثير الرجل الأبيض على عقولهم كان تاماً بحيث لم يعودوا قادرين على رؤية مشكلهم إلا كحقوق مدنية، ولم يكن ما تبقى لي من عمر كافياً لإقناعهم بأنهم أصحاب قضية ذات حجم دولي.

وكنت أعرف أيضاً أن الزنوج لن يهرعوا إلي ليتبعوني إلى الإسلام السني الذي فتح بصيرتي وأوسع رؤياي وأقنعني بإمكانية وجود الأخوة بين بني الإنسان بغض النظر عن لونهم. وكان الزنوج الأمريكيون ولا سيما كبار السن منهم قد غاصوا في القمع المسيحي المركب.

وبدأت بعد رجوعي أدعو الزنوج إلى تجمعات أنظمها بعد ظهر أو في مساء كل يوم أحد بقاعة مرقص أوديل الشهيرة في هارليم، فأخطب فيهم متحاشياً الإسلام، لأن أكثرهم لم يكن مسلماً ولأنني كنت أحاول استقطابهم جميعاً فكنت أقول:

«إنني لا أريد أن أخاطبكم بوصفكم ملسمين أو مسيحيين أو كاثوليكيين أو بروتستانتيين أو معمدانيين أو نظاميين أو ديموقراطيين أو جمهوريين أو ماسونيين أو أعضاء في أية منظمة كانت وإنما أخاطبكم كسود أمريكيين وكسود في العالم، لأن تلك هي الصفة التي حرمتكم لا أقول من حقوقكم المدنية ولكن من حقوقكم الإنسانية، حقوقكم في الكرامة»... ولكنني بدأت أجد على وجوه الناس وفي أصواتهم بمن فيهم الذين كانوا يشدون على يدي بحماس ويطلبون أوتوغرافاتي، بدأت أجد من يقول لسان حاله: «سنرى» وأشعر بمن يعتريهم من حيرة وأفهمه.

وكان الإنسان الأسود قد سار منذ الحرب الأهلية في مسارات لم تفض به إلى شيء، وكان ظنه قد خاب في الدين المسيحي فأصبح خائفاً وحذراً ومرتاباً. وكنت في

ذلك الوقت أفهمه أكثر من أي وقت وكنت قد رأيته بوضوح لأول مرة وأنا في الديار المقدسة بعيداً عن مشكل أمريكا العنصري الأشياء التي تقسم البيض في أمريكا وكيفية انعكاس مواقفهم ودوافعهم على الزنوج وتأثيرها فيهم، وكنت قد وقفت في مكة ولأول مرة في حياتي أمام الخالق وشعرت بأنني إنسان كامل الإنسانية. وفي سلام تلك البقاع، في تلك الليلة التي قلت إن غطيط إخواني الحجاج قد منعني من النوم فيها، رجعت بي الذاكرة إلى ماضٍ كنت أحسبه قد مضى إلى الأبد، إلى سنوات عمري الأولى عندما كنت طفلاً في الثامنة أو التاسعة من عمري. رأيتني مستلقياً على قفاي خلف بيتنا في لانسينغ، ميشيغان على ربوة مخضرة كنا نسميها «ربوة هكتور» لعلها ما تزال هناك، أنظر إلى السماء والسحاب المتحركة وأحلم أحلام يقظة أراني فيها أخطب في جماهير غفيرة، ثم قفز بي التذكر من هناك إلى السجن عندما كنت أعاقب بالعزلة وأوضع في الزنزانة أو ما كنا نسميه «الحفرة» فأستلقي على قفاي على الفراش وأمضي في رؤية التخيلات نفسها. وأنا إلى الآن لا أعرف كيف تجلت لي تلك الرؤى حينذاك، ولو أنني قلت وقتها لأحد إني أراني أخطب في الجماهير لسخر مني وهل كان ذلك لي أنا نفسي في الحسبان؟.

وفي مكة استرجعت أيضاً شريط أحداثي مع إلايجا محمد خلال الإثنتي عشرة سنة التي قضيتها معه والتي كنت أؤمن به فيها إيماناً لا أحسبني قادراً على تصويره، فقد كنت أؤمن به لا كزعيم بالمعنى البشري العادي للكلمة ولكن كزعيم رباني، فكنت أعتقد جازماً أنه معصوم من الخطأ ومن الذنوب. وهناك في الديار المقدسة وعلى إحدى الشعاب أدركت الخطأ الكبير في الإيمان ببشر إلى ذلك الحد.

كان أفقي الفكري قد اتسع في مكة فحاولت أن أشرح في رسائل طويلة إلى أصدقائي نظرتي الجديدة إلى صراع الإنسان الأسود ومشاكله في أمريكا، تلك النظرة التي وصلت إليها بعد بحث طويل عن العدل والحقيقة فكتبت لهم أنني سئمت الدعاية وأنني أريد أن أكون مع الحقيقة كيفما كان مصدرها، ومع العدل المجرد أيا كان المستفيد أو المتضرر منه، ومع الإنسان أولاً وقبل كل شيء ومع ما ينفع الإنسانية جمعاء.

وأحجمت الصحافة الأمريكية عن نشر أي شيء عن الإتجاه الجديد الذي كنت أحاول تلقينه للسود وعمدت في صيف ١٩٦٤ «الطويل والحار والمضطرب» إلى

اتهامي بتحريض السود، فكنت كلما سمعت ذلك أفقد السيطرة على نفسي أمام المكروفونات وأقول: «عندما تكون عوامل الإنفجار الإجتماعي موجودة لا تحتاج الجماهير لمن يحرضها. عندما تجتمع في الحي الزنجي البطالة وسوء السكن والتعليم الأدنى وتكون فيه منذ سنوات، لا يحتاج لمن يشعله. إنه يشتعل تلقائياً من الداخل». . .

وسموني «الزنجي الأشد غضباً في أمريكا» وهي تهمة لا أنفيها وقد كنت أعبر عما أشعر به كما أشعر به ثم ألا يقول الإنجيل: «أؤمن بالغضب. إن هناك وقتاً للغضب»؟. وسموني: «ملقن العنف والمحرض عليه» فقلت: «كذبتم. أنا لست مع عنف وانتن ولكنني مع العدل. أنا أعتقد أن من حق البيض إذا ما هاجمهم السود وعجزت قوات الأمن عن أن تحميهم أو كانت لا تكفي لرد الهجوم عنهم أو رفضت أن ترده، أعتقد أن من حقهم في هذه الحالة حماية أنفسهم بالسلاح إن دعا الأمر وكذلك الشأن بالنسبة للسود. عندما يعجز القانون عن حمايتهم من هجومات البيض يصبح لهم الحق في حمل السلاح لحماية أنفسهم» فبدأ يقال: «ملكوم إكس يدعو إلى تسلح الزنوج» وكان الذي أزعجهم في الأمر أنني رجل أسود يتكلم على الدفاع البدني ضد البيض. الرجل الأبيض يستطيع أن يعدم من دون محاكمة ويحرق ويضع القنابل ويضرب الزنوج ولا يرى أحد عيباً في ذلك ويكتفي بالقول: «صبرا!». . . «إننا نحاصر التقاليد». . . «ستتحسن الأمور». إنني أؤمن بأن الخضوع للأذى وعدم محاولة الدفاع عن النفس جريمة وإذا كان هذا ما تعنيه الفلسفة المسيحية وتدعو له الفلسفة الغاندية فإنهما في نظري فلسفتان إجراميتان.

وكنت أحاول في كل خطبي أن أفسر موقفي الجديد من البيض فأقول: «إنني لا أتحامل على البيض الطيبين، الصادقين، ذوي النوايا الحسنة، وقد علمت أنهم موجودون وأن هناك بيضاً غير عنصريين. أنا أتحامل على العنصري الأبيض وأحاربه وأؤمن إيماناً راسخاً بأن للزنوج الحق في أن يحاربوه بكل وسيلة ممكنة».

ولكن الصحافيين لم يريدوا أن يفصلوني عن كلمة «العنف» حتى أنني لا أذكر استجواباً واحداً لم أتهم فيه فكنت أقول: «أنا مع العنف إذا كان عدمه يعني إرجاء حل المشكل الأسود إلى ما لا نهاية لا لشيء إلا لتحاشي العنف، وأنا ضد عدم العنف لأنه في نظري يعني اللاحل، أو بعبارة أخرى إذا ما كان العنف مهما كانت عواقبه وضحاياه

هو الطريق الوحيد لحصول السود على حقوقهم في هذه البلاد، فأنا مع العنف مثلما كانت أية جماعة أخرى كالإرلانديين البولونيين واليهود ستكون معه لو أنها وجدت نفسها عرضة للميز العنصري».

إن المجتمع الأبيض يكره أن يكلمه أحد ولا سيما إذا كان أسود على الجرائم التي ارتكبها البيض في حق السود، وأنا أعرف ذلك وأستغله ولذلك يسمونني بـ«الثوري» وهي تسمية تجعلني أبدو وكأنني قد ارتكبت جريمة. ولعل السود في حاجة إلى الثورة. ولكن دعونا أولاً نعرف معنى هذه الكلمة. إن الكلمة الموازية لها في اللغة الألمانية مأخوذة من القلب الكامل أي التغيير التام، وخير مثال على ذلك ما وقع في مصر عندما أزيح الملك فاروق وحل الرئيس جمال عبد الناصر محله. الثورة تحطيم نظام وإقامة نظام آخر مكانه كما حدث مع الثورة الجزائرية التي أخرجت الفرنسيين الذين كانوا هناك منذ مائة عام. فهل هذا هو ما يقصده الزنجي في أمريكا عندما يتكلم على الثورة؟ إنه يدين النظام ولكنه لا يحاول أن يقلبه أو أن يحطمه وكل ما يقصده بالتمرد هو المطالبة بقبوله في النظام القائم. وقد يؤدي هذا التمرد إذا كان حقيقياً إلى الصراع من أجل الحصول على ولايات سوداء منفصلة داخل البلاد وهو ما طالب به أفراد وجماعات منذ ما قبل إلايجا محمد.

وعندما جاء الرجل الأبيض إلى هذه الأرض لم يبن عن أي إيمان بعدم العنف الأمر الذي جعل الرجل الذي ينادي اليوم بعدم العنف في أمريكا يقول: «إن أمتنا قد قامت على الإبادة عندما جعلت الأمريكيين الأصليين (الهنود الحمر» جنساً أحط واتخذت من ذلك عقيدة لها فأصابت وجه مجتمعها الإستعماري بندوب الكراهية العنصرية قبل أن يبدأ الزنوج في النزول في الشواطىء الأمريكية، وتسببت في إراقة الدماء في حروب السيادة العنصرية. ولعلنا الأمة الوحيدة التي حاولت في نطاق سياسة وطنية إبادة سكانها الأصليين. وليس هذا وحسب بل إننا حاولنا رفع هذه التجربة المأساوية والحلقة المخزية في تاريخنا إلى مقام حرب صليبية مجيدة وإلى الآن ما زلنا لا ننبذها أو نشعر بالندم عليها بل نعمد إلى تمجيدها في أدبنا وأفلامنا ومسرحنا وفلكلورنا. وما زلنا إلى اليوم نلقن أولادنا في المدارس احترام العنف الذي حول شعباً ذا تراث قديم إلى مجموعات ممزقة تعيش في محميات مجدبة».

لقد حمل الرجل الأبيض شعار «التعايش السلمي» ولكن ماذا كانت أفعاله بجانب

ذلك القول؟ خلال كل مسيرته التاريخية كان يلوح باللواء المسيحي بيد ويحمل السيف والبندقية باليد الأخرى. ولنرجع إلى بداية المسيحية. لقد ولد المذهب الكاثوليكي وهو أساس المسيحية في إفريقيا على يد من تسميهم الكنيسة المسيحية بـ«آباء الصحراء» ولكن الكنيسة المسيحية أصيبت بداء العنصرية عندما دخلت أوروبا البيضاء، وبعد ذلك رجعت إلى إفريقيا تحمل الصليب وتغزو وتقتل وتستغل وتنهب وتغتصب وتعتو وتضرب وتدعو إلى السيادة البيضاء. وهكذا فرض الرجل الأبيض نفسه في زعامة العالم معتمداً على القوة المادية المجردة، فجرده ذلك من كل صلاحية روحانية، في حين أن التاريخ الإنساني يثبت في مختلف مراحله أن الزعامة الروحانية هي المعيار للزعامة الصحيحة، لأن الروحانيات تجذب الإنسان في حين أن القوة لا تخلف لديه إلا الخوف. وأنا أوافق أولئك العنصريين مائة في المائة عندما يقولون إن الأخوة لا يمكن أن تفرض بقوة القانون.

والحل الوحيد اليوم في أن يقود الدين الحق الحكومات. وأنا على يقين أن أمريكا في أمس الحاجة إلى الإسلام ولا سيما سكانها السود الذين عليهم أن يسألوا إلى أين وصلت بهم المسيحية التي كانوا أشد الناس غيرة عليها. ويمكن أن نذهب أبعد من ذلك ونسأل: «هذه المسيحية التي هي في يد الرجل الأبيض ومن تفسيره، إلى أين وصلت بالعالم؟. لقد أوصلت ثلثي سكانه غير البيض إلى التمرد والقول لثلثه الأبيض الباقي: «أخرج!». وها هو الرجل الأبيض يخرج وها هم السكان غير البيض ما إن يخرج حتى يرجعوا إلى دياناتهم الأصلية التي كان يقول عنها إنها وثنية.

لقد كان الإسلام خلال ألف سنة الدين الوحيد الذي كان له من القوة ما جعله يقف في وجه مسيحية الرجل الأبيض ويحاربها وحده ويوقع المسيحية البيضاء في المحذور. وها هم الأفارقة يعودون إلى الإسلام وإلى دياناتهم الأصلية الأخرى، والآسيويون يعودون إلى الهندوسية والبوذية والإسلام، وها هي الحرب الصليبية التي انطلقت صوب الشرق تغير اتجاهها وها هو الإسلام يزحف الآن على الغرب. لقد أغلق شرق آسيا في وجه المسيحية وبدأت إفريقيا تقبل على الإسلام إقبالاً كبيراً وأصبحت أوروبا لا دينية وبدأ يعتقد أن أمريكا هي آخر معاقل المسيحية المتبقية في العالم بحضارتها المسيحية التي تساند الجنس الأبيض في كل مكان. وإذا كان الأمر كذلك وكانت المسيحية كما تطبق في أمريكا اليوم هي أفضل ما تبقى للعالم المسيحي فإن على المسيحية السلام.

هل تعرف أن بعض اللاهوتيين البروتستانتيين قد بدأوا يتكلمون في كتاباتهم على الفترة ما بعد المسيحية ويقصدون بها الزمن الحديث؟. فما هو يا ترى السبب الرئيسي للفشل الذي منيت به الكنيسة المسيحية؟ إنه عجزها عن التصدي للعنصرية، فلتحصد الآن ما زرعته. ولقد زرعت العنصرية بكفر وها هي ذي الآن تحصدها.

تصور الضمير المسيحي لطوائف يحرسها شماسون يقفون على أبواب كنائسها في صبيحات أيام الأحد من عام ١٩٦٥ وهو عام الغفران ليقولوا لمن جاء من السود ليصلي: «لا يمكنك دخول بيت الله هذا!». والمهزلة الأكبر أن سانت أوغستان، المدينة التي تسمت في فلوريدا باسم الولي الإفريقي الأسود الذي أنقذ الكاثوليكية من الضلال، تشهد الآن أعمال العنف العنصري.

إن الله يعطي ما يسمى بالمجتمع المسيحي الأبيض في كل مكان فرصة للتوبة والتكفير عما ارتكبه من جرائم استغلال شعوب العالم غير البيضاء واستعبادها، كما فعل مع فرعون ولكنه يأبى مثل فرعون إلا أن يتعنت ويتمادى في رفض الإعتراف بجرائمه والتوبة والتكفير عنها، إن القدرة على التوبة والتكفير غير موجودة في أغلبية الأمريكيين البيض ولا حتى في نصفهم أو ثلثهم؟.

كثيرون من السود إن لم أقل أكثرهم وهم الضحية يودون لو يصفحون وينسون، ولكن أكثر الأمريكيين البيض على ما يبدو ليسوا على استعداد للتكفير والإنصاف ثم كيف يكفر مجتمع عن العبودية والإغتصاب والخصي وتعذيب الملايين خلال قرون؟ وما هي هذه الكفارة التي سيقبلها الرب العدل عن إهدار عرق السود وحياتهم وهوياتهم وتراثهم وتاريخهم بل وكرامتهم الإنسانية؟ وعلى كل حال فإن احتساء فنجان قهوة مع زنجي والسماح له بدخول المسرح والمراحض العمومية وباقي مظاهر «الإندماج» المُرائي ليس بكفارة.

ورجعت بعد مدة إلى الشرق الأوسط وإفريقيا وقضيت فيهما ثمانية عشر أسبوعاً قابلني فيها الرئيس المصري جمال عبد الناصر والرئيس التانزاني يوليوس نيريري والرئيس النيجيري ناموي زيكيوي ومندوب عن الرئيس الغاني السيد أوساجينو والرئيس الغيني سيكوتوري والرئيس الكيني جومو كينياتا والوزير الأول الأوغاندي الدكتور ملتون أوبوت ورجال دين أفارقة وعرب وآسيويين مسلمون وغير مسلمين. والتقيت في كل البلاد التي زرتها بآفرو أمريكيين وبيض من كل المهن والخلفيات. ووجدت في

إحدى البلاد الإفريقية سفيراً أمريكياً كان أكثر من يستحق الإحترام من السفراء الأمريكيين، كما قال لي أحد الزعماء الأفارقة وتحدثت معه مساء كاملاً فقال لي وصدقته نظراً لما سمعته عنه أنه ينسى العنصرية عندما يكون في إفريقيا ويتصرف على أساس أنه يتعامل مع بشر ولا ينتبه إلا إلى اختلاف لغتهم، ولكنه عندما يرجع إلى أمريكا يصبح واعياً باللون فقلت له: «هل تقصد أن المسؤول عن العنصرية ليس الرجل الأمريكي الأبيض وإنما المناخ السياسي والإقتصادي والإجتماعي الذي يغذي النفسية العنصرية لدى الرجل الأبيض؟» فقال: «نعم». واتفقنا على أن المجتمع الأمريكي يجعل من الصعب على الناس في أمريكا أن يلتقوا ولا يكونوا واعين باختلاف لونهم واتفقنا على أنه لو أمكن القضاء على العنصرية في أمريكا لعاش الفقير والغني فيها عيشة كريمة.

وكشف لي حديثي مع ذلك السفير حقائق أحبها إليّ أن الرجل الأبيض ليس شريراً بطبعه وأن المجتمع العنصري الأمريكي هو الذي يدفع به إلى التصرف تصرفاً شريراً وأن ذلك المجتمع خلق ونمى نفسية تبرز أحط وأشنع ما في الطبع البشري.

وقابلت في إفريقيا رجلاً أبيض آخر على النقيض تماماً من ذلك السفير فشخص لي مضمون ما دار بيننا من حديث. كنت في تلك الرحلة أشعر بأنني تحت المراقبة، وكان الشخص المكلف بذلك بادياً للعيان وكريهاً، ولم أعرف الوكالة التي كان يعمل لحسابها وإلا لذكرت اسمها. المهم أنه أثارني عندما وجدت أنني لا أكاد أتناول طعامي في فندق ما دون أن أجده أمامي يراقبني وكأنني جون ديلينفر أو شخصية هامة.

وذات صباح ذهبت إليه وقلت له إنني أعرف أنه يتبعني وأنه إذا كان يريد أن يعرف شيئاً فلمَ لا يسألني عنه؟ وبدأ يتعجرف فقلت له بكل صراحة إنه غبي لأنه لم يحاول أن يعرفني أو يعرف ما أناضل من أجله وترك غيره يفكر بالنيابة عنه، وأنه مهما يكن نوع العمل الذي يقوم به الإنسان فإن عليه على الأقل أن يفكر لنفسه. وأصابه قولي فلم يعقب عليه، ولكنه عاد بعد ذلك يقول إنني معاد لأمريكا ولا أمريكي وزارع فتنة ومخرب وربما شيوعي أيضاً، فقلت له إن ما قاله يدل على أنه لا يعرف عني شيئاً وإن أقصى ما تستطيع الإف. بي. آي أو السي. آي. إي أو غيرهما أن تثبته ضدي هو انفتاحي الذهني. وقلت له إنني باحث عن الحقيقة وإنني أزن الأشياء بموازينها وإن ما أعارضه هو الأفكار الجاهزة والمجتمعات المفصلة على مقياس واحد. قلت له إنني

أحترم حق كل إنسان في أن يؤمن بما يعتقد أنه الصواب، وأنتظر أن أعامل بالمثل. وبعد ذلك بدأ ذلك الجاسوس يتهجم على معتقداتي الدينية في نطاق علاقتي بالمسلمين السود فقلت له: «ألم يخبرك رؤساؤك بأنني غيرت موقفي ومعتقداتي وأنني الآن أؤمن بالإسلام المتبع في مكة أن لا إله إلا الله وأن محمداً بن عبد الله الذي عاش في مكة المكرمة منذ أربعة عشر قرناً رسول الله وخاتم الأنبياء».

كنت قد ارتبت في شيء منذ البداية وأردت التأكد منه فغامرت وأفصحت له عنه فاهتز بعنف. كنت قد استشففت ذلك من الصفة الذاتية لكل أسئلته وأقواله فقلت له: «أنت يهودي غير اسمه الحقيقي باسم آنغلو ساكسوني» وتأكد لي ظني مما ظهر على وجهه من ارتباك. وقال: «كيف عرفت ذلك؟» فقلت: «إن لي خبرة بطريقة اليهود في الهجوم علي وقدرة على استشفافها. وقلت له إن ما أعيبه على اليهود نفاق معظمهم في ما يدعونه من مصادقة للأمريكيين السود وأن اتهامهم لي بمعاداة السامية كلما فتحت فمي لأقول الحقيقة عنهم يحرق أعصابي. قلت له إنني أشهد لهم بأنهم أكثر البيض كلاماً وتمويلاً وزعامة وليبرالية فيما يتعلق بحركة الحقوق المدنية الزنجية، ولكنني أعرف أنهم لا يفعلون ذلك إلا بهدف استراتيجي خاص، لأن التركيز العنصري في أمريكا كلما زاد على السود خف عن اليهود وأن البرهان على نفاق معظم اليهود الذين يدعمون الحقوق المدنية أن أكثر من كانوا يدعون إلى الفصل العنصري في الشمال يهود. قلت له: «أنظر إلى كل ما يحاول السود الإندماج فيه! كله، إما في ملكية اليهود أو تحت رقابتهم أو يملكون فيه أسهماً أو لهم فيه نفوذ، فهل تراهم يمارسون نفوذهم لصالح السود؟ كلا!.»

وهناك حجة أخرى على حقيقة الموقف اليهودي من الزنوج وهي ما يحدث عندما يسكن زنجي في حي أكثر سكانه يهود فيكونون أول من يدشن خروج البيض من ذلك الحي. وعندما يسكن الزنجي في حي أبيض ولا يهجره سكانه، يكون هؤلاء السكان إرلانديين كاثوليكيين وإيطاليين ولا يكونون يهوداً. والمهزلة أن هؤلاء اليهود أنفسهم يجدون صعوبة كبرى في جعل البيض يقبلونهم. أنا أعرف أنني سأسمع عن كلامي هذا أنني «معاد للسامية» أجل أعرف ذلك ولكنه لن يمنعني من قول الحقيقة.

كانت أمريكا وأنا في تلك السفرة في خضم الإنتخابات الرئاسية، وكانت وكالات الأخبار الأمريكية قد لحقت بي في القاهرة وآكرا بمكالمات عبر المحيط سألتني فيها إن

كنت مع جونسون أو غولد ووتر فقلت إنهما فيما يخص الأمريكيين السود سواء. وكنت أشعر أن الإختيار بينهما بالنسبة للأمريكيين السود اختيار بين الذئب والثعلب. ذلك أن الليبرالية والمحافظة في أمريكا تعنيان فيما يخص الزنجي بقاءه حيث هو مع فارق واحد وهو أن الليبرالية تقول: «دعونا نضحك عليه ونعده بتحسين معاملته ونعطيه مزيداً من الوعود». وكنت أشعر والحالة هذه أن اختيار الزنجي لأحدهما يعني اختياره لمن يريده منهما أن يأكله لأنه في كلتا الحالتين مأكول لا محالة.

ولم أكن أميل إلى غولد ووتر أكثر مما كنت أميل إلى جونسون وإن كنت في جحر الذئب سأقدر الخطورة وكانت زمجرته ستبقيني أكثر إحتراساً واستعداداً للقتال، أما الثعلب فإنه بمكره قادر على أن يسلمني إلى الإغفاء ويعبث بي وسأثبت لك ما أقوله. من كان بحسب ظنك أول من اتصل به جونسون عندما أصبح رئيساً بفعل عملية الإغتيال التي كانت دلاس مسرحاً لها؟ اتصل بصديقه الحميم «ديكي» أو رتشارد راسل المعروف في جورجيا بتزعمه لمعارضة حركة الحقوق المدنية. فعل ذلك في الوقت الذي كان يصرح فيه في كل الأبواق بأن الحقوق المدنية مسألة أخلاقية فبدا كعميد الشرطة الذي يعلن عن معارضته لعملية سطو على بنك وجيسي جايمس أعز أصدقائه.

على أنني كنت أحترم في غولد ووتر أنه رجل لا يحاول إخفاء معتقداته وهو ما لا نجده في أيامنا هذه في البيض إلا نادراً، وأنه ليس من النوع الذي يهمس للعنصريين ويبتسم للإندماجيين. وكنت أعتقد أنه لم يكن ليغامر بالإفصاح عن موقفه العنصري في ذلك الوقت لو لم يكن مقتنعاً به كل الإقتناع.

كان قد قال للسود بكل صراحة إنه ليس معهم وهو شيء في صالحهم لأنهم يتقدمون عندما يقتنعون بأن الحل في قيامهم ضد نظام متعنت. أما الليبراليون فقد حولوا السود إلى متسولين، ولذلك ثار زنوج الجنوب وقاتلوا من أجل حريتهم قبل زنوج الشمال لأنهم وجدوا أنفسهم أمام رجل أبيض مزمجر.

وما أقوله لا يعني أنني أفضل غولد ووتر على جونسون أو العكس. لقد كنت وقتها خارج الولايات المتحدة، وإلا لما تورطت في التصويت على أي منهما ولكنت نصحت للسود بالإمتناع عن التصويت. وقد تبين أن أصوات السود هي التي ساعدت جونسون على الفوز بالرئاسة كما كان يتوقع. ولو فاز غولد ووتر لعرف السود أنهم سوف يكون عليهم أن يتعاملوا مع ذئب لا مع ثعلب قادر على ابتلاعهم والشروع في هضمهم وهم لا يشعرون.

كانت تعترضني العراقيل وأنا أحاول التقدم بمشروع منظمة وطنية سوداء تضم الزنوج الأمريكيين وكنت قد اخترت لها هذا الإسم، لأنه كان عليّ في مجتمع أمريكي مجبول على المنافسة أن أبدأ بإحلال التعاون فيما بين السود قبل التفكير في إحلال التعاون بين البيض والسود. وكنت منذ طفولتي، على ما أذكر، قد عرفت تعليمات الوطني الأسود ماركوس غارفي التي كانت السبب في اغتيال والدي.

وكنت حتى وأنا مع إلايجا محمد أدرك أن الفلسفات السياسية والإقتصادية والإجتماعية للوطنية السوداء قادرة على بث الشعور بالإعتزاز العرقي في السود وإعطائهم الحافز والثقة في النفس، وهي العناصر التي يحتاج إليها الجنس الأسود اليوم لينهض من ركوعه ويقف على قدميه ويعرب عن موقفه بنفسه.

كنت أريد تلك المنظمة سوداء وأريد أن يكون هدفها الأسمى هو إحلال الأخوة الحقيقية بين البيض والسود، وكانت أكبر مشكلة صادفتها هي الصورة التي كان الناس قد كونوها عني كمنتمٍ قديم إلى «المسلمين السود». وحاولت تغيير تلك الصورة بدخول منعطف يبدأ الناس، ولا سيما الزنوج، ينظرون إلي فيه نظرة جديدة. لم يكن غضبي قد خف، ولكن الأخوة الحقيقية التي رأيتها في الديار المقدسة أقنعتني بأن الغضب يعمي البصر.

وكنت كلما سنحت لي الفرصة، أكلم شخصيات هامة في هارليم وألقي خطباً وأقول فيها: «لقد علمني الإسلام أن إيجاد الإنسانية والمجتمع الإنساني الكامل يحتاج إلى عناصر أو مميزات دينية وسياسية وإقتصادية وسيكولوجية وعرقية. ولقد أصبح من بين أصدقائي بعدما زرت مكة المسيحي واليهودي والبوذي والهندوسي وتابع مذهب اللاإرادية بل وحتى الملحد. أصبح منهم الرأسمالي والإشتراكي والشيوعي والمعتدل والمحافظ والمتطرف بل وحتى العم تومي. أصبح من أصدقائي اليوم السود والسمر والحمر والصفر والبيض».

وقلت للجماهير في شوارع هارليم إن عبادة الإله الواحد وحدها ستقرب الإنسان من السلام الذي يتكلم عليه الجميع ولا يفعل أحد شيئاً لتحقيقه. قلت لهم إن علينا أن ننظر إلى صراع السود ضد العنصرية البيضاء في أمريكا على أنه مشكل إنساني وننسى السياسات المنافقة والدعاية ونتذكر أن حل مشكل أمريكا الإنساني هذا مسؤولية تقع على عاتق الطرفين معاً. قلت لهم إن على البيض ذوي النيات الحسنة أن يحاربوا

العنصرية عند غيرهم من البيض بصفة فعالة ومباشرة، وأن على السود أن ينموا في داخلهم وعياً أكبر، أن عليهم من الواجبات مثل ما لهم من الحقوق.

وكنت أعرف الزنوج بالحل الذي كان أكثر البيض يريدونه للمشكل العنصري الأمريكي وأعرف أن كثيراً من البيض يشعرون بالإحباط نفسه الذي يشعر به السود. وكنت قد توصلت في يوم واحد بخمسين رسالة من البيض وكانوا يحيطون بي في نهاية التجمعات ويسألونني: «ما الذي يستطيع رجل أبيض حسن النية أن يفعله؟».

وأنا الآن إذ أقول ذلك أفكر في تلك الطالبة التي جاءتني من جامعتها في نيوإنغلاند إلى مطعم أمة الإسلام في هارليم والتي قلت لها إنه ليس هناك ما يمكنها عمله. أنا الآن أشعر بالندم على قولي ذلك ولو كنت أعرف اسمها أو رقم مهتفها لطلبتها أو لكتبت لها وقلت لها ما أقوله للبيض الذين يطرحون علي ذلك السؤال بطريقة أو بأخرى، إنهم أولاً لا يمكنهم الإنضمام إلينا، على الأقل في ما يخص منظمتي، المنظمة الوطنية السوداء، منظمة الوحدة الآفرو أمريكية. ذلك أنني أعتقد أن البيض الذين يريدون الإنضمام إلى المنظمات السوداء إنما يعمدون بذلك إلى الهرب وإراحة ضمائرهم وأنهم يريدون أن يثبتوا أنهم معنا، والحقيقة المرة أن وجودهم حولنا لن يساعد على حل مشكلة أمريكا العنصرية لأن السود ليسوا مصدرها. وإذا كانوا يريدون إثبات حسن نواياهم فليفعلوا ذلك في مصدر الداء أي في مدنهم وقراهم وبين أهلهم وذويهم. ذلك هو مكانها وذلك هو المكان الذي عليهم أن يناضلوا فيه إن أرادوا أن يحققوا نتيجة ما.

وعندما أقول إن وجود البيض ذوي النوايا الحسنة في المنظمات السوداء يضعف فاعليتها تلقائياً وبصفة عامة لا أدينهم، ولكنني أقول إن وجود حتى أفضلهم في هذه المنظمات سيجعل الزنوج يتأخرون في معرفة ما يمكنهم عمله بتعاون مع السود داخل محيطهم الخاص. أنا لا أريد أن أجرح شعور أحد ولكنني سأذهب أبعد من ذلك وأقول: إنني أرتاب من البيض الذين يتلهفون على مصاحبة السود والإلتصاق بهم، ولا أحب ذلك النوع الذي يجد متعة في وجود السود حواليه، ولعل ذلك يعود إلى الأيام التي عشتها في هارليم ورأيت فيها في محلات ما بعد آخر الليل سكارى بيض بوجوه محمرة وهم يمسكون بهذا الزنجي أو ذاك ويقولون: «أريدك أن تعرف أننا أنا وأنت سواء» ثم يركبون سيارات أجرة أو سيارات من نوع ليموزين ويعودون إلى محيطهم

الذي يعملون ويعيشون فيه حيث لا أثر لزنجي اللهم إلا إذا كان خادماً؛ ثم إن البيض كلما زاد انضمامهم إلى منظمة سوداء زاد اعتماد السود عليهم لدعمها مادياً، حتى أن الزعامة تعطى للأسود ولكن التسيير الحقيقي يكون في يد الأبيض.

أنا أقول للبيض ذوي النيات الحسنة: إذا أردتم أن تكونوا معنا دعونا نعمل داخل أوساطنا واعملوا أنتم في إطار مجموعات خاصة بكم للتأثير على العنصريين البيض وإقناعهم بترك التعسف، وسنحترمكم ونثني على عملكم. وفي ذلك الوقت سنحاول نحن إقناع السود بضرورة مساعدة أنفسهم لأننا أعرف الناس بهم. وبعملنا على جبهتين منفصلتين سنتوصل إلى إنقاذ الروح الأمريكية التي لا يمكن إنقاذها إلا بإعطاء السود حقوقهم الإنسانية كاملة ومنحهم كرامتهم.

إن التحركات الحقيقية ذات الدلالة والتي تدفع إليها النوايا الحسنة والمسؤولية الأخلاقية تستطيع أن تضع يدها على أسباب الإنفجار العنصري الذي تعرفه أمريكا اليوم، وتستطيع أن تحاصره، واتهامي أو اتهام غيري ممن يسمون بالمتطرفين والديماغوجيين السود، بتحريك العنصرية في أمريكا لن يحل المشكل. وقد تمنيت غير ما مرة أن يقول التاريخ يوماً إن صوتي الذي ضايق غرور الرجل الأبيض وغطرسته وإعجابه بنفسه قد رد عن أمريكا كارثة خطيرة كانت ستقودها إلى الهلاك، وأنا ألتقي مع الدكتور كينغ في وحدة الهدف رغم اختلاف الوسائل، ألا وهو تعرية مأساة ما لاقاه سود عزل على يد البيض. وفي المناخ العنصري الذي تعيش فيه البلاد اليوم يتساءل البعض عن أي منا سيصفى أولا الدكتور كينغ بسياسته السلمية أو أنا المنعوت بالعنف.

إنني أعتبر كل ما أقوم به اليوم مستعجلاً لأن كل واحد منا قد حدد له الوقت الذي عليه أن ينجز فيه ما قدر له أن ينجزه. وأنا لم يطل بي العهد أبداً في أي عمل قمت به بل كانت حياتي كما رأيت سلسلة من التحولات الجذرية. إنني أعيش الواقع وأنتظر الموت في أي وقت ولا سيما منذ رجعت من سفري الأخير إلى الخارج الذي وقفت فيه على طبيعة الأحداث وتوصلت إلى معلومات من مصادر موثوق بها. على أن الموت لا يخيفني كما قد يخيف بعض الناس وقد كنت أعلم أنني لن أعيش حتى أصبح عجوزاً منذ ما قبل أن أعتنق الإسلام. وعندما كنت مهرباً في غابة الحي الزنجي ومجرماً في السجن، كنت أعرف أنني سأموت موتاً عنيفاً، خصوصاً وأن ذلك قد جرت العادة به في عائلتنا إذ قتل أبي ومعظم أخوته. وإذا اعتبرنا أن أبي قتل بسبب

معتقداته واعتبرنا معتقداتي وأضفنا إليها طبعي والتزامي التام بما أعتقده، أصبح موتي في سن متقدمة وعلى فراش المرض ضرباً من الخيال.

لقد خصصت لهذا الكتاب أكثر ما عندي من وقت، لأنني على يقين أن قصة حياتي الكاملة والمحكية بصدق قد تكون إذا ما قرئت بموضوعية شهادة ذات أهمية اجتماعية ما. وأعتقد أن القارىء الموضوعي قد يرى كيف أنه لم يكن أمامي كشاب أسود في تلك البيئة الأمريكية، إلا أن أنتهي إلى السجن، وهو ما يحدث اليوم لآلاف الشباب الأسود. القارىء الموضوعي قد يرى كيف أنني عندما سمعت عبارة «الرجل الأبيض شيطان» لأول مرة ومر شريط حياتي أمام عيني، لم يكن أمامي إلا أن أستجيب لها وأكرس الإثنتي عشرة سنة التالية لنشرها بين السود. وأرجو أن يقوم القارىء الموضوعي وهو يتتبع قصة حياتي وهي قصة واحد ممن صنعتهم الأحياء الزنجية، بتغيير مفهومه ورأيه في الأحياء الزنجية التي تشكل حياة كل الزنوج في أمريكا تقريباً.

وفي كل عام يزداد في هذه الأحياء عدد المراهقين الذين يتخذون من المجرمين كما فعلت مثلهم العليا ويتعرضون لتأثيرات سيئة. أنا لا أقول إن كل واحد منهم سيصبح عالة على المجتمع كما كان الشأن بالنسبة لي. إن نسبة قليلة منهم تفعل ذلك ولكنها نسبة متواترة تضاف سنوياً إلى مجموع الشباب المجرم والمكلِّف والخطير وتبقيه في تزايد مستمر.

لقد نشرت مصلحة البوليس الفدرالي مؤخراً تقريراً عما تعرفه الجريمة من ارتفاع سنوي مقلق منذ نهاية الحرب العالمية الثانية يقدر بنسبة عشرة إلى أحد عشر في المائة وإن كان ذلك التقرير لا يشير إلى أن أكثر تلك النسبة من الجرائم يقع في الأحياء الزنجية التي سمح المجتمع الأمريكي الأبيض بوجودها. وقد كان شباب الأحياء الزنجية الفقير يتقدم أحداث صيف ١٩٦٤ «الطويل والحار» التي شهدتها كبريات المدن الأمريكية. ولي اليقين أن تلك الأحداث ستكرر هذا العام ١٩٦٥ وتكون أكبر وأخطر على الرغم من مشروع قانون الحقوق المدنية الذي يريد به الرجل الأبيض إراحة ضميره، لأن وباء العنصرية في أمريكا أهمل أكثر مما ينبغي.

وظني أنه لا يوجد رجل أسود في أمريكا قاسى ما قاسيته أو تردى إلى درجة الإنحطاط الإجتماعي الذي ترديت إليه أو مني بالجهل الذي منيت به ولكن لا إنفراج إلا بعد شدة ولا معنى للحرية إلا بعد الأسر والعبودية.

لقد استعملت في نضالي أفضل ما هداني الله إليه وقدرني عليه لتحقيق الحرية لإخواني وأخواتي السود هنا في أمريكا، وعرفت النجاح كما عرفت الفشل. ولعل من حسن حظي أنني لم أتخرج في الجامعات كما كنت أتمنى وإلا لكنت الآن محامياً (ناجحاً ولا شك) لأنني كنت طول عمري مغرماً بالمعارك الفكرية والتحدي، ولو كان عندي الوقت الآن لرجعت من دون خجل إلى إحدى المدارس الرسمية في نيويورك ولواصلت تعليمي من حيث تركته أي السنة الرابعة من الثانوي، ولكنني إلى الآن لا أجد الوقت لبدء تكويني في كل المواضيع التي أحبها، فأنا أحب اللغات مثلاً وكان سيثلج صدري أن أصبح لسانياً مقتدراً. وليس هناك ما هو أدعى للإحباط في رأيي من أن يجد المرء نفسه في مكان يتكلم الناس فيه لغة لا يفهمها لا سيما إذا كان هؤلاء الناس منه وإليه. ولقد سمعت في إفريقيا لغات أم مثل الحوسية والسواحلية فكنت أقف كالطفل الصغير في انتظار أن يأتي من يترجم لي وأشعر بجهلي بحدة.

لو كان عندي الوقت لتعلمت العاميات الإفريقية واللغة الصينية التي أعتقد أنها ستصبح أقوى لغة سياسية في المستقبل. وقد بدأت فعلاً في تعلم العربية التي أعتقد أنها ستصبح من جهتها أقوى لغة روحانية في المستقبل. لو كان عندي الوقت لدرست لمجرد أن الدراسة ستمنحني الشعور بالسعادة ولصنفت المعارف وتصديت لها لأنني أهتم بكل شيء، وهو ما جعلني أحب بعض منتجي البرامج الإذاعية والتلفزيونية التي شاركت فيها وأحترم تفكيرهم، لأنهم كانوا رغم اختلافهم الدائم تقريباً معي في شأن المسألة العنصرية، كانوا متفتحين وموضوعيين أمام الحقائق التي كنت أطرحها وأذكر من بينهم إيرف كوبسينيت في شيكاغو وباري فاربر وباري غراي ومايك والاس في نيويورك الذين أثبتوا لي إحترامهم لأفكاري وهم لا يدرون. كانوا يدعونني للتعبير عن رأيي في مواضيع لها علاقة بالعنصرية وكنا في نهاية البرنامج نبقى نتكلم ساعة أو أكثر في كل شيء، في مواضيع الساعة وغيرها. أقول ذلك لأن معظم البيض حتى عندما يعترفون للزنجي بشيء من الذكاء يعتقدون أنه لا يستطيع أن يتكلم إلا في العنصرية، وأنه غير قادر على أن يساهم بشيء في المجالات الفكرية الأخرى. البيض مثلاً لا يسألون السود عن رأيهم في مشكل الصحة في العالم أو في التسابق على إنزال أول إنسان على سطح القمر.

إنني أعتبر كل صباح جديد يوماً مكتسباً في عمري وأجد السود في خطبي واجتماعات منظمتي وباقي المناسبات التي تجمعني بالناس، يراقبون تصرفاتي التي تدل

ولا شك على أنني أتوقع أن يقوم أحد بقتلي. وكنت قد أعلنت أكثر من مرة أنني أعرف أن الأوامر بقتلي قد صدرت، وإذا كان هناك من يشك في ما أقوله فهو لا يعرف أمة الإسلام. وبالمناسبة أريد أن أقول للذين يطاردون رجلاً ليقتلوه إن الدائرة ستدور ويأتي يوم يجدون فيه من يطاردهم ليقتلهم.

وأنا أعرف أيضاً أنني قد أقتل بيد عنصري أبيض أو زنجي مسخر من طرف البيض أو زنجي مغسول الدماغ يتصرف بمشيئته ويحسب أن موتي يخدم البيض نظراً لما أقوله عنهم. ولقد أصبحت أعيش وكأنني ميت ولذلك سأطلب منك شيئاً. عندما أموت (وأقولها بيقين لأنني أعرف مما وصل إلى علمي أنني لن أعيش لأقرأ هذا الكتاب) لاحظ أن الرجل الأبيض سيتهمني في صحافته بالتحريض على «الكراهية» وأنه سيستعملني ميتاً كما استعملني حياً ويجعل مني رمزاً سهلاً للعنصرية يساعده على التملص من الحقيقة وهي أنني لم أزد على أن حملت مرآة عكست وكشفت سجل الجرائم المخفية التي ارتكبها جنسه ضد جنسي. سترى، سيكون أقل ما يقولونه عني أنني أسود لامسؤول. وقد كنت أشعر دائماً أن الزعيم الأسود المسؤول في نظرهم هو الذي لا يحقق أية نتيجة. عندما يرميك الرجل الأبيض بـ«اللامسؤولية» يكون معنى ذلك أنك رجل أسود فعال. عرفت ذلك منذ الطفولة وعرفته أكثر منذ أصبحت «زعيماً» أسود في المجتمع الأمريكي العنصري، وكنت أشعر بالإطمئنان كلما وجدت الرجل الأبيض يزيد من مقاومته أو مهاجمته لي لأن ذلك كان يثبت لي أنني أسير على الطريق الصحيح المؤدي إلى مصالح الأمريكيين السود. وقد أكدت لي المعارضة التي لقيتها من العنصري الأمريكي الأبيض أنني قدمت للسود شيئاً قيماً.

نعم كنت أحب دوري الذي قالوا عنه إنه «ديماغوجي» وكنت أعرف أن المجتمعات تقتل أحياناً من يعملون على إحلال التغيير فيها وإذا مت وكنت قد سلطت بعض الضوء على حقيقة هامة من شأنها أن تستأصل السرطان العنصري الخبيث من جسد أمريكا، فالفضل كله في ذلك يرجع إلى الله، وأما الأخطاء فهي لي.

الخاتمة

في ١٩٥٩ عندما بدأ الناس يسمعون بالمسلمين السود إثر إذاعة البرنامج التلفزيوني من نيويورك الذي يحمل عنوان: الكراهية التي ولدت الكراهية، كنت على أبواب التقاعد في سان فرانسيسكو بعد عشرين عاماً من الخدمة في حرس الشواطىء.

في ذلك الوقت أخبرتني صديقة لي كانت تزور أهلها في دترويت بانتشار دين جديد يسمونه دين الإنسان الأسود على يد أمة الإسلام، وقالت إن أفراد أسرتها لدهشتها قد دخلوا كلهم فيه. واستمعت بعد ذلك باستخفاف إلى حكاية العالم المجنون السيد يعقوب الذي استخرج الجنس الأبيض من الجنس الأسود بعملية تطعيم. وكان يتزعم تلك المنظمة كما قيل لي، شخص يدعى إلايجا محمد المحترم ويرأس إدارتها شخص يدعى رجل الدين ملكوم إكس.

ودخلت الحياة المدنية في نيويورك فطفت بهارليم وجمعت معلومات مثيرة عن ذلك الطقس الديني ثم اقترحت على الريدرز دايجست أن أكتب لها مقالة عنه. وذهبت إلى المطعم الإسلامي في هارليم وسألت عن رجل الدين ملكوم إكس فأشاروا إليه في حجرة مهتف ورائي حيث كان يتكلم. ولم يلبث أن خرج فإذا هو رجل طويل، نحيف، أحمر الشعر، أسمر البشرة، في الثلاثين من عمره. وأخبرته بقصدي فغضب وحد إلي النظر من خلال نظارته المؤطرة بعظم القرن وقال محتداً: «أنت دمية أخرى من الدمى التي يبعثها الرجل الأبيض لتتجسسس علينا» فقلت له إنني مكلف بكتابة مقالة عن أمة الإسلام وأخرجت له الرسالة التي توضح المجلة فيها أنها تريد مقالاً موضوعياً يقف موقفاً وسطاً بين ما تقوله أمة الإسلام وما يقوله خصومها، فنفخ بمنخره وقال إن تعهدات الرجل الأبيض لا تساوي الورق الذي كتبت عليه وإنه يحتاج لبعض الوقت قبل أن يعطيني جوابه، ولكنه اقترح علي أن أحضر بعض جلسات معبد نيويورك السابع (عوضت كلمة معبد فيما بعد بكلمة مسجد) التي كانت مفتوحة في وجه غير المسلمين من السود.

ووجدت في ذلك المطعم بعض من دخلوا في الإسلام وكانوا أنيقين ومهذبين إلى حد يكاد أن يكون مبالغاً فيه. وكانت تصرفاتهم تعكس انضباطاً شبه عسكري ولم يكن أحدهم يفوه إلا بالعبارات المتداولة داخل أمة الإسلام حيث كان حتى جمال الجو من فضل الله وفضل إلايجا محمد المحترم.

وأخيراً جاءني رد ملكوم إكس بأنه لا يريد أن يتحمل المسؤولية وأن علي أن أقابل السيد محمد شخصياً ثم حُدد لي موعد معه فسافرت إلى شيكاغو بالطائرة. ووجدته رجلاً ضئيلاً، خجولاً، ذا صوت ناعم. ودعاني للعشاء مع أسرته في بيته الكبير وتكلم على المراقبة المشددة التي يمارسها على منظمته البوليس الفدرالي ومصلحة الإيرادات الداخلية واحتمال قيام الكونغريس ببحث مدقق عنها، فشعرت أنه يقصدني بذلك الكلام وأضاف: «ولكنني لا أخشى أياً منهم لأنني أملك كل ما أحتاجه، أملك الحقيقة». وتركته دون أن أثير معه موضوع المقال، على أني وجدت ملكوم إكس عندما رجعت إلى نيويورك أكثر استعداداً للتعاون معي.

وبدأ يجلس أمامي في المطعم الإسلامي إلى مائدة صفحتها بيضاء ويرد على كل أسئلتي التي كانت تقاطعها مكالمات تأتيه إلى حجرة المهتف من الصحافة النيويوركية. وعندما قلت له إنني أريد أن أشاهد أنشطة المسلمين في بعض المدن الأخرى رتب لي مع رجال دين آخرين حضور جلساتهم في معابد دترويت وواشنطن وفلادلفيا.

ونشرت مقالتي في مستهل ١٩٦٠ تحت عنوان محمد يتكلم فكانت أول مقالة من نوعها حول تلك الظاهرة، فكتب لي إلايجا محمد مثنياً على التزامي بالموضوعية التي وعدته بها كما طلبني ملكوم إكس هاتفياً وأبلغني الشيء نفسه. وفي ذلك الوقت نشر كتاب الدكتور إريك لينكولن الذي يحمل عنوان المسلمون السود في أمريكا فازداد الإهتمام بهم.

وخلال سنتي ١٩٦١ و١٩٦٢ كلفتني جريدة ساترداي إفنينغ بوست بإنجاز مقال مشترك عنهم مع كاتب أبيض اسمه البالك. بعدها استجوبت ملكوم إكس لحساب مجلة بلاي بوي التي وعدتني بنشر كل أقواله مهما كانت. واستغرق استجوابي لملكوم إكس عدة أيام كان ينطق فيها بعبارات معادية للمسيحية وللبيض ثم يقول: «إن ذلك الشيطان لن ينشر شيئاً من هذا» ولذلك لم يصدق عندما وجد المجلة تفي بوعدها وتنشر كل أقواله.

بعد ذلك بدأ يكن لي بعض المودة. وكان يعرف ما للمجلات الوطنية من نفوذ فبدأ ينظر إلي بحذر ولكن باعتبار أنني منفذ إلى الرأي العام. وبدأ بين الفينة والأخرى يطلبني هاتفياً ويخبرني بأنه سيتكلم في الإذاعة أوالتلفزيون ويطلعني على مواعيد خطبه العمومية أو يدعوني لحضور نشاط من نشاطات المسلمين السود.

إلى ذلك الحد كنت قد وصلت في علاقتي مع ذلك الرجل الذي كان يقول عن نفسه أمام الملأ إنه أشد السود غضباً في أمريكا، عندما جاءني وكيلي بناشر أوحى له مقالي في بلاي بوي بنشر السيرة الذاتية لملكوم إكس الذي كان قد أصبح مشهوراً على الصعيد الوطني، وسألني إن كنت أستطيع أن أقنعه بأن يروي لي قصة حياته كاملة وبكل التفاصيل فقلت إنني غير متأكد ولكنني سأسأله، ثم سألني عن الأحداث البارزة التي يمكن أن يتضمنها الكتاب وبدأت أرد عليه فتبين لي أنني لا أعرف شيئاً عن الرجل على الرغم من كل ما أجريته معه من استجوابات، فقلت له إن طلبه قد أوضح لي مدى حرص ملكوم إكس على عدم التكلم على نفسه وتركيزه على إلايجا محمد وأنني لا أعرف إلا أنه أشار إلى تجربته الإجرامية وحياته في السجن قبل اعتناقه الإسلام، وأنه قال لي ذات مرة: «لو عرفت ماضي لما صدقت». وأنني سمعت أنه باع المخدرات واشتغل في الدعارة وارتكب السطو المسلح.

وكنت أعرف أن ملكوم إكس موسوس بالوقت وكان قد قال لي: «إنني لا أحتمل شخصاً لا يحمل الساعة لأن ذلك يوضح لي أنه لا يقدر الوقت»... «في كل الأعمال يحدد نجاحنا أو فشلنا مدى تقديرنا واحترامنا للوقت». وكنت أعرف أن الإقبال على الإسلام يزداد في الأماكن التي يخطب فيها كما كنت أعرف اعتزازه باهتداء الزنوج في السجون إلى الإسلام على غرار ما وقع له، وأنه يدعو المسلمين إلى أكل طعام المسلمين فقط، وأنه فيما يخصه يفضل ما تطبخه له زوجته بيتي، وأنه يكثر من شرب القهوة المخلوطة بالحليب ويقول مازحاً: «القهوة هي الشيء الوحيد الذي أحبه مندمجاً». وقلت لوكيلي وللناشر ذلك اليوم ونحن على مائدة الغداء: إنه يعرف كيف يحرج غير المسلمين كما فعل معي عندما أوصلني ذات مرة بسيارته إلى أحد مداخل المترو فأشعلت سيجارة وقال: «بذلك ستكون أول مخلوق يدخن في هذه السيارة».

وسألت ملكوم عن رأيه في نشر كتاب عن حياته، فنظر إلي نظرة من أخذ على حين غرة، وبدا حائراً كما لم أره إلا نادراً ثم قال: «هذا موضوع يحتاج إلى تفكير».

وطلبني بعد يومين هاتفياً وحدد لي موعداً في المطعم الإسلامي وقال: «إنني أقبل عرضك لأنني أظن أن قصة حياتي ستوضح للناس كيف ينقذ السود على يد السيد محمد ولكنني لا أريد أن يسيء أحد فهم دوافعي. يجب أن يؤول كل مليم من ريع هذا الكتاب إلى أمة الإسلام. نحن بالطبع نحتاج لموافقة السيد محمد وعليك أن تكلمه شخصياً».

وهكذا ركبت الطائرة مرة أخرى لمقابلة السيد محمد، ولكن في فينيكس، أريزونا هذه المرة حيث كانت أمة الإسلام قد اقتنت له بيتاً في تلك المنطقة ذات المناخ الحار والجاف الذي خفف عنه ما كان يعانيه في جهازه التنفسي.

وتكلمنا رأساً لرأس هذه المرة، فقال لي إن منظمته قد قطعت شوطاً طويلاً بأطر أغلبها غير متعلم وأنها كانت ستطوي المراحل لما فيه صالح الإنسان الأسود، لو أنها اكتسبت بعض المواهب السوداء وأضاف أن منظمته في أمس الحاجة إلى الكتاب، ولكنه لم يحاول أن يضغط علي لمعرفة ردي وبغتة انتابته نوبة من السعال واشتدت عليه حتى هرعت إليه في قلق، ولكنه أشار إلي بأن أعود إلى مكاني وقال وهو يشهق، إن ذلك شيء بسيط ثم قال لاهثاً إن الله يبارك هذا الكتاب وأن ملكوم إكس أحد أبرز رجال دينه وأمر أن يوصلني سائقه إلى المطار وودعني بسرعة وخرج مهرولاً وهو يسعل.

وفي نيويورك قرأ ملكوم إكس العقد ووقعه ثم سحب من محفظة نقوده قطعة ورق مكتوبة بخطه العريض وقال: «ها هو الإهداء» فتناولت الورقة وقرأت ما يلي: «أهدي هذا الكتاب إلى إلايجا محمد الذي وجدني غائصاً في أوحال أقذر حضارة وأقذر مجتمع على هذه الأرض فانتشلني ونظفني وساعدني على الوقوف على قدمي وجعل مني الإنسان الذي أصبحته».

ونص العقد على أن تؤدى كل مداخيل الكتاب إلى مسجد السيد محمد رقم ٢، ولكن ملكوم إكس لم يكتف بذلك فأملى علي رسالة طبعتها وقعها فيما بعد، جاء فيها: «يجب أن تدفع كل المداخيل التي تعود لي من هذا الكتاب إلى مسجد السيد محمد رقم ٢ الواقع في العنوان التالي: السيد رايموند شريف ٤٨٤٧ شارع وودلو، شيكاغو ١٥، إلينوي»، ثم أملى علي رسالة أخرى كانت بمثابة اتفاقية بيني وبينه، جاء فيها: «يمنع على الكاتب أن يذكر في هذا الكتاب شيئاً لم أقله أو أن يسقط شيئاً أردته

أن يكون فيه» وسألته أنا بالمقابل أن يوقع لي على تعهد بأن يعطي حصة عمله معي الأولوية دائماً مهما تكن مشاغله إلى أن ننجز ال۰۰۰ ۱۰۰ كلمة التي سيتشكل منها الكتاب الذي سيحكي تفاصيل حياته. وبعد أشهر عدّة عندما بلغ بنا الجهد مداه اتفقنا على أن أكتب تعليقاً يكون معفى من مراقبته.

وبدأ ملكوم إكس من فوره يقضي معي ساعتين أو ثلاث بعدما يركن سيارته الأولدز موبيل خارج الشقة الصغيرة التي كانت له وقتها في غرينيتش فلاج. وكان يصل على الدوام في حوالي التاسعة أو العاشرة مساء وفي يده حقيبته الجلدية الداكنة والمسطحة التي كانت تضيف إلى هندامه مسحة تجعله يبدو كمحامٍ مشغول للغاية. وكان يصل في إعياء شديد أحياناً بعد يومه الشاق والطويل.

وكانت البداية محبطة، ولعلنا كنا كما قال، متهيبين من المهمة. كان يجلس ويحدق في وكأنه ليس الرجل الشرس الذي يحتد على السود إذا أغضبوه احتداده على عامة البيض والذي سمعته في التلفزيون والندوات الصحافية وتجمعات أمة الإسلام يتحامل بشدة على كتاب زنوج ويرميهم بـ«العم طومية» وبـ«زنوج الحقل» وبـ«السود في ملابس البيض» فكنت أبقى أنظر إليه وأقول: «في عام سأسبر غور أسراره رغم حرصه عليها وأكشف تجربته في عالم الإجرام ومواقع المسؤولية داخل أمة الإسلام»، ولكن لم تنفعني معه لا تجربتي العسكرية ولا خبرتي المسيحية، وكان يسخر من الزنوج المنتمين إلى الجهتين معاً. وعلى الرغم من أنه كان قد بدأ يحثني بطريقة غير مباشرة على الكتابة عن المسلمين في المجلات، إلا أنه قال لي مراراً وبطرق شتى: «إنكم معشر السود المهنيين ستنتهون لا محالة إلى الإقتناع بأن عليكم أن تتحدوا تحت لواء إلايجا محمد المحترم إن أردتم أن تنقذوا أنفسكم». وكان مقتنعاً بأن مصلحة البوليس الفدرالي قد زرعت مكروفوناتها في شقتي، ولعله كان يشك في أنها قد تكون فعلت ذلك بتعاون معي. وكان في الأسابيع الأولى يقول كلما دخل الحجرة التي نشتغل فيها: «دعنا نجرب الميكروفونات. واحد، اثنان، ثلاثة...».

وجاءني ذات ليلة قبل موعده، فالتقى في المدخل بصديق أبيض كان يزورني فتصرف طول المساء تصرف من اقتنع بأنه عثر على الحجة التي تؤكد كل شكوكه. وذات مرة أخرى جلس يتكلم كلاماً فخماً على أمجاد المنظمة الإسلامية ويلوح بجوازه في الهواء، ولاحظ أنني أحاول قراءة رقمه فرماني به فجأة واحتقنت رقبته وقال: «خذ

اقرأ على مهلك ولكن أتظن أن فيه شيئاً لا يعرفه الشيطان الأبيض؟ إنه هو الذي سلمه لي».

وبقيت مدة شهر تقريباً أعتقد أننا لن نصل إلى كتابة أي كتاب. كان ما يزال يخاطبني بـ«السيد» ولم أكن قد دونت أي شيء في كراستي خارج فلسفة أمة الإسلام والثناء على إلايجا محمد وإبراز شرور الشيطان الأبيض، وكنت أذكره بأن موضوع الكتاب هو حياته فكان يغضب. وبدأت أفكر في أن أقول للناشر إنني عجزت عن الوصول إلى صلب الموضوع عندما لاحت لي بارقة أمل. لاحظت أنه وهو يتكلم معي يخط أحياناً بقلم جاف أحمر على أية ورقة تكون قريبة منه وأحياناً على هامش الجريدة التي يكون قد أتى بها، وأحياناً على بطاقات صغيرة يضعها في مذكرة مواعيده ذات الغلاف الخلفي الأحمر فبدأت أضع أمامه كلما جئته بمزيد من القهوة منديلين أبيضين من الورق. ونجحت خطتي وبدأ يكتب على المنديلين اللذين كنت أهرع إليهما بمجرد ما يخرج، ووجدت عليهما كتابات من هذا النوع: «هنا يرقد رجل أصفر قتله رجل أسود في حرب رجل أبيض كان قد قتل كل الرجال الحمر». كان يرمز للرجال وألوانهم بالحروف الأولى، ولم يكن من الصعب علي الإهتداء إلى ذلك نظراً لمعرفتي به. «لا شيء يحدث من دون سبب. الرجل الأبيض لا يستطيع أن يواجه ظروف السود. الرجل الأبيض مهووس بإخفاء ذنبه»... «لو كانت المسيحية قد وجدت في ألمانيا لكان ستة ملايين من اليهود ما يزالون على قيد الحياة»... «ما أسرع ما ينتصب الرجل الأبيض ليقول للسود أنظروا ما فعلته لكم! كلا! بل أنظر أنت ما فعلته بنا!»... «لقد أطفأ الرجل الأبيض نور عيوننا وجاء الآن يتهمنا بعدم القدرة على البصر»... «الرجال الذين غيروا مجرى التاريخ استطاعوا أن يغيروا نظرة الناس إلى نفسها، هتلر والمسيح وستالين وبوذا... وإلايجا محمد المحترم...».

وأوحت لي هذه الكتابات بشيء جربته ونجح. كان قد كتب على إحدى الورقتين: «المرأة التي تبكي على الدوام تفعل ذلك لأنها تعرف أنها لن تعاقب عليه» فأثرت معه موضوع المرأة فجأة وتدفق نقده وعدم ثقته في النساء وهو يحتسي القهوة ويخط. قال: «لا يمكن للإنسان أن يثق في المرأة أبداً. لقد قلت للمرأة الوحيدة التي أثق فيها بنسبة ٧٥٪ ما سأقوله لك، إنني رأيت عدداً كبيراً من الرجال تدمرهم زوجاتهم أو عشيقاتهم. إنني لا أثق في أي كان ولا حتى في نفسي بعدما رأيت عدداً كبيراً من الرجال يدمرون أنفسهم، رجالاً أقدرهم مثل إلايجا محمد المحترم». ونظر إلي نظرة متفحصة وقال: «أما أنت فأثق فيك بنسبة ٢٥٪» ثم قال مزهواً بعدما حاولت أن أبقيه

في الموضوع: «هل تعرف لماذا أصبح أرنولد بينيديكت خائناً؟ المرأة! ومهما كانت المرأة فإن مآلها إلى الضعف دائماً، والدليل على ذلك أن هناك شيئاً تستطيع أن تفعل معها. أنا أعرف ما أقوله. لقد جربته. خذ أكثرهن جدية أو دناءة، امرأة من ذلك النوع الذي لا يبتسم وقل لها وأنت تنظر في عينيها: «أعتقد أنك جميلة» وسترى. قد تسبك في اليوم الأول والثاني ولكن واصل لعبتك وستجدها في يوم من الأيام تبتسم لك بمجرد ما تراك».

وخرج فهرعت إلى المنديلين اللذين يدلان على أنه يستطيع أن يتكلم في شيء ويفكر في شيء آخر وقرأت: «الزنوج مستقيمون أكثر من اللازم. الرجل الأبيض يقول: أريد هذه القطعة الأرضية. كيف يمكنني أن أخرج منها أولئك الألفين من السود؟»... «زوجتي تتفهم وإلا فهي تتظاهر بذلك»... «لن يحصل السود على الدعم الخارجي المفتوح الذي يحتاجون إليه إلا إذا كونوا جبهة موحدة»... «أجلس وأتكلم مع رجال أذكياء أكن لهم كامل الإحترام، رجال تشوقهم مثلي المعارك الفكرية»... «لقد قابلوا زعماء سود سيكون الكشف عن أسمائهم مذهلاً» (قصد بالفاعل إلايجا محمد).

وذات ليلة جاء مرهقاً فمضى يذرع الغرفة مدة ساعتين وينتقد الزعماء الزنوج الذين كانوا يتهجمون عليه وعلى إلايجا محمد ثم توقف ليلتقط أنفاسه فقلت له دون أن أدري ما الذي دفعني لذلك: «ترى هل يمكنك أن تحدثني عن أمك؟» فتوقف عن المشي بغتة ونظر إلي نظرة أدركت منها أن سؤالي قد نفذ إلى داخل نفسه وأعتقد الآن أنني ضبطته في حالة ضعف جسدي شديد جعل قدرته على الدفاع ضعيفة. وبدأ يتكلم ببطء وهو يدور حول نفسه وفي دائرة صغيرة ويقول: «كانت دائماً بجانب الموقد تحاول أن تمدد ما لدينا من طعام. كنا نجوع حتى نشعر بالدوار. أذكر لون الفساتين التي كانت تلبسها، رمادي باهت...» وبقي يتكلم تلك الليلة حتى الفجر، حتى بدأت قدماه الكبيرتان تتعثران. ومن سيل هذا التذكر جاءت أخيراً مادة الفصلين الأولين من هذا الكتاب: «الكابوس» و«طالع السعد». بعد ذلك بدأ يتكلم بسهولة على أشد التفاصيل حميمية في السنتين التاليتين من حياته وكأن كلامه عن أمه قد أطلق لسانه.

كان مزاجه ينتقل من القتامة إلى العبوس وهو يستحضر طفولته، وكان يركز على حقيقة تبينت له منذ ذلك الحين وهي، حسب قوله، أن «محور الباب الذي يئز هو الذي يدهن» وعندما وصل إلى رحيله إلى بوسطن ليعيش مع أخته إيلا وبدأ يحكي عن

مظهره السوقي في شوارع الحي الزنجي بدأ يضحك ويقول متعجباً: «إنني أحكي لك أشياء لم أفكر فيها منذ ذلك العهد أبداً». وعندما وصل إلى أيامه الأولى في هارليم ظهر عليه الإنفعال. وذات ليلة هب من مقعده وبدأ يدندن ويفرقع أصابعه قائلاً: «ري ـ بوپ ـ دي ـ بوپ ـ بلاپ ـ بلام» ثم تناول غليوناً وأمسكه في وضع عمودي وبدأ يراقصه ببهجة الليندي هوبينغ وكل ما فيه يطير: ذيل سترته وساقاه الطويلتان وقدماه الكبيرتان، كما كان يفعل في تلك الأيام الخوالي وفجأة تراجع وعاد إلى مقعده وبقي طول الليلة معكر المزاج. وفي الفصل المتعلق بهارليم طغت عليه القتامة وقال: «إن ما أراه خطأ في حياتي تلك هو أنهم أمسكوني وأنا متلبس بالخطأ. لقد كنت أعيش في الغاب، بعقلية الغاب ففعلت كل ما فعلته مدفوعاً بغريزة الصراع من أجل البقاء» وأكد لي أنه لا يشعر بالندم على ما ارتكبه من جرائم لأنها كانت نتيجة حتمية لما يقع للألوف المؤلفة من السود في دنيا الرجل الأبيض المسيحية».

ووصل في سرده إلى السجن فتوقفت بهجته وقال: «دعني أقل لك كيف كنت أحمل أولئك الشياطين البيض، الحراس منهم والسجناء على فعل كل ما كنت أريده منهم. كنت أسر لهم أنني، إن لم يفعلوا ما أريده، سأشيع أنهم زنوج بيض». وهذا يعطيك نظرة على رأي الشيطان الأبيض في السود. الموت أحب إليه من أن يعتقد الناس أنه زنجي!». وتكلم على الكتب التي قرأها في السجن وقال: «لم أكن أعرف ما كنت أفعله. كل ما هناك أنني أحببت الكتب بالسليقة ووجدت فيها مقويات فكرية». وقال مرة: «في هذا الإيقاع المجنون لعالم اليوم الذي لم يعد فيه مجال للتأمل أو التفكير ولم يعد الإنسان يجد فيه وقتاً يمكنه أن يستعمله استعمالاً جيداً، أرى أن السجن يأتي بعد الجامعة مباشرة كأنسب مكان لمن يريد أن يفكر. إن السجين إذا كان لديه الحافز يستطيع أن يغير مجرى حياته». وقال: «عندما يدخل الإنسان إلى السجن تتغير نظرته إلى نفسه وإلى الناس. إن السوقيين الذين بقيت سفينتهم تنساب بهم خارج أسوار السجون على مياه هادئة، يحتقرون الخارجين من السجن، ولكن الخارج من السجن يبقى مرفوع الرأس عندما تغرق بهؤلاء سفينتهم». كان يكتب تلك الليلة وهو يتكلم فأرخت ما دونته في كراستي وأرخت المنديلين وها هو ما كتبه عليهما: «لقد اكتشف هذا الرجل الأبيض القنبلة الذرية وألقى بها على غير البيض الذين أصبح يسميهم حمرا وهو الآن يعيش في الخوف من قيام بيض آخرين يعرفهم بإلقاء قنابلهم علينا»... «تعلم الحكمة من حدقة العين التي ترى كل شيء وتعمى عن رؤية نفسها. شاعر فارسي».

كان يعود بين الفينة والأخرى ليقول: «إنني لا أريدك أن تنشر في هذا الكتاب أي شيء يوحي بأنني مهم»؛ فكنت أؤكد له أنني سأحاول ألا أفعل ذلك وأنه على كل حال سيقرأ المخطوط والطبعة ما قبل الأخيرة. وكان أحياناً يقول وهو يراني أدون كلامه: «إن ذلك الشيطان لن ينشر شيئاً من هذا. لا يهمني ما سيقوله!» وكنت أذكره بأن الناشرين قد وقعوا على عقد يلزمهم بنشر كل شيء ودفعوا لنا مقدّماً مبلغاً كبيراً. فكان يقول: «أنت تثق فيهم أما أنا فلا. لقد درستَ عنهم في المدارس ما أرادوك أن تدرسه أما أنا فقد درستهم في الشوارع والسجون، أي على الطبيعة».

كانت أحداث يومه تؤثر على مزاجه وقت استجوابي له، فكان يحكي الطرائف اللطيفة عندما يقع له في يومه حدث سعيد. وذات مرة قال لي إن زوجين من هارليم ليسا من المسلمين السود قد سموا وليدهم ملكوم، عليه، وبقي يقول متعجباً: «هل تدرك معنى ذلك؟». وكانت تلك هي الليلة التي رجع فيها إلى طفولته وتذكر كيف كان يستلقي على قفاه فوق ربوة هكتور ويفكر والليلة التي قال فيها: «لن أنسى يوم انتخبوني عريف الفصل. رشحتني بنت اسمها أودري سلو كان أبوها يملك ورشة لتصليح السيارات وزكى ترشيحها تلميذ آخر فطلب مني الأستاذ أن أخرج ريثما تنتهي الإنتخابات وعندما رجعت كنت عريف الفصل. شيء لا يصدق».

وكان كلما تطرق إلى الكتب القيمة التي قرأها يسهب في الكلام على الكتب بصفة عامة. وفي ذلك قال مرة: «إن الناس لا تعرف أن كتاباً واحداً كفيل بأن يغير مجرى حياة الإنسان». وكان يكثر من العودة إلى حديث الكتب التي درسها في السجن. وقال لي: «هل قرأت كتاب منول اللغة؟» فقلت له إنني لم أقرأه فقال: «يجب أن تقرأه. إنه كتاب في فقه اللغة، ذلك العلم الصعب، ويتناول كيفية التعرف إلى الكلمات حيثما وجدت. «قيصر» مثلاً كلمة من أصل لاتيني. تنطق في الإنجليزية «سيزر» وفي اللاتينية «كيصر» بالكاف المشددة والروسيون ينطقونها «كُزار» ويقصدون بها الشيء نفسه وفي لهجات روسية أخرى تنطق «تزار». من أبرز العلماء في هذا العلم جاكوب غريم الذي درست وأنا في السجن كتابه قانون غريم حول الحروف. ويقترب فقه اللغة من علم الإشتقاق الذي يهتم بجذور الكلمات والذي خضت فيه أيضاً».

أجد في الصفحة التالية للصفحة التي دونت فيها هذا الكلام معلومة قالها في المهتف وهي: «سأغيب عن نيويورك بضعة أيام» ربما لإلقاء محاضرات كعادته أو

للقيام بمهام إسلامية. وأذكر أن ذلك سرني لأنه أعطاني مهلة عدت فيها إلى كراستي ورتبت ما دونته في فصول. وعندما عاد قال لي: «عندي خبر سيفاجئك. إني منذ كلمتك عن أمي لم أكف عن التفكير فيها. وقد أدركت أنني كنت قد أسقطتها من بالي لألغي وجودها في ذلك المستشفى العقلي منذ ما يزيد على عشرين عاماً. الخبر أنها خرجت منه الآن بفضل أختي إيفون لا بفضلي. لقد جمعتنا أختي إيفون (ويلفريد وويسلي وفيلبرت وأنا) وأقنعتنا بضرورة إخراجها فتكفل فيلبرت بذلك». وقال: «لقد جعلني ذلك أكتشف أن فكري كان موصداً عن ذكر أمي. كنت أحسب أن مشكلتها بلا حل فأسقطتها من ذهني وصددتها لاشعورياً، وهذا هو ما يفعله الرجل الأبيض. يسقط من ذهنه الحقائق التي لا يريد أن يجابهها ثم يصدها لاشعورياً. والآن وقد فتحت ذهني من جديد أدرك مدى الإنغلاق الذي كان فيه. وهذه إحدى صفاتي التي لا أحبها. عندما أجدني أمام مشكلة يستعصي عليّ حلها أبعدها نهائياً وأزعم أنها غير موجودة، ولكنها مع ذلك موجودة. وجاء دوري لأتأثر تأثراً كبيراً ثم غاب بعد ذلك لبضعة أيام مرة أخرى، وعندما عاد قال لي: «لقد تعشينا في بيت أخي فيلبرت مع أمنا لأول مرة منذ كل هذه السنين! إنها الآن في السادسة والستين. ذاكرتها أحسن من ذاكرتي وتبدو في تمام الصحة وعز الشباب. ما يزال لها من الأسنان ما ليس لمن كانوا سبباً في الزج بها في ذلك المكان».

كان عندما يحدث في يومه ما يغضبه يأتي بوجه محتقن ويبقى طيلة المساء يسلق البيض بلسان حاد. وعندما ضرب البوليس مسلمين بالرصاص في لوس أنجلس وقتل واحداً منهم، عاد ملكوم إكس من هناك وبقي أسبوعاً كاملاً لا يتكلم. وكان قد صرح في لوس أنجلس وهو على تلك الحال بكلام استنكره البيض والسود على السواء. قال: «لقد وصلتني بعض الأخبار السارة!» وقصد بذلك حادثة سقوط طائرة في مطار أورلي قتل فيها ثلاثون أمريكياً أكثرهم من أطلانطا، جورجيا. ولم يعتذر عن ذلك حسب علمي ولكنه قال لي فيما بعد: «ليتني ما قلت ذلك أبداً».

كان مجرد ذكر اسم القاضي الفدرالي ثورغود مارشال يجعله يستشيط غضباً لأنه يذكره بما قاله عندما كان محامي الجمعية الوطنية لتقدم الملونين وورد فيه: «إن المسلمين ثلة من السفاحين تأتيها الأوامر من السجون وتمولها، وأنا متيقن من ذلك جماعة عربية ما».

ولم أسمع ملكوم إكس يسب إلا عندما وصله قول مارتن لوثر كينغ: «إن كلام

ملكوم إكس يجلب البؤس على الزنوج» فقال: «اللعنة!». انفجر وقال لي: «اللعنة! بالله كيف يفعل كلامي ذلك؟ إنهم على الدوام يتهمون الزنجي ويتركون الرجل الأبيض يفعل ما يشاء». وكان لا يصل إلى ذلك الحد من الغضب إلا عندما يسمع من يتهمه بـ«المتطرف!» أو «الديماغوجي!» فيقول: «نعم، أنا متطرف. وهل يمكنني أن أكون غير ذلك والجنس الأسود هنا في أمريكا الشمالية يعيش في أسوأ حال. هل يوجد رجل أسود غير متطرف؟ إن وجد فهو ولا شك لا يملك قواه العقلية».

وقال ذات مرة: «إن أرسطو يصدم وشالز داروين يُغضب وألدوس هاكسلي يُشين!» وأردف ذلك بقوله: «إياك أن تطبع ذلك. سيعتقد الناس أنني أربط نفسي بهؤلاء». وحدث في يومه مرة شيء استفزه فقال: «هؤلاء العم طوميون يذكرونني بما تعرض له المسيح من نقد في بلاده!» ثم وقف من فوره وأخذ كراستي في صمت ومزق الصفحة التي كنت أكتب عليها وعصرها ووضعها في جيبه وبقي طوال الحصة نهباً لما استولى عليه من شعور بالقهر.

وذات مرة كنا نتكلم فأخرج قصاصة صحيفة تقول إن طفلاً زنجياً قد عضه فأر كبير وقال: «اقرأ هذا! فكر فيه للحظة! تصور أنه ابنك! أين كان صاحب الملك، صاحب الخرائب؟ في أحد شواطىء ميامي لا شك!» وبقي فائراً طوال الحصة. ولم أرافقه عندما ذهب في اليوم التالي ليخطب في تجمع أسود بهارليم، ذلك التجمع الذي شهد حادثة نقلتها هيلين دادر في النيويورك بوست كالتالي:

(كان ملكوم يخطب في هارليم عندما نظر إلى الصحافي الأبيض الوحيد الذي سمح له بالحضور وقال: «هناك صحافي لم يكتب منذ نصف ساعة حرفاً واحداً مما قلته، ولكنه سيكتب بلا هوادة بمجرد ما أتكلم على اليهود ليثبت أنني معاد للسامية». وارتفع صوت من خلف الصحافي قائلاً: «اقتلوا الكلب. اقتلوهم جميعاً». وبدأ الصحافي الشاب من حرجه يبتسم ابتسامة عصبية فقال ملكوم ساخراً: «انظروا إلى ضحكته. إنه لا يضحك. إنه يضحك بأسنانه». وتوتر الجو توتراً شديداً ثم واصل ملكوم: «إن الرجل الأبيض لا يعرف كيف يضحك. إنه فقط يبدي أسنانه، أما نحن فإننا نعرف كيف نضحك. نحن تنبع الضحكة من أعمق أعماقنا» فضحك الجمهور من أعمق أعماقه. وبذلك انتقل به ملكوم في لمحة من الإنفراج بعدما كان قد شحنه بالتوتر مؤكداً ما له من قدرة خارقة على التشخيص ومقدماً في الوقت عينه مشهداً يجمع بين الخسة والبراعة).

بعد ذلك سمعت أو قرأت في مكان ما أنه طلب ذلك الصحافي هاتفياً وقدم له اعتذاره. وكانت هذه الحادثة نموذجاً آخر من النماذج التي يعزز بها مراقبو الظاهرة الملكومية قولهم: إنه الزنجي الوحيد في أمريكا الذي يستطيع أن يبدأ التمرد أو يوقفه. وذكرت له ذلك لأستدرجه إلى أن يعلق عليه، فجاء تعليقه من ذلك النوع المحبب إليه إذ قال: «لا أعرف إن كنت أستطيع أن أبدأ التمرد ولكنني لا أعرف إن كنت سأوقفه إذا بدأ».

وفي شهر توطدت معرفتي بزوجته من خلال المهتف. كنت أناديها كما سمعت المسلمين ينادونها «الأخت بيتي» وكنت معجباً بقدرتها على الجمع بين الإشراف على بيتها وتربية بناتها الصغيرات الثلاث والرد على المكالمات التي تأتي لزوجها والتي كانت في حد ذاتها تحتاج لعاملة مهتف متفرغة. وكان ملكوم إكس يطلبها من شقتي ويمضي ما لا يقل عن خمس دقائق يكتب على لفة من البطاقات، الرسائل التي تكون قد توصلت بها طوال اليوم.

وكانت الأخت بيتي تفضي لي تلقائياً وبمودة عن قلقها فتقول: «إنه لا ينام بالمرة!» وكان عمله اليومي يستغرق ثماني عشرة ساعة. كان أحياناً يترك شقتي في الرابعة صباحاً متوجهاً إلى بيته في إست إلمهورست بلونغ آيلاند على بعد أربعين دقيقة بالسيارة ويقول لي: «أطلبني في التاسعة صباحاً» وذلك عندما كان يريدني أن أصحبه إلى جهة ما ليحدد لي مكان اللقاء بعدما يكون قد راجع تعهداته. وكانت هناك ليال ليلاء لم أكن أنا نفسي أصيب فيها من النوم ما يكفي. وكان يستصحب في أسفاره أحد رفاقه المسلمين مثل جايمس إكس السابع والستين الذي يشير رقمه إلى أنه المسلم السابع والستون، الملتحق بمسجد نيويورك، الذي يحمل اسم جايمس، أو كان يستصحب شالز إكس السابع والثلاثين أو كان يستصحبني ولكنني لم أرافقه أبداً عندما كان يرافقه أحدهما. وقد ذهبت معه إلى مناسبات متنوعة وأماكن شتى، إلى جامعات وبرامج إذاعية وتلفزيونية وتجمعات. وعندما كنا نذهب براً كانت الناس في الطريق السيار تلوح له والوجوه تستنير لرؤيته وكأنه نجم لامع. وكانت مضيفات الطائرات يعرفنه لكثرة تنقله جواً فكن يبتسمن له في رقة، والحق أنه كان من جهته على خلق. وكان الخبر يسري في الطائرة فيكثر الركاب الذهاب إلى دورة المياه لمجرد المرور بمقعده، وعندما كنا نصل إلى وجهتنا المقصودة كنا نسمع عبارات أصبحنا متعودين عليها: «ها هو ملكوم إكس!». «أين؟». «ذلك الرجل الطويل».

كان المارة من كلا الجنسين ينظرون إليه وبعضهم، السود منهم بالخصوص

يكلمونه ويهزون له رؤوسهم بالتحية. وكانت نسبة كبيرة من البيض تشعر بالحرج في وجوده لا سيما إذا جمعته بهم أمكنة ضيقة مثل المصاعد. وقال لي مرة: «إنني الأسود الوحيد الذي رأوه يقول لهم الحقيقة عن قرب. إن الشعور بالذنب هو الذي يزعجهم وليس أنا. الحقيقة تقطع نفس الرجل الأبيض وتستنزف قواه. ألا ترى كيف يحمر وجهه عندما يسمعها؟»

كان هناك شيء يتبلور فيه كلما جمعه مكان مع الناس. كان يهيمن على المكان مهما كان الحاضرون هيمنته على التجمعات الشعبية المنظمة في الهواء الطلق. أذكر أنه جلس مرة في منصة بهارليم بين عضو الكونغريس آدم كلايتون پاول ورئيس مقاطعة منهاتن هولن جاك وانتهى التجمع فهرعت الناس إليه هو. أذكر أيضاً يوم سافرنا بالقطار من نيويورك إلى فلادلفيا حيث كان عليه أن يشارك في برنامج إيد هارفي الإذاعي الذي كان سيبث مباشرة من قصر المؤتمرات في تلك المدينة. وأذكر أن صاحب البرنامج قال وهو يقدمه: «يقال إنك صاحب القولة: كل الزنوج غاضبون وأنا أغضبهم فهل هذا صحيح؟» فأجابه باقتضاب: «أجل، إنه صحيح». ونظر إليه من كانوا قد تجمهروا للتفرج مأخوذين.

وسافرت معه إلى فلادلفيا في الدرجة الأولى بالقطار بعدما كان قال لي: «لا أستطيع أن أسافر في الدرجة الإقتصادية لأنني قد أتعرض فيها لبعض المشاكل، وعبرنا المطبخ في طريقنا إلى عربتنا فأشار إليه برأسه وقال: «لقد كنت أعمل هنا» ثم قال لي ونحن ما نزال نعبر إلى عربتنا: إن مصلحة البوليس الفدرالي قد حاولت أن ترشوه للحصول منه على معلومات عن إلايجا محمد وأن هناك كتاباً قد ظهر يجب أن أقرأه: عنوانه «أزمة بالأبيض والأسود» لصاحبه شالز سلبرمان وقال: «إنه واحد من الكتاب البيض القلائل الذين يمتلكون الشجاعة الكافية لقول ذلك النوع من الحقائق، وطلب مني أن أتصل بالصحافية هيلين دادر في النيويورك بوست وأبلغها إعجابه الكبير بما كتبته مؤخراً في عمودها لأنه لم يكن يريد أن يطلبها بنفسه.

وانتهى البرنامج فرجعنا إلى نيويورك بالقطار مرة أخرى. كانت الدرجة الأولى مكتظة برجال أعمال يختفون وراء الجرائد في طريق العودة إلى بيوتهم بعد أن أنهوا المهام التي سافروا من أجلها. وتكهربت العربة بوجود ملكوم إكس فيها وأكثر النادل الزنجي ذو السترة البيضاء من الذهاب والإياب فهمس لي ملكوم إكس عندما وجده يمر من جديد قائلاً: «لقد كان يعمل معي في هذا القطار نفسه وقد عرفني ولكنه حائر لا

يدري هل يكلمني أم لا». ومر بنا النادل فانحنى ملكوم إكس وابتسم له فقال بغتة: «إني إعرفك بكل تأكيد. لقد كنت تغسل الصحون هنا في هذا القطار نفسه! لقد أخبرت الرفاق بوجودك على متن القطار. إننا جميعاً نتتبع أخبارك». وتكاثف التوتر في العربة حتى أوشك أن يقطع بالسكين وذهب النادل ثم رجع وقال بالصوت المرتفع نفسه: «إن أحد المسافرين يود أن يتعرف عليك». ووقف شاب أبيض أنيق وجاء صوبه بيد ممدودة فوقف ملكوم إكس وشد عليها بقوة ونزلت الجرائد وبدت العيون من خلفها. وقال الشاب بصوت جهوري واضح إنه كان في الشرق وأنه الآن طالب في جامعة كولومبيا وزاد قائلاً: «إنني لا أتفق معك في كل ما تقوله ولكن ذلك لا يمنعني من الإعجاب بأسلوبك» فرد عليه ملكوم بكل مودة قائلاً: «إنك لو فتشت أمريكا كلها لما وجدت شخصين اثنين يتفقان على كل شيء»، ثم قال لرجل أعمال أبيض آخر أكبر سناً جاء ليسلم عليه: «أعرف شعورك أيها السيد وأعرف أنه من الصعب عليك أن تعارض ما أقوله وأنت تعرف في قرارة نفسك أنه الحق». وواصلنا سفرنا وقد أصبحت الأنظار توجه إلينا علانية.

وفي واشنطن أدان ملكوم إحجام الحكومة عن اتخاذ موقف إيجابي من السود، وأعتقد أنها كانت من جهتها تأخذه مأخذ الجد. ذلك أنني شُغلت بعد ذلك بأيام قليلة باستجواب الملحق الصحافي في البيت الأبيض بيير سالنينغر، وأنه عبس لاشعورياً عندما قلت له إنني أكتب قصة حياة ملكوم إكس. وانشغلت مرة أخرى باستجواب رئيس الحزب النازي في الولايات المتحدة جورج لينكلن روكويل فقال لي إنه بكل صراحة معجب بشجاعة ملكوم إكس وأنه يعتقد أنه يجب أن يقوم معه بجولة خطابية عبر الولايات المتحدة تكون مبادرة لحل المشكل العنصري على أساس التراضي بين الجنسين على الفصل القائم على عودة السود إلى إفريقيا. وقلت ذلك لملكوم إكس فنفخ بمنخره وقال: «إنه يعتقد أنني بليد! ماذا سيقول الناس عندما يرونني أخطب بجانب شيطان؟». ومرة أخرى ذهبت إلى أطلانطا لأستجوب الدكتور مارتن لوثر كينغ الذي أدهشه ما حكيته له من جوانب شخصية ملكوم إكس غير المعروفة، وتكلم عليه في نطاق المقال بتحفظ، وقال إنه يود أن يلتقي به ويكلمه. وعندما سمع ملكوم إكس ذلك قال بجفاف: «أتظن أن علي أن أبعث له برقية برقم مهتفي؟» ولكنني استنتجت مما قاله لي عنه في مناسبات أخرى أنه معجب به في سره.

ومع الأيام أصبحت علاقتي به حميمية على الرغم من أنها كانت غير معبر عنها.

كانت بالنسبة لي أكثر من قابلتهم مودة وأفترض أنني كنت بالنسبة له شخصاً يعرف أنه يستطيع أن يفضي له بكل همومه وهو مطمئن إليها. وكان، شأن من يعيشون في التوتر، يرتاح إلى رفقة شخص من خارج دائرته المعتادة. وعندما بدأت أسافر لإجراء استجواباتي، عرض علي أن أخبره بمواعيد رجوعي حتى يستقبلني في المطار. وبدأ بالفعل يفعل ذلك كلما تسنى له إيجاد مكان له في برنامجه اليومي، وبدأت أصل فأراه قادماً بهامته العالية وخطاه الواسعة ووجهه البشوش فنمضي إلى نيويورك وهو يحدثني عما جد أثناء غيابي. وأذكر حادثة وقعت في المطار أكدت لي أنه ما يزال متأثراً بنظرته عن العنصرية. شاهدنا ونحن ننتظر وصول حقيبتي اجتماع شمل إحدى الأسر التي كان في طرفها الوافد أطفال جميلون يضجون بلغة أجنبية فقال: «غداً مساء على أبعد تقدير يكونون قد تعلموا أول كلمة إنجليزية: زنجي!».

وعندما كان يسافر إلى جهات نائية مثل سان فرانسيسكو أو لوس أنجلس، لم أكن أرافقه ولكنه كان يطلبني هاتفياً في آخر الليل عادة ليسألني عن سير الكتاب ويحدد لي أحياناً موعد الحصة التالية.

وهناك مكالمة منه لن أنساها ما حييت، جاءت في حوالي الرابعة صباحاً فأيقظتني من النوم، ولعله كان قد استيقظ لتوه في لوس أنجلس. وقال: «أليكس هاليي؟» فقلت وأنا لم أستيقظ بعد تماماً: نعم، من؟ أو ملكوم! أهلاً!!» فقال؛ «إنني أثق فيك بنسبة ٧٥٪ وأقفل السماعة. ورجعت إلى الفراش ففكرت فيه برهة ثم رجعت إلى النوم تحت أثر تلك المكالمة اللطيفة الذي أستشعره الآن وأنا أستحضرها ولم يشر أي منا إلى ذلك أبداً.

لم يكن يحترم من الأفراد البيض إلا من خلا من كل ما كان يعيبه على البيض عادة وتعامل معه على أنه إنسان. وكان مقتنعاً بأنه يستطيع أن يعرف الرجل من كلامه. قال لي في هذا الشأن: «إن الإستماع فن من الفنون. عندما يتكلم الرجل أنتبه إلى صوته لأعرف هل هو صادق فيما يقوله».

وأظن أن الصحافي الذي تأثر به أكثر من غيره هو هاندلر من النيويورك تايمز، ولذلك سررت عندما علمت أنه قَبِلَ أن يكتب مقدمة هذا الكتاب لأنني أعرف أن ذلك كان سيسر ملكوم إكس. وأول ما سمعت ملكوم إكس يتكلم على هاندلر عندما تعرف إليه قال: «لقد قابلت شيط...» وتوقف محرجاً ثم تدارك وأكمل: «... صحافياً

يدعى هاندلر من التايمز» ثم لم يزدد مع الأيام إلا احتراماً له وتأثراً به فقال لي وهو يتكلم عليه بعد أشهر: «إنه الرجل الأبيض غير العنصري الوحيد الذي قابلته في حياتي. لقد جربته، طرحت عليه أسئلة وسمعته يتكلم».

ورأيت ملكوم إكس يناقش طلاباً بيضاً في أعقاب محاضراته في الجامعات، فأكدت له بهجته العفوية وهو يفعل ذلك أنه لا يمكن أن يكون يكره البيض في قرارة نفسه. قال لي مرة: «إن الشباب الأبيض والأسود هو كل ما تبقى لأمريكا من أمل أما نحن فقد كانت حياتنا سراباً».

وتحضرني الآن أسماء بعض من كان يقدرهم من الزنوج وآخرين كان يبغضهم، ولكنني سأكتفي بذكر العينة الأولى. كان يقدر مثلاً المصور العظيم غيردن باركس الذي اقترن اسمه بمجلة لايف والذي تمكن بفضل ملكوم إكس من تصوير تدريبات شباب ثمرة الإسلام السرية، الأمر الذي جعله حسب علمي الرجل غير المسلم الوحيد الذي تمكن من مشاهدتها إذا استثينا بالطبع أعضاء البوليس وممثلي وكالات المخابرات الذين تسربوا إلى أمة الإسلام للتجسس عليها. وقال لي باركس: «إن نجاحه بين البيض لم يخف عنه الواقع الأسود».

وكان كذلك يقدر الممثل أوسي دايفيس. وذات مرة وأنا أستجوبه سألني دون أن يكون في سياق الحديث ما يبرر ذلك: «هل تعرف أوسي دايفيس؟» فقلت له إنني لا أعرفه فقال: «يجب أن أعرفك إليه. إنه من خيرة السود». وفي علاقته بموظفي الجريدة الهارليمية أمستردام نيوز كان يقدر رئيس تحريرها جايمس هايكسي والصحافي جايمس بوكر. وقال: «إن هايكس رجل متفتح ولا يرتعد أبداً أمام الرجل الأبيض». وكان يعتقد أن بوكر صحافي متميز كما أنه بدأ يقدر زوجته بعدما تعرف إليها.

وإليه يرجع الفضل في تعريفي برجلين أصبحا من أعز أصدقائي وهما الدكتور إريك لينكولن الذي كان وقتها يؤلف كتاب «المسلمون السود في أمريكا» ولويس لوماكس الذي كان يكتب عن المسلمين للصحف. وكان شديد الإعجاب بالعناية التي كان الدكتور لينكولن يوليها لبحثه، بينما كان يحب في لوماكس قدرته على العثور على الأخبار الساخنة. قال لي مرة: «إذا رأيته يركض سأخلع قبعتي وأركض خلفه لأنني أعرف أنه في طريقه إلى حدث مهم». وكان معجباً أيضاً بالكاتب جايمس بالدوين الذي قال عنه: «إنه من الذكاء بحيث يخجل الرجل الأبيض بقلمه (. . .) لقد أحرج

الرجل الأبيض أكثر من أي رجل باستثناء إلايجا المحترم». ولكنه لم يكن يقدر رجال الدين المسيحيين السود، وقد يكون ذلك بسبب ما كانوا يقولونه عن المسلمين السود، فلم يذكر منهم بخير إلا القسيس أوجين كالاندر من كنيسة الرب المشيخية الكبرى في هارليم الذي قال لي عنه: «إنه واعظ ولكنه مناضل أيضاً». وفيما بعد علمت أن القس كالاندر عندما قابله أنبه على جرأته المعهودة بهجوماته على رجال الدين المسيحيين السود. وكان أيضاً معجباً بالقسيس آدم كلايتون پاول لما يقوم به كعضو في الكونغريس وقال عنه: «لو كان السود يقعون على عشرة رجال مثله في واشنطن لتقاعدت وأنا مرتاح البال». وكان معجباً بپيرسي ساتن، محامي الجمعية الوطنية لتقدم الملونين الذي أصبح عضو الهيئة التشريعية لولاية نيويورك والذي أصبح فيما بعد محاميه الخاص. ومن بين الأساتذة الذين قابلهم خلال جولاته الجامعية لم أسمعه يثني إلا على الدكتور كينيت كلارك الذي قال لي عنه: «إنه رجل خارق الذكاء» قالها بعبارة سوقية رجعت به إلى الماضي.

وكان يتحفظ عادة في إبداء رأيه في طبقة الإنتليجانسيا المهنية الزنجية، لا سيما وأنها كانت وراء التهجم على المسلمين السود، ما جعله ينعت أعضاءها في خطبه بـ«العم طوميين» و«ما يسمون بالمثقفين» و«حملة الشهادات الجامعية».

ولم أكن أراه في تمام سعادته وراحته إلا وهو مع عامة السود عندما كنت أجده بالصدفة خارجاً إلى ما كان يحب أن يسميه «جولتي اليومية الصغيرة» فأخرج معه. وكانت تأخذه إلى شوارع هارليم إلى حيث الزنوج الذين كان يقول عنهم إنهم ما يشير إليه «الزعماء السود» كإحصاء. وكان في جولاته يتحاشى الشارع الرئيسي رقم ١٢٥ ويفضل الشوارع الفرعية وخصوصاً ما كان منه غاصاً بمن كان يسميهم بـ«السود الذين يعيشون أسفل سافلين، في الدرك الأدنى الذي تربيت فيه» ذلك الوسط العاج بالفقراء والمخدرين والمخمورين.

وهناك كان ينظر إليه كبطل وهو يذرع الأرصفة بخطواته الواسعة ويغمر من يصادفهم بابتسامته الصافية ويدخل معهم في أحاديث هادئة وممتعة. وكان يتوجه إلى المخمورين قائلاً: «إنِ هذا بالضبط هو ما يريده لك الرجل الأبيض يا أخي! أن تسكر حتى يجد تعليلاً لنزوله عليك بهراوته».

وأذكر أنه توقف مرة في مدخل أحد المنازل ليسلم علٰى جماعة من النساء

العجائز، وأنه فتح الحوار معهن مخاطباً إحداهن بقوله: «هل تسمحين لي يا أختي بسؤال؟ هل تعرفين رجلاً أبيض لم يفعل لك شيئاً أو يأخذ منك شيئاً؟» فقالت: «لا!» وانفجرن ضاحكات وواصل المسير وهو يتلفت ويلوح لهن وهن يقلن في تعجب: «إن الرجل لعلى حق!».

وأذكر أننا عرّجنا ذات مساء إلى شارع جانبي فوجدنا رجلاً مهلهل الثياب يقف على صندوق مستطيل ويخطب في بضعة أشخاص والعلم الأمريكي بجانبه فقال ملكوم إكس: «إنني لا أحترم ذلك العلم ولكن علي أن أنصبه في تجمعاتي إذا كنت أريد ألا يضعني الرجل الأبيض في السجن. وهذا هو ما خرجت لأناضل ضده وكذلك لأتكلم على الوصوليين الذين يغتنون من بني جلدتنا البؤساء».

ولم يكن يتكلم مع السود ذوي الشعور الملينة واللامعة دون أن يلمزهم في غير غلظة فيقول: «لقد علمك الرجل الأبيض كيف تكره نفسك يا أخي فكرهتها حتى أصبحت تضع ماء الرماد الحار في شعرك ليصبح مثل شعره». وأذكر أنني دخلت متجر بقالة لأشتري شيئاً وتركته في الجهة الأخرى من الشارع حيث كان منهمكاً في الكلام مع أحد المارة، فوجدت في مدخل المتجر جماعة من النساء، وعندما خرجت سمعت إحداهن تحكي للأخريات لزميلاتها في إنفعال عن إحدى خطب ملكوم التي شهدتها في المسجد السابع قائلة: «أو، لقد أحرق ذلك الرجل الأبيض. أحرقه حرقاً. . . قال لنا إننا من سلالة ملوك وملكات. يا رب، لم أكن أعرف ذلك!» وسألتها إحدى النساء: «وصدقته؟» فقالت: «نعم!».

ووقعنا يوماً في إحدى جولاتنا على رجل مكوم في شارع فرعي يعزف على قيثارة ويغني لنفسه. ورفع رأسه فعرف الطلعة الفارعة والخطى الواسعة فهلل في غنائه وبدأ يقفز ثم حياه تحية عسكرية وقال له: «يا مثلي الأعلى!» فسر ملكوم بذلك.

نعم كانوا يحبونه ما في ذلك شك. وسواء كان يحدث المخمورين بجانب الأعمدة الكهربائية أو يخاطب الجماهير أو يجادل البيض المطلعين ويناغشهم بقوله مثلاً: «هوايتي تحريك الزنوج» فقد كانت له في كل هذه الأحوال على مخاطبيه هيمنة وكانت له سلطة!. ولم أكن الوحيد الذي كان يتعجب من مواصلته نسب كل شيء إلى إلايجا محمد المحترم حتى بعدما أصبح محط اهتمام العالم. وكنت أسجل هذا النوع من الملاحظات لنفسي فكنت أحتفظ بكراسين لذلك الغرض. ورآني أتنقل بينهما

فسألني عن ذلك وذكرت له سبباً ما، ولكنني لما أقل له إن أحدهما لأقواله والآخر لملاحظاتي، ولو فعلت لأصبح يحترس في كلامه وتصرفاته وقال: «لا شك أنك كتبت حتى الآن ألف كلمة» فقلت: «لا شك» وقال: «إن هذا الرجل الأبيض مجنون. أتظن أنني كنت، لو كنت مكانه، سأنشر كلام رجل يمرغني في التراب؟».

وقال لي ذات مساء: «اسمع، أصدقني، أنت رجل كثير السفر فهل وصل إلى علمك شيء؟» فقلت له إنني لا أفهم قصده فغير الموضوع. ولم أر أو أسمع منه ما لم أفهمه إلا لماماً فكنت أبعده وأتجاهله. توقف مرة في الضوء الأحمر وتوقفت سيارة يقودها رجل أبيض بجانبه وعرفه فناداه وقال له: «إني أفهم أن يلجأ إليك بنو قومك ولو كنت زنجياً لتبعتك. أصمد!» فرد عليه بصدق قائلاً: «أتمنى لو كان لي فرع أبيض يضم أمثالك». وأضاء الضوء الأخضر فتحركت السيارتان وقال لي بحزم وبسرعة: «إياك أن تكتب ذلك أو حتى أن تردده لأحد. إنه كفيل بأن يصيب السيد محمد بسكتة قلبية». وكانت المرة الأولى التي سمعته يتكلم فيها على السيد محمد بلهجة خالية من الإحترام. في تلك الأيام وجدت أنه خط ما يلي: «كانت حياتي سلسلة من التحولات» ومرة أخرى، في شتنبر ١٩٦٣ بقي غاضباً من شيء، وعندما ظهرت أسبوعية أمستردام نيوز قرأت في عمود جيمي بروكر أنه سمع بوجود خلاف بين إلايجا محمد وملكوم إكس. وذكر فيما بعد أنه سافر بعد ظهور ذلك العدد وأن ملكوم إكس جاء إلى مقر الجريدة مع ثلاثة من رفاقه وقال غاضباً: «أين جيمي بوكر؟ لماذا كتب ذلك؟ ليس هناك أي خلاف بيني وبين إلايجا محمد... أني أؤمن به وعلى استعداد لفدائه بحياتي».

وكنت أقابل بين الفينة والأخرى شخصيات إسلامية ولا سيما عندما أكون معه وكنت أستشف من كلامها وحركاتها في غيابه ما يدل على عدم إعجابها بزميلها المشهور ولكنني كنت أعود فأقول إنني ولا شك قد أسأت الفهم. كنت في تلك الأيام على اتصال هاتفي دائم مع الدكتور إريك لينكولن وكنا نقول إن المشكلة في كون ملكوم إكس مهما حاول أن يضع إلايجا محمد في الواجهة، إلا أن اهتمام الإعلام ومن ثم الرأي العام لا ينصب إلا عليه هو. ولم أعرف أنه كان يعاني الأمرين من جراء تلك الأزمة لأنه لم يتكلم عليها حتى شاع خبرها.

في تلك الأيام أنهى مرة عمله معي في الثانية صباحاً فذهب بعدما سألني أن أطلبه في التاسعة صباحاً. وطلبته فبقي المهتف يرن على غير العادة، وعندما ردت

الأخت بيتي كان صوتها مختنقاً ثم أعطت السماعة لزوجها فإذا صوته أيضاً متغير. وقال: «هل سمعت الإذاعة أو قرأت الصحف؟» فقلت له إني لم أفعل فقال: «إفعل إذن» وأقفل السماعة بعدما قال إنه سيطلبني فيما بعد، وخرجت فاشتريت الجرائد وقرأت فيها بدهشة شديدة أن إلايجا محمد قد أوقفه بسب قولته إن البيض قد نالوا جزاءهم التي قالها تعليقاً على مقتل الرئيس كينيدي.

وكلمني ملكوم إكس كما وعدني بعد ساعة فحدد لي موعداً في مقر جريدة المسلمين السود بهارليم الواقع قرب شارع لينوكس حيث يوجد مسجدهم ومطعمهم. وهناك وجدته يجلس وراء مكتبه المعدني البني الفاتح وقبعته البنية بجانب مقبض الأوراق النشافة. كان يرتدي بدلة داكنة وصدرية وقميصاً أبيض وربطة عنق يمسكها كالعادة مشبكه المصنوع على شكل سمكة واثبة من نوع القرش، وقدماه الكبيرتان تحركان الكرسي الدوار جيئة وذهاباً من داخل حذاء أسود وهو يقول في المهتف: «إني أندم دائماً على عصياني للسيد محمد... نعم أيها السيد، أنا متفق مع كل ما يفعله السيد محمد المحترم. إني أؤمن بحكمته وسلطته». وكان يقفل سماعة المهتف فيعود إلى الرنين ويعود هو إلى القول: «السيد بيتر غولدمان! إني لم أسمع صوتك منذ مدة طويلة. كل ما هناك أنه كان علي أن أغلق فمي». وقال لممثل نيويورك تايمز: «نعم أيها السيد أنا الآن ممنوع من مخاطبة الجمهور وأفهم ذلك تماماً. أقول لك ما قلته لغيرك. إنني أستسلم لحكم السيد محمد كل الإستسلام لأنني أعرف أنه قائم على أساس». وقال لقناة سي بي إس: «أعتقد أن الأولى بمن كان في موقع تأديب غيره أن يقبل التأديب عندما يصدر في حقه».

وظل خلال الأسابيع التالية لا يلوم إلا نفسه. ولكن رقبته كانت تبدو لي محتقنة كلما رأيته ولم يكن قد أعرب بعد عن غضبه البديهي على الإهانة التي وجهت له على رؤوس الأشهاد. كانت حصصه معي قد قلت، وكان قد أصبح قرب المهتف باستمرار، ولكن ذلك لم يكن مهماً لأنني كنت قد جمعت كل ما أحتاجه من معلومات للشروع في الكتابة. وعندما بدأ يجد الوقت لزيارتي كان يبدو مشغول البال إلى حد بعيد، وكنت أشعر بما يعتمل في داخله من جراء الغضب وعدم الحركة رغم مداراته لذلك. وذات ليلة وجدت أنه قد خط: «أنت لا تقنع رجلاً لأنك أسكته. جون فيسكاونت مورلي». وبخط يكاد ألا يكون مقروءاً: «كنت في المنحدر فأنقذني ولكن عندما أفكر في ذلك أجد أننا أنقذنا بعضنا البعض».

وغاب أياماً عدة فجاءتني رسالة منه يقول فيها: «لقد ألغيت كل التزاماتي مع وسائل الإعلام وغيرها وهكذا ستتمكن من إنهاء الكتاب. مع السرعة التي تتغير بها الأحداث في أيامنا هذه قد يحدث في المساء ما ينسخ قول المرء في الصباح. ملكوم إكس».

وسارعت بكتابة الفصل الأول «الكابوس» حتى يقرأه عندما يأتي. وعندما أصبح جاهزاً طلبته هاتفياً فجاء على الفور، الأمر الذي أكد لي معاناته من بقائه في البيت من دون شاغل ولما كنت أعرف مزاجه شعرت بالتعاطف مع الأخت بيتي.

وانكب على الأوراق يقرأها ثم أخرج قلمه الجاف الأحمر وأعاد قراءتها وهو يصحح بين الفينة والأخرى قائلاً: «الدعاء بالرحمة في حق الله لا يصح. يجب استعمال «حمد» وشطب الكلمة الأولى وكتب الكلمة الثانية فوقها ثم وصل إلى فقرة أشرت إليه وإلى أخوته فيها بلفظ «جديان» الإنجليزي الذي يستعمل كناية عن الأطفال فشطب عليه بقلمه الأحمر وقال محتداً: «الجديان للمعز».

بعد ذلك مباشرة سافر بأسرته إلى ميامي بدعوة وجهها إليه كاسيوس كلاي بمناسبة عيد زواجه السادس، فكان ذلك السفر بالنسبة للأخت بيتي عطلة بعد سنوات ست من حياتها الصارمة كزوجة مسلم أسود وبالنسبة له رد اعتبار وملء فراغ.

وأرسل لي بمجرد وصوله برقية برقم مهتف الفندق الذي ينزل فيه فكلمته فقال: «إني فقط أريد أن أقول لك شيئاً. لقد أقلعت عن الرهان منذ زمن بعيد، ولكن إذا كنت أنت تفعل ذلك أنصحك بأن تراهن على فوز كاسيوس كلاي على ليستون» فضحكت وقلت له إنه يؤمن باستقراء الغيب فقال: «عندما تنتهي المقابلة سأذكرك».

بعد ذلك بعث لي بطاقة بريد زاهية الألوان عليها صورة قرد كبير من ذلك النوع الموضوع في غابة القردة بميامي، وكتب على ظهرها «لقد مر قرن على الحرب الأهلية وها هي القردة في أمريكا تحقق من الإعتراف والإحترام والحرية ما لم يحققه أبناء جنسنا. أخوك ملكوم إكس».

ومرة أخرى بعث لي ظرفاً بداخله قصاصة من السان تايمز تشمل عمود إرف كوبسينيت وعلى جملة منها دائرة بالأحمر قرأتها فوجدتها تقول: «إن أشخاصاً من داخل أمة الإسلام يتكهنون بانقسامها ويكون الرجل الثاني المبعد ملكوم إكس قد يشكل

من المنشقين تنظيماً معارضاً لإلايجا محمد» وكتب على الهامش «تصورا!!!».

وليلة الحدث العجيب عندما انتصر كلاي على ليستون كلمني ملكوم إكس من مكان صاخب وقال إن الإحتفال بالنصر يجري في جناحه بالفندق. ووصف لي ما يجري وذكر أسماء بعض الحاضرين وقال: «إن ملك الوزن الثقيل يستريح على فراشي في الغرفة الأخرى» ثم ذكرني بتكهنه و قال: «والآن ترقب أن يصبح كلاي نجماً عالمياً وعقب: «هل تدرك ما سيكون لظهور أول بطل مسلم من أثر عالمي؟»».

وفي اليوم التالي أعلن كاسيوس كلاي للصحافة أنه «مسلم أسود» وبعدها نشرت له صور مع ملكوم إكس وهو يقدمه للدبلوماسيين الأفارقة في مبنى الأمم المتحدة بنيويورك وبعدها جال به هارليم وجهات أخرى معلناً أنه صديقه ومستشاره الديني».

كنت وقتها قد انتقلت إلى شمال ولاية نيويورك لإنهاء الكتاب وكنت أتكلم مع ملكوم إكس هاتفياً كل ثلاثة أو أربعة أيام، وكان قد قال لي كلاماً يفهم منه أنه لا يعتقد أنهم سيرجعونه إلى مركزه السابق في أمة الإسلام كما أنه كان قد بدأ ينتقد إلايجا محمد علانية. وكلفتني مجلة بلاي بوي بإجراء استجواب مع البطل كاسيوس كلاي فطلبت من ملكوم إكس أن يقدمني إليه ولكنه قال متردداً: «أظن أن من الأفضل أن تطلب ذلك من شخص آخر» فأذهلني قوله ولكنني لم ألح عليه لأعرف ما وراءه لأنني أعرف أن الإلحاح معه لا يجدي. بعد ذلك وصلتني رسالة منه يقول فيها: «عزيزي أليكس هالبي، هذه رسالة عجلى. هل يمكنك أن تكتب رسالة مناسبة تسمح بتغيير العقد بحيث ينص على عودة مداخيل الكتاب في حالة وفاتي إلى زوجتي السيدة بيتي إكس ليتل مباشرة؟. لن يهدأ لي بال حتى أرى ذلك يتم بأسرع ما يمكن». وكتب تحت التوقيع ملاحظة ورد فيها: «هل يمكن للإنسان أن يكتب سيرته الذاتية في عالم يتغير بهذه السرعة؟»».

وبعد ذلك قرأت ما كتبته الصحافة عن إشاعات حول تهديده بالموت ثم ظهرت مقالة في ألمستردام نيوز بعنوان «ملكوم إكس يتكلم عن تهديده بالموت» وأورد في ذلك قوله: «لقد كلف مساعدون سابقون لي في مسجد نيويورك أشخاصاً بقتلي بكل برودة دم، ولكن هؤلاء الأشخاص جاؤوني، بحمد الله، وكشفوا لي الأمر لأن ما رأوه من تفانٍ في خدمة السيد محمد جعلهم لا يصدقون ما قيل لهم من أكاذيب عني فأرادوا، حرصاً منهم على الوضوح، أن يعرفوا أقوالي».

وطلبت ملكوم إكس لأعبر له عن مؤازرتي فجاء صوته منهكاً إذ قال: «إن أكثر ما يعنيني الآن هو أن أؤمن ذهاب أي مدخول يعود لي من الكتاب إلى منظمتي الجديدة أو إلى زوجتي كما أوضحت ذلك في رسالتي. أعرف الآن أن علي أن أكتب وصيتي وإذا كنت لم أفكر في ذلك من قبل فلأنه لم يكن لي ما أوصي به، ومع ذلك أعتقد أن الأمور ستصبح فوضى إذا ما حدث لي مكروه». وأعربت له عن خوفي عليه فقال إن له في البيت بندقية مشحونة وأضاف: «إنني أستطيع أن أحمي نفسي». عندما تكلم على منظمته الجديدة قصد «المسجد الإسلامي المتحد» الذي كان ولا شك يضم وقتها أربعين أو خمسين مسلماً ممن انشقوا عن إلايجا محمد.

واستطعت أن أقابل كاسيوس كلاي في نيويورك لحساب بلاي بوي بواسطة أحد المقربين منه دلني عليه ملكوم إكس. وعندما حللت بنيويورك طلبت ملكوم إكس فقالت لي زوجته باقتضاب إنه غائب لبعض الوقت فكلمت سيدة سوداء كنت أعرفها قبل أن تسلم وأعرف تقديرها لملكوم إكس، فوجدت أنها اختارت أن تبقى في المنظمة الأصلية وقالت إن الشعور السائد في مسجد نيويورك السابع شبيه بجو ما بعد الطلاق حيث الرغبة في رؤية الطرف الآخر ما تزال باقية.

وأفضى بي استجوابي لكاسيوس كلاي في جناحه بفندق تيريزا إلى سؤاله عن إسلامه، ومن ثم عن مصير صداقته الوطيدة لملكوم إكس فقال بكل تؤدة: «لا يمكن للمرء أن يمسح أخطاءه في السيد محمد ويبقى من دون عقاب، ولا أريد أن أقول أكثر من ذلك في هذا الموضوع». وقال لي أحد مساعديه إنه كلما ذكر اسم ملكوم إكس أمام إلايجا في شيكاغو تسبب له تأثر كبير وسمعت أنه قال في شأنه: «أنا الذي جعلت منه رجلاً هاماً وكنت على وشك أن أجعله رجلاً عظيماً». وكان المسلمون الذين بقوا على ولائهم لإلايجا محمد يسمون من تبعوا ملكوم إكس من مسجد نيويورك بالضالين ويتكهنون بأن يخونهم. وسمعت أن إلايجا محمد قال عنه: «إن المنافق سينزل به عقاب الله. إن ملكوم إكس يهدم نفسه بنفسه» وأنه لا يريد له الموت ولكنه يريده أن يعيش ويتعذب نتيجة خيانته. وكان غير المسلمين من سكان هارليم الذين كلمتهم يعتقدون أن انشقاقه أمر بديهي نظراً لما له من سلطة ونفوذ وأن حكم إلايجا المطلق سينتهي في نيويورك على الأقل.

وعاد ملكوم إكس فقال إنه كان في بوسطن وفلادلفيا وبدأ يقضي معي وقتاً طويلاً

خلال النهار في الغرفة ١٩٣٦ بفندق أمريكانا. وكان قد فقد هدوءه وبدأ يهب إلى الباب في انتظام فيفتحه ويطل على الممر ذات اليمين وذات اليسار ثم يغلق الباب. وكان قد فسر لي ذلك قائلاً: «إذا كنت ما أزال على قيد الحياة عندما يظهر هذا الكتاب سيكون ذلك معجزة. لا أقولها حسرة ولكنني أقولها كما أقول إن هذا غطاء سرير» وأمسك بغطاء السرير الذهبي اللون. وكلمني لأول مرة عما حدث بتفصيل فقال: «إنهم، إطلاقاً، لم يبعدوني بسبب تعليقي على مقتل كينيدي. إنهم لم يكونوا يقولون شيئاً عندما كنت أصرح بما هو أدهى وإنما فعلوا ذلك بسبب الغيرة وكذا لأني اعترضت على مجون الرجل الذي يزعم أنه مثال للإستقامة» وقال إنه رفع عدد المسلمين في أمة الإسلام من ٤٠٠ إلى ٤٠٠٠ وزاد مؤكداً: «لا أعتقد أن عدد الأعضاء عندما التحقت بالمنظمة كان يتعدى ٤٠٠ وكانوا في الغالب متقدمين في السن، لا يعرفون حتى كيف ينطق اسم السيد محمد الذي كان يبقى في المؤخرة معظم الوقت» وأفلت منه الزمام فاستولى عليه الغضب. وذات يوم خط ما يلي: «ليس هناك ما هو أدعى للخوف من اجتماع القدرة والجهل. غوته».

واستدرجني إلى الكلام عن كاسيوس كلاي يوماً وعندما وجدني لا أجيبه إلا برواية الجانب الطريف من الإستجواب سألني عما قاله عنه فبحثت عن البطاقة المرقومة التي كنت قد طبعت عليها السؤال مقدماً والتي كتبت عليها الجواب بيدي ومددتها له فنظر إليها ثم نظر عبر النافذة ثم وقف وبدأ يذرع الغرفة وعندما يتكلم كان صوته مشبعاً بالألم. وقال: «كنت أحس كأنه أخي الشقيق» وتوقف ثم أكمل: «على أني لن أكون ضده الآن. إنه شاب ممتاز وذكي ولكنه سمح لهم أن يستعملوه ويضللوه».

ومرة أخرى رأيته في تلك الغربة على حافة البكاء وسمعته يستعمل لأول مرة لفظ الزنوج بمعناه التحقيري. كان يتكلم على كل ما عاناه أول ما جاء إلى نيويورك في سبيل إقامة صرح أمة الإسلام فيها ثم قال بصوت أجش: «كانت تلك المنظمة أفضل ما امتلكه السود في حياتهم وها هم الزنوج يدكُّونها».

وأطلعني بعد أيام على جملة كتبها في إحدى مذكراته قال فيها «يجب أن نتعلم من الأطفال عدم الخجل من الفشل وأن نقوم ونعيد الكرة. إن معظم الكبار يرزحون تحت الخوف والحذر ويركنون إلى الأمان ولذلك تجدهم مجفلين ومتصلبين وخائفين ولذلك يفشل أكثرهم».

وكان على الدوام وهو عندي قرب المهتف تارة يرد وتارة يطلب، وكان يحاول وهو يتكلم عبره تغليف كلامه فبدأت أعمد إلى دخول الحمام وإغلاق بابه علي حتى يتوقف همسه. فيما بعد بدأ يقول لي إنهم بعض أتباع الإيجا محمد. وذات يوم قال على إثر إحدى تلك المكالمات: «إنني رجل ميت. لقد نصحني أشخاص مسؤولون بأن أكون حذراً في كل حركة أقوم بها» وفكر هنيهة ثم قال: «لست خائفاً على نفسي طالما لم تمس أسرتي». وأظن أنه سمع بنية أمة الإسلام إقامة دعوى ضده لإخراجه من البيت الذي كان يسكن فيه.

كنت قد بدأت أخشى أن تدفع به مرارته الطارئة إلى العودة إلى كل ما رواه لي من فصول هذا الكتاب لتحويرها بشكل من الأشكال. ويوم غادرت نيويورك عائداً إلى الشمال حدثته بمخاوفي تلك فقال: «لقد فكرت في ذلك. هناك أمور غضضت الطرف عنها، كنت حتى في ذلك الوقت أراها وأسمعها ولكنني سأبقي كل شيء كما هو».

وفي ٢٦ مارس كتب لي رسالة يقول فيها: «يحتمل أن أقوم بسفر قصير أزور فيه بلاداً مهمة في إفريقيا وأزور مكة والمدينة وذلك ابتداء من حوالي ١٣ أبريل. لا تخبر أحداً بذلك».

وبعث خلال سفره ذاك رسائل وبطاقات بريدية إلى معظم من يعرفهم معرفة جيدة وقعها بالحاج مالك الشباز. وفي أواسط مايو طلبتني الأخت بيتي هاتفياً وقالت لي وهي مستبشرة إن ملكوم إكس في طريق العودة فركبت الطائرة ورجعت إلى نيويورك وفي ٢١ مايو رن جرس المهتف في حجرتي بالفندق ورفعت السماعة فوجدت الأخت بيتي تقول: «دقيقة من فضلك» ثم قال الصوت العميق: «كيف حالك؟» فقلت: «الحاج مالك الشباز! كيف حالك أنت؟» فقال: «متعب قليلاً» وأخبرني أنه وصل إلى نيويورك على متن إحدى طائرات خطوط بان أمريكان في الرابعة والنصف وأنه سيعقد ندوة صحافية في الساعة السابعة بفندق تيريزا وقال: «انتظرني في تمام السادسة والنصف عند ملتقى النهج ١٣٥ وشارع لينوكس في اتجاه المركز. حسناً؟».

وعندما توقفت السيارة الأولدزموبيل العتيقة ودخلتها وجدت الحاج ملكوم يتبسم ابتسامة عريضة ويرتدي بدلة قطنية وشعره الأحمر في حاجة إلى مقص الحلاق ووجدته قد أطلق لحيته. وكانت معه الأخت بيتي التي لم أكن قد رأيتها من قبل والتي ظللت أكلمها هاتفياً مرات في الأسبوع مدة ما يزيد على السنة. وتبادلنا الإبتسام. كانت تلبس فستاناً فضفاضاً من النوع الذي تلبسه الحوامل إذ كانت تنتظر طفلها الرابع.

ووجدنا في مقر الندوة حوالى خمسين مصوراً وصحافياً يحملون آلات التصوير والكاميرات ويتراكضون بحثاً عن المواقع الأنسب في المقدمة والقاعة غاصة بالحاضرين من أنصار ملكوم إكس من الزنوج وأصدقائه والفضوليين. ودخل يتأبط ذراع الأخت بيتي بحنان وهي تبتسم في اعتزاز فانطلقت الأضواء.

ولمحت ممثل التايمز هاندلر فقدمت له نفسي فسلم علي بحرارة واحتللت وإياه مائدة صغيرة بمقعدين وقد وقف الصحافيون في نصف دائرة أمام المنصة، ثم انطلقت الأسئلة وبدأ ملكوم إكس يجيب ببراعة بدا معها وكأن خبرته الخطابية التي اكتسبها خلال الإثنتي عشرة سنة الماضية ما كانت إلا لتعده لدوره الجديد.

«هل نفهم أنك لم تعد تعتقد أن البيض أشرار كلهم؟» فقال: «هذا صحيح أيها السيد. لقد فتحت زيارتي لمكة عيني وجعلتني أقلع عن الإعتقاد في العنصرية وصَحَّحَتْ تفكيري فأصحبتُ أؤمن بأن الرجل الأبيض إنسان» ثم توقف توقفاً له دلالته وأكمل قائلاً: «بشرط أن ينعكس في سلوكه ما يثبت أنه إنسان» وركزوا على صورته العنصرية فقال: «لست عنصرياً. أنا لا أدين البيض لأنهم بيض ولكن لأفعالهم. أنا أدين ما فعله البيض ككل لبني قومنا ككل».

كانت الإبتسامة المتوددة الصافية لا تفارق شفتيه وكان يدق بيده على لحيته الحمراء فسألوه عنها، سألوه إن كان ينوي الإحتفاظ بها فقال إنه لم يقرر بعد وأنه سينتظر ليرى إن كان سيتعود عليها. وسألوه عما إذا كان يعتزم الإنضمام إلى أبرز زعماء حركة الحقوق المدنية الذين كان ينتقدهم بشدة فأجابهم بطريقة غير مباشرة قائلاً: «سأشرح لك ذلك كما يلي أيها السيد. إذا كانت هناك جماعة من الناس مسافرة إلى مكان على متن سيارة وكانت تسير في طريق خطأ وتعتقد أنها تسير في الطريق الصحيح، وكنت أنت الوحيد الذي يعرف أنها تسير في الطريق الخطأ فإن عليك أن تبقى معها حتى تكتشف خطأها وعندئذ دلها على الطريق الصحيح وستتبعك». كان في أحسن حال وهو يزن الأسئلة ويرد عليها رداً مباشراً أو يراوغ.

وكان ممثل التايمز يسجل بجانبي ويهمهم «لا أصدق! لا أصدق!» وكنت أيضاً لا أصدق وكنت قد قلت لنفسي لبعض الوقت: لو أن حصاة ألقيت من النافذة الموجودة وراء ملكوم إكس مباشرة من هذه القاعة الواقعة في الطابق الثامن لسقطت على الناصية التي كان منذ سنوات يبيع فيها المخدرات.

ورجعت إلى الشمال لإتمام الكتاب فبدأت تصلني منه بانتظام رسائل قال في إحداها: «أرجو أن يكون الكتاب يتقدم بسرعة، ذلك أن الأحداث تطرأ على حياتي بسرعة البرق بحيث أن الكثير مما كتب قد يصبح متجاوزاً من شهر لآخر. لا شيء يدوم في الحياة ولا حتى الحياة (ابتسم) وعليه، أنصحك بالإسراع ما أمكن».

وجاءتني رسالة أخرى بالبريد الخاص تدل على أنه مغتاظ مني قال فيها: «إن الناشر قد بعث لي رسالة يقول فيها إنه دفع له حوالة بمبلغ ٢٥٠٠ دولار بعد التوقيع على العقد وقال: «وهكذا سينتظر مني أن أدفع عنها ضريبة المداخيل الخاصة. ألم أقل لك مراراً وتكراراً إني أريد أن يعود ريع كل هذه الصفقة إلى المسجد مباشرة؟ على أني إلى يومنا هذا لم أر تلك الحوالة».

وحللت المشكلة ثم بعثت له بمسودة بعض الفصول ليقرأها فلم يلبث لدهشتي، أن أعادها لي وعليها كتابات بالحبر الأحمر في الأماكن التي وصف فيها ما كان يغدقه عليه إلايجا محمد من عطف أبوي. وكلمته هاتفياً فذكرته بقراره السابق وقلت له إن ذلك من شأنه أن يعد القارىء لما سيحدث وأننا بإلغائنا له نجرد الكتاب من التصاعد والتشويق الدرامي فقال بفظاظة: «كتاب من هو؟» فقلت: «كتابك طبعاً» وشرحت له أن ما قلته لا يعدو أن يكون ملاحظة أقولها له بوصفي كاتباً فقال إنه سيفكر في الموضوع. واستولى علي الغم خوفاً من أن يقرر إعادة كل شيء وتحويل الكتاب إلى نقد لإلايجا محمد ولكنه طلبني في آخر تلك الليلة وقال: «أنا آسف. أنت على حق. لقد كنت غاضباً. احتفظ بكل شيء كما كان». ومن يومها لم أسلمه أي فصل ليقرأه إلا وأنا معه. وكنت أنظر إليه من طرف خفي وهو يقرأ فأراه يقطب وجهه ويرتد إلى الوراء ولكنه لم يطلب مني أبداً أن أغير شيئاً مما سبق له أن قاله. المرة الوحيدة التي قال فيها عن شيء إنه كان يود لو أنه حدث بشكل مخالف كانت عندما وصل إلى فصل «لورا» فقال: «كانت فتاة ذكية وجيدة. حاولت أن تصنع مني شيئاً فدفعت بها إلى البغاء والمخدرات».

وأصبح لا يجد الوقت لزيارتي وعندما كان يفعل كانت الغرفة تتحول إلى ما يشبه محطة الشرطة المركزية. كانت المكالمات تأتيه تباعاً وعندما كان يجد فجوة كان يخرج مذكرته المليئة بالأرقام الهاتفية ويطلب شخصاً ما. وكان قد أصبح كثير الإتصال بشخصيات شرق أوسطية وإفريقية كانت تزور نيويورك وكانت تأتي لزيارته في غرفتي فكنت أجلس بجانب النافذة وأستغرق في القراءة حتى ينتهي من كلامه معها خارج

الباب بصوت منخفض. وكان يكثر من الإعتذار عندما يحدث ذلك فكنت أقول له إنه لا يضايقني، ثم بدأت أخرج إلى الممر أو أدخل المصعد وأنزل إلى بهو الفندق وأبقى أرصد المصاعد حتى أرى الضيف خارجاً. أذكر يوماً جاءته فيه مكالمات من القنوات التلفزيونية الرئيسية على التوالي: سي بي إس، وآي بي سي، وإن بي سي ومن كل جريدة في نيويورك ومن الدايلي إكسبريس اللندنية ومن العديد من الأشخاص حتى اضطررنا إلى إيقاف عملنا، ثم جاء بيل بيوتل بفرقة تلفزيونية اكتظت بها الغرفة. وبينما كانت تثبت أضواءها على الركائز جاءت مكالمة أخرى من محطة دايتون، أوهايو التلفزيونية تطلب استجوابه هاتفياً فطلب مني أن أقول للمتكلم أن يطلبه في اليوم التالي في بيت أخته إيلا ببوسطن ثم جاءت مكالمة أخرى من وزارة الإعلام الغانية فكتبت له المعلومة على ورقة مددتها له والمعلق بيوتل يقول: «لن آخذ من وقتك الكثير. سوف لن أطرح عليك إلا بعض الأسئلة الغبية» فأجابه ملكوم وهو يقرأ الورقة قائلاً: «السؤال الغبي هو الذي لا يطرح» ثم قال لي: «قل لهم من فضلك إني سأطلبهم». وبدأت الكاميرات تدور وبدأ ملكوم إكس وبيوتل يتكلمان فرن جرس المهتف من جديد ورفعت السماعة فإذا هو مارك كرافورد الصحافي بمجلة لايف فأخبرته بما يجري هامساً ولكن ذلك لم يثبط عزيمته فقال: «هل لك أن تضع السماعة قريباً منهما بحيث أسمع الإستجواب؟» فرضخت لأمره متنفساً الصعداء بعدما أمكن بذلك للإستجواب أن يتم أخيراً من دون إزعاج. كان ملكوم إكس قد انتهى من مراجعة نسخة الخطوط التي كان قد قرأها بتمعن وهو يهز رأسه من حين لآخر ويعلق على ما يقرأه. قال مرة: «أتعرف لماذا كان لي أثر ما؟ لأنني أدرس نقط ضعف هذه البلاد ولأنني كلما سمعت الرجل الأبيض يعوي عرفت أنني قد وضعت يدي على الوتر الحساس».

ومرة وضع المخطوط الذي كان يقرأه على الفراش وقام من مقعده وبدأ يذرع الغرفة ويدق بيده على ذقنه ثم التفت إلي وقال: «أتعرف؟ في ذلك المكان الذي قلت لك فيه إنني وضعت فوهة المسدس في صدغي وبقيت أضغط على الزند حتى أرعبتهم، عندما كنت بصدد إنشاء عصابة السطو على العقارات؟» وتوقف ثم قال: «لا أعرف إن كان علي أن أقول لك هذا ولكنني أريد أن أقول الحقيقة. كنت قد أبقيت الرصاصة في كفي» وضحكنا وقلت له: «طيب! هات تلك الصفحة إذن» وتفكر قليلاً ثم قال: «أتركها كما هي فقد يعتقد الناس أن هذا هو ما أفعله اليوم، أني أموه».

ومرة أخرى وهو يقرأ عن الفترة التي اكتشف فيها مكتبة السجن ارتد رأسه إلى

الخلف بغتة وقال: «رب! لن أنسى خنزير الأرض ذاك أبداً!». وفي اليوم التالي أذهلني عندما جاء وقال إنه زار متحف التاريخ الطبيعي واطلع على معلومات عن خنزير الأرض وقال إن الكلمة التي تدل عليه الإنجليزية مثال جيد على جذور الكلمات التي حدثني عنها وقال: «عندما تدرس فقه اللغة تعرف القوانين التي تتحكم في فقدان الكلمات لحروفها الساكنة واحتفاظها مع ذلك بهويتها وإن كان الأمر يختلف من لغة لأخرى». وكان ما أذهلني أن برنامج يومه ذاك كان مكتظاً إذ كان عليه أن يظهر في الإذاعة والتلفزيون ويلقي خطاباً وأنه وجد مع ذلك الوقت للذهاب إلى المتحف والبحث عن معلومات عن خنزير الأرض.

وعلى إثر ذلك عقد ندوة صحافية قال فيها: «إن منظمة الوحدة الآفرو أمريكية التي أنشأتها منظمة غير دينية وغير طائفية، هدفها توحيد الآفرو أمريكيين في إطار برنامج بناء يرمي إلى حصولهم على حقوقهم الإنسانية». وقد اتضح فيما بعد أنها ذات صبغة وطنية سوداء واتضح في استجواباته فيما بعد أنها سوف تسعى إلى تحويل السكان السود من اللاعنف إلى الدفاع عن أنفسهم ضد السيادة البيضاء في كل أمريكا. وفيما يتعلق بالجانب السياسي كان كلامه في تلك الندوة مبهماً إذ قال: «سواء كان ما يستعمله الإنسان رصاصاً أو بطاقات اقتراع فإن عليه أن يحسن الرماية وألا يستهدف الدمية ولكن من يحركها». وسألوه إن كان هناك مجال محدد ينوي القيام بعمله في إطاره فقال: «سأنضم إلى أية جهة يوجد فيها صراع أسود إذا طلب مني ذلك». وعن إمكانية تحالفه مع المنظمات الزنجية الأخرى قال إنه سيفكر في تشكيل جبهة متحدة مع بعض الزعماء الزنوج الذين يختارهم، واعترف تحت إلحاح الأسئلة «بأن المنظمة الوطنية لتقدم الملونين تحقق بعض النتائج الجيدة». ورداً على سؤال حول إمكانية انضمام البيض إلى منظمته قال: «لو كان جون براون حياً لسمحت له بذلك». وأجاب على من انتقدوا قوله إنه سيرسل بالفدائيين إلا ولاية مسيسيبي قائلاً: «أنا جاد في ذلك. والمسيسيبي عندي هو أي مكان يقع جنوب كندا». وقالت له مرة إيفلين كانينغهام الصحافية بالبتسبورغ كوريار ممازحة: «هل لك أن تخص عمودي بقولة مدهشة؟» فقال: «على من يريد أن يتبعني ويتبع حركتي أن يكون مستعداً لدخول السجون والمستشفيات والإنتقال إلى المقابر قبل أن يستطيع أن يقول إنه حر حقاً». ونشرت إيفلين كانينغهام ذلك وعلقت عليه بقولها: «ابتسم ثم ضحك ضحكة مكتومة ولكنه كان جاداً في كلامه».

وازداد أفراد أسرته بمولوده الجديد فكان بنتاً رابعة سمتها الأخت بيتي جميلة لومومبا فأهدته نادلة تسمى هيلين لانيير كانت تعمل في نادي توينتي تو الذي كان أصبح ملتقاه مع الناس، أهدته كل ما يحتاجه الوليد من كسوة وأقمطة فأثر فيه ذلك تأثيراً كبيراً وقال: «إني لا أكاد أعرف تلك الفتاة!».

وتضايق بوضوح عندما ظهرت نتيجة إستطلاع أجرته النيويورك تايمز بين زنوج نيويورك لمعرفة من هو الزعيم الزنجي الذي يعتقدون أنه قام بأحسن عمل من أجلهم إذ قال ثلاثة أرباع المشاركين إنه مارتن لوثر كينغ وقال خمسهم إنه رُويْ ويلكينز من المنظمة الوطنية لتقدم الملونين وقال ستة في المائة فقط من المشاركين إنه ملكوم إكس فقال لي: «رب! هل تعرف أن بعض أعظم الرجال الذين عرفهم التاريخ لم يعترف بهم إلا بعدما واراهم التراب؟».

وذات صباح، في أواسط صيف ١٩٦٤ طلبني هاتفياً وقال إنه سيسافر بعد يومين أو ثلاثة لقضاء بضعة أسابيع في الخارج، ثم كتب لي من القاهرة والصيف الطويل الحار الذي تكهن به يصطخب بالأحداث والإضطرابات الزنجية التي شملت ضواحي فلادلفيا وروشستر وبروكلين وهارليم ومدناً أخرى. عند ذلك أقر اجتماع للمثقفين الزنوج حقيقة نقلتها النيويورك تايمز مفادها أن الدكتور مارتن لوثر كينغ يضمن ولاء الطبقة الزنجية المتوسطة، وأن ولاء الطبقة الزنجية الدنيا لا يضمنه إلا ملكوم إكس، وزادت الجريدة قائلة: «إن الزنوج يحترمون هذين الرجلين لأنهم يثقون في نزاهتهما ويعرفون أنهما لن يخوناهم أبداً. إن ملكوم إكس غير قابل للفساد والزنوج يعرفون ذلك ويحترمونه على أساسه. وهم يعرفون كذلك أنه ينتمي إلى طبقتهم الدنيا ويعتبرونه منهم وإليهم. إن ملكوم إكس سيقوم بدور عظيم بعدما انتقل الصراع العنصري إلى مدن الشمال... وإذا كان الدكتور كينغ يظن أنه ضحى بعشر سنوات من الزعامة المتألّقة فسوف يكون عليه أن يغير رأيه لأنه لم يعد يستطيع أن يتحرك الآن إلا في اتجاه واحد وهو الإتجاه نحو ملكوم إكس». وقصصت تلك المقالة وبعثت بها إلى ملكوم إكس في القاهرة.

كانت واشنطن ونيويورك أو بالأحرى الوكالات القوية بها البلدية والخاصة والحكومية إلى جانب الأفراد تهتم بما يقوله ملكوم إكس في الخارج وتخمن ما سوف يقوله ويفعله عندما يعود إلى أمريكا.

في ذلك الوقت جاءتني مكالمة من صديق حميم وأنا في الشمال أبلغني فيها أنه قد طلب منه أن يطلب مني المجيء إلى نيويورك لمقابلة شخصية حكومية من مستوى عالٍ جداً تهتم بملكوم إكس. وركبت الطائرة وذهبت إلى نيويورك فرافقني صديقي إلى مكاتب تلك المؤسسة المعروفة بدعمها المادي لحركة الحقوق المدنية، فاستقبلني رئيسها ثم قدمني إلى بورك مارشال مدير قسم الحقوق المدنية في وزارة العدل الذي سألني عن أحوال ملكوم إكس المالية وبالخصوص عن مصدر الأموال التي ينفقها على أسفاره المتعددة منذ خروجه من أمة الإسلام، فقلت له إن ما أعرفه أن الناشر قد دفع له عدة أقساط مما يؤول له من الكتاب وأنه يحصل على تعويضات عن الخطب التي يلقيها في الجامعات وأن منظمته تلقت مساعدات مالية وأنه قال لي فيما يخص سفره الأخير أنه استعار من أخته إيلا وأن الساترداي إفنينغ بوست اشترت حق نشر النسخة المركزة من الكتاب بمبلغ ضخم ستدفعه قريباً. واستمع إلي بانتباه شديد وهدوء ثم طرح علي أسئلة أخرى متعلقة بجوانب أخرى من حياة ملكوم إكس وشكرني. وفي تلك الليلة كتبت إلى ملكوم إكس أخبره بما جرى ولكنه لم يشر إليه بعدما عاد أبداً.

وأرسلت الساترداي إفنينغ بوست المصور جون لونوا إلى القاهرة للبحث عن ملكوم إكس وتصويره بالألوان وعندما ظهر عددها بتاريخ ١٢ سبتمبر أرسلت له نسخة منه بالبريد الجوي فجاءتني منه بعد أيام رسالة قصيرة ولاذعة تعكس غضبه عن الكيفية التي تناولت بها المجلة حياته الخاصة. وكانت قد استهلت المقال بقولها: «لو لم يكن ملكوم إكس زنجياً لكانت سيرته عبارة عن قصة سارق عقارات ومروج ومستهلك مخدرات ونزيل سجون إلى جانب قصة جنون عائلي وهو ما يكفي لإلجاء الإنسان إلى توهم النبوة والدعوة إلى دين مقلوب يقوم على الكراهية الأخوية». وبعثت له رسالة قلت له فيها إنه لا يمكنه أن يلومني على ما كتبته المجلة في نطاق قناعتها الخاصة فرد علي معتذراً وقال: «إن علينا أن نكون أكثر حذراً في المستقبل».

وعاد من إفريقيا عوداً أكثر يمناً من عوده من الحج، فاكتظت القاعة في البناية الدولية من مطار كينيدي بالعديد من الزنوج من أتباعه ومن الحامدين له بالسلامة. ودخلت البناية فوجدت في الطبقة الثانية بيضاً يصورون الزنوج الذين يغدون وزنوجاً في ثياب بسيطة يغدون ويروحون وزنوجاً آخرين يرفعون أمام الزجاج الفاصل بين القاعة ومفتشية الجمارك لافتة عريضة مكتوب عليها «مرحباً يا ملكوم» ثم بدا ملكوم إكس في أحد الصفوف وسمع الهتاف فرفع رأسه وابتسم في سعادة.

وأراد ملكوم إكس بعد ذلك أن يشحنني على عجل بتفاصيل عن سفره كان يريدها أن تظهر في الكتاب. وقال إنه يريد ألا يعطيني إلا رؤوس أقلام لأنه يعتقد أن ما في مذكرته كفيل بملء كتاب آخر. وبدأنا نجتمع في غرفتي بالفندق مدة طويلة فيقرأ علي ما اختاره من مذكرته فأسجله. وقال لي: «إن ما رميت إليه هو تدويل مشكلتنا، أن أحمل الأفارقة على إدراك رابطة الرحم التي تربطنا بهم، ونجحت في مسعاي ولذلك أحبوني كما أحبني الشرقيون على أساس ما يربطنا بهم من رابطة دينية».

ولم يعد مع الأيام يجد الوقت لزيارتي فبدأ يطلبني ويعتذر. وكان قد أصبح مطوقاً بمشاكل من كل نوع كلمني عن بعضها وسمعت بعضها الآخر من الناس. كان هناك تذمر داخل منظمته لأن غيباته الطويلة كانت قد أثرت على معنويات أتباعه حتى أقربهم إليه، وكان هناك شعور سائد بأن حماسه لا يكفي لإبقاء شعلة حماسهم وقد سمعت أحدهم يقول إن من المحتمل أن يظهر شعور بالخيبة في المنظمة.

كان قد بدأ يقال عنه في هارليم، في البارات والمطاعم والمنعرجات ومداخل البنايات كلام سمج لم يكن ليقال من قبل. وكانت الناس تأخذ عليه بالخصوص أنه يتكلم فقط في الوقت الذي يعمل فيه زعماء حركة الحقوق المدنية. كان يقال: «أنظر إلى مؤتمر المساواة العرقية ومنظمة الحقوق المدنية بالولايات المتحدة من أتباع الدكتور كينغ. لقد خرجوا إلى الشارع وبدأوا يتلقون الضربات على رؤوسهم وهو لا يعرف إلا الكلام». وكان المأخذ الثاني أنه كان هو نفسه قد أصبح في بلبلة لا يصح معها الإستمرار في اتباعه بجدية. كان يقال: «إنه لم يعد يعرف ما يؤمن به فهو لا يكاد يقول شيئاً حتى ينتقل إلى غيره». وكان لذلك تأثير على صورته المتوقدة وعلى قدرته على تحريك إهتمام الجمهور المحلي الذي كانت منظمته الصغيرة والفتية في حاجة إليه.

وكان الحكم قد صدر ضده بإفراغ بيت إلمهورست وإرجاعه إلى صاحبه الشرعي، أمة إسلام إلايجا محمد. وكانت له مشاكل أخرى من بينها المشاكل المالية، فكان عليه تسديد مصاريف متعددة والإنفاق على زوجته وبناته الأربع وأداء أجر موظف واحد على الأقل دائم في المنظمة. وكنت قد سلمته بعد عودته من إفريقيا حوالة بمبلغ كبير من وكيلنا لم يلبث أن قال عنها وهو يضحك ضحكة متوترة: «لقد تبخرت لا أدري في أي جهة».

ودخل في دوامة من الأنشطة فوافى عشرات الجامعات كتابياً وهاتفياً بقبوله إلقاء

محاضرات فيها للتعريف بفلسفته والحصول على تعويضاتها التي تتراوح بين ١٥٠ و٣٠٠ دولار التي تدفع للمحاضر فوق نفقات السفر والإقامة. وعندما كان يعود إلى نيويورك كان يمضي وقته في مكتبه شبه الفارغ الذي استأجره في فندق تيريزا، محاولاً أن يحل بعض مشاكل منظمته المعقدة. قال مرة متملصاً من سؤال أحد الصحافيين: «إنني لا أعرض حجمنا بالأرقام. إن أقوى ما في الشجرة الجذور إذ لو تعرت الجذور لماتت الشجرة. ونحن لدينا أعضاء عديدون ومن كل نوع ولكنهم غير ظاهرين، وقد عمدت على عكس غيري إلى الليونة للوصول إلى كل أنواع الزنوج في البلاد».

كان حتى في أوقات الطعام في مكانه المفضل بنادي توينتي تو أو في أي مكان آخر بهارليم لا يأكل طعامه بسبب من كانوا يتوافدون عليه لطلب موعد معه لمناقشة مواضيع من كل نوع من المشاكل الخاصة حتى آراءه في القضايا الدولية. وكان كأنما لا يعرف كيف يرد مثل تلك الطلبات وكان مساعدوه الذين كانوا يتطوعون للعمل معه ينتظرون طويلاً ليكلموه في أمور تتعلق بالمنظمة أو به. وكان غالباً ما يظهر عليه، حتى وقتذاك، تبرم غريب من أسئلتهم ومقترحاتهم فكانوا يغضبون. ومرة في الأسبوع، في ليالي الأحد عادة كان يخطب في الزنوج الذين يأتي بهم الإعلان المنتشر عن طريق السماع والأوراق المطبوعة بالستانسيل. وكان يحجز لذلك قاعة أوديبون الواقعة في غرب الشارع ١١٦ بين برودواي وشارع سانت نيكولاس قرب مركز لومومبا الطبي التابع للكنيسة المشيخية.

وهناك كان ينطق فجأة بفيض من التهجمات على إلايجا محمد ويتهمه أكثر من ذي قبل بالزيف الديني والفجور. ذلك أنه كان مغتاظاً من ترحيل زوجته وبناته الأربع الصغيرات من ذلك البيت المريح في إلمهورست الذي أقمن فيه مدة طويلة، لا سيما وأن الأخت بيتي كانت حبلى مرة أخرى. وكان قد قال لي عندما صدر الحكم: «المسكن هو كل ما وفرته لبيتي منذ تزوجتها وها هم يريدون أخذه. إني لم أنفك أعرضها للتحولات وأحملها ما لا يحتمل. رب، يجب أن أحب هذه المرأة!».

وكانت التهديدات بقتله تصل بالمهتف إلى مركز الشرطة والجرائد ومكتب منظمته وإلى بيته في إلمهورست. وعندما دخل إلى المحكمة للطعن في الحكم الصادر ضده بالإفراغ كان محاطاً بثمانية أفراد من منظمته وعشرين شرطياً في اللباس الرسمي واثني عشر شرطياً سرياً. وصدر الحكم بإقرار الحكم السابق فذهب إلى بيته في لونغ آيلاند، وعندما

طلبه أحد أعوانه رد عليه صوت مسجل يقول إن ذلك الرقم ألـ ١ ـ٦٣٢٠ قد قطع فانطلقت سيارة مشحونة بأعوانه إلى لونغ آيلاند حيث وجدوه وأسرته في أمان. واستفسر شركة المهتف فقيل له إن امرأة تدعى «السيدة سمول» اتصلت بالشركة وطلبت قطع الخط لأن أصحابه سيكونون في عطلة. وتلا ذلك اشتباك بين أعوانه وأتباع إلايجا محمد أمام المطعم الإسلامي الواقع في ملتقى الشارع ١١٦ وشارع لينوكس وزاد في الطين بلة مجيء الشرطة وقيامها بتفتيشٍ أَسْفَرَ عن وجود مسدسين في سيارتين تابعتين لمنظمة الآفرو أمريكيين المتحدين وإلقاء القبض على أعضائها الستة الموجودين في المكان عينه.

وحالت تلك الأحداث دون ذهابه إلى بوسطن لإلقاء خطاب كان قد التزم به، فأرسل أحد أعوانه ليلقيه بالنيابة عنه، وعندما كان هذا الأخير راجعاً عاقت سيارته في طريق مطار بوسطن سيارة أخرى في نفق شرق بوسطن ونزل منها رجال مسلحون ولكن رجال ملكوم إكس أخرجوا لهم بندقية فتفرقوا.

وكان ملكوم إكس يتهم المسلمين السود باستمرار بأنهم مصدر هذه الهجومات والتهديدات ويقول: «ليس هناك جماعة في الولايات المتحدة تستطيع تنفيذ هذه التهديدات إلا المسلمون السود. أنا أعرفهم لأنني أنا الذي علمتهم». وسئل عن السبب الذي يدفعه إلى شن هذ الحملات الكلامية ضد إلايجا محمد والمسلمين السود في الوقت الذي كان يبدو فيه أن الأمور قد هدأت فقال: «لم أكن لأكشف عما أكشف عنه لو أنهم تركوني وشأني». وسمح لأحد المصورين بأخذ صورة له في بيته وهو يحمل بندقية أوتوماتيكية ذات مشط مزدوج مشحون بالرصاص قال إنه يبقيها معدة لمجابهة أية محاولة لإغتياله وقال: «لقد علمت زوجتي كيفية استعمالها وأعطيتها الأمر بضرب أي شخص كيفما كان أبيض أو أسود أو أصفر يحاول اقتحام البيت».

وذهبت في دجنبر إلى نيويورك لأتسلم منه الإضافات النهائية التي تشمل التطورات الأخيرة التي كان يريد أن يضمنها المخطوط، فبدا لي أن ثقته المعهودة في نفسه قد هجرته، وطفق يقول إن الصحافة لا تأخذ أقواله حول تهديده بالقتل مأخذ الجد وقال: «إنهم يتصرفون كما لو كنت أخرف!». وأشار مجدداً إلى افتتاحية الساترداي إفنينغ بوست فقال: «لا يمكن للمرء أن يثق في الناشرين مهما قالوا». وأرسل لي وكيلنا إلى الفندق عقدة حول حقوق نشر الكتاب في الخارج لنوقعها أنا وهو فوقعتها ثم مددت له القلم فنظر إليها مرتاباً وقال: «من الأفضل أن أعرف رأي

محامي أولاً» ووضعها في جيب سترته الداخلي. وبعد ساعة ونحن في سيارته في هارليم توقف بغتة أمام بناية جمعية الشباب المسيحي الواقعة في الشارع ١٣٥ وأخرج العقدة ووقعها ورمى لي بها قائلاً: «سأثق فيك أنت» وواصل السياقة.

كانت أعياد رأس السنة قد اقتربت فاشتريت بدافع طارىء دميتين سمراوين لابنتيه الكبريين من ذلك النوع من الدمى التي تمشي عندما يمسك شخص بيدها اليسرى وعندما جاء إلى غرفتي في فندق ويلينغتون قلت له: «عندي هدية لعتيلة وقُبَيْلَة بمناسبة رأس السنة وجئته بالدميتين تمشيان فظهرت على وجهه الدهشة ثم غمرته ابتسامة عريضة وقال: «يا للمفاجأة! إنها لمفاجأة حقاً!» وانحنى على الدميتين يقلبهما ووجهه يعكس تأثره الشديد وقال بعد برهة: «أتعرف؟ إني لست معتزاً بما سأقوله إني لا أعتقد أنني اشتريت لبناتي هدية واحدة. كل ما لديهن من لعب إما اشترته لهن بيتي أو أهداه لهن شخص آخر أما أنا فلم أشتر لهن شيئاً أبداً. إنه شيء غير جيد، أعرف ذلك ولكنني كنت مشغولاً على الدوام».

وفي مستهل شهر يناير ركبت الطائرة من الشمال إلى مطار كينيدي وطلبته من هناك في بيته وقلت له إنني في انتظار الطائرة المتوجهة إلى مدينة كانساس لحضور مراسيم أداء أخي الأصغر جورج القسم إثر انتخابه عضواً في مجلس الشيوخ بكونغريس الولاية فقال: «قل لأخيك ألا ينسانا. قل له إن عليه وعلى أمثاله الزنوج المعتدلين الذين وصلوا أن يتذكروا دائماً أننا نحن المتطرفين من مهد لهم الطريق»، ثم سألني أن أتصل به عندما أعود ليرى إذا كان بإمكانه أن يخصص وقتاً لمقابلتي ففعلت. واستقبلني في مطار كينيدي وقال إن وقته مشحون للغاية وأن عليه أن يغادر بعد الظهر لإلقاء محاضرة طارئة فحجزت في الطائرة المتوجهة إلى الشمال ودخلنا بسيارته في أحد مواقف السيارات وبقينا نتكلم فيها حتى أزف موعد طائرتي. تكلم على الضغوط التي تأتيه من كل جهة وعما يشعر به من إحباط من جراء عدة أشياء من بينها أن أحداً لا يريد أن يرى فيه إلا صورته القديمة المطبوعة بـ«الكراهية» و«العنف» وقال إن ما يسمى بمنظمات الحقوق المدنية المعتدلة تتحاشاه بدعوى أنه مناضل أكثر من اللازم، وأن ما يدعى بالمناضلين يتحاشونه بدعوى أنه معتدل أكثر من اللازم. وقال مرة: «إنهم لا يريدون أن يدعوني أدخل منعرجاً جديداً. إني في كمين».

وتطرقنا إلى موضوع سعيد فتكلمنا على المولود المنتظر وضحكنا من البنات

الأربع على التوالي فقال: «سيكون ولداً هذه المرة» ثم ابتسم وقال: «أو المرة القادمة!». وعندما قلت إن موعد طائرتي قد حان قال إن عليه أن ينصرف أيضاً فقلت له: «سلم على الأخت بيتي» فقال إنه سيفعل وسلم علي فخرجت من السيارة الأولدزموبيل الزرقاء ووقفت أنظر إليه وهو يرجع بها إلى الخلف وصرخت وأنا ألوح قائلاً: «إلى اللقاء» فلوح لي وذهب ولم أكن لأعرف أنها المرة الأخيرة التي أراه فيها.

وظهر في ١٩ يناير في برنامج بيير برتون في التلفزة الكندية فقال رداً على سؤال حول الإندماج والزواج المختلط: «إني أؤمن بالإعتراف بالإنسان كإنسان لا كأبيض وأسود وأسمر وأحمر. وعندما يتعامل الناس داخل الأسرة على أساس إنساني لا يبقى هناك مجال للتساؤل عن الإندماج. والزواج المختلط لأن الأمر يصبح متعلقاً بإنسان يتزوج إنسانة ويعيش حولها ومعها. ومع ذلك فإن مسؤولية الوضع الراهن والدفاع عن الموقف المؤدي إليه لا يقعان على عاتق السود لأن البيض ككل هم الذين عارضوا الإندماج والزواج المختلط وعارضوا كل خطوة من شأنها أن تؤدي إلى الوحدة. وعليه فإنني بوصفي أسود وبالأخص بوصفي أمريكياً أسود لا أعتقد أن علي أن أدافع عن مواقفي السالفة لأنها لا تعدو أن تكون رد فعل على المجتمع، ولذلك فهي من صنعه، وأعتقد أن التهجم يجب أن يوجه إلى المجتمع لا إلى رد الفعل الذي ينمو لدى أشخاص هم ضحايا ذلك المجتمع السلبي».

وهكذا فإن من الإنصاف أنه راجع موقفه من الزواج المختلط إلى درجة أنه أصبح يعتبره مجرد مسألة شخصية.

وفي ٢٨ يناير استقل طائرة تابعة لشركة تي دابل يو آي رقم ٩ من نيويورك إلى لوس آنجلس التي وصلها في حوالي الثالثة بعد الزوال، حيث رأت فرقة مخابرات صديقين مقربين له وهما إدوارد برادلي وآلن جمال يستقبلانه ويأخذانه في سيارة إلى فندق هيلتون ستاتلر حيث أعطيته الغرفة رقم ١١٢٩ على حد قول برادلي الذي قال أيضاً: «عندما دخلنا الردهة دخل في أثرنا ستة رجال عرفت أنهم من المسلمين السود. وصعد ملكوم إكس إلى غرفته وعندما نزل اصطدم بهم في الردهة فبهتوا وتجمد وجهه هو ولكنه لم يرتبك في مشيته وعرفنا أننا في خطر».

وذهب ملكوم إكس وصديقاه إلى مكان التحقت فيه بهم سكرتيرتا إلايجا محمد السابقتان اللتان قدمتا دعويين ضده تتهمانه فيهما بأبوته لأطفالهما من الزنى، وذهبوا

جميعهم إلى مكتب المحامية غلاديس روت التي ذكرت أن ملكوم إكس اتهم إلايجا محمد بسوء السلوك مع العديد من سكرتيراته. ويقول برادلي: «عندما أرجعناه إلى الفندق بعد العشاء وجدنا المسلمين السود يملأون المكان، بعضهم في السيارات وبعضهم يقف قرب الفندق بحيث أنهم كانوا يطوقون الفندق. ودرس ملكوم إكس الوضع ثم قفز من السيارة بعدما نصحني بالحذر والركض إلى الردهة وذهب إلى غرفته وبقي فيها طول مدة وجوده في لوس آنجلس».

وقال برادلي: «كانت السيارة التي أقلته إلى المطار متبوعة وكنت معه وبمجرد ما دخلنا الطريق السيار لمحنا سيارتين مشحونتين بالمسلمين السود تتعقبان سيارتنا، ثم بدأتا تركناننا إلى جنب الطريق فأخذ ملكوم إكس عصاي وأخرجها من النافذة الخلفية كما لو كانت مدفعاً رشاشاً فغابت السيارتان. وزدنا في السرعة ثم عبرنا المسلك المنحدر في المطار وانطلقنا إلى مدخل المسافرين فوجدنا البوليس في انتظارنا فدخل ملكوم إكس تحت حراسته وتوجه إلى الطائرة عبر نفق تحت الأرض ورافقته حتى باب الطائرة».

وعندما وصل إلى شيكاغو في الثامنة مساء وجد الشرطة في انتظاره من جديد وذهب إلى فندق بريستول حيث شغلت الشرطة الغرفة المجاورة لغرفته لحراسته خلال الأيام الثلاثة التي قضاها هناك. وتلا ذلك إدلاؤه بشهادته في مكتب المدعي العام لولاية إيلينوي الذي كان يحقق في شأن أمة الإسلام، ثم ظهر في برنامج إيرف كوبشينيت فتكلم على محاولات اغتياله وقال إن في مكتبه رسالة بأسماء الأشخاص الذين وكل إليهم بقتله. وعندما رجع تحت حراسة الشرطة إلى الفندق وجد حوالي خمسة عشر من السود ذوي الوجوه المخيفة يحومون حوله فهمس للرقيب إدوارد ماكليلن: «كل هؤلاء مسلمون سود، اثنان منهم على الأقل من نيويورك. إني أعرفهما. يبدو أن إلايجا على علم بكل حركة أقوم بها». وقال لشرطي بعد ذلك بقليل في غرفته: «إنهم سيتمكنون مني. المسألة مسألة وقت. إني أعرف أكثر مما ينبغي عن المسلمين ولكن تهديداتهم لن تمنعني من عمل ما عقدت العزم عليه». وقضى تلك الليلة في الفندق ثم ذهب تحت حراسة الشرطة إلى المطار حيث استقل طائرة إلى مطار كينيدي في نيويورك.

وبعد ذلك مباشرة جاءه أمر المحكمة بإفراغ بيته في إلمهورست فطلبني هاتفياً في

الشمال. كان صوته متوتراً وقال إنه قد استأنف الحكم وإنه ذاهب غداً إلى ألباما وبعدها إلى إنجلترا وفرنسا لإلقاء محاضرات هناك، وإنه سيذهب بمجرد ما يعود إلى جاكسون، مسيسيبي لإلقاء خطاب في اجتماع حزب الحرية الديمقراطي المسيسيبي يوم ١٩ فبراير ثم قال شيئاً لم أسمعه منه من قبل. قال: «لقد تلفت أعصابي وتعب عقلي» وقال إنه يريد عندما يعود من المسيسيبي أن يقضي معي يومين أو ثلاثة في المدينة التي أقيم بها لقراءة المخطوط مرة أخرى، وزاد قائلاً: «ألم تقل إنها مدينة هادئة؟ يومان من الهدوء والسلام هو كل ما أريده» فقلت له إنه يعرف أنه سيحل على الرحب والسعة ولكن ليس عليه أن يحمل نفسه مشقة قراءة ذلك الكتاب الضخم مرة أخرى لا سيما وأنه لم تطرأ عليه منذ قرأه مؤخراً إلا تعديلات صياغية طفيفة فقال: «إني أريد أن أقرأه مرة أخرى لأنني لا أتوقع أن أقرأه في شكله النهائي» فاتفقنا على أن يزورني في اليوم التالي لعودته من المسيسيبي أي في نهاية الأسبوع الموافقة ليومي السبت والأحد ٢٠ و٢١ فبراير.

وكتبت مجلة جيت عن السفر الذي قام به إلى سيلمى، ألباما بدعوة من عضوين في لجنة التنسيق الطلابية المسالمة، ذلك السفر الذي صادف وجود الدكتور مارتن لوثر كينغ في أحد سجون سيلمى ورمى برفاقه في مؤتمر الزعامة المسيحية الجنوبية في الحيرة. وسارع آندرو يونغ مدير تلك الهيأة والقسيس جايمس بيفيل إلى مقابلته وحثه على عدم إثارة أية أحداث وتحذيره من احتمال إسفار حضوره عن أعمال عنف. وتقول السيدة فاني بيلامي كاتبة الجمعية الوطنية لتقدم الملونين التي رافقته إلى كنيسة زنجية ليخطب في أعضائها أنه «استمع إليهما مبتسماً» وأنه قال لها: «تذكري أن أحداً لا يلزمني بقول ما سأقوله» وأخبرها أنه ينوي أن يشرع بعد حوالي أسبوع في استقطاب السود لمنظمته في الجنوب. كان يجلس في الكنيسة بجانب السيدة مارتن لوثر كينغ فمال عليها كما قالت لمجلة جيت وهمس لها أنه يحاول أن يساعد وأنه يريد أن يتقدم ببديل قد يسهل على البيض قبول عروض مارتن وقالت: «لم أفهمه في البداية وكان يبدو حريصاً على أن يفهم مارتن أنه لا يتسبب له في أية مشاكل أو مصاعب وأنه لا يريد إلا تسهيل الأمر... وكرر ذلك فيما بعد ونحن نخرج من الكنيسة. كان يبدو صادقاً...».

وقيل إنه عندما خاطب جمهور تلك الكنيسة صرخ قائلاً: «أنا لا أدافع عن العنف ولكن إذا داس رجل على أصابع قدمي فإنني سأدوس على أصابع قدمه (...) يجب

أن يعتبر البيض أنفسهم محظوظين لكون مارتن لوثر كينغ هو الذي يجمع السود حوله لأن هناك قوات أخرى تنتظر أن يفشل لتتولاهم».

وعاد إلى نيويورك فسافر إلى فرنسا ليلقي محاضرة في مؤتمر الطلبة الأفارقة الذي كان سيعقد هناك ولكنه أخطر رسمياً بعد وصوله إلى المطار بأنه ممنوع من إلقاء محاضرته في ذلك المؤتمر وبأن عليه أن يعتبر نفسه ممنوعاً منعاً دائماً من دخول فرنسا بوصفه «شخصاً غير مرغوب فيه» وطلب منه أن يغادر التراب الفرنسي فغادره وهو يفور سخطاً وتوجه إلى لندن حيث أخذه صحافيون من هيأة الإذاعة البريطانية لتسجيل استجوابات معه في سميثويك وهي مدينة توجد بها كثرة من الملونين تقع قرب برمنغهام. وأثار ذلك بين العديد من سكانها الآخرين عاصفة من الإحتجاج على هيئة الإذاعة البريطانية التي اتهموها بتهييج المشاعر العنصرية في مدينتهم، في وقت كانت فيه مشحونة بالتوتر. وألقى خلال تلك الزيارة لبريطانيا كلمة في معهد لندن للإقتصاد.

ورجع إلى نيويورك يوم السبت ١٣ فبراير وفي اليوم التالي أيقظه من النوم في حوالي الثالثة إلا ربعاً صباحاً صوت إنفجار مريع. وأخبرتني الأخت بيتي فيما بعد أنه بدأ يعطي التعليمات بهيستيريا وينتشل الأشياء ويصرخ حتى أفزع البنات وأنه أخرج الأسرة في أمان من الباب الخلفي.

كان شخص قد رمى عبر نافذة الواجهة الأمامية للبيت بقنابل كوكتيل مولوتوف. واحتاج رجال الإطفاء إلى ساعة كاملة لإخماد النيران التي التهمت نصف البيت الذي لم يكن ملكوم إكس قد أمنه من الحريق.

وذهبت الأخت بيتي وهي حامل ببناتها الأربع إلى بيت أحد الأصدقاء المقربين. وفي ذلك الصباح ركب ملكوم إكس الطائرة إلى دترويت لإلقاء خطاب بها وهو يرتدي قميصاً صوفياً مفتوح الياقة تحت سترته ولم يلبث أن رجع إلى نيويورك. وفي صباح يوم الإثنين بينما كان غارقاً في البحث عن مسكن ينقل إليه أسرته سمع ما صرح به رجل دين المسجد السابع جايمس إكس للصحافة من أن ملكوم إكس هو الذي أشعل النار في بيته ليحقق مكسباً دعائياً فغضب غضباً شديداً.

وعندما خاطب خمس مائة شخص في قاعة أوديبون في ليلة الإثنين فقد السيطرة على أعصابه لأول مرة فقال صارخاً: «لقد وصلت إلى آخر الحبل! إني لا أهتم بما قد

يحدث لي إن كانوا لن يؤذوا أسرتي» ثم قال بكل وضوح: «لقد رمى المسلمون قنبلة في بيتي» ثم لمح إلى الإنتقام وقال: «إن المطارِد سيصبح مطارَداً!».

وطلبني يوم الثلاثاء ١٦ فبراير هاتفياً فقال لي باختصار إن رمي القنبلة في بيته قد قلب برنامجه رأساً على عقب وأنه لن يتمكن من زيارتي في نهاية الأسبوع كما كان مقرراً. وقال إنه اضطر أيضاً إلى إلغاء سفره إلى جاكسون، مسيسيبي الذي كان يحاول القيام به فيما بعد ثم قال إن عليه أن يسرع إلى أحد مواعيده وأقفل السماعة.

فيما بعد قرأت في جهة ما أنه قال لأحد أعوانه المقربين: «لقد صدر علي الحكم بالموت خلال الأيام الخمسة التالية ومعي أسماء المسلمين السود الخمسة الذين اختيروا لقتلي وسأذكرها في الإجتماع». وقال لأحد أصدقائه إنه يريد أن يطلب من قسم الشرطة رخصة لحمل مسدس وأضاف «ولكنني لا أعرف إن كانوا سيعطونها لي لأنني كنت في السجن». وفي يوم الخميس قال لأحد الصحافيين في استجواب نشر بعد موته: «إن لدي من الشجاعة ما يسمح لي بأن أقول لك إنني لا أعرف ما هي فلسفتي.ولكنني رجل مرن».

كان اللوح الأسود في مكتب منظمة الآفرو أمريكيين المتحدين يخطر الأعضاء والزوار بأن ملكوم إكس سيلقي خطاباً يوم الخميس ١٨ فبراير في الساعة العاشرة والنصف ويحدد المكان. وكان عليه قبل ذلك أن يقوم بزيارة أحد السماسرة بحثاً عن بيت آخر. وفي يوم الجمعة التقى بموران باركس الصحافي والمصور بمجلة لايف الذي كان يعجب به ويقدره فكتب عنه في المجلة قائلاً: «بدا هادئاً ومتألقاً بلحيته الصغيرة وقبعته المصنوعة من الفرو. وكان يبدو عليه أنه قد تخلى عن الكثير من عدائه ومرارته ولكن الحماس والثقة في النفس كانا ما يزالان هناك». وكلمه مالكوم إكس عن زمن المسجد السابع فقال: «إنه مشهد رديء وزمن مشوب بالمرض والجنون وأنا سعيد لأنني تحررت منه، أنا الآن أعيش زمن الإستشهاد فإذا حدث ومت فإنني سأموت شهيد الأخوة، وهي الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذ هذه البلاد. لقد وصلت إلى هذه القناعة بعد تجربة شاقة ولكنني وصلت إليها».

وسأله باركس إن كان ما يقال عن وجود أشخاص يطاردونه ليقتلوه حقاً فقال: «إنه حق كما أنني أقف معك اللحظة في هذا المكان. لقد حاولوا قتلي مرتين في الأسبوعين الفائتين». وسأله عن حماية الشرطة فضحك وقال: «لا أحد يستطيع أن

يحميك من المسلم إلا المسلم أو شخص تدرب على تكتيكات المسلمين. إني أعرف ذلك لأنني أوجدت الكثير منها».

وذكر حادثة الطالبة البيضاء التي جاءته إلى المطعم الإسلامي وسألته عما يمكنها أن تفعله فقال لها: «لا شيء» وذهبت باكية وقال: «لقد ندمت على ذلك. لقد رأيت في جهات متعددة من القارة الإفريقية طلاباً بيضاً يساعدون السود وهي حقيقة تدحض الكثير مما يمكن أن يقال في هذا الموضوع.. ولقد فعلت أشياء كثيرة وأنا في أمة الإسلام أندم عليها الآن. كنت كالحي الميت شأن غيري من باقي الأعضاء. كنت كالمنوم مغناطيسياً الذي يوضع في اتجاه ما ويقال له سر فيسير. وأظن أن للإنسان أن يجعل نفسه أضحوكة إذا كان مستعداً لدفع الثمن ولقد كان الثمن الذي دفعته أنا اثنتي عشرة سنة من عمري».

وفي صباح اليوم التالي أخذ الأخت بيتي إلى مكتب سمسار أراهما بيتاً أعجبهما يقع في حي بلونغ آيلاند أكثر سكانه يهود، ولكن كان عليهما دفع ثلاثة آلاف دولار مسبقاً. وفي طريق عودتهما إلى بيت أصدقائهما قدرا أن تصل تكاليف الرحيل إلى ألف دولار أخرى. وبقي ملكوم إكس وقتاً طويلاً مع الأخت بيتي يكلمها فقال لها إنه يعرف أنها تحت تأثير ضغط طال أمده وأنه يأسف لذلك. وعندما التقط قبعته ليخرج متوجهاً إلى منهاتن وقف في الممر وقال لها: «سنكون معاً. أريد أن تكون أسرتي معي. الأسر يجب ألا تتفرق. سوف لن أقوم بسفر طويل آخر إلا وأنت معي. سنجد من يبقى مع البنات. لن أتركك بعد اليوم مدة طويلة أبداً». وقالت لي فيما بعد: «ولم يكن أمامي إلا أن أبتسم».

وتصورت الأخت بيتي أنه توقف في الصيدلية القريبة لإستعمال المهتف العمومي. وكان بالفعل قد استعمله كما أكدت لها ذلك فيما بعد عندما قلت لها إنه اتصل بي في الثالثة والنصف ذلك اليوم، وعندما كلمني لم أعرف صوته من أول وهلة كما تعودت خلال حوالي سنتين. كان كصوت من أصيب بنزلة برد شديدة. وقال إنه قام في منتصف الليل مع بعض أصدقائه بمساعدة عمال إحدى شركات الترحيل على نقل ما سلم من متاع من الحريق قبل أن ترمي به الشرطة في الشارع تنفيذاً لحكم المحكمة وقال: «لقد كنت أزور مع بيتي بيتاً نريد أن نشتريه» وضحك في فتور ثم قال: «الناس هذه الأيام لا تريد أن تؤجر لأحد ولا سيما لي. إني لا أملك سوى ١٥٠

دولاراً» وقال إنه يحتاج إلى ٣٠٠٠ ليدفعها كتسبيق إضافة إلى ١٠٠٠ دولار لتغطية تكاليف الترحيل وسألني إن كنت أعتقد أن الناشر سيقبل أن يقدم له ٤٠٠٠ دولار من أرباح الكتاب فقلت له إنني سأسأل مكتب وكيلنا عندما يفتح في صباح يوم الإثنين ليقوم بدوره بسؤال الناشر وأنني سأكلمه مساء يوم الإثنين لأخبره بالنتيجة.

وقال إنه سيدفع ثمن البيت ولكنه اتفق مع الأخت بيتي على أن تنص الإتفاقية على كتابة البيت في اسم أخته إيلا تفادياً لأية مشاكل وقال إنه ما يزال مديناً لها بـ ١٥٠٠ دولار كان قد استعارها منها للقيام بإحدى سفراته إلى الخارج وأن حجة ملكية البيت ستكتب فيما بعد في اسم الأخت بيتي وربما في اسم ابنته الكبرى عتيلة.

وانتقل إلى الأخطار التي تهدد حياته فقال: «سأقول لك شيئاً يا أخي. إنني كلما فكرت في ذلك، أعني كل ما حدث مؤخراً زاد شكي في أن يكون من فعل المسلمين. إني أعرف ما يقدرون عليه، وما لا يقدرون عليه وهناك أشياء وقعت مؤخراً لا يقدرون عليها. ما حدث في فرنسا يزيدني اقتناعاً بأن علي أن أكف عن اتهام المسلمين» ثم قال بطريقة بدت لي غريبة ومفاجئة: «إني سعيد بكوني أول من أقام علاقات رسمية بين الآفرو أمريكيين وأشقائهم في إفريقيا» وودعني وأغلق السماعة.

وذهب بعد ذلك إلى منهاتن وقصد فندق هيلتون الواقع بين النهجين ٥٣ و٥٤ في مركز روكفلر وأدخل سيارته الأولدزموبيل الزرقاء إلى مرآبه ثم حجز غرفة في الطبقة الثانية عشرة قاده إليها أحد الخدم.

وعلى إثر ذلك دخل بهو الفندق الكبير والمزدحم زنوجاً بدأوا يسألون الخدم عن رقم غرفته. وحيث إنه كان ممنوعاً على خدم الفنادق إعطاء مثل تلك المعلومة، وباعتبار أن الأمر يتعلق بملكوم إكس الذي كان كل من يقرأ الصحف النيويوركية يعرف أنه مهدد بالقتل، فقد بادر الخدم إلى إخطار رئيس الأمن في الفندق ومن لحظتها والحراسة مشددة على الطبقة الثانية عشرة إلى أن غادر ملكوم إكس الفندق في اليوم التالي. ولم يترك الغرفة خلال تلك المدة إلا مرة واحدة فتناول عشاءه في الطابق الأرضي بقاعة أوديبون ذات الإنارة الخفيفة.

وفي التاسعة صباحاً من يوم الأحد فوجئت الأخت بيتي به يكلمها ويسألها إن كان بإمكانها إلباس الطفلات الأربع ثيابهن وإحضارهن إلى اجتماع الثانية بعد الزوال في قاعة بوربون بهارليم، فقالت إن ذلك في إمكانها طبعاً. كان قد قال لها يوم السبت

أنه لا يريدها أن تحضر ذلك الإجتماع، وعندما عاد وغير رأيه في تلك المكالمة قال لها موضحاً: «أتعرفين ماذا حدث منذ ساعة؟ أيقظني في الثامنة رجل طلبني في الهاتف وقال لي: استيقظ يا أخي ثم أقفل السماعة».

وبعد أربع ساعات غادر غرفته ونزل إلى البهو ودفع حسابه وأخرج سيارته وساقها متوجهاً شمالاً إلى قاعة بوربون وكان ذلك بعد زوال يوم الأحد ٢١ فبراير، يوم صحو ودافىء.

وتقع قاعة أوديبون بين برودواي وشارع سانت نيكولاس جنوب النهج ١٦٦ وهي بناية من طبقتين تؤجر عادة للحفلات الراقصة واحتفالات المنظمات وما شابه ذلك. وقد أخبرتني سيدة شابة جميلة، داكنة اللون ورشيقة القوام تشرف على الإستقبال وتعد من أنشط مساعدي ملكوم إكس، أنها وصلت إلى القاعة باكراً في حوالي الواحدة والنصف لإنجاز بعض الأشغال، فوجدت المقاعد الأربعمائة قد صفت بحيث ترك ممران عن اليمين واليسار ولم يترك أي ممر في الوسط. ولاحظت تلك الفتاة التي لم تشأ أن يذكر اسمها وجود أشخاص في الصفوف الأمامية، ولكنها لم تعر ذلك إهتماماً لأنه كان من عادة البعض أن يحضر باكراً ليجلس قريباً من المنصة ويتمتع بخطابة ملكوم إكس البليغة متعة كاملة. وكان على المنصفة خلف المنبر صف مستو من المقاعد البنية ووراءها ستار خلفي مرسوم عليه منظر ريفي مريح.

وكان على تلك السيدة ذلك اليوم أن تتخذ الترتيبات اللازمة وتؤكد على حضور خطيب آخر هو القسيس ميلتون غالا ميسون وهو مناضل أسود من الكنيسة المشيخية كان قد قاد مرتين في ١٩٦٤ حملة المقاطعة الزنجية داخل المدارس الرسمية احتجاجاً على الميز العنصري. وكانت تلك الفتاة قد اتخذت قبل ذلك ترتيبات مماثلة مع بعض الزنوج البارزين الذين كان منتظراً أن يلتمسوا من الحاضرين دعم ملكوم إكس في منظمته.

ولم تتخذ إجراءات التفتيش ذلك اليوم لأن ملكوم إكس كان قد أصبح لا يطيقها ويقول عنها: «إنها تحرج الناس» وتذكره بإلايجا محمد وكان قد قال مرة: «إذا لم آمن على نفسي بين قومي فأين آمن عليها؟». وكان قد أمر بعدم السماح للصحافة بالدخول سواء كانت بيضاء أو سوداء، لأنه كان غاضباً مما كان قد أسماه مؤخراً بالمعاملة الصحافية المنحرفة، ولأنه كان يعتقد بالخصوص أن الصحافة لم تأخذ أقواله حول

تعرضه للخطر مأخذ الجد ولكن ممثل وكالة اليونايتد بريس ستانلر سكوت وهو زنجي سمح له بالدخول فقال عن ذلك إن أحد مساعدي ملكوم إكس قال له: «يمكنك أن تدخل بصفتك زنجياً أو مواطناً إن شئت ولكن سيكون عليك أن تخلع شارتك الصحافية»؛ وكان الشأن كذلك بالنسبة ليوه سيمبسون الصحافي في جمعية الشباب المسيحي الذي كان مثل سكوت قد حضر باكراً وحصل على مقعد قريب من المنصة.

وقالت لي تلك السيدة الشابة إن ملكوم إكس كان ثقيل المشية على غير عادته عندما جاء قبل الثانية بقليل وتوجه إلى غرفة صغيرة تقع جنب المنصة كانت آهلة بأعوانه، وجلس إلى عرض كرسي وأدخل ساقيه الطويلتين تحته واستند بمرفق واحد إلى منضدة أمام مرآة مخلخلة يستعملها أعضاء الأجواق عندما تكون هناك حفلات راقصة.

كان يلبس بدلة داكنة وقميصاً أبيض وربطة عنق ضيقة وداكنة وقال لبعض أعوانه إنه لن يتكلم على همومه الخاصة وزاد قائلاً: «لا أريد أن يكون ذلك هو ما يأتي الناس لسماعه مني» ثم وقف وبدأ يذرع الغرفة ثم قال إنه سيعلن أنه تسرع عندما اتهم المسلمين السود بإحراق بيته وزاد موضحاً: «لأن هناك أشياء أكبر منهم وقعت. إني أعرف ما يقدرون عليه وما وقع لا يقدرون عليه».

كان تزايد الجمهور يسمع من تلك الغرفة من جلبة الكراسي وقال: «إني في حالة لا تسمح لي إطلاقاً بالخروج إليهم، ولكنني سأخفف هذا التوتر، سأقول للإنسان الأسود ألا يحارب نفسه، سأقول له إن انشغالنا بمصارعة بعضنا البعض جزء من مخطط الرجل الأبيض. إني لا أصارع أحداً وليس هذا ما جئت إلى هنا من أجله».
كان لا ينفك ينظر إلى ساعته ترقباً للقسيس غالا ميسون وقال لمساعدته الشابة: «عندما تتفقين مع القسيسين أكدي عليهم قبل الموعد بثلاث أو أربع ساعات لأن من عادتهم أن يغيروا رأيهم». وقالت وهي تحكي لي ذلك: «فشعرت بالحرج. شعرت كأنني أخطأت». وكان موعد الخطبة قد وصل فالتفت إلى مساعد ملكوم إكس بنيامين إكس المعروف أيضاً بقدرته الخطابية وسألته: «هل يمكنك أن تخطب أيها الأخ؟» ثم سألت ملكوم: «هل يستطيع أن يخطب؟» فثار في وجهها وقال لها غاضباً: «إنك لا تعرفين أنه لا يحق لك توجيه مثل هذا السؤال إليّ وهو حاضر!» ثم سيطر على نفسه بسرعة وقال: «طيب». وسأل الأخ بنيامين عن المدة التي يجب أن تستغرقها خطبته فنظر

ملكوم إكس إلى ساعته من جديد وقال: «اجعلها نصف ساعة» فتوجه الأخ بنيامين إلى الباب المفضي إلى المنصة وسمعاه يعدد بخبرة ما هو مطلوب من السود هنا في هذه الولايات المتحدة».

وتقول السيدة الشابة: «ووصلت الثالثة ولم يحضر القسيس غالاميسون وباقي الشخصيات فبدا على ملكوم إكس الشعور بالخيبة وقال لي إنه يظن أن أحداً منهم لن يحضر فأسفت له إذ كان يبدو فعلاً أن أحداً لا يبالي ولكنني قلت له: «لا تقلق. لعل شيئاً أخرهم. سيأتون». (ذكر مصدر آخر أن غالاميسون تعذر عليه الحضور فعلاً وأنه أبلغ أعوان ملكوم إكس بذلك في الهاتف وأنهم أخبروا ملكوم إكس قبل أن يدخل إلى المنصة).

وانتهت نصف الساعة المقررة للأخ بنيامين فسمعه ملكوم إكس ومساعدته الشابة في الغرفة الجانبية وهو يقدم ملكوم إكس قائلاً: «والآن أقدم لكم بدون تطويل الرجل المستعد لأن يرمي بنفسه في خط النار والموت من أجلكم. أقدم لكم فارس السود المغوار فاستمعوا إليه وأنصتوا» فاهتزت القاعة بالتصفيق وتوجه ملكوم إكس إلى الباب المفضي إلى المنصة ولكنه توقف عنده والتفت إلى مساعدته وقال لها: «يجب أن تعذريني على رفع صوتي عليك. إني لم أعد أدري ما أفعله» فقالت له بسرعة: «لا عليك. إني أفهم» فقال بصوت كأنه آت من بعيد: «لا أعتقد أن أحداً يفهم» وذهب إلى المنصة وسط التصفيق وهو يبتسم فصادف بنيامين راجعاً وهز له رأسه.

كانت السيدة الشابة قد تناولت بعض الأوراق لإنجاز عمل ما عندما دخل عليها بنيامين إكس وهو يتصبب عرقاً فربتت على يده وقالت له: «لقد كنت جيداً!» وسمعا من خلال الباب المردود التصفيق يتناقص ثم سمعا صوت ملكوم وهو ينطق بالتحية الأليفة: «السلام عليكم أيها الأخوة والأخوات» وبعض الحاضرين يرد: «وعليكم السلام!» ثم نشب شجار في الصف التاسع. بدأ رجل يضرب رجلاً آخر ويقول غاضباً: «أخرج يدك من جيبي!» فتوجهت إليهما الأنظار وقال ملكوم بحزم: «اهدأ! اهدأ! لا تنفعل! دعونا نحل هذه المشكلة بهدوء أيهاالإخوة».

كان منصرفاً إلى الشجار فلم ير ولا شك الرجال الذين ضربوه بالرصاص. وتقول امرأة كانت تجلس في الصفوف الأمامية: «كان الهرج في الخلف قد لفت نظري ولكن لوهلة قصيرة فقط إذ استدرت لأنظر إلى ملكوم إكس في اللحظة التي كان ثلاثة

رجال يقفون فيها في الصف الأول ويسددون أسلحتهم النارية إليه ويشرعون في ضربه بالرصاص في وقت واحد فبدوا لي وكأنهم فرقة إعدام».

وقال عديد من الناس إنهم رأوا رجلين يركضان نحو المنصة وفي يد أحدهما بندقية وفي يد الآخر مسدسان. وقال ستانلي سكوت الصحافي في اليونايتد بريس: «ذهبت الطلقات وجرى الرجال والنساء والأطفال وانبطحوا على البلاط أو دخلوا تحت الموائد». وقال بيتر سيمبسون الصحافي بإذاعة الشاب المسيحي: «وسمعت صوتاً مكتوماً ورأيت ملكوم إكس وقد أصيب ويده ما تزال مرفوعة ثم سقط إلى الخلف على الكراسي المصفوفة وراءه. كان الكل يصرخ ورأيت خلفي وأنا أسقط بدوري على الأرض رجلاً يطلق النار من مسدس تحت معطفه وكان يفعل ذلك وكأنه في فيلم من أفلام رعاة البقر بحيث كان يركض القهقرى صوب الباب ويطلق النار».

وقالت لي السيدة الشابة: «كان يخيل إليك من كثرة الطلقات أن جيشاً قد هجم على القاعة ولكنني أدكرت ما وقع فلم أشأ أن أخرج حتى لا يبقى في ذهني إلا صورته التي عرفته عليها».

وضع ملكوم إكس يده على صدره عندما أصابته أولى الرصاصات الست عشرة ثم ارتفعت يده اليسرى. كانت أصبعها الوسطى مهشمة بالرصاص وكان الدم يتدفق من لحيته الصغيرة. وقبض على صدره وانكب جسده المتصلب الطويل إلى الوراء بغتة على كرسيين وارتطم رأسه على البلاط.

وفي تلك الدوامة من الصراخ والعويل والركض جرى البعض إلى المنصة ومن بينهم الأخت بيتي التي كانت تحضن بناتها المفزوعات، هرولت إلي وهي تقول: «زوجي! إنهم يقتلون زوجي!».

وصوره مجهول وهو منكب ومن حوله أشخاص ينحنون عليه ويمزقون قميصه المشبع بالدم ويفكون ربطة عنقه وإمرأة ثم رجل يحاولان إسعافه بالتنفس الصناعي. وقد قالت تلك المرأة التي ذكرت أنها ممرضة: «لا أعرف كيف صعدت إلى المنصة وارتميت على رجل حسبته ملكوم إكس. كنت مستعدة لبذل نفسي ليبقى. كنت مستعدة لتلقي الرصاصات بدلاً منه ثم رأيته وتوقفت الطلقات فحاولت أن أسعفه بالتنفس الصناعي». وجاءت الأخت بيتي فشقت طريقها وهي أيضاً ممرضة وتعرف إليها الناس فتراجعوا وخرت على ركبتيها وهي تنظر إلى آثار الرصاص في صدره العاري وتقول منتحبة: «قتلوه!».

وقال الشرطي طوماس هوي الذي كان مكلفاً بالوقوف خارج قاعة أوديبون: «سمعت الطلقات وانفجر المكان» فأسرع إلى الداخل ووجد ملكوم إكس ممدداً على بلاط المنصة ورجلاً يطارده أشخاص فأمسك به.

وقال لويس ميشو صاحب المكتبة الوطنية الأثرية الواقعة بين النهج ١٢٥ والشارع السابع في هارليم: «وصلت متأخراً إلى مكان الإجتماع الذي دعاني إليه ملكوم إكس فوجدت الناس تندفع منه إلى الخارج».

ومرت دورية شرطة مكونة من الرقيب آلفين آرونوف والشرطي لويس آنجيلوس في الوقت الذي دوت فيه الطلقات. وقال آرونوف: «كانت الحشود عندما وصلنا إلى هناك تتزاحم للخروج وتقول: «لقد ضرب ملكوم إكس بالرصاص» و«أمسكوه! أمسكوه! لا تدعوه يفلت!» فأمسك الشرطيان بزنجي كان يرفس ويحاول الهرب وأطلقا طلقة نارية في الهواء وزجا الزنجي في سيارة الشرطة وانطلقا به إلى مركز الشرطة قبل أن يلحق بهما الجمهور.

وكان شخص قد انطلق إلى مصحة فانديربيلت التابعة لمستشفى كولومبيا المشيخي ودخل من باب الطوارىء الواقع في النهج ١٦٧ وأخذ محملاً وعاد به إلى منصة قاعة أوديبون. ووضع ملكوم إكس في المحمل وذهب به رجال بسرعة إلى مدخل الطوارىء في المصحة، فأخذ له مصور مجهول صورة بشعة وهو على ذلك المحمل وفمه مفتوح وأسنانه بادية. وقال ناطق باسم المستشفى فيما بعد إن ملكوم إكس وصل إلى قاعة العمليات في الطبقة الثالثة من المستشفى في الثالثة والربع وأنه «كان ميتاً أو في حكم الميت».

وشقت فرقة من الجراحين صدره في محاولة لتدليك قلبه، ولكنها توقفت عن ذلك في الثالثة والنصف. وأمطر الصحافيون الذين هبطوا على إدارة المستشفى الناطق باسم ذلك المستشفى بالأسئلة ولكنه كان يكرر باقتضاب: «لا أعرف» ثم سار نحو المصعد وتوجه إلى قاعة العمليات المستعجلة وعندما عاد كان هناك أيضاً بعض أصدقاء ملكوم إكس والأخت بيتي فاستجمع قواه ثم أعلن: «إن السيد المعروف بملكوم إكس قد مات. مات من اثر الجروح المصابة بالرصاص ويبدو أنه كان ميتاً عندما جيء به إلى هنا. لقد أصابته رصاصات عدة في الصدر ورصاصة واحدة في الخد».

وتسلل الزنوج خارجين وهم يحاولون السيطرة على إنفعالهم، واحد منهم يدق بقبضته اليمنى على راحته اليسرى وأكثر النساء ينتحبن. وفي لحظات عم الخبر أرجاء هارليم وأرجاء العالم فبدأت الناس تتجمع خارج فندق تيريزا الذي يأوي مقر منظمة الآفرو أمريكيين المتحدين وسمعت من هناك بواسطة أجهزة الترانزيستور أن الرجل الذي قبض عليه الشرطيان في مقر الحادث قد أعلن أن اسمه توماس هاغان (وألقت دورية أخرى القبض على شخص آخر اسمه تالمادج هاير) وأن الشرطة عثرت في جيب سرواله الأيمن على مشط تعمير رصاص من عيار ٤٥. ما يزال يحتوي على أربع خرطوشات عامرة.

بعد ذلك أعلن الأطباء في المستشفى الأثري اليهودي أن هاير أصيب بجروح في فخذه الأيسر وبرضوض في جبهته، وأن هناك آثار ضرب على جسده. وقال النقيب آرونوف: «لو لم ندركه لقتلوه» ثم نقل هاير إلى مستشفى بيڤلو.

وفي حوالي الخامسة بعد الزوال تم تفريق التجمهر بهدوء وحذر من أمام فندق تيريزا، ومن باب الإحتياط أمر النقيب لويد سيلي رئيس الدائرة الثامنة والعشرين، وهو أول زنجي في نيويورك يصل إلى تلك الرتبة، المسلمين السود بإغلاق مسجدهم السابع ومطعمهم في النهج الموالي لمكان الحادث.

واتصل الصحافيون بمطعم المسلمين السود فرد عليهم رجل قال لهم: «ليس هناك من يمكنه الإدلاء بأي تصريح» وطلبوا مكتب منظمة الآفرو أمريكيين المتحدين فلم يرد عليهم أحد. وبعد ذلك بقليل ظهر النقيب سيلي يمشي بمفرده في النهج ١٢٥ وهو يهز هراوته في يده ويتوقف ليكلم من يلتقيهم.

وصدرت الأوامر في دائرة الشرطة الثامنة والعشرين في النهج ١٢٣ إلى رجال الشرطة الأربعين الذين انتهت فترتهم بأن يبقوا في أماكنهم، وعززت شرطة نيويورك الدائرة بحافلتين من رجال مدربين تدريباً عالياً على تكتيكات الدوريات ثم أدلى العديد من رجال الشرطة بتصريحات للصحافة. وقال النقيب هاري قيصر أحد أعضاء شرطة الدوريات النيويوركية إنه لم يتم تسجيل أي حادث غير عادي وإنه لا يترقب أن تحدث أية مشاكل. وقال وولتر آرم عميد الشرطة إن «المئات» من رجال الشرطة وحتى بعض أعضاء البوليس السري سيرسلون إلى منطقة هارليم لتعزيز الأمن فيها.

وتكهن هاري تايلور وهو مفتش مساعد أن المجرمين لم يخرجوا من القاعة مع

الجمهور وإنما نفذوا من مكان الحادث إلى النهج ١٦٥ مباشرة. وفي المساء أوقف رئيس المفتشين فيليب وولش عطلته والتحق بالفرقة المكلفة بالبحث عن القتلة وقال إنه يترقب أن تكون التحريات طويلة ودقيقة.

وصورت الشرطة والصحافة المنصة وعليها علامات بالطباشير الأبيض تحيط بخمسة ثقوب في المنبر كما كان هناك ثقوب في الستار الخلفي تشير إما إلى أثر رصاص طائش أو رصاص اخترق ملكوم إكس.

ورفضت الشرطة أن تقول أي شيء عن الإشاعة التي كانت تعم هارليم والتي تقول إنها حازت على شريط صوره أحد الحاضرين في القاعة وقت وقوع الجريمة. وكانت هناك إشاعة أخرى انتشرت بسرعة مفادها أن الأخت بيتي عندما انحنت على جثمان زوجها أخرجت من جيب سترته ورقة كان قد كتب عليها أسماء الأشخاص الذين بلغه أنهم عينوا لقتله.

وأكد وولتر آرم مفوض الشرطة أن مصلحة الشرطة بذلت جهوداً لحماية ملكوم إكس وعرضت عشرين مرة حمايتها عليه وعلى بعض أعوانه ولكنهم رفضوها وأنها عرضت عليه سبع عشرة مرة، آخرها يوم «الأحد الماضي»، أن تبعث رجال شرطة إلى اجتماعاته في قاعة أوديبون. وسئل عن إذن حمل المسدس الذي كان ملكوم إكس قد أعلن أنه ينوي طلبه فقال إنه حسب علمه لم يتقدم بذلك الطلب. وأثير عديد من المسائل. وإلى حد هذه الساعة التي أخط فيها هذه الكلمات لم يعلن عن هوية المتهم الذي قبض عليه شرطي الدورية والذي كان الجمهور يطارده.

على أن تصريح وولتر آرم مفوض الشرطة حول رفض ملكوم إكس حماية الشرطة يتناقض مع تصريحات أعوان ملكوم إكس القائلة بأنه اشتكى عدة مرات خلال الأسبوع السابق لاغتياله من كون الشرطة لا تنظر إلى طلب حمايته بجدية، رغم أن هذه الأخيرة قالت إن جزءاً من فرقة يتكون من عشرين شرطياً قد أرسل إلى اجتماع قاعة أوديبون الأخير، وأن بعض أعضاء البوليس السري حضروه إلا أن أحداً لم ير أياً منهم لا إبان ولا بعد الإغتيال، وحتى تالمادج هاير الذي أفلت من الجمهور وقُبض عليه إنما قبضت عليه دورية كانت تمر بالصدفة.

وجاءت مكالمات الصحافيين من أطراف البلاد إلى إلايجا محمد بمركز إدارته ببيته الكبير في شيكاغو فرفض أن يرد عليها ولكن ناطقاً باسمه قال: «إن محمد ليس

عنده اليوم تعليق ولكنه قد يكون لديه ما يقوله غداً». ولم يكن الصحافيون أكثر حظاً مع أخ ملكوم إكس الأكبر ويلفريد إكس رجل الدين المسلم الأسود بمسجد دترويت رقم واحد.

وقالت لهم امرأة في بيته إنه غير موجود وإنه لم يذهب إلى نيويورك وإنها لا تعتقد أنه ينوي الذهاب إليها. (وعندما أمكن الإتصال برجل الدين ويلفريد إكس فيما بعد قال إنه ينوي حضور مؤتمر المسلمين السود في شيكاغو المقرر عقده يوم الأحد التالي وقال فيما يخص أخاه: «لقد مات أخي وليس هناك ما يمكننا لإرجاعه إلى الحياة»).

ومع نزول الليل تجمع الزنوج نساء ورجالاً أمام مكتبة لويس ميشو في ساحة تقام فيها الظاهرات الوطنية السوداء بهارليم. وقام أعضاء منظمة الآفرو أمريكيين المتحدين بفتح مركز المنظمة في فندق تيريزا وجلسوا في المكتب وامتنعوا عن الإدلاء لرجال الصحافة بأي تصريح.

وظهرت مجلة نيويورك دايلي نيوز وعلى غلافها صورة ملكوم إكس فوق المحمل وعليها بخط عريض «إغتيال ملكوم إكس» فعنوان فرعي «بالسلاح الناري في تجمع». وفي لونغ آيلاند كتبت عتيلة كبرى بنات ملكوم إكس البالغة من العمر ست سنوات بعدما أخذت إلى هناك من مكان الحادث رسالة إلى والدها تقول فيها: «أبي العزيز، أحبك كثيراً. آه، آه، ليتك لم تمت!»؟

كانت الجثة مسجلة تحت اسم «جون دو» لأنه لم يكن قد تم التعرف عليها رسمياً بعد ونقلت في ساعة متأخرة من مساء يوم الأحد إلى مكتب نيويورك الواقع في ٥٢٠ بالشارع الأول. وأسفر التشريح عن أنه مات من أثر الرصاصات التي أصابته في قلبه وقال الطبيب المشرف على المستشفى الدكتور ميلتون هيلبورن إن ملكوم إكس مات بمجرد ما أصيب في قلبه، وصدره بثلاث عشرة رصاصة صادرة من بندقية وأن الجروح التي تسببت له فيها رصاصات من عيار ٣٨. و٤٥ في الفخذين والساقين تدل على أنها أصابته بعدما سقط.

وفي صباح يوم الإثنين قامت الأخت بيتي رسمياً بالتعرف على الجثة. وكان يرافقها بيرسي ساتن والسيدة إيلا كولينز أخت ملكوم إكس من أبيه وجوزيف هول مدير دار الوحدة الجنائزية بهارليم. وعندما غادرت الأخت بيتي مكتب الفحص الطبي في

حوالي الثانية عشرة زوالا لإتمام إجراءات الجنازة قالت للصحافة: «لم يصدقه أحد. لم يأخذوه مأخذ الجد. حتى عندما أحرق بيتنا قالوا إنه هو الذي أحرقه!».

وفي دار الوحدة الجنائزية الواقعة شرق الشارع الثامن بين النهجين ١٢٦ و ١٢٧ اختارت الأخت بيتي تابوتاً من البرونز مبطناً بقطيفة صفراء. وطلبت أن يؤجل الدفن إلى يوم الأحد أي إلى ما بعد خمسة أيام. وأعلن هال مدير دار الوحدة الجنائزية أن ملكوم إكس سيدفن في بدلة رسميه وأنه سيوضع وراء الزجاج من يوم الثلاثاء إلى يوم الجمعة ليلقي عليه الناس نظرة أخيرة وأن مراسيم الجنازة ستتم في إحدى كنائس هارليم.

وبعد ذلك وضع على كتاب الدار «الحاج مالك الشباز». وفي بروكلين قال الشيخ الحاج داوود أحمد الفيصل وهو مسلم سني من البعثة الإسلامية في أمريكا إن تأجيل الدفن منافٍ للعادة الإسلامية التي تنص على أن الشمس لا يجب أن تغيب مرتين على جثة المؤمن، وأن القرآن يشير إلى أن الدفن يجب أن يتم في حدود أربع وعشرين ساعة إن أمكن، وأن المسلمين يعتقدون أن الروح تخرج من الجثة عندما تبرد وتعود إليها عندما توضع تحت التراب.

وفي شيكاغو كانت الشرطة تراقب محطات الحافلات الرابطة بين المدن ومحطة القطار والمطار ومداخل الطرق السيارة. وقال إلايجا محمد في بيته الكبير المكون من ثلاث طبقات وهو تحت حراسة مكثفة: «إن ملكوم إكس مات بما كان يدعو إليه. إنه كان قد أصبح على ما يبدو يعبد السلاح ولذلك لم نكن لنتسامح معه. لقد كان يدعو للحرب ونحن ندعو للسلم. نحن لا يسمح لنا بالقتال إلا إذا هوجمنا، هذا ما يقوله القرآن والإنجيل، ولذلك فنحن لن نبدأ بالعدوان. ولا يحق لي أن أخاف لأن الله اختارني ولأن حياتي في يده فإن رمى بي في يد الأشرار فأنا راضٍ بحكمه. وكان بيته الكبير تحت حراسة شرطة شيكاغو وفتيان ثمرة الإسلام كما كان المزيد من هؤلاء وأولئك يقف أمام ثانوية الجامعة الإسلامية ومكاتب جريدة محمد يتكلم.

وقال محامي ملكوم إكس بيرسي ساتن العضو في المجلس التشريعي المحلي إن الشرطة قد توصلت بأسماء الأشخاص الذين كان ملكوم إكس قد قال إنهم ينوون قتله. وكان الصحافيون يتسجوبون الناس في كل أرجاء هارليم ويضعون المكروفونات أمام رجل الشارع والشهود يتركون دوائر الشرطة من أبوابها الجانبية. وقال مساعد رئيس

المفتشين جوزيف كويل المشرف على مفتشي شمال منهاتن: «... إنها مؤامرة محبوكة بدقة. إننا نقوم بالتحقيق مع الأشخاص الأربعمائة الذين كانوا في القاعة وقت الحادث». وقال إنه يعمل في هذه القضية خمسون من رجال الشرطة وأنه اتصل بشرطة المدن الأخرى.

كانت هارليم هاجعة عندما مزق سكونها في الثانية والربع صباحاً إنفجار هز المنطقة القريبة من مسجد نيويورك السابع الواقع في الطبقة الرابعة والأخيرة من بناية توجد بين النهج ١١٦ وشارع لينوكس. وحضر رجال الإطفاء بعدما أخطرهم الشرطيون الأربعة المكلفون بحراسة مدخل البناية. وما هي إلا دقائق حتى كانت ألسنة اللهب قد دكّت سطح البناية وارتفعت في الفضاء. وظل رجال الإطفاء يصبون المياه على البناية طيلة سبع ساعات. وعثر في السطح المجاور على علبة بنزين سعتها خمس غالونات وحقيبة بنية عليها بقع من البنزين وخرق مشبعة بالزيت. وغُيِّرَ لوهلة اتجاه خط المترو وثلاثة من خطوط الحافلات. وتهاوى أحد من جدران البناية من فعل اللهيب المهول فحطم سيارتي إطفاء وأصاب خمسة من رجال الإطفاء بجروح كانت بليغة بالنسبة لواحد منهم كما أصيب رجل كان يشتري جريدة في الرصيف الآخر. وعندما طلع النهار أُعلن أن النيران قد تمت السيطرة عليها. وكان مسجد المسلمين السود والكنيسة الواقعة تحته قد خربا كما خربت سبعة متاجر في الطابق الأرضي بما فيها المطعم الإسلامي. وقالت مصلحة الإطفاء إن الخسائر تقدر بخمسين ألف دولار. وقال جوزيف إكس الذي كان مساعد ملكوم إكس الأول في المسجد السابع إن الصلاة ستقام في مسجدين أحدهما في بروكلين والآخر في كوينز، لونغ آيلاند. وكان كلا المسجدين تحت الحراسة المستمرة.

وفي الطرف الآخر من البلاد، في سان فرانسيسكو عثر شرطيان بعد ظهر يوم الثلاثاء على حريق قبل أن يشب في مسجد المسلمين السود وتمكنا من إخماده بسرعة. وكان مجهول قد صب على الباب وبين يديه زيت الغاز وأضرم النار.

وحدد موعد مرور الجمهور أمام جثمان الحاج مالك الشباز في الثانية والنصف من بعد ظهر يوم الثلاثاء فجاء واصطف خلف حواجز نصبتها الشرطة في انتظار أن يسمح له بالدخول بينما انتشر رجال الشرطة في سياراتهم في كل مكان وانتصب الرماة في السطوح المحيطة بدار الجنازة ولكن التهديدات بوضع القنابل بدأت تصل هاتفياً

بعد الزوال مباشرة فأفرغت الدار مرتين لتفتيشها دون أن يعثر فيها على شيء. وجرى تفتيش مماثل في مكاتب النيويورك تايمز الواقعة في النهج ٤٣ بعدما اتصل بها رجل احتج على مقالها الإفتتاحي المخصص لمالكوم إكس وقال: «ستخرب آلياتكم في الساعة الرابعة».

وفتشت الشرطة كل الطرود وباقات الزهور التي كانت تصل إلى دار الجنازة بهارليم كما فتشت حقائب النساء الكبيرة. وفي الساعة السادسة والربع مساء وصلت الأخت بيتي بين أربعة أقرباء وأصدقاء تصاحبهم فرقة من رجال الشرطة ودخلوا الدار تحت وابل من أضواء المصورين فقال أحد الصحافيين البيض معلقاً: «إنها جاكلين كينيدي السوداء. امرأة ذات شأن. تعرف ما يجب عليها عمله في الوقت المناسب وتدبر أمرها بشكل رائع».

وخرج أعضاء الأسرة في السابعة وعشر دقائق ثم سمح للجمهور بالدخول بعد عشر دقائق. ومن ذلك الحين حتى العاشرة مساء مر أمام الجثمان ألفا شخص من بينهم بعض البيض. كان الجثمان في تابوت مفتوح وكان في بدلة رسمية داكنة وقميص أبيض وربطة عنق داكنة وكان فوقه صفيحة نحاسية مستطيلة مكتوب عليها: «الحاج مالك الشباز ١٩ مايو ١٩٢٥ ـ ٢١ فبراير ١٩٦٥».

وفي ذلك الوقت كان أتباع ملكوم إكس يبحثون في هارليم بقلق متزايد عن كنيسة تقبل إجراء مراسيم الجنازة يوم الأحد. وكانت كنائس عدة قد ردت طلبهم ومن بينها أكبر كنيسة في هارليم وهي الكنيسة المعمدانية الحبشية التي يرعاها القسيس عضو الكونغريس آدم كلايتون پاول. وذكرت الأمستردام نيوز أن من بين من رفضوا الطلب كنيسة وليامز ومعبد اللجوء إلى كنيسة سيدنا المسيح، ثم قبل ألڤن شايلدس الأسقف بمعبد الإيمان، كنيسة الله في المسيح الواقعة بين النهج ١٤٧ وشارع أمستردام والتي كانت في السابق مسرحاً حُوِّلَ إلى كنيسة منذ خمس عشرة سنة فكانت تسع ألف شخص في القاعة وسبع مائة في القبو. وقال القسيس شايلدس الذي انتخب في ١٩٦٤ عمدة محلياً إنه فعل ذلك بدافع إنساني. وسئل عن ملكوم إكس فقال: «كان مناضلاً يعبر عن أفكاره. لم أكن أتفق مع فلسفته ولكن ذلك لم يؤثر على صداقتنا». وبمجرد ما عرف الخبر بدأت التهديدات بوضع قنابل تصل هاتفياً إلى كنيسة القسيس شايلدس وبيته.

ونقلت الصحافة تعليقات شخصيات زنجية على موت ملكوم إكس فقال العالم

النفساني المشهور الدكتور كينيث كلارك لمجلة جيت: «كنت أحمل لهذا الرجل احتراماً كبيراً. أعتقد أنه كان يحاول صادقاً أن يجد مكانة له في صراع الحقوق المدنية يكون فيها محترماً ومفهوماً، وكنت أتكهن له بالصعود فيها وإنه لشيء مأساوي أن يصفى في الوقت الذي كان قد بدأ يقترب فيه من هدفه».

وذكر مراسل النيويورك تايمز في لندن أن الأديب والكاتب المسرحي الأمريكي الأسود جايمس بالدوين ذكر في ندوة صحافية أنه يعتقد «أن موت ملكوم إكس سيؤدي إلى إنتكاس الحركة الزنجية». وأشار إلى الصحافيين البيض الحاضرين وقال: «أنتم الذين قتلتموه... إن الذين قتلوه تكونوا في بوتقة الغرب، بوتقة الجمهورية الأمريكية» وقال: «إن اغتصاب أوروبا لإفريقيا قد أعطى الإنطلاقة للمشاكل العنصرية وهو الذي كان بداية نهاية ملكوم إكس».

وقال لويس ميشو صاحب مكتبة في هارليم وأحد شخصياتها للأمستردام نيوز: «إن مثل هذه الأفعال هو الذي يخلق التلاحم بين الجماهير. لقد مات ملكوم إكس ميتة باتريس لومومبا في الكونغو... كان علينا أن نتحد لا أن نتقاتل».

وقال بليار راستين وهو من أهم الشخصيات المنظمة للمسيرة السوداء إلى واشنطن في ١٩٦٣: «إن موت ملكوم إكس قد غير نظرة الشباب الزنجي إلى نفسه». وقال جايمس فارمر زعيم مؤتمر المساواة العرقية إن «طرفاً ثالثاً» هو الذي قتل ملكوم إكس بهدف زيادة العنف والإغتيال والثأر». وسئل بعد أيام عن الإشاعة القائلة إن موت ملكوم إكس من تدبير صيني فقال: «لن أقول إن ذلك أمر مستبعد». وقال الدكتور إريك لينكولن صاحب كتاب «المسلمون السود في أمريكا» للصحافة في جامعة براون التي كان أستاذاً زائراً وباحثاً فيها: «إن السود في أمريكا ينظرون إلى موت ملكوم إكس كأشأم حدث حل بهم منذ نفي ماركوس غارفي في العشرينات، ولا أعتقد أن لأية جهة أجنبية يداً في المجزرة. إن الفاعل منا، من داخل النزاع الأسود. إن من قتل ملكوم إكس هو أحد المتنازعين على زعامة الجماهير السوداء التي تعد أقل المجموعات في أمريكا إمكانات وأكثرها عرضة للتلاشي». وقال روي ويلكينز أمين الجمعية الوطنية لتقدم الملونين: «إن موت ملكوم إكس يعطي من الدلالات ما كانت تعطيه خطبه ربما أكثر».

وعبر المحققون عن استيائهم من عدم تفتح أعوان ملكوم إكس معهم وعدم

مساعدتهم للتحقيق. ونشرت الصحافة بطلب من الشرطة رقماً هاتفياً خاصاً وطلبت ممن يتوافر لديهم معلومات سرية حول الجريمة ويريدون إبلاغها أن يتصلوا بالمحققين فيه. وكانت الشرطة تحجز روبن فرانسيس حارس ملكوم إكس الذي كان يعتقد أنه هو الذي أصاب تالمادج هاير المتهم بقتل ملكوم إكس والذي كان في سجن بيلفو حيث كانت ستجرى له عملية جراحية.

وبينما كانت الألوف تمر أمام جثمان ملكوم إكس كانت التهديدات بوضع القنابل تصل بالهاتف إلى دار الجنازة وإلى معبد الإيمان حيث كان منتظراً أن تشيع الجنازة يوم السبت. وفي ذلك الوقت هددت منظمة تعرف بفدرالية العمل السياسي الحر يتزعمها جيسي غراي صاحب فكرة الإضراب عن الإيجار، بمقاطعة كل متجر في هارليم لا يغلق أبوابه من مساء يوم الخميس إلى صباح يوم الإثنين حداداً على ملكوم إكس وبدأت توزع على المارة منشوراً ورد فيه: «إن من لا يغلق يعلن عن تعاطفه مع العدو ويلزمنا بإغلاق متجره إلى الأبد بمقاطعته وكل من يشتري من المتاجر المفتوحة في النهج ١٢٥ في الفترة المحددة للإغلاق يتعاطف مع العميل المجرم الذي سمح للجهاز الحاكم باستعماله لقتل الأخ ملكوم».

وفي تجمع دعت إليه منظمة العمل السياسي الحر أمام مكتبة ميشو قال جيسي غراي: «يجب أن يرشح زنجي نفسه لإنتخابات عمدة نيويورك في ١٩٦٥ باسم ملكوم إكس وأتكهن له بالحصول على ١٠٠ ٠٠٠ صوت». بعد ذلك اجتمع تجار وأعضاء الغرفة التجارية بهارليم وصوتوا على قرار يحث متاجر هارليم على عدم الإغلاق وعلى «مواصلة استقبال زبائنها» كما أصدروا توصية تطالب أصحاب المتاجر بعدم اقتطاع أجور من يرغبون من عمالهم في تشييع الجنازة يوم السبت.»

بعد ذلك بدأ زعماء هارليم ينتقدون منظمة العمل السياسي الحر الواحد تلو الآخر ويصفون مبادرتها باللامسؤولية. وبقيت متاجر هارليم في الأخير مفتوحة فأرسلت منظمة العمل السياسي الحر حوالي عشرين محرضاً بقوا واقفين لحين أمام بلومستيل أكبر متاجر هارليم تحت زعامة رجلين أبيضين يحملان علامات تقول: «يجب إغلاق كل المتاجر. كرموا ملكوم إكس». كان الجو قد أصبح بارداً جداً وحبال الماء المتجمد تتدلى من سقف بناية المسجد السابع الذي خربته النيران. وكتبت جريدة الأمستردام نيوز الواقعة على مقربة من دار الجنازة في افتتاحية لها تحت عنوان: «بين

الهدوء والإعصار» قالت فيها إن تشييع جنازة ملكوم إكس بهدوء من شأنه أن يخيب ظن نقاده الذين لا يتوقون لشيء أكثر مما يتوقون لرؤية السود يتشاغبون على جثته».

وكان خطر الشغب ماثلاً وتزايد عدد زعماء هارليم الذين صرحوا أن ذلك يعود بالأساس إلى صحافة المركز البيضاء التي تعمد إلى أسلوب الإثارة في تقديم ما يجري في وسط يتصف في واقع الأمر بالهدوء والكرامة. وأخيراً أصدرت جمعية رجال الدين المنتمين للمعتقدات المختلفة وثيقة اتهمت فيها الصحافة جاء فيها: «إن العناوين الصارخة التي تظهر في عدة صحف تجعل من يقرؤها يظن أن هارليم قد أصبحت معسكراً ينذر بالإنفجار، والحالة أن الأغلبية الساحقة من سكان هارليم لم تشترك في أعمال العنف التي ضخمتها الصحافة، وإن تحريف الحقائق لكفيل بخلق جو مواتٍ لبعض المنحرفين والمغامرين».

ونشرت الأمستردام نيوز مقالاً صدم الكثيرين في هارليم بعنوان: «مات ملكوم إكس معدما». وكان الكثيرون يعتقدون أنه عندما أصبح رجل دين مسلم أسود عاهد الله أن يبقى فقيراً فلم يقتن من حطام الدنيا شيئاً خلال الإثنتي عشرة سنة التي قضاها في أمة الإسلام. وقرأت في جهة ما أنه كان يتقاضى من أمة الإسلام أجراً ما يقارب ١٧٥ دولاراً في الأسبوع لتغطية نفقاته باستثناء نفقات أسفاره. وجاء في مقال الأمستردام نيوز قولها: لقد ترك بناته الأربع وزوجته الحامل بدون أي تأمين أو رصيد أو مورد.» ولعله قد ورد في ذلك المقال أيضاً أن الأجل وافاه قبل أن يكتب وصيته التي كان على موعد مع محاميه ليكتبها بعد خمسة أيام من وفاته. وخلال الأسبوع فتحت جماعتان، تشكلتا فوراً، اكتتابين تَحَوّلا إلى حسابٍ جارٍ في بنك الحرية الوطني الواقع في ٢٧٥ بالشارع ١٢٥ بهارليم، وذلك لمساعدة الأخت بيتي على تربية بناتها.

وقالت السيدة إيلا ماري ماي كولينز أخت ملكوم إكس من أبيه في ندوة صحافية عقدتها في بوسطن إنها تختار زعماء منظمة الآفرو أمريكيين المتحدين لخلافة أخيها. وكانت تدير مدرسة سارة ليتل الإعدادية للفنون التي قالت عنها إنها تعلم الأطفال العربية والسواحلية والفرنسية والإسبانية. وكانت قد انفصلت عن مسلمي إلايجا محمد السود في ١٩٥٩ الذين كانت قد انضمت إليهم بعدما أسلمت على يد ملكوم إكس.

وبعيداً عن هارليم، في تلك الأمصار التي سافر إليها ملكوم إكس غطت الصحافة الإغتيال تغطية أزعجت مدير وكالة الإعلام الأمريكية إزعاجاً شديداً، وكان هو نفسه

زنجياً يسمى كارل رووان وقال إنه بمجرد ما سمع الخبر عرف أنه سيؤول تأويلات خاطئة في بعض البلاد التي يجهل الناس فيها حقيقة ما ملكوم إكس يمثله.» وقال: «إن وكالة الإعلام الأمريكية بذلت قصارى جهودها لتنوير الصحافة الإفريقية بواقع حال ملكوم إكس وأفكاره، وأنه ما يزال هناك ردود فعل إفريقية ناتجة عن الأخبار الخاطئة والتحريف. إن الأمر يتعلق بزنجي يدعو إلى الفصل والكراهية العرقية، قتله زنجي آخر ينتمي إلى منظمة أخرى تدعو أيضاً إلى الفصل والكراهية العرقية وكلاهما لا يمثل إلا أقلية ضئيلة من السود في أمريكا. كل هذه الضجة على نزيل سجون سابق وبائع مخدرات تحول إلى عنصري متعصب. والخلاصة أننا نحن الأمريكيين لا نعرف كل ما يجب علينا أن نعرفه حول ما يدور في رؤوس شعوب أخرى أو أن حاجة الناس إلى الإخبار أكبر مما نعتقد».

وكانت الدايلي تايمز الصادرة في لايغوس، نيجيريا قد كتبت ما يلي: «لم يكن ملكوم إكس خالياً من العيوب، شأنه شأن سائر البشر... ولكن أحداً لا يشك في أنه كرس حياته لتحرير إخوانه... لقد كافح ومات في سبيل ما كان يعتقد أنه الحق فالتحق بالشهداء». ووصفت جريدة التايمز الغانية الصادرة في آكرا ملكوم إكس بالمناضل وبأنه أكثر الزعماء الأمريكيين السود المناهضين للميز العنصري شعبية». وأضافت اسمه إلى قائمة شهداء الحرية في إفريقيا وأمريكا بدأتها بجون براون وختمتها بباتريس لومومبا. وكتبت يومية غرافيك الصادرة أيضاً في آكرا تقول: «إن التاريخ سيذكر اغتيال ملكوم إكس كأكبر صفعة تلقاها دعاة الإندماج السود منذ مقتل إدغار إيفرز الشنيع وجون كينيدي».

وقالت جريدة الحرية الباكستانية الصادرة في كراتشي إن ملكوم إكس كان «زعيماً زنجياً عظيماً». وقالت التايمز الباكستانية: «إن موته انتكاسة للحركة الزنجية المطالبة بالحرية». وقالت جريدة الصين اليومية الصادرة في بكين: «لقد قتل لأنه كان يصارع لتحرير ثلاثة وعشرين مليوناً من الزنوج الأمريكيين».

وذكر بعض الصحافيين أن عناوين الصحافة الجزائرية بدأت بقول إن الكوكلوكس كلان هو الذي قتله، وأن جريدة الجمهورية ذات الميول الشيوعية في افتتاحيتها: «الفاشية الأمريكية». وقال مراسل التايمز في الجزائر إن الجزائريين يرفعون ملكوم إكس إلى مرتبة الإستشهاد. وسارت مظاهرة إلى مقر القنصل الأمريكي في جورج تاون

بغوييانا البريطانية وهي تردد: «الأمبرياليون الأمريكيون». وقالت صحيفة صينية أخرى تصدر في بيكينغ تسمى جين مين جيه پاو: «إن هذا الموت يدل على أن التعامل مع التعسفيين الأمبرياليين يجب أن يقوم على مقابلة العنف بالعنف». وذكر مراسل النيويورك تايمز في موسكو أن جريدة البرافدا لم تصدر إلا مقالات موجزة في الموضوع وأنها لم تتناوله في افتتاحيتها، وقال مراسل الجريدة نفسها في بولونيا إنه لم يكن هناك أي رد فعل هناك تجدر الإشارة إليه لأن القليل من البولونيين يعرفون ملكوم إكس ويهتمون بالقضية العنصرية». وقيل إن الصحافة الصادرة في القاهرة وبيروت ونيودلهي وسايغون لم تورد الخبر إلا بشكل روتيني بينما لم تهتم به الصحافة في باريس وأوروبا الشرقية إلا لمدة يوم واحد.

وتناولت الصحافة الألمانية الحادث كما لو كان قد دار وفقاً لتقاليد مجرمي شيكاغو. وقالت جريدة النيويورك تايمز: «لقد تكلمت صحافة لندن على الحادث بلهجة أشد ولمدة أطول من صحافة باقي البلاد مركزة باستمرار على تطورات التحقيق. ونشرت كل من التايمز والدايلي تلغراف اللندنيتين مقالات رئيسية في الموضوع ولكنهما لم تتعرضا لملكوم إكس كشخصية هامة». وذكر مراسل نيويورك تايمز في لندن أيضاً أن جماعة تسمي نفسها مجلس المنظمات الإفريقية انتقدت الولايات المتحدة بعنف وأنها تتكون من الطلاب الأفارقة وأعضاء الجالية الإفريقية في لندن. ووصفت ملكوم إكس في بيان صحافي أصدرته بأنه زعيم في الصراع ضد الأمبريالية الأمريكية والتعسف والعنصرية، وقالت إن الذين قتلوا لومومبا هم الذين قتلوا ملكوم إكس ببرودة دم.

وكانت عناوين الصحف النيويوركية يوم الجمعة تتكلم على إلقاء القبض على متهم آخر، ربع القامة، مستدير الوجه، خبير سابق في الكاراتيه في السادسة والعشرين من عمره يدعى نورمن إكس ٣ باتلر يزعم أنه مسلم أسود. وبعد أسبوع ألقي القبض على شخص يدعى توماس إكس ١٥ جونسون زعم بدوره أنه مسلم أسود. وكان كل منهما قد اتهم بإطلاق النار على بنيامين براون في يناير ١٩٦٥ وهو حارس سجن معروف بتهجمه على المسلمين السود وبذلك أصبح عدد المتهمين بقتل ملكوم إكس في عاشر مارس ثلاثة أشخاص.

ومع إعلان إلقاء القبض على باتلر الذي أدعى أنه ينتمي إلى منظمة إلايجا محمد

ارتفع التوتر بين أعضاء الجماعتين (جماعة إلايجا محمد وجماعة ملكوم إكس). وحل موعد مؤتمر المسلمين السود الوطني الذي كان مقرراً أن يبدأ يوم الجمعة في شيكاغو ويستمر ثلاثة أيام. وفي صباح يوم الجمعة قضى العشرات من رجال الشرطة أربعين دقيقة في تفتيش طائرة تابعة لخطوط كابيتال كان المسجد السابع قد حجزها لنقل المسلمين إلى شيكاغو وإرجاعهم إلى نيويورك مقابل ٥١٧٥،٥٤ دولاراً يدفعها على أقساط.

ووصل إلى شيكاغو حوالي ٣٠٠٠ مسلم أسود من مساجد المدن الكبرى لحضور مؤتمرهم السنوي الذي يعتبر عندهم بمثابة عيد ميلاد المسيح. كانت وفود المساجد تصل على التوالي إلى الميدان الرياضي الكبير الواقع جنوب مركز شيكاغو التجاري وتتجمع أمامه. وكان الإخوان في مختلف الأعمار يرتدون بدلات أنيقة وداكنة وقمصاناً بيضاء والأخوات في عباءات حريرية فضفاضة وعلى رؤوسهن المناديل. وكانوا ينتظرون دورهم في الصف ليفتشوا تفتيشاً مشدداً قبل الدخول، وقالت الشرطة إن ذلك التفتيش لم تشهد له شيكاغو مثيلاً وأنه من النوع الذي لا يكون إلا عند زيارات رؤساء الدول. وكان التفتيش أشد ما يكون على الزنوج غير المسلمين الذين حضروا كمتفرجين وعلى أعضاء الصحافة البيض والسود. هناك قال حارس مسلم أسود لصحافي أبيض: «اخلع قبعتك! برهن عن شيء من الإحترام!» وكان الذين مروا من التفتيش يتبعون أحد أعضاء ثمرة الإسلام ليدلهم على مقاعدهم في القاعة المعرضة لمجرى الهواء والتي تسع ٧٥٠٠ شخص والتي لم يمتلىء إلا نصفها ذلك اليوم، فرد المسلمون ذلك إلى الرجل الأبيض الذي يفرق بين السود، ولكن الملاحظين الذين ذكروا بأن تلك القاعة كانت ممتلئة عن آخرها في العام الماضي ردوه إلى تخوف الزنوج غير المسلمين من التهديدات بوضع القنابل. وجلس الجمهور يوشوش تحت اللافتتين اللتين كتب عليهما: «مرحباً بإلايجا محمد. حضورك يسعدنا» و«يجب أن نحصل على شيء من تلك الأرض» إشارة إلى طلب إلايجا محمد منح الثلاثة وعشرين مليون زنجي ولاية أو أكثر كتعويض جزئي عما بذلوه أيام العبودية من دم وعرق لبناء هذه الأمة الثرية حيث إنها ما زالت تبرهن عن أنها لا تنوي قبول الزنوج كأشخاص متساوين. وكانت أمام المنصة الواسعة والعالية صورتان مكبرتان لإلايجا محمد في الحجم الطبيعي تقريباً. وكان حرس ثمرة الإسلام يقفون بين المنصة والجمهور ويتفرسون في الوجوه ويطلبون من الناس بين الفينة والأخرى في حزم أوراق تعريفهم

ويسألون: «من أي مسجد أيها الأخ؟» وكان المزيد من حراس ثمرة الإسلام يفتشون الشرفة الشاغرة والكواليس والطابق السفلي وخشب السقف والسطح.

كان شبح ملكوم إكس يحوم حول القاعة. وبدأ المؤتمر في جو درامي بالنسبة للمسلمين عندما صعد إلى المنصة ولاس ديلاني محمد ابن إلايجا محمد الذي كان قد ساند ملكوم إكس، ووقف أمام الجمهور طالباً العفو عن خطئه ثم تناول الكلام أخوا ملكوم إكس، رجلا الدين ويلفريد وفيلبرت ودعيا للوحدة مع إلايجا محمد. وقال ويلفريد إكس رجل دين مسجد دترويت: «سوف نكون جهلة إذا أشكلت علينا الأمور ودخلنا في الجدال والنزاع مع بعضنا البعض ونسينا العدو الحقيقي». وقال فيلبرت إكس رجل دين مسجد لانسينغ: «لقد كان ملكوم دمي ولحمي، كان قريباً مني... وصدمني ما آل إليه إذ أنه ليس هناك من يريد أن يرى أخاه يدمر ولكنني كنت أعرف أنه يسير بتهور في طريق خطير وقد حاولت رده إلى جادة الطريق وحاولت أن أبقيه على قيد الحياة عندما كان حياً أما وقد مات فلم يعد هناك ما يمكنني عمله. وأشار إلى إلايجا محمد وقال: «سأتبع هذا الرجل حيثما قادني ثم قدمه للجمهور ليلقي كلمته.

وبدأ إلايجا محمد يتكلم فلم يظهر منه إلا وجهه فوق الجدار البشري الذي يشكله حراس ثمرة الإسلام ذوو الوجوه الصارمة والذين كان من بينهم كاسيوس كلاي. وكان إلايجا محمد يلبس طربوشاً أخضر تلمع فيه أهلة ونجوم وأقمار وشموس مطرزة بخيوط ذهبية وقال في خطابه: «لقد وقف ملكوم إكس مدة طويلة في هذا المكان الذي أقف الآن فيه وكان وقتها آمناً ومحبوباً وكان الله نفسه يحفظه... لقد ترك ملكوم إكس مشاغله مدة تربو على الشهر وذهب إلى كل مكان، إلى آسيا وأوروبا وإفريقيا وحتى إلى مكة محاولاً أن يخلق لي الأعداء ثم عاد ليقول إن علينا ألا نكره العدو... وجاء إلى هنا منذ بضعة أسابيع يفور كراهية ويقذفني بكل ما يشين... إنا لم نفكر في قتله ولم نقتله. إنهم يعرفون أنني لم أؤذه. يعرفون أنني كنت أحبه. إن أفكاره الحمقاء هي التي قتلته...»

كان يبدو منهوكاً جسدياً وعاطفياً وانتابه السعال فقال له الجمهور: «هون عليك! خذ وقتك!». ثم قال: «لم يكن له أن ينبذني. لقد كان نجماً ضل طريقه!... إنهم يعرفون أنني لم أؤذ ملكوم ولكنه حاول أن يشن علي الحرب.» ثم قال إن جنازته كانت ستكون أعظم جنازة لو أنه بقي في صفوف المسلمين السود ومات ميتة طبيعية.

وزاد قائلاً: «ولكننا عوض ذلك نقف الآن على قبر منافق!... من هم هؤلاء الذين يتزعمهم؟ ويعلمهم؟ إنه لا يملك أية حقيقة! لم نفكر في قتله! ولكن أفكاره الحمقاء هي التي قضت عليه. إنني لن أسمح لزارعي الشقاق بإفساد الأشياء الجميلة التي أرسلها الله لي ولكم. واستجمع طاقته الواهنة وظل يخطب مدة تقارب الساعة والنصف تحدى فيها من يفكرون في قتله قائلاً: «إن من يسعى إلى إطفاء حياة إلايجا محمد يسعى إلى الهلاك! إن القرآن الكريم يأمرنا بعدم إثارة النزاع ولكنه يأمرنا أيضاً بالدفاع عن أنفسنا وسوف ندافع عنها!» ورجع إلى مقعده وجمهور المسلمين السود يقول برجاله ونساءه وأطفاله: «نعم، سيدي... ما أعذب هذا الكلام... المن كله لمحمد!».

في ذلك الوقت توقف صف المشيعين في دار جنازة الوحدة في هارليم بنيويورك ودخل الدار حوالي إثنا عشر شخصاً من بينهم رجل يلبس جلباباً أسود وعمامة بيضاء وتصل لحيته البيضاء إلى صدره ويحمل عصا ذات طرف متشعب، فهرع الصحافيون إليه ولكن أحد مرافقيه ردهم بإشارة من يده قائلاً: «في السكوت السلامة.» وكان ذلك الرجل هو الشيخ أحمد حسون وهو سوداني سني درَّس في مكة مدة خمس وثلاثين سنة والتقى فيها بملكوم إكس ثم لحق به في الولايات المتحدة ليكون مستشاره الديني ويدرس في مسجده. وشرع الشيخ حسون في تجهيز الجثة حسب التقاليد الإسلامية فخلع عنها الملابس الغربية التي كانت معروضة فيها وغسلها بزيت مبارك ثم لفها في القطع السبع التقليدية البيضاء التي تعرف بالكفن حتى لم يبق يظهر منها إلا الوجه بشاربه الأحمر ولحيته الحمراء الصغيرة، ثم وقف مرافقوه جنب التابوت وبدأوا يتلون آيات من القرآن ثم التفت إلى أحد ممثلي دار الجنازة وقال: «الجثمان الآن جاهز للدفن». وخرج هو وصحبه فاستمر دخول الجمهور. وعندما انتشر الخبر رجع من كانوا قد مروا أمام الجثمان ليروا الكفن الإسلامي.

وفي ذلك اليوم، يوم الجمعة جئت في ساعة متأخرة من الليل ووقفت في الصف البطيء وأنا أفكر في ملكوم إكس الذي عرفته عن قرب واشتغلت معه مدة تقارب السنتين. كان رجال الشرطة يظهرون بين الفينة والأخرى في لباسهم الأزرق وينظرون إلينا ونحن نزحف داخل الحاجز المصبوغ بالرمادي، وكان في الجهة المقابلة من الشارع رجال يطلون علينا من النافذة الجانبية لمحل حلاقة لون ستار من بينهم رجلا الدين المسيحيان إيدي جونز ووليام أشير، بينما كان بعض الصحافيين يتبادلون الحديث جنب الشرطة تمضية للوقت ثم وجدنا أنفسنا داخل الكنيسة الواسعة والهادئة

والباردة والتي تكتنفها إضاءة خفيفة. كان شرطيان داكنان وضخمان يقفان إلى جانبي التابوت الجميل وينظران معظم الوقت إلى الأمام، ولكنهما كانا يحركان شفتيهما كلما تباطأ أحد. في دقائق وصلت إلى التابوت ولمحت تحت غطائه الزجاجي الكفن الأبيض الدقيق الذي يلتف بالصدر ويرتفع كالقلنسوة حول الوجه الذي حاولت أن أركز عليه أطول مدة ممكنة، وأنا أقول في نفسي إنه هو ملكوم إكس والشرطي يقول لي: «تحرك» بصوت ناعم. بدا لي شمعيا وميتاً وبدأ الشرطي يشير إلي بيده في مستوى خصره أن تحرك فقلت لملكوم في نفسي: «وداعاً» وتحركت.

وعندما توقف الصف نهائياً تلك الليلة في الحادية عشرة، كان اثنان وعشرون شخصاً قد مروا أمام الجثمان. وبهدوء سارت عربة نقل الأموات بين منتصف الليل والفجر محاطة بإثنتي عشرة سيارة شرطة إلى معبد الإيمان في الشمال. وهناك سحب النعش إلى الداخل على عجلات ووضع فوق منصة أمام مذبح الكنيسة وعليه غطاء سميك من القطيفة الحمراء ورفع غطاؤه. وانسحبت العربة فبقيت الشرطة متحفزة داخل معبد الإيمان وخارجه والبرد شديد في الخارج.

وفي الساعة السادسة صباحاً بدأ الناس يتجمعون على جانبي شارع أمستردام وفي التاسعة أصبح الجمهور الواقف وراء الحواجز التي أقامتها الشرطة وفي نوافذ العمارات بالمناطق المجاورة يقدر بتسعة آلاف شخص، وكان البعض يقفون في سلالم الإنقاذ من الحريق ويرتعشون من البرد؟ وكانت الشرطة قد أغلقت الطرق المؤدية إلى ما بين النهجين ١٤٥ و١٤٩ فلم يعد يسمح بعبورها إلا لسيارات الشرطة والصحافة وشاحنات التلفزة والإذاعة التي كانت تنقل المراسيم مباشرة. كان رجال الصحافة يقدرون بالمئات وبعضهم في السطوح القريبة والصحافيون في حافة الطريق يحملون مكروفوناتهم وكراساتهم.

وقالت فتاة بيضاء في مقتبل العشرينات لمراسل نيويورك تايمز: «كان باهراً، كان رجلاً باهراً إلى حد مذهل، وهذا ما دفعني إلى حضور جنازته». وقالت له امرأة زنجية: «جئت لأقدم احتراماتي إلى أعظم رجل أسود عرفه هذا القرن. إنه أسود. لا تقل ملوناً.» ولاحظت امرأة أخرى خوذات في سيارة إحدى قنوات التلفزيون فضحكت وقالت لسائقها: «هل تستعدون للصيف القادم؟»

وعندما فتحت أبواب معبد الحرية في التاسعة وعشرين دقيقة دخله أعضاء منظمة

الآفرو أمريكيين المتحدين. وخلال الربع ساعة التالية بقوا يقودون المعزين البالغ عددهم ست مائة إلى مقاعدهم. وتجمع خمسون صحافياً ومصوراً ومصور تلفزيون عند جدار عليه رسوم دينية في نهاية مذبح الكنيسة وبعضهم يقف على الكراسي. كان تقني زنجي يضبط آلات التسجيل ويتحرك بين مذبح الكنيسة والنعش الذي كان يحرسه ثمانية من رجال الشرطة الزنوج وشرطيتان زنجيتان. وجلست الأخت بيتي في الصف الثاني بين شرطيين سريين زنجيين وهي غارقة في السواد. كان غطاء النعش المرفوع يخفي صندوق التبرعات النحاسية والشمعدان الكبير. وكان الشيخ الحاج داوود أحمد فيصل رئيس البعثة الإسلامية في أمريكا الموجود مقرها في بروكلين قد أفتى بأن إظهار أية عادات مسيحية في مراسيم الجنازة سيجعل الهالك كافراً. وكان قد قال إنه لا يوافق على عرض الجثمان على الجمهور وقال: «إن الموت مسألة خاصة بين المرء وربه».

وقبل أن يبدأ القداس جاء أعضاء منظمة الآفرو أمريكيين المتحدين بإكليل من القرنفل الأبيض على أرضية من القرنفل الأحمر منسق على شكل النجمة والهلال الإسلاميين.

وبدأ الممثل أوسي دايفيس وزوجته الممثلة روبي دي يقدمان برقيات التعازي الواردة من أهم منظمات الحقوق المدنية ومن شخصيات بارزة مثل الدكتور مارتن لوثر كينغ ومن هيئات وحكومات أجنبية مثل جمعية الطلاب الأفارقة والباكستانيين وطلاب جزر الهند الغربية بمعهد لندن للإقتصاد ومن المؤتمر الإفريقي لجنوب إفريقيا ومن السفير النيجيري الذي كان وقتذاك في بلده ومن رئيس جمهورية غانا الدكتور قوامي نكروما الذي قال في برقيته: «إن موت ملكوم إكس لن يكون عبثاً.»

ووقف عمر عصمان ممثل المركز الإسلامي بسويسرا والولايات المتحدة وقال: «لقد عرفنا الأخ ملكوم كأخ وشقيق وخاصة بعدما حج في العام الماضي. إن أسمى ما يطمح إليه المسلم هو أن يموت على أرض المعركة وليس في فراشه». وتوقف لحين انتهاء تصفيق المعزين ثم قال: «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً!» فاشتد التصفيق وارتفعت معه التعاليق: «صدقت! صدقت!» ثم علق على التصريح الذي أدلى به في واشنطن كارل روران مدير مصالح الإعلام الأمريكية حول رد فعل الصحافة الأجنبية على موت مالكوم إكس فاهتزت القاعة بالصفير.

ووقف الممثل أوسي دايفيس من جديد وقرأ بصوته الجهوري تأبيناً جعل زنوج

هارليم يخصصون له أكبر حماس عرفه في حياته. قال: «جاءت هارليم في هذه اللحظة إلى هذا المكان لتودع أحد آمالها المشرقة بعدما خبا ورحل إلى الأبد.... سيسأل الكثيرون عما تكرمه هارليم في شاب عرف بالإهتياج وإثارة الجدل والجرأة وسنبتسم... سيقولون مالكوم كان يدعو للكراهية وكان متعصباً وعنصرياً وأنه لم يكن في مستطاعه إلا أن يسيء إلى القضية التي تكافحون من أجلها! وسنرد عليهم قائلين: «هل كلمتموه؟ هل لمستموه؟ هل ابتسم لكم؟ هل سمعتموه؟ هل أساء لكم؟ هل كانت له علاقة بالعنف والإضطراب العام؟ إذا كان جوابكم عن كل هذه الأسئلة لا، فأنتم لم تعرفوه، ومن ثمة لن تعرفوا سبب تكريمنا له. ملكوم كان رمز الرجولة، رجولتنا السوداء الحية! وهذا ما كان يمثله في أعين بني قومه فنحن عندما نكرمه نكرم أحسن ما فينا وندرك أنه كان وما يزال أميراً، أميرنا الأسود المتألق الذي لم يتردد في أن يموت من أجلنا لأنه كان يحبنا حباً كبيراً.»

وتناول أخرون الكلمة مدداً قصيرة، ثم وقف أفراد العائلة وأعضاء منظمة الآفرو أمريكيين المتحدين والمسلمون في صف ليمروا أمام التابوت ويلقوا آخر نظرة على الجثمان وشرطيان سريان يرافقان الأخت بيتي التي انحنت على التابوت وقبلت غطاءه الزجاجي وهي تجهش. ولم يكن البكاء حتى ذلك الحين قد سمع في القاعة ولكن إجهاش الأخت بيتي أطلقه بين النساء.

وتلا الحاج هشام جابر الذي جاء من إليزابيث، نيوجرزي دعاء على أرواح أموات المسلمين استغرق ثلاث دقائق، وختمت به المراسيم التي دامت أكثر من ساعة وكان المسلمون بمجرد ما قال: «اللهم...» قد بسطوا أكفهم أمام وجوههم.

وانطلقت عربة نقل الموتى ووراءها ثلاث سيارات تابعة للعائلة وثمان سيارات تابعة للمعزين واثنتا عشرة سيارة شرطة وست سيارات صحافة يتلوها حوالي خمسين سيارة أخرى في موكب قطع ثمانية أميال خارج منهاتن ماراً بطريق نيويورك السيار لينعرج في منفذه السابع متوجهاً إلى مقبرة فيرنكليف بأردزلي، ولاية نيويورك. وكان على طوال مسافة الطريق زنوج يضعون أيديهم وقبعاتهم على قلوبهم تحية للجثمان وسيارات الشرطة ترابط في جسور مقاطعة نيويورك ورجال شرطة مقاطعة ويستشيستر يقفون على طول الطريق المؤدي إلى المقبرة.

وفي المقبرة أنزل النعش وتلا عليه الشيخ الحاج هشام جابر مزيداً من الدعوات

ثم أنزل في القبر ورأسه في اتجاه القبلة طبقاً للعادة الإسلامية وصلى عليه المسلمون، ثم انسحب أفراد العائلة أولاً ولكن أتباع ملكوم إكس لم يسمحوا لحفار القبور البيض الذين كانوا ينتظرون ويتابعون ما يجري من بعيد برد التراب في القبر. وبدأ سبعة من أعضاء منظمة الآفرو أمريكيين المتحدين يغرفون التراب بأيديهم ويرمونه على النعش، ثم جيئوا بمجارف فأخذوا ينقلون التراب ويملأون به القبر حتى صار كالأكمة الصغيرة. ونزل الظلام على جدث الحاج مالك الشباز الذي كان معروفاً بملكوم إكس وقبلها بملكوم ليتل والذي لقب بـ«الأحمر الكبير» وبـ«الشيطان» و«ابن البلد» وبألقاب أخرى، والذي دفن على الطريقة الإسلامية. وذكرت نيويورك تايمز أن القرآن يقول إن رفات الأموات يبقى في القبور حتى: «إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت». وأن الله سبحانه وتعالى يقول من عواقب ذلك اليوم: «إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم، ذق إنك أنت العزيز الكريم. إن هذا ما كنتم به تمترون» (. . .) «إلا عباد الله المخلصين أولائك لهم رزق معلوم، فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم على سرر متقابلين يطاف عليهم بكأس من معين إرضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون».

عندما وقّع ملكوم إكس على عقد هذا الكتاب حدق في وقال: «أريدك أن تكون كاتباً لا مترجماً». وقد حاولت أن أكتب حياته بتجرد. كان شعلة من نار وذلك ما زلت لا أستطيع أن أتصور أنه أصبح جثة فأشعر كأنه إنما مر إلى فصل موالي سيكتبه المؤرخون.

المحتويات

... وكان الأمريكيون
حتى البيض منهم
يقولون لي: "إنه الكتاب الذي
شعرت بالإنبهار وأنا أقرأه"
"قرأته!" "كتاب مذهل!".

من مقدمة المترجم

Designed & Printed By Idea Adv. 05 330363